

عَلَّمَ الْجَمَالَ لِلْغَوَى  
(المعاني - البيان - البديع)

(1)

تأليف  
 الدكتور محمد سليمان ياقوت  
 أستاذ العلوم اللغوية  
 كلية الآداب - جامعة طنطا

1990

## دار المعرفة الجامعية

٤٠ مسودة مستند الترابطية ت ٤٨٣.١٦٣  
٢٨٧ مسودة مقال السورين. إسطحي ت ٥٩٧٣١٤٦

حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَی اللّٰه عَمَلْکُمْ وَرَسُولْهُ  
وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

صدق الله العظيم





## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وبعد ..

فإن البلاغة العربية تضم ثلاثة من العلوم: المعانى والبيان والبديع، ولكل علم منها وجهة معينة فى البحث والدرس، نحاول الوصول خلالها إلى الجمال فى الأداء اللغوى من الناحية الصوتية أو التركيبية أو الدلالية، وذلك خلال الجانبين النظرى والتطبيقى. ومن هنا فقد وجدنا الكثير من الشواهد التى طيق عليها علماء البلاغة ما قدموه من إطار نظرى، ووجدنا أيضاً الكثير من المصطلحات البلاغية التى تنصرف - فى الأغلب الأعم - إلى تتبع الإبداع فى لغة النص، مع توضيحه بالشواهد والأمثلة والعبارات الافتراضية؛ بل إن تحديد مفهوم كل علم من تلك العلوم الثلاثة إنما هو تحديد لغوى. من أجل هذا كله نستطيع أن نقول إن البيان والمعانى والبديع تشكل علماً واحداً هو «علم الجمال اللغوى» الذى نحاول دراسته والتعرف عليه والكشف عن معالمة الأساسية، فى هذا الكتاب.

ويبدأ هذا الكتاب بتمهيد يدور حول البحث فى إعجاز القرآن الكريم وأثره فى نشأة ما اصطللنا على تسميته بعلم الجمال اللغوى. وقد عرضنا فيه لعدة موضوعات كالحديث عن التفسير والقراءات والصرف والنحو وسواها من العلوم التى نشأت من أجل فهم النص المقدس وتفهيمة، وما أشار إليه الزمخشري من جعله علمى المعانى والبيان مختصين بالكتاب العزيز مع ربطهما بالتفسير ربطاً علمياً دقيقاً فى كشافه. وتوقفنا أمام الشعر ومكانته فى الحياة الفكرية عند العرب، مع الاهتمام بما كتبه ابن رشيقي القيرواني ردّاً على من يكره الشعر، وكيف أن الإسلام لم يحارب الشعر والشعراء، وتفسير بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الخاصة بهما. وحاولنا - فى التمهيد - التعرف على الأعمال العلمية التى دارت حول الإعجاز، والموضوعات التى عرضت لها، ومن أهمها النظم القرآنى وتصرفه وخروجه عن المجهود المألوف من نظم جميع كلام العرب، مع الإشارة إلى أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه

التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة وسواها من الوجوه التي يشتمل عليها الكتاب العزيز. وقد بحث القدماء قضية الإعجاز في ضوء علوم البلاغة، وأشاروا خلال هذا البحث إلى بعض القضايا اللغوية والبلاغية التي تتصل بلغة القرآن الكريم، ومن أهمها:

١- ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه.

٢- نظم القرآن الكريم.

٣- أسرار فواخ السور.

ويدور الفصل الأول من هذا الكتاب حول «النقد اللغوي للشعر»، والذي دفعنا إليه تلك الحركة اللغوية التي قامت حول الشعر والشعراء، وحاولت الكشف عن المحاسن والمساوي في النص الشعري. وهناك الكثير من العلماء الذين كانت لهم آراء نقدية مهمة في مجال اللغة الشعرية، بل إن بعض الشعراء كالنابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ، وتأثيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وهو يتولى بيان ما فيها من عيوب في اللغة بجوانبها المختلفة. ومن أهم الموضوعات التي عرضنا لها في هذا الفصل دور الشعراء في النقد اللغوي، وتحكيمهم في الخصومات التي تنشأ من حين لآخر بين الشعراء بعضهم وبعض على نحو ما جرى بين الحطيئة والزريقان بن بدر الذي هجاه الحطيئة بعدة أبيات، وكشف حسان بن ثابت عما فيها من هذا الهجاء. وتوقفنا أمام موقف اللغويين من شعر معاصريهم، وما حدث من رفضهم لهذا الشعر حتى إن اللغوي قد يسمع أبياتاً وتنال استحسانه وإعجابه فإذا أخبر بأنها لواحد من معاصريه رفضها، وقد حاول ابن قتيبة أن يتخلص من التعصب للقدماء ضد المحدثين وأن يسوّى بينهما في دراسته للشعر والشعراء، ولكنه لم يفعل إلا قليلاً؛ لأنه حرم على المحدثين الخروج عن مذاهب المتقدمين في بكاء الأطلال ووصف الناقة والورود على المياه الآسنة وغير ذلك.

وقد توقفنا فى هذا الفصل أمام ما يتصل بالأصوات فى النقد اللغوى، وقبل الدخول فى الحديث عن الانتقادات التى وجهت للشعر فى ضوء الأصوات عرضنا لما قاله ابن سنان الخفاجى عن مفهوم «الصوت» عند علماء الدراسات النقدية والبلاغية واللغوية، مع الاهتمام ببيان عدم وجود صوت مفرد جميل أو حسن وآخر قبيح أو ردى، إذ إن الطاء - مثلاً - ليست بأجمل من الميم أو العكس؛ لأن الجمال والقبح يردان إلى السياق العام؛ بالإضافة إلى ما يتصل بالألفاظ فى أصل وضعها اللغوى من حيث عدم الجمع بين أصوات بعينها. ودرسنا التنافر الذى يأتى من تكرار أصوات بعينها، والكراهة فى السمع الذى يؤدى إلى أن تجمّع الكلمة، ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، ومما يتصل بالكراهة فى السمع والثقل على اللسان ما أشار إليه علماء البلاغة من كثرة عدد الأصوات المفردة التى تتشكل منها اللفظة، وقد درسنا ذلك مع الإشارة إلى ما يتصل بـ «الأوزان الشعرية» من عيوب تندرج تحت الأصوات.

وبعد أن انتهينا من العرض للعيوب والانتقادات المتصلة بالأصوات حاولنا التعرف على جانب آخر يرتبط بالنقد اللغوى ارتباطاً مباشراً وهو ما يتصل بالتركيب النحوى، أو بناء الجملة فى الشعر. وهناك الكثير من الظواهر اللغوية التى عرض لها النقاد والبلاغيون والنحاة حين درسوا التركيب وما فيه من عيوب، وقد بدأنا بالحديث عن «التقديم والتأخير» الذى يؤدى إلى الإبهام والغلط فى الدلالة أو المعنى إذا أخفق الشاعر فى توظيفه وتوظيفاً جيداً، ثم عرضنا لبعض الشواهد التى لها رواج معين فى باب التقديم والتأخير مع الاهتمام بتفسيرها وإعادة ترتيبها للكشف عن معناها. وبعد ذلك درسنا «الفصل» الذى يحدث بين العناصر النحوية المتلازمة ويؤدى إلى القبح فى النظم والصعوبة فى التوصل إلى المعنى، ومن أشهر مواطن الفصل التى أشار إليها العلماء ذلك الذى نجده بين المضاف والمضاف إليه، وحرف الجر والاسم المجرور، والحروف التى لا يليها إلا الفعل فى سعة الكلام والفعل، والأعداد والتمييز المنصوب، والصفة والموصوف، والمعطوف والمعطوف عليه وسواها. ومن الظواهر اللغوية ذات الارتباط المباشر بالتركيب أو بناء الجملة الإعراب،

وقد وقع الشعراء فى بعض الأخطاء المتصلة به، وتعيها العلماء، ومن أهم تلك الأخطاء تسكين ما كان ينبغي له أن يحركه، وترك التنوين مع المصروف من الأسماء، والحمل على الموضع، والإقواء أو اختلاف الإعراب فى القوافي، وقد عرضنا لها مع الاستشهاد عليها. ومما له صلته بتلك الظواهر اللغوية الحذف وغيوبه كترخيم الاسم فى غير النداء؛ بالإضافة إلى نوع من الحذف يؤدى إلى الإخلال بمعنى الكلمة، ويتصل بها أيضاً تكرار العناصر النحوية التى تؤدى إلى ضعف العمل الفنى، ومن أمثلة ذلك كثرة استعمال المتنبي لاسم الإشارة «ذا» فى شعره.

ومن الموضوعات المرتبطة بالنقد اللغوى للشعر «الدلالة» التى وجه العلماء إليها عدة انتقادات نحو ما أطلقوا عليه اسم التناقض فى الدلالة، وفساد التفسير، والتناقض من جهة الفنية والعدم، والتكلف فى طلب الثقافية، والإخفاق فى التعبير عن المعنى، والخطأ فى الدلالة، والخروج عن الاستعمال السياقى للألفاظ، وعدم موافقة المعجم اللغوى لألفاظ الشعر كلام العرب، وغيوب المعانى، والسرقات الشعرية لبعض المعانى، والتضمين الذى يعرفونه بأنه تمام وزن البيت قبل تمام المعنى. وبعد أن درسنا تلك العيوب توقفنا أمام سنن العرب والدلالة، والمقصود بذلك أهمية الإلمام بالمعادات والتقاليد العربية حين دراسة الشعر؛ لأنه يساعد فى الوصول إلى المعنى الذى يريده الشاعر، وتوقفنا أيضاً أمام التعليل الدلالى لأسماء الشعراء وألقابهم كالمرقش وصناجة العرب والفحل والمستوغر وسواها.

ومن الظواهر ذات الصلة بالنقد اللغوى للشعر تلك الأحكام التى أطلقت على الشعراء، والمقصود بذلك أن تاريخ النقد العربى عرف مجموعة من الأحكام تخاول بيان مقدرة الشاعر الفنية وتفوقه على غيره، وقد احتوت تلك الأحكام على بعض الجوانب اللغوية؛ خاصة فيما يتصل بالنظم والدلالة؛ لذلك وجدنا ألفاظاً وعبارات من نحو عدم المعازلة بين القول، وعدم اتباع حوشى الكلام، وجودة المقاطع وسواها، وقد درسنا تلك الأحكام مع بيان صلتها بالأداء اللغوى. وقد اهتم القدماء بالحديث عما أسموه «أدوات الشعر» وهى - فى مجملها - مجموعة من الأدوات اللغوية التى تفيد فى التعرف على الإطار الذى دار حوله النقد اللغوى؛

لذلك تناولنا تلك الأدوات بالدراسة التفصيلية مع الاهتمام بما أطلقوا عليه «آداب الشاعر».

وختمنا الفصل الأول من هذا الكتاب بالعرض لـ «عمود الشعر» خلال التعرف على التطور التاريخي لاستعمال تلك العبارة في الدراسات النقدية والبلاغية حتى صار الحديث عن «عمود الشعر» نظرية واضحة المعالم عند المرزوقي في مقدمته لشرح ديوان الحماسة.

ويدور الفصل الثاني حول «المصطلحات البلاغية وعلاقتها بالأداء اللغوي»، والمقصود بذلك أن البلاغة العربية لها مجموعة من المصطلحات الفنية الخاصة بها التي اكتسبت مدلولاً معيناً في إطار البحث فيها والدراسة لها، وحين النظر في تلك المصطلحات نجد بها عدة جوانب تتصل بالأصوات والتراكيب والدلالة اتصالاً مباشراً؛ بالإضافة إلى أن المصطلحات الأساسية كالبلاغة والفصاحة والمجاز والمعاني والبيان والبدیع تتضمن في تعريفها تلك الجوانب اللغوية المتصلة باستعمال «اللغة» بواسطة «المتكلم السامع المثالي»، وقد حاولنا الكشف عن هذا كله.

وقد بدأنا بمصطلح «البلاغة» ومفهومه في اللغة والاصطلاح، وتبعنا آراء القدماء في تعريفها خاصة ابن المقفع الذي حدد وجوهها في تسعة هي السكوت، والاستماع، والإشارة، والاحتجاج، والجواب، والشعر، والسجع، والخطب، والرسائل، ثم توقفنا أمام صحيفة بشر بن المعتمر في البلاغة التي احتوت على الكثير من النقاط ذات الصلة باستعمال اللغة والتوفيق في ذلك بلاغياً. وقد اهتم علماء البلاغة، وعلى رأسهم الجاحظ، بالأداء الصوتي الذي يعد جزءاً من أدوات الخطيب الماهر؛ لذلك اهتموا بالوقوف أمام عيوب النطق وأمراض الكلام؛ لأنها تؤدي إلى استهجان الجمهور للخطيب وعدم الإقبال عليه، وهذا التوقف يندرج تحت التعريف بمصطلح البلاغة في الدرس العربي؛ لذلك تناولنا تلك العيوب والأمراض بالعرض التفصيلي.

وتوقفنا أمام مفهوم «الفصاحة» في اللغة والاصطلاح، وفصاحة اللفظ المفرد وشروطها التي وصل بها ابن سنان الخفاجي إلى ثمانية كتأليفها من أصوات

متباعدة فى الخارج، وأن تجد لتأليفها فى السمع حسناً ومزية على غيرها، وأن تكون الكلمة غير متوعدة وحشية، وأن تكون غير ساقطة عامية، وأن تكون جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة، وألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره وغير ذلك.

ويتصل «المجاز» بالاستعمال اللغوى اتصالاً مباشراً، وقد حاولنا التعرف على ذلك، وبدأنا بكتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة ومفهوم المجاز عنده، وانصرف هذا المفهوم إلى الحذف، والاختصار، والتذكير والتأنيث، والمفرد والمثنى والجمع، وتعدد وجوه الإعراب، وتعدى الفعل ولزومه، وإحلال صيغة صرفية محل أخرى، والاختلاف فى تأويل معانى المفردات، والتقديم والتأخير، والتكرار، وزيادة الحروف. وبعد تلك المحاولة للتعرف على مفهوم المجاز ومجالاته اللغوية عند أبى عبيدة توقفنا أمام المصطلح عند أهل البلاغة مع الاهتمام بما كتبه يحيى العلوى عنه، إذ إنه حصر مجالات المجاز فى خمسة عشر أمراً، منها تسمية الشئ باسم الغاية التى يصير إليها، وتسمية الشئ بما يشابهه، وتسمية الشئ باسم قابله، والمجاز بالزيادة والنقصان وسواها. وبعد هذه المحاولة للتعرف على الصلة بين المجاز والأداء اللغوى، عرضنا لثلاثة مصطلحات تكون معاً «علم البلاغة العربى» هى المعانى والبيان والبديع.

وقد ختمنا هذا الفصل بالتعرف على صلة المصطلحات البلاغية بما فى الدراسات اللغوية المعاصرة من التحليل للغة خلالها مستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية.

ويدور الفصل الثالث من هذا الكتاب حول «علم الجمال الصوتى» وهو أحد فروع علم الجمال اللغوى، وقد توقفنا فى بدايته أمام بعض الحقائق المتصلة بالجمال فى الأداء الصوتى كقلة عدد الحروف، وسهولة المخرج، والسلامة من التكلف، والطلاقة حين التعبير، ويؤدى هذا الأداء إلى سرعة الدخول المعنى للقلب والعقل؛ لأن الأذن تلتذذ وترتاح إليه. وتوقفنا أيضاً أمام اللحن العربى للكلام وانقسامه إلى ثلاثة أقسام: الواسع، والمتوسط، والضيق، وربط القدماء من العلماء

العرب الأداء العربى للكلام الذى يتصل بطبقة الصوت من حيث العلو والانخفاض بالحالة التى عليها المتكلم من حيث الغضب أو الخوف أو الحزن أو غير ذلك.

وهناك الكثير من الموضوعات التى عرفتها البلاغة، ويمكن دراستها فى ضوء ما يتصل بالجمال فى الأصوات، وقد بدأنا بالحديث عن «أوزان الشعر العربى»، والوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة؛ بل إنهم عرفوا الشعر بعدة تعريفات من بينها أنه الكلام الموزون المقفى الدال على معنى، ويؤدى إلى الجمال الفنى مع تحقيق الموسيقى التى يحسها كل من المتكلم والمستمع، أو المبدع والمتلقى؛ لذلك عالجتنا ما يتصل بالوزن كالحديث عن بحور الشعر العربى والتعليلات الصوتية التى جعلتنا نطلق على بحر اسماً دون آخر، والصلة بين الأوزان وأغراض الشعر، ونعوت الأوزان وسواها. ولملح مما يتصل بتلك النعوت ما أشار إليه العلماء من «الترصيع» فى الشعر الذى يقابل «السجع» فى النثر؛ لذلك حين عرفوا الترصيع قالوا أن يتوخى فيه تصوير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع، أو شبيه به، أو من جنس واحد فى التصريف، وقد درسنا ما يتصل به بالتفصيل.

والقافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية، والقوافى هى التى فصلت بين الكلام والشعر؛ لأنه قد يقع الوزن فى الكلام ولا يسمى شعراً حتى يقفى، وهى تعد العلم الذى يضبط الموسيقى الظاهرة فى الشعر، ولا بد من معرفتها والإلمام بها حتى يمكن أن نتوصل إلى النسق الذى يسير عليه الشعر العربى؛ لذلك عرضنا لما يتصل بها من موضوعات بالدراسة والتحليل كتعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، والإيغال، والأسماء التى تطلق على القافية، والجمال الصوتى الذى تخلعه على القصيدة، وحروف القافية الستة: التأنيس والدخيل والرؤف والروى والوصل والخروج، وتحديد حرف الروى، وأنواع القافية وغير ذلك.

ومن الظواهر اللغوية التى تخلع الجمال على النصوص النثرية «السجع»، وقد اهتم به علماء البلاغة لأصائله فى التعبير فى اللغة العربية منذ العصر الجاهلى؛

فنجده الأسلوب الذى اختارته العرب فى الجاهلية، وتمسك به بعضهم، وبلغ درجة من الشيوع فى الاستعمال حتى قيل بأسبقية وجوده على الشعر، وبأنهم عرفوه قبل أن يصطنعوا تلك البحور المقيسة؛ لذلك كان رجالات العرب وقضاتهم فى الجاهلية يحكمون وينفرون بالأسجاع. ومع التطور الهائل الذى شمل كل مظاهر الحياة فى العصر العباسى أصبح السجع واحداً من الظواهر الصوتية التى تطبع الأداء اللغوى عند كُتّاب الرسائل، وفى الخطب، وحاول الكثيرون الالتزام به، ولكن دون تكلف. وقد درسنا ما يتصل بالسجع فتوقفنا أمام أقسامه، وشروط جماله عند النقاد والبلاغيين، والسجع فى القرآن الكريم وآراء العلماء فى ذلك.

ويدور الفصل الرابع من هذا الكتاب حول «علم الجمال التركيبى»، وهو أحد فروع علم الجمال اللغوى، وقد عرضنا فى بدايته للسياق ودوره فى جمال النص، ويعد «السياق» أساس علم الجمال التركيبى، ونعنى به هاهنا الأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية التى تلتحم فيما بينها؛ لتكوّن سياقاً لغوياً نستطيع أن نحكم عليه بال جودة أو الرداءة حسب معايير نقدية معينة، وقد عبّر القدماء عن السياق باسم «النظم»، ورأىهم فى هذا المجال عبد القاهر الجرجاني.

ومن أول الموضوعات التى عرضنا لها فى هذا الفصل «الحذف» والبلاغة التى يخلعها على النص أو العمل الفنى، وقد ربطناه بسياق الحال، وأسباب النزول، والحوار الذى جاء فى بعض الآيات. ثم توقفنا أمام «الإيجاز»، وقبل الدخول فى دراسته حاولنا التعرف على حده عند القدماء من العلماء العرب، خلال بعض الأمثلة التى توضح المقصود به فى الأداء اللغوى، ومن أهمها قوله تعالى: (ولكم فى القصص حياء) الذى قارنه البلاغيون بقول العرب «القتل أنفى للقتل» من حيث الإيجاز. وقد درسنا بالتفصيل قسمى الإيجاز وهما «إيجاز القصر» و «إيجاز الحذف» مع الاهتمام بالحذف عند النحاة.

ومن الموضوعات المتصلة بالجمال فى التركيب «الفصل والوصل» الذى لفت نظر علماء البلاغة منذ المراحل الباكرة، حتى إن بعضهم عرف البلاغة بأنها «معرفة الفصل من الوصل»، ويعود السبب فى ذلك إلى غموضه ودقة مسلكه، وأنه



لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة - كما يقول عبد القاهر - في تعليقه على هذا التعريف. ومن أهم النقاط التي عرضنا لها حين الحديث عنه محاولة معرفة التعليقات التي قدمها العلماء للفصل والوصل في النصوص المختلفة وما فيها من الجمال، ومن ذلك حديثهم عن «مقام المحادثة» وما يندرج تحته من الحوار، والقطع والاستئناف.

وتوقفنا أمام «الالتفات» وبداية تنبه العلماء له، وعلى رأسهم الأصمعي الذي قال لإسحاق الموصلي: أتعرف التفات جرير؟ فقال له: وما هو؟ فأئشده:

أَتَنسَى إِذْ تَوَدَّعْنَا سُلَيْمَى      بَعُودِ بِشَامَةِ مَقَى الْبِشَامِ

ثم قال الأصمعي: أما تراه مقبلاً على شعره؛ إذ التفّت إلى البشام فدعا له. وقد جمعنا بعض التعريفات التي وضعها القدماء للالتفات، ثم درسنا الشواهد والأمثلة الخاصة به، مع تفسيرها في ضوء الأداء اللغوي كالتحويل حين استعمال الضمائر من الغيبة إلى الخطاب، أو العكس، وخطاب النفس أو الحكاية، والانتقال من صيغة فعلية إلى أخرى؛ بالإضافة إلى الالتفات المتصل بالمعنى، فقد يكون الشاعر - مثلاً - يتغزل ويصف نفسه بالإفراط في الرقة والصبابة فيتوقع أن يظن ظان أن ذلك لضعف نفسي منه، فيلتفت إلى ما يدرأ عنه ذلك الظن، ويشير إلى ما يدل على ذلك بلفظ مختصر يلحقه في تضاعيف كلامه أو عقبه.

ويتصل بالجمال في التركيب «الإطناب» الذي يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضيع التي يحسن فيها ذكر التفصيل، وقد قارنه البلاغيون بالتطويل فأشاروا إلى أن الإطناب من مواضع الجمال في حين أن التطويل عيب وعي، وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة التي أتى بها البلاغيون للإطناب، وهي مأخوذة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، وقد درسناها بالتفصيل للتعرف على المقصود بالإطناب في البلاغة العربية. وهو يأتي على أنواع مختلفة كالإيضاح بعد الإبهام، وذكر الخاص بعد العام، وذكر العام بعد الخاص، والتكرير، والإيغال، والاعتراض، والاحتراس، والتذييل، وعرضنا لتلك الأنواع خلال الجانبين النظري والتطبيقي.

ومن موضوعات علم الجمال التركيبي «النكرة والمعرفة» وما يتصل بهما من القضايا اللغوية التي كانت مشتركة بين النحاة والبلاغيين، وإن اهتم البلاغيون أكثر بالحديث عن التعبير بالنكرة وكيف يؤدي إلى الجمال في النص، والوضوح في الدلالة كما في قوله تعالى: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» وما يتصل به من تنكير كلمة «حياة». وقد درسنا ما يتصل بالنكرة والمعرفة، وبدأنا بما ورد عند الرمخشري من نصوص يحلل التعبير بهما في الكتاب العزيز، ثم تعرفنا على دور «تعريف المسند إليه» في الجمال خلال تعريفه بالإضمار، والعلمية، والموصولية، والإشارة التي درسنا فيها ما يتصل باللغة الجانبية وما قاله القدماء من أنه «رب إشارة أبلغ من عبارة».

ومن الأساليب البلاغية المتداولة في اللغة العربية «أسلوب القصر» الذي يعرف بأنه تخصيص شيء بطريق مخصوص، عن طريق بعض الطرق، وقبل الدخول في عرضنا لها أشرنا إلى بعض الملاحظات المتصلة بهذا الأسلوب، ويأتي على رأسها بيان دور سيبويه في الحديث عنه، وكيف أنه يأتي في مقدمة الذين نبهوا إليه حين حلل قولهم «شيء ما جاء بك» وقال إن أصله «ما جاء بك إلا شيء»، ومن تلك الملاحظات صلة القصر بالدلالة، والتقديم والتأخير، وارتباط القصر بحال المخاطب وغير ذلك. ثم توقفنا أمام طرق القصر في الجملة التي هي عبارة عن مجموعة من الأنماط النحوية كالنفي والاستثناء، وإنما والتقديم لما يستحق التأخير وغيرها.

ويتصل بالجمال في التركيب النحوي للجملة استخدام التوكيد بواسطة «إن» على أساس وجود خبر في الجملة السابقة يتلقاه السامع وهو متحير، ويأتي التوكيد ليزيل ذلك كما في قول بشار:

بُكَرَا صَاحِبِيْ قَبْلَ الْهَاجِرِ      إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبَكِيرِ

وقد درسنا هذا الاستخدام لـ «إن» في ضوء تحليل بعض الشواهد التي وردت في كتب الدراسات النقدية والبلاغية.

وبعد «الاتساع» واحداً من العمليات التحويلية التي تطرأ على العبارات

والتركيب النحوية، ويعرفه المحدثون من علماء اللغة بأنه عملية نحوية تأتي عن طريق إضافة بعض العناصر الجديدة إلى المكونات الأساسية دون أن تتأثر تلك المكونات. وقد عرضنا للاتساع عند البلاغيين والنحاة ومفهومه عند كل طائفة منهما.

ومن الأساليب التي نالت اهتمام علماء النحو والبلاغة «أسلوب الإنشاء»، وهو كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، والسبب في ذلك يعود إلى أن مدلول لفظه قبل النطق به ليس له وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه؛ لذلك قال الشريف الجرجاني: «الإنشاء قد يقال على الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه». وهو ينقسم إلى قسمين: الإنشاء الطليعي، والإنشاء غير الطليعي، ويشمل الأول التمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء، ويشمل الثاني صيغ المدح والذم والتعجب والقسم والرجاء وصيغ العقود وسواها. وقد درسنا هذا كله بالتفصيل.

ومن الظواهر اللغوية التي تطبع التركيب النحوي للجملة العربية تقديم ما حقه التأخير، أو العكس، لبعض الأغراض المعنوية. وقد أشار سيبويه في كتابه إلى بعض الشواهد المتصلة بتلك الظاهرة، وتبعه جيل من علماء النحو والبلاغة الذين توسعوا في دراسة التقديم والتأخير من حيث التطبيق في النصوص الشعرية والنثرية، وأشاروا إلى أنه دليل على تمكن العزب ومقدرتهم على التصرف في فنون القول وامتلاكهم لناصية اللغة. وقد درس علماء البلاغة بعض أبواب النحو دراسة تطبيقية في ضوء التقديم والتأخير؛ وذلك نحو تقديم المسند إليه على المسند، وتقديم المسند على المسند إليه، وتقديم متعلقات الفعل عليه. وقد عرضنا لهذا كله خلال الجانبين النظري والتطبيقي.

واهتم علماء البلاغة بدراسة «الضمائر» واستعانوا في تلك الدراسة بمعطيات النحاة مع ربطها بالجمال في النص الأدبي، ومن ذلك حديثهم عن «ضمير الشأن» و «الفصل» وتوكيد الضمير والتعبير بالاسم الظاهر بدلاً من الضمير. وقد درسنا ما يتصل بالضمائر بين علماء النحو والبلاغة.

وبعد التكرار واحداً من الظواهر اللغوية التي نجدتها في الألفاظ والتركيب

والمعاني؛ لتحقيق البلاغة في التعبير والتأكيد للكلام والجمال في الأداء اللغوي والدلالة على العناية بالشئ الذى كُرِّرَ فيه الكلام. وقد ورد التكرار فى أى الذكر الحكيم والحديث الشريف والشعر العربى؛ لذلك نال اهتمام علماء الدراسات النقدية والبلاغية وسواهم. وقد تناولنا التكرار بالعرض التفصيلى الذى يركز على الجانب النظرى والتطبيقى، وهو آخر الموضوعات التى درسناها فى «علم الجمال التركيبى».

ويدور الفصل الخامس من هذا الكتاب حول «علم الجمال الدلالى»، وقد درسنا فيه موضوعات ستة، مع التمهيد لها بالعرض لمفهوم «الدلالة» عند القدماء، وقد جاءت تلك الموضوعات على النحو الآتى.

١ - العلاقة بين اللفظ والمعنى: هناك الكثير من القضايا التى دار حولها حديث القدماء عن اللفظ والمعنى، وقد حاولنا التعرف على العلاقة بينهما فى حديثهم هذا، وبدأنا بالجاحظ الذى فصل بينهما حين جعل للألفاظ جهابذة يهتمون بها، وللمعاني نقاداً يرجع إليهم، وتوقفنا أمام حديث ابن قتيبة عن أضرب الشعر الأربعة على نحو ما عرضه فى كتابه (الشعر والشعراء)، واللفظ والمعنى عند ابن المعتز فى كتابه (البديع)، وقدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر)، وإسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب فى كتابه (نقد النثر) وهو منسوب خطأ إلى قدامة، واللفظ والمعنى فى (الصناعتين) و (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) و (سر الفصاحة) و (دلائل الإعجاز).

٢ - فى ائتلاف اللفظ والمعنى: نظر علماء الدراسات النقدية والبلاغية فى اللفظ والمعنى وتوظيفهما فى النص الأدبى، واستطاعوا التوصل إلى بعض الأنواع من الائتلاف بينهما، وهى تؤدى إلى تحقيق الجمال فى الدلالة التى هى جزء من السياق العام أو النظم، ومن أنواع الائتلاف:

أ- ائتلاف اللفظ مع المعنى.

ب- اتفاق اللفظ مع اللفظ.

ج- ائتلاف المعنى مع المعنى .

وقد درسنا هذا كله بالتفصيل .

٣- نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى: توقف علماء البلاغة أمام أنواع الائتلاف بين اللفظ والمعنى التى أشرنا إليها ، وتوصلوا إلى بعض الجوانب الدلالية التى تؤدى إلى الجمال فى العمل الفنى ؛ لذلك أطلقوا عليها اسم «النعوت» ، ومن أهم تلك النعوت المساواة والإشارة والإرداف والتمثيل ، وقد عرضنا لها بالدراسة التفصيلية .

٤- قوة اللفظ لقوة المعنى: يرى القدماء أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نُقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ أدلة على المعانى وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد فى الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعانى . ومن أمثلة ذلك دلالة كل من الفعلين «خشن» و «اخشوشن» ؛ فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير الشين وزيادة الواو. وقد حاولنا التعرف على ما يقصده القدماء من الحديث عن قوة اللفظ لقوة المعنى .

٥- طرق الأداء الدلالية: هناك ثلاثة من الموضوعات لها صلتها الوثيقة بالمعنى هى التشبيه والاستعارة والكناية، ويعود السبب فى تلك الصلة إلى أن علماء البلاغة حين عرّفوا كل واحد منها بنجد «المعنى» يشكل محوراً أساسياً فى هذا التعريف؛ بالإضافة إلى أن أثر التشبيه أو الاستعارة أو الكناية فى النص بنجد واضحاً فى جانب المعنى أكثر من غيره من جوانب اللغة كالأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية؛ لذلك حين شرعنا فى الحديث عن طرق الأداء والدلالى رأينا العرض لها فى ضوء التشبيه والاستعارة والكناية .

٦- المحسنات المعنوية واللفظية: طرق علماء البلاغة الكثير من الموضوعات ذات الصلة بالمحسنات المعنوية واللفظية، ومن تلك الموضوعات المطابقة والمبالغة والإغراق والغلو والتورية والالتفات والجناس والسجع وسواها، وقد درسنا التضاد على أنه من المحسنات المعنوية، والجناس على أنه من المحسنات اللفظية .

وبعد فهذه محاولة قمتُ بها جاداً مخلصاً، فإن كانت نافعة فيها ونعمت، وإن كانت الأخرى فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والله وحده ولى التوفيق ،

**محمود سليمان ياقوت**

الجمعة : غرة رمضان المبارك ١٤١٤ هـ

١١ من فبراير ١٩٩٤ م

تمهيد  
الكشف عن الإعجاز القرآني  
ونشأة علم الجمال اللغوي





عرفت الحياة الفكرية عند القدماء من العلماء المسلمين الكثير من العلوم التي دارت حول القرآن الكريم من أجل فهمه وتفهمه، ومن بينها التفسير والقراءات والصرف والنحو وسواها؛ بالإضافة إلى الاهتمام باللفظة القرآنية الكريمة من حيث دراسة الغريب وتقديم بعض المعاجم الخاصة به على نحو ما فعل الراغب الأصفهاني في كتابه التتميز في موضوعه (المفردات في غريب القرآن). ومن العلوم التي اتصلت بالكتاب العزيز اتصالاً مباشراً «علم البلاغة»؛ إذ إن هذا العلم اهتم بالكثير من القضايا القرآنية، ويأتى على رأسها محاولة التوصل إلى الأسباب اللغوية وغير اللغوية التي جعلت القرآن الكريم معجزاً في نظمته وبيانه، والذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة هذا الإعجاز أن نبوة رسولنا ﷺ أساسها تلك المعجزة، وإن كان قد أيد - بعد ذلك - بمعجزات كثيرة، ولكنها قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة؛ لذلك وجدنا بعض المؤلفين يتخذ من أحد فروع البلاغة مجالاً للتطبيق في القرآن، ومن أولئك ابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥ - ٦٥٤هـ) صاحب كتاب (بديع القرآن). ووجدنا الزمخشري في كشفه يجعل من علمي «المعاني» و «البيان» مختصين بالكتاب العزيز مع ربطهما بعلم «التفسير». يقول الزمخشري: «إن أملاً العلوم بما يثمر القرائع، وأنهضها بما يبرر الألبياب القوارح، من غرائب نكت يلفظ مسلكها، ومستودعات أسرار يديق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتابه (نظم القرآن)؛ فالفقيه وإن برز على الأفقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية<sup>(١)</sup> أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان من سيبويه أنحى، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شئ من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان،

(١) ابن القرية: أحد فصحاء العرب، واسمه أبوب، والقرية اسم أمه، وهي في الأصل حويصلة الطائر.

وهو من الحفاظ، نقل الكتب القديمة إلى العربية، وقد قتله الحجاج.

ونمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله<sup>(١)</sup>. ومن هنا احتل تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف مكانة فريدة في مكتبة الدراسات القرآنية؛ لأن الرجل استطاع بذوقه البلاغي، وحسه الجمالي المرفه، وقدرته على فقه الأساليب العربية الرفيعة، وتمكنه من علوم العربية المختلفة أن يقدم عملاً عملياً لقي إعجاب علماء المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم، على الرغم مما يشوب هذا التفسير من بعض الفكر الاعتزالي.

وإذا كان لكل نبي معجزة تدل على صدقه؛ فإن القرآن الكريم هو المعجزة الشاهدة على صدق الرسول ﷺ، وهي أعظم من المعجزات السابقة عليها، بل أعظمها على الإطلاق؛ لذلك يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ؛ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي؛ فهو أوضح دلالة لامتداد الدليل والمُدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر وضوحاً، فكثير المصدق المؤمن، وهو التابع والأمة<sup>(٢)</sup>.

ومن المعروف أن العرب اشتهروا بالفصاحة والبيان؛ لذلك احتل الشعر مكانة

(١) الكشاف: ١/ ١٥ و ١٦.

(٢) المقدمة: ٩٥. ويمكن تعريف المعجزة بأنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية. وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لغرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولقاء المعجزات العقلية إلى يوم القيامة.

تمتيزة في الحياة الفكرية عندهم، وهو ديوان العرب، وهو علم قوم لم يكن لديهم علم غيره؛ لذلك عقدوا له الأسواق، ومن أهمها «سوق عكاظ» بجوار مكة، وكان هناك تنافس شديد بين الشعراء. وقد كانت لدى العرب المقدرة على تدقيق الأساليب الرفيعة وفهمها والتوصل إلى ما فيها من بيان؛ حتى إن الوليد بن المغيرة المخزومي حين استمع إلى بعض آي الذكر الحكيم لم يستطع إنكار إعجابه ببلاغته وبيانه، وقال لقومه من بني مخزوم: «والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن؛ إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمشر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلو». ونظراً لتلك المكانة التي احتلها الشعر في العصر الجاهلي حرص القرآن الكريم على أن ينفي صفة الشعر عن الرسول ﷺ. قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لتذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين)<sup>(١)</sup>. ولكن هل نفي تلك الصفة معناه أن الإسلام قد حارب الشعر والشعراء؟ لقد عقد ابن رشيقي (أبو علي الحسن ابن رشيقي القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) باباً في كتابه (العمدة) عنوانه «في الرد على من يكره الشعر» فيه الإجابة الشافية عن هذا السؤال؛ لذلك نقدمه هاهنا<sup>(٢)</sup>.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه». وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الشعر كلام؛ فمن الكلام خبيث وطيب». وقالت عائشة رضي الله عنها: «الشعر فيه كلام حسن وقبيح؛ فخذ الحسن وارك القبيح». ويرى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه» وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الشعر ميزان القول» ورواه بعضهم: «الشعر ميزان القوم». وروى ابن عائشة يرفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها، وتسلُّ

(١) يس / ٦٩ و ٧٠.

(٢) العمدة: ٩ - ١٢ من الجزء الأول.

به الضغائن من بينها»، وأنشد ابن عائشة قول أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

قُلْدْتُكَ الشَّعْرَ يَا سَلَامَةَ      فَاتَّشَ، وَالشَّيْءُ حَيْشًا جُمَلَا  
وَالشَّعْرُ يَسْتَنْزِلُ الْكَرِيمَ كَمَا      يُنْزِلُ رَعْدُ السَّحَابَةِ السَّيْلَا<sup>(١)</sup>

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر رضی الله عنهما قالت: «مرُّ الزبير بن العوام رضی الله عنه بمجلس لأصحاب النبی ﷺ وحسان ينشددهم، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من ابن الفريعة، لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده». ويروى أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه مرُّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد الرسول ﷺ، ثم قال: أرغاء كـرغاء البكر، فقال حسان: دعني عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك، فقال: صدقت. وكتب عمر بن الخطاب رضی الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: مرُّ من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصابو الرأي، ومعرفة الأنساب. وقال معاوية رحمه الله: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعرُ أعلى مراتب الأدب، وقال: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو ابن الإطابة:

أَبَسْتُ لِي هَمَّتِي وَأَبَى بِلَاحِي      وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْثَمَنِ الرَّيْحِ  
وَأَقْحَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي      وَضُرْبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الشَّيْخِ  
وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَأْتُ وَجَاشْتُ      مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي  
لَأَدْفَعَنَّ عَنْ مَآثِرِ صَالِحَاتِ      وَأُحْمِي بَعْدَ عَنِ عَرَضِ صَحِيحِ

ويروى أن أعرابياً وقف على أبي طالب رضی الله عنه، فقال: إن لي إليك حاجة، رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك؛ فإن أنت قضيتها حمدت الله

(١) ذو فائش: سلامة بن يزيد البجلي، والسَّيْلُ: المطر.

تعالى وشكرتُك، وإن لم تقضها حمدتُ الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خطُّ حاجتك في الأرض، فإني أرى الضرُّ عليك، فكتب الأعرابي على الأرض: إني فقير، فقال علي: يا قنبر، ادفع إليه حلتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حِلَّةً تَبْلَى محاسنها      فسوف أكسوك من حُسْنِ الثَّنا حَلَّلا  
إِنَّ الثَّناءَ لِيُحْيِي ذِكْرَ صاحبه      كالغيثِ يُحْيِي نِداءَ السَّهْلِ والجِبالِ  
لأنزهِدِ الدهرَ في عَرَفٍ بدأتَ به      فكلُّ عَبدٍ سِجَرِي بالذي فعلا

فقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلا أدبك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم». وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر؛ فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً. وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقْد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه. ومثل في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء؛ فقال:

نُبِيتُ أَنْ فِئاةً كُنْتُ أخطيها      عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول  
ثم قام فأتمَّ الناس ... وقال الزبير بن بكار: سمعت العُمري يقول: رُووا أولادكم الشعر؛ فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخیل، ويحضُّ على الخلق الجميل .... وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتُم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً. وكانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر؛ يقال إنها كانت تروى جميع شعر لبید. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين». وكان أبو السائب المخزومي على شرفه وجلالته وفضله في الدين والعلم يقول: أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرجة كلَّ يوم مراراً<sup>(١)</sup> ... فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون مالا

(١) الرجة: المكان الذي تقام فيه الحدود؛ يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحدُّ في كل يوم مراراً.

يفعلون<sup>(١)</sup> فهو غلط وسوء تأول؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل، ونبه عليهم فقال: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا)<sup>(٢)</sup>؛ يريد شعراء النبي ﷺ الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد قال فيهم النبي ﷺ: «هؤلاء نفر أشد على قريش من نضج النبل»، وقال لحسان بن ثابت: «اهجهم»<sup>(٣)</sup> فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام، اهجم ومعل جبريل روح القدس، والحق أبا بكر يعلمك تلك الهنات. فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبي ﷺ شعراء يثيبهم على الشعر، ويأمر بعمله، ويسمعه منهم. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لَنْ يَمْتَلِيَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ»<sup>(٤)</sup> خير له من أن يمتلى شعراءه، فإنما هو فيمن غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر وغيره مما جرى هذا المجرى من شطرنج وغيره سواء، وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدبا وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجلة من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين.

وبعد هذا العرض لموقف الإسلام من الشعر والشعراء، نحاول التعرف على الدور الذي أدّاه البحث في إعجاز القرآن الكريم في نشأة علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، أو ما اصطلاحنا على تسميته بـ «علم الجمال اللغوي»، معتمدين في ذلك على الأعمال العلمية التي خلفها الأوائل من العلماء المسلمين، واهتمت بالبحث في الإعجاز القرآني الكريم.

(١) الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٢) الشعراء / ٢٢٧ .

(٣) بقصد قريشاً.

(٤) أى يفسد جوفه.

لقد وصلت إلينا عدة مؤلفات تهتم بالكشف عن ذلك الإعجاز، من أهمها ما يأتي:

- ١- النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرمانى (ت ٣٨٦ هـ).
- ٢- بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطايبى (ت ٣٨٨ هـ).
- ٣- إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاانى (ت ٤٠٣ هـ).
- ٤- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ).
- ٥- الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ).
- ٦- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز لفخر الدين الرازى (محمد بن عمر ت ٦٠٦ هـ).
- ٧- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوى (ت ٧٤٩ هـ).

واهتم المحدثون بالإعجاز، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده فيما كتبه تحت عنوان «فى تحقيق وجوه الإعجاز بمنتهى الاختصار والإيجاز» ضمن كتابه (تفسير الذكر الحكيم)، والسيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (إعجاز القرآن).

وقد احتوت تلك الأعمال العلمية على الكثير من النواحي اللغوية وغير اللغوية المتصلة بإعجاز القرآن الكريم، نحاول التعرف عليها، ولكننا قبل ذلك نتوقف أمام المناخ العام المتصل بالحديث عن هذا الإعجاز، وما يتصل ببعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة.

أشار القدماء إلى أن نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وليس للعرب

كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في-البلاغة. والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجزؤ والتعسف. وقد حصل القرآن الكريم على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به؛ فقال عز من قائل: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعُ منه جلودُ الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)<sup>(١)</sup>، وقوله: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)<sup>(٢)</sup>، فأخبر سبحانه أن كلام الأدمي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبأن عليه الاختلال.

ويرى القدماء أن عجب نظمهم، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، وقد علق الباقلاني على تلك الوجوه بقوله: «وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدما ذكرها، على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصاف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف. وكذلك قد تفاوتت كلام الناس عند إعادة القصة الواحدة تفاوتاً يَبيناً، ويختلف اختلافاً كبيراً. ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة»<sup>(٣)</sup>.

(١) الزمر / ٢٣ .

(٢) النساء / ٨٢ .

(٣) إعجاز القرآن: ٣٧ و ما بعدها.



ولقد وقع نظم القرآن الكريم موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يمجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله عز وجل: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)<sup>(١)</sup>.

ولعله مما يتصل بالحديث عن الإعجاز التوقف أمام المعاني والألفاظ المعبرة عنها. قال الباقلاني: «إن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع؛ وذلك أنه قد علم أن تخيير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخيير الألفاظ لمعاني مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة. فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يتبدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم»<sup>(٢)</sup>.

ويرى بعض القدماء أن إعجاز القرآن الكريم يظهر فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان<sup>(٣)</sup> وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فمن ذلك ما وعد الله تعالى رسوله ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجل: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)<sup>(٤)</sup> ففعل ذلك. وكان أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، إذا أغرغ جيوشه عرفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح.

(١) الإسراء / ٨٨.

(٢) إعجاز القرآن: ٤٢.

(٣) الخطابي: بيان إعجاز القرآن ٢٣.

(٤)

وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيب، يكثر جداً، وقد أتى القدماء بقدر كبير منها<sup>(١)</sup>.

وهناك وجه من وجوه الإعجاز يتصل بالرسول ﷺ، عبّر عنه الباقلاني بقوله: «إنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبأئهم وسيرهم. ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعته، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام، وابتداء خلقه، وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة، ثم جعلاً من أمر ولده وأحواله وتوبته؛ ثم ذكر قصة نوح عليه السلام، وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمرهم. وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام، إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم. ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه، إلا عن تعلم؛ وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملائماً لأهل الآثار وحملات الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه - علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال الله عز وجل: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذ لا تارتاب المبطلون)<sup>(٢)</sup>. وقال: (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست)<sup>(٣)</sup>. وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم، ويشغل بملازمة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره، ولم يشتبه عندهم مذهبه، وقد كان يعرف منهم من يحسن هذا العلم، وإن كان نادراً، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعلم، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره<sup>(٤)</sup>.

(١) إعجاز القرآن: ٣٣ وما بعدها.

(٢) النكبت / ٤٨.

(٣) الأنعام / ١٠٥.

(٤) إعجاز القرآن: ٣٤ وما بعدها.

وبعد هذا العرض نشير إلى أن أصحاب «علم الكلام» هم أول من تحدث عن إعجاز القرآن الكريم، ويأتي على رأسهم «المعتزلة»، وقد كان لبعض رؤسائهم آراء في ذلك الإعجاز كقولهم بـ «الصِّرفة»، والمقصود بذلك أن العلى القدير صَرَفَ الهمم عن معارضة القرآن الكريم، ووجه احتجاجهم للصِّرفة أنه إذا جاز عقلاً عدم تعذر المعارضة، ثم عجز بلغاء العرب - فضلاً عما عن دونهم - عن معارضته وانقطعوا عنه، فذلك برهان على المعجزة؛ لأن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجارى العادات، صار كسائر المعجزات. ولعلمهم لم ينظروا في ذلك إلى المعجزة، وإنما نظروا إلى دلالتها على النبوة، فبصرف النظر عن المعجزة ذاتها، يكفى عجز البشر عنها لتكون الآية والبرهان. أو كما قالوا افتراضاً: «ولو كان الله - عز وجل - بعث نبياً في زمان النبوات، وجعل معجزته في تحريك يده أو مدّ رجله في وقت عودته بين ظهراني قومه، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال: «أبني أن أحرك يدي أو أمدّ رجلي، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلى» - والقوم أصحاب الأبدان لا آفة بشئ من جوارحهم - فحرك يده أو مدّ رجله، فرأوا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه، كان ذلك آية على صدقه، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي، ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجارى العادات ناقضاً لها، فمهما تكن بهذا الوصف، كانت آية دالة على صدق من جاء بها»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن مثل هذا الاحتجاج للنبوة بصرف الهمم عن معارضة القرآن، قد أوقع في شبهة أن إعجازه البلاغى غير معتبر عند من لم ينظروا إليه. وذلك ما التفت إليه أعلام المعتزلة أنفسهم، فجهدوا في تقرير وجه إعجاز فصاحته ونظمه، وتجردوا للاحتجاج له. فالجاحظ وهو من تلاميذ إبراهيم بن سيار النظام صنف كتابه (نظم القرآن) احتجاجاً لإعجاز هذا النظم، ومخالفأ به رأى من اكتشفوا فيه بالقول بالصِّرفة، دون نظر إلى بلاغته المعجزة التي تفوت بلاغات البشر<sup>(٢)</sup>. وعلى الرغم

(١) الخطائى. بيان إعجاز القرآن ٢٣

(٢) الدكتور عائشة عبد الرحمن الإعجاز البياني للقرآن. ٨٣

من أن هذا الكتاب لم يصل إلينا فإنه قد وردت بعض النصوص التي تدل على أن الجاحظ رأى أن إعجاز القرآن الكريم في نظمه وبيانه، ومن ذلك قوله: «ولى كتاب (لعله يقصد كتاب: نظم القرآن) جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف، وفرق بين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذى كتبته لك فى باب الإيجاز وترك الفضول»<sup>(١)</sup>. ويقول أحد العلماء عن هذا الكتاب: «ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الردّ على المشبهة، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوت، وكتابه فى نظم القرآن، علم أن له فى الإسلام غناءً عظيماً لم يكن الله عز وجل ليضعه عليه، ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ»<sup>(٢)</sup>. ولانريد الوقوف مع دور الجاحظ فى الكشف عن إعجاز الكتاب الكريم أكثر من ذلك؛ لأننا سنتوقف أمام دوره فى دراسة بعض ما يتصل بلغة القرآن الكريم التى أدت إلى الإعجاز البلاغى فيما بعد.

وقد بحث القدماء قضية الإعجاز فى ضوء علوم البلاغة، وأشاروا خلال هذا البحث إلى بعض القضايا اللغوية والبلاغية التى تتصل بلغة الكتاب العزيز، ويمكن تقديم تلك القضايا خلال النقاط الآتية:

## (١)

### ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه

نظر القدماء فى ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وربطوا بها قضية الإعجاز وعجز البشر عن الإتيان بمثله، وقد أشار إلى هذا الخطأ فى قوله: «إن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التى هى ظروف المعاني والحوامل لها، ولاندرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التى بها يكون اثلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام

(١) الحيوان: ٣ / ٧٦.

(٢) ابن الخياط: الانتصار فى الرد على ابن الروندى ٤٣٩.

مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظاماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمته. وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها، والترقى إلى أعلى درجات الفضل فى نعمتها وصفاتها. ثم يقول الخطابى: «فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعانى، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له فى صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتخريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شئ منها موضعه الذى لا يرى شئ أولى منه، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثالات الله بمن عصى وعاند منهم، منبهاً عن الكوائن المستقبلية فى الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه»<sup>(١)</sup>.

وقد توقف الجاحظ أمام الألفاظ القرآنية والعناية الخاصة التى أولاها الكتاب الكريم لتلك الألفاظ، وحسن اختيارها بدقة وبراعة للموضع الخاص بها، ومراعاة الفروق الدلالية والسياقية بينها، وعدم الإتيان بالألفاظ المترادفة إلا للدلالة على معانٍ مختلفة، وحسب الدقة وبمقدارها حين إصابة المعنى يظهر الفرق بين ألفاظ الناس فى كلامهم، وألفاظ القرآن الكريم. قال الجاحظ: «وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع والمعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرّون السغب، ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة، وكذلك المطر؛ لأنك لا تنجد القرآن بلفظ به إلا فى موضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصة

لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماك، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح فى القرآن إلا فى موضع التزويج<sup>(١)</sup>.

ويشير هذا النص إلى ما قلناه بخصوص تلك العلاقات السياقية والدلالية بين الألفاظ ومعانيها داخل الآيات الكريمة، ونقصد بذلك ذكر لفظة «الجوع» فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، وذكر لفظة «المطر» فى موضع الانتقام، وذكر لفظة «النكاح» فى موضع التزويج.

وقد توقف الرُّمَّانِ أمام مفهوم مصطلح «البلاغة» مع ربطه باللفظ والمعنى والنظر فى البلاغة القرآنية. قال: «فأما البلاغة فهى على ثلاث طبقات: منها ما هو فى أعلى طبقة، ومنها ما هو فى أدنى طبقة، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان فى أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيى، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصة، كما أن ذلك معجز للكافة»<sup>(٢)</sup>.

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٣

(٢) النكح فى إعجاز القرآن ٧٥ وما بعدها

(٢)

## نظم القرآن الكريم

يرى القدماء أن إعجاز القرآن الكريم يظهر في نظمه، ويقصدون بذلك تلك العلاقات التي تنشأ بين الألفاظ ومعانيها لتؤدي إلى ضرب من الإعجاز في النظم والتأليف لا يقدر على مثله بشر؛ لذلك لم يكن التحدى على مستوى الكلم المفردة أو بمعانيها؛ لأن ذلك متاح لأهل اللغة والعارفين بها والمالكين لناصرتها. وما هو معروف في تاريخ الدراسات البلاغية والنقدية أن عبد القاهر الجرجاني هو الذى صاغ الحديث عن «النظم» صياغة علمية دقيقة، ولكن هناك محاولات كثيرة سبقته، استطاع الرجل أن يفيد منها، ولا بأس من التعرف على تلك المحاولات وتتبعها.

يرى الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ٣١٩ - ٣٨٨ هـ) أن القرآن الكريم إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني؛ لذلك قال أكثر العلماء إن إعجازه من جهة البلاغة، ولكن هؤلاء العلماء - عند الخطابي - إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها الكتاب العزيز، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مبانة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده، وأحاولوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع فيه التفاضل فتقع فى نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك، ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل والمفضول منه. قالوا (أى العلماء الذين قالوا إن إعجاز فى البلاغة): وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به. قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا يوجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة.

ويرى الخطابي أن ما قاله أولئك لا ينعن فى مثل هذا العلم، ولا يشفى من داء

الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل على إيهام، ثم يضيف قوله: «فأما من لم يرضَ من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة... فإنه يقول إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع، والهشاشة فى نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب، وتختصر الأقوال عن معارضته وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لابد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم وبحصوله يستحق هذا الوصف»<sup>(١)</sup>.

وتوقف الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب ت ٤٠٣ هـ) أمام الإعجاز من جهة النظم. قال: «فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ووصفه، فإن العقول تتيه فى جهته وتغار فى بحره وتضل دون وصفه». وقال أيضاً: «إن المتناهى فى الفصاحة والعلم بالأساليب التى يقع فيها التفاسيح، متى سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عجز غيره كمعجزه هو»<sup>(٢)</sup>. ومن هنا فإن العالم بالأساليب؛ أى بالنظم على اختلاف ضروبه وأنماطه يعلم علم اليقين أن القرآن الكريم معجز؛ لأنه جاء على ضرب من التأليف مخالف لما يعرفه العرب؛ لذلك قال الباقلانى: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى صرفه عن أساليب الكلام المعتاده». وقال كذلك: «إن نظم القرآن وقع موقعاً فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس؛ فهم يمجزون عن الإتيان بمثله كمجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا»<sup>(٣)</sup>، وقد قال الله عز وجل: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)<sup>(٤)</sup>. وقال الباقلانى أيضاً: «فأما نهج القرآن

(١) بيان إعجاز القرآن: ٢٤ وما بعدها.

(٢) إعجاز القرآن: ٢٦.

(٣) السابق: ٣٨.

(٤) الإسراء / ٨٨.



ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تنبه في جهته، وتحرار في بحره، وتضل دون وصفه<sup>(١)</sup>.

ولقد اهتم الباقلاني بتحليل الشعر، قبل الدخول في بيان إعجاز القرآن الكريم، واختار لذلك قصيدتين؛ الأولى مطلعها:

قفا نَبِكْ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ      بسقطِ اللوى بين الدخولِ فحوملي  
وهي معلقة امرئ القيس، والأخرى مطلعها:

أهلاً بذلكم الخيالِ المقبلِ      فَعَلَ الذى نهواه أو لم يفْعَلِ  
وهي للبحتري. وخلال هذا التحليل للقصيدتين يشير إلى بعض العيوب المتصلة بالنظم فيهما، ويمكن إيضاح ذلك في النقاط الآتية:

١ - وقع امرؤ القيس في بعض الأخطاء المتصلة بالتذكير والتأنيث، ومن أمثلة ذلك قوله:

فتوضح فالمقراة لم يعْفُ رسمُها      لِمَا نَسَجَتْها من جنوبٍ وشمالٍ  
قال الباقلاني: «فإن قوله «لما نسجتها» كان ينبغي أن يقول لما نسجها، ولكنه تعسف فجعل «ما» في تأويل تأنيث؛ لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير دون التأنيث، وضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف».

وقوله: «لم يعْفُ رسمها» كان الأولى أن يقول: «لم يعْفُ رسمه»؛ لأنه ذكر المنزل؛ فإن كان رد ذلك إلى هذه البقاع والأماكن التي المنزل واقع بينها، فذلك خلل؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه، بعفاه، أو بأنه لم يعف دون ما جاوزه.

٢ - من المصطلحات التي أكثر القدماء من استعمالها «الحشو»، ويقصدون به وجود بعض التراكيب النحوية التي يمكن الاستغناء عنها كالجار والمجرور «منى»، و «على النحر» في بيت امرئ القيس:

ففاضت دموع العين منى صبايةً      على النَّحْرِ حتى بل دُمعي محملي

قال الباقلائي: «قوله: «ففاضت دموع العين» ثم استعانته بقول: «منى» استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مليح ولا بديع. وقوله: «على النحر» حشو آخر؛ لأن قوله: «بل دمعى محملى» يغنى عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن، ثم قوله: «حتى بل دمعى محملى» إعادة ذكر الدمع حشو آخر، وكان يكفيهِ أن يقول: حتى بَلْتُ محملى، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله.

٣- من عيوب النظم عند القدماء «التكرار» الذى يلجأ إليه بعض الشعراء دون طائل من ورائه، ومن أمثلته تكرار كلمة «خِدر» فى قول امرئ القيس:

ويومَ دخلتُ الخدرَ خِدرَ عُنبرٍ      فقالت: لكَ الويلاتُ إنك مُرجلى

٤- نظر الباقلائي فى بعض العيوب المتصلة باللفظ والمعنى؛ فالشعراء يقعون فى تكرار المعانى المتداولة، والاهتمام باللفظ على حساب المعنى، أو العكس، ومن أمثلة ذلك قول البيهري:

من غادةٍ منعتَ وتَمْنَعُ نيلها      فلو أنها بذلتَ لنا لِمَ تَبْذُلِ

فهذا البيت عند الباقلائي «ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وضعُّ العبارات فى مثله! ولو قال: هى ممنوعة ممانعة، كان ينوب عن تظويله، وتكثيره الكلام وتهويله، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان».

وهناك جوانب أخرى تتصل بعيوب النظم عند كلا الشاعرين، أشار إليها الباقلائي فى كتابه. ولقد بين الرجل السبب فى اختياره لهذين الشاعرين دون غيرهما من شعراء العرب، أما امرؤ القيس فقد قال عنه: «وأنت لانتك فى جودة شعر امرئ القيس ولا ترناب فى براعته، ولانتوقف فى فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع فى طرق الشعر أموراً اتبع فيها، من ذكر الديار والوقوف عليها، إلى ما يصل بذلك من البديع الذى أبدعه، والتشبيه الذى أحدثه، والمليح الذى تجدد فى شعره، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه: من صناعة وطبع، وسلاسة وعفو، ومثانة ورقة، وأسباب تحمّد، وأمور تؤثر وتمدح»، وقال عن البيهري: «الكتاب يفضلونه على أهل دهره، ويقدمونه على من فى

عصره؛ ومنهم من يدعى له الإعجاز غُلُوًّا، ويزعم أنه يناغى النجم فى قوله غُلُوًّا... .

وبعد هذا العرض لما يتصل بامرى القيس والبحترى وقصيدتهما، نجد فى كتاب الباقلانى نصوصاً نظرية وتطبيقية متناثرة، يوضح بها الإعجاز فى نظم القرآن الكريم وغير النظم أيضاً؛ لذلك يقول: «ونظم القرآن عالٍ عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)<sup>(١)</sup>. وقد نبه على أهمية المعرفة بـ «علم اللسان» للتوصل إلى جوانب الإعجاز. قال: «إنك إن كنت بصنعة علم اللسان متدرباً، وفيه متوجهاً متقدماً، أمكنك الوقوف على ما ذكرنا (يقصد النظم) والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس فى مجلس المقلدين، وارضَ بمواقف التحيرين. ونصحتُ لك حيث قلتُ: انظر، هل تعرف عروق الذهب، ومحاسن الجواهر، وبدائع الياقوت، ودقائق السحر، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها؟ وهل يقطع سمت البلاد من غير اعتداء فيها؟<sup>(٢)</sup>. ونقدم إحدى الآيات الكريمة وتعليق الباقلانى عليها.

قال تعالى: (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)<sup>(٣)</sup>.

فانظر - إن شئت - إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف؛ كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع.

قوله: (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية. وهذه الكلمة بمنفردِها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير، تميز عن جميعه، وكان واسطة عقده، وفاخحة عقده، وغرة شهره، وعين دهره.

(١) فصلت / ٤٢.

(٢) إعجاز القرآن: ٢٤٣.

(٣) الشورى / ٥٢.

وكذلك قوله: (ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) فجعله روحاً؛ لأنه يحيى الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نوراً؛ لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته، وبين أنه لم يكن ليتهدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليتهدي، فكيف كيف يهدي لولاه، فقد صار يهدي، ولم يكن من قبل ذلك ليتهدي، فقال:

(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)<sup>(١)</sup>.

فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأوليان مؤنلتان. وقوله: (ألا إلى الله تصير الأمور) كلمة منفصلة مبنية للأولى، قد صيرهما شريف النظم أشد اتِّسافاً من الكلام المؤلف، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم. وبهذا يبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته.

الأمر أظهر - والحمد لله - والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف<sup>(٢)</sup>.

وهناك جوانب لغوية كثيرة أشار إليها الباقلاني، وهي تتصل بالنظم اتصالاً مباشراً كالحذف والاختصار والتقديم والتأخير وسواها، سوف نتوقف أمامها في ضوء ما كتبه هو وغيره في موضعه من هذا الكتاب<sup>(٣)</sup>.

ويعد القاضي أبو الحسين عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية بإيران واحداً من أكبر أعلام المعتزلة في عصره الذي يمتد حتى سنة ٤١٥ هـ حين لبى نداء ربه، وقد اهتم بإعجاز القرآن الكريم في كتابه (المعنى في أبواب التوحيد والعدل) وذلك في الجزء السادس عشر منه. وقد عرض القاضي عبد الجبار لرأى شيخه أبي هاشم الجبائي الذي يشير إلى أن الفصاحة والبلاغة ليست في «النظم»، ولكنها في اللفظ والمعنى معاً. قال الجبائي: «إنما يكون الكلام فصيحاً

(١) الشورى / ٥٣.

(٢) إعجاز القرآن: ١٨٧.

(٣) انظر الفصل الخاص بـ «علم الجمال التركيبي».

لجزالة لفظه وحسن معناه، ولا بد من اعتبار أمرين؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيبك المعنى لم يُعدّ فصيحاً، فإذاً يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين. وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص؛ لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف، إذا أُريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً، وتقع المزية في الفصاحة، فالمعتبر ما ذكرناه؛ لأنه الذي يتبين في كل نظم وكل طريقة، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء: يَسْبِقُ إليه، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء، فيساويه في ذلك النظم، ومن يفضل عليه يفضل في ذلك النظم<sup>(١)</sup>.

ولكن القاضي عبد الجبار وجد في فكر شيخه أبي هاشم الجبائي بعض جوانب النقص؛ لأنه من الصعوبة النظر في الفصاحة والبلاغة للنصوص على اختلافها في ضوء اللفظ والمعنى حسب، ودونما اعتماد على النظم الذي هو تركيب الكلام؛ لذلك عقد فصلاً تالياً عرض فيه وجهة نظره في العلة التي يتفاضل الكلام بها في بلاغته وفصاحته. قال: «اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنه إما أن تُعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها. ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة. ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات، إذا انضمت بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها. فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها. فإن قال: فقد قلتم إن في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعاني وإن كان لا بد منها فلا تظهر المزية ... ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق ... على أننا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذاً يجب أن يكون

(١) المعنى في أبواب التوحيد والعدل: ١٦ / ١٩٩ وما بعدها.

الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها. فإذا صحت هذه الجملة فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذى به تختص الكلمات أو التقديم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب، فبذلك تقع المبانيّة<sup>(١)</sup>.

ويشير هذا النص الذى نقلناه عن القاضى عبد الجبار إلى اهتمامه الخاص بالنظم أو التركيب للكلام، يدلنا على ذلك إكثاره من استعمال كلمة «النظم» التى نستطيع أن نقول إنها مصطلح لغوى عنده يساوى «النظم» أو «التركيب» أو «السياق». ونفى عبد الجبار صفة الفصاحة عن اللفظة المفردة؛ إذ إنها ليست فصيحة فى نفسها، وإنما يجب دراستها فى ضوء حركات الإعراب وموقعها فى الجملة من حيث التقديم والتأخير، لأن الحركات والموقع يؤثر تأثيراً بالغا فى الدلالة التى يمكن التوصل إليها من الجمل والعبارات. وهذا نص آخر للقاضى عبد الجبار يشرح فيه نظريته الخاصة بالفصاحة يقول فيه:

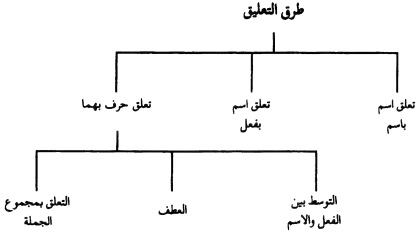
«ولأيمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها إذا استعملت فى غيره، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها، وكذلك القول فى جملة من الكلام ... وهذا يبين أن المعتبر فى المزية ليس بنية اللفظ وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه. فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه لا يوجد فضلاً فى الفصاحة .. ولا فصل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز؛ بل ربما كان المجاز أدخل فى الفصاحة؛ لأنه كالاستدلال فى اللغة ... وكذلك فلا مُعتبر بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه؛ لأن كل ضرب من ذلك ربما يكون أدخل فى الفصاحة فى بعض المواضع من صاحبه».

وجاء الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) وتناول فى دلائله «النظم» بالتفصيل؛ لذلك يعد كتابه تفسيراً وشرحاً وتفصيلاً لما أوجزه القاضى عبد الجبار.

عرّف عبد القاهر النظم بأنه «تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض». ومن المعروف أن الكلمة تنقسم ثلاثة أقسام:

(١) السابق: ١٦ / ١٩٩ وما بعدها.

الاسم والفعل والحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، يمكن إيضاحها خلال الشكل الآتي:



وأخذ عبد القاهر يشرح تلك الطرق خلال الأمثلة التطبيقية؛ فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خيرًا عنه، أو حالاً منه، أو تابعاً له ... وأما تعلق الاسم بالفعل فيأن يكون فاعلاً له، أو مفعولاً، فيكون مصدرًا قد انتصب به كقولك: «ضربت ضرباً»، ويقال له المفعول المطلق، أو مفعولاً به كقولك: «ضربت زيداً»، أو ظرفاً مفعولاً فيه، زماناً أو مكاناً تقولك: «خرجت يوم الجمعة»، ووقفت أمامك»، أو مفعولاً معه كقولنا: «جاء البرد والطيالسة»، أو مفعولاً له كقولنا: «فعلت ذلك إرادة الخير بك». ... وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب:

١- أن يتوسط الحرف بين الفعل والاسم، وذلك في باب الفعل الذي يتعدى بحرف الجر كـ «مر» في قولنا: «مررت بزيد».

٢- المعطف، وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول، كقولنا: «جاءني زيد وعمرو»، و «رأيت زيداً وعمراً»، و «مررت بزيد وعمرو».

٣- التعلق بمجموع الجملة، كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه؛ وذلك أن من شأن هذه المعاني أن تتناول ما تتناوله بالتقييد، وبعد أن يسند إلى شيء.

ولعل حديث عبد القاهر عن التعليق يدل على اهتمامه الشديد بالنحو والتراكيب التي تدرج تحته، وهذا التعليق إنما هو مجموعة من العلاقات النحوية التي تنشأ بين العناصر التي تتصاحب داخل السياق؛ فإن المبتدأ لا بد أن يكون له خبر، والصفة لا بد أن يكون لها موصوف، والحال لا بد أن يكون لها صاحب ... وهكذا؛ لذلك قال عبد القاهر عن النظم: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها». وقد أوضح عبد القاهر دور النحو خلال مجموعة من الجمل التي تعبر عن انطلاق زيد، ولجأ إلى التصرف في الجمل تعريفاً وتنكيراً، وتقديماً وتأخيراً ... وتلك الجمل هي: زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد، منطلق زيد، زيد المنطلق، المنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق. لذلك قال عبد القاهر:

«فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عوامل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصِفَ بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»<sup>(١)</sup>.

وقد توقف عبد القاهر أمام بعض الأبيات التي وُصفت بفساد التأليف، وسوء النظم، وتناولها بالتعليق، وقبل أن نقدم هذا التعليق، نشير إلى الأبيات أولاً. قال الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملوكاً      أبو أمه حتى أبوه يقاربه

وقال المتنبي:

ولذا اسمُ أغطيةِ العيونِ جفونُها      من أنها عملُ السيوفِ عواملُ

(١) دلائل الإعجاز: ٨٢ وما بعدها.



وقال:

الطَّيِّبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طَيْبُهُ      والماءُ أَنْتَ إِذَا اغْتَسَلْتَ الْعَاسِلُ

وقال:

وفاؤكما كالربيع أشجاء طاسمه      بأن تُسَعِّدَا والدُمعُ أشفاهُ ساجمهُ

وقال أبو تمام:

ثانيه في كبد السماءِ ولم يكن      كائنين ثانٍ إذ هما في الغار

وقوله:

يدى لمن شاءَ رَهَنٌ لم يذق جُرْعاً      من راحتِكَ دَرَى ما الصَّابُ والعسلُ

وقد علق عبد القاهر على تلك الأبيات بقوله: «إن الفساد والخلل (في النظم) كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمار، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم. وإذا ثبت أن سبب فساد النظم واختلاله، أن لا يُعْمَلَ بقوانين هذا الشأن، ثبت أن سبب صحته أن يُعْمَلَ عليها، ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم، ثبت أن الحكم كذلك في مزيته والفضيلة التي تعرض فيه، وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخى معاني هذا العلم وأحكامه بما بين الكلم»<sup>(١)</sup>.

وقد قدم عبد القاهر الكثير من التطبيقات لنظرية النظم في القرآن الكريم والشعر، سوف نلتقى بها حين حديثنا عن «علم الجمال التركيبي» الذي يعد عبد القاهر مؤسسه بلا منازع، ولكن لا بأس من أن نعرض لبعض نصوصه في مجال الحديث عن «النظم».

توقف عبد القاهر أمام قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيضي الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)<sup>(٢)</sup>

(١) السابق: ٨٤.

(٢) هود / ٤٤.

بالتحليل الذى ركز فيه على المعانى النحوية الآتية:

- أن نوديت الأرض (يا أرض) ثم أمرت (ابلى).
- أن كان النداء بـ (يا) دون «أى» نحو يا أيتها الأرض.
- إضافة الماء إلى الكاف (ماءك) دون أن يقال ابلى الماء.
- أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها.
- التعبير باستخدام الفعل المبني للمجهول. قال عبد القاهر: «ثم أن قيل: (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة «فعل» الدالة على أنه لم يفيض إلا بأمر أمر وقدره قادر».
- التأكيد والتقرير بقوله تعالى: (وَقَضَى الْأَمْرَ).
- ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو (استوت على الجودى).
- إضمار السفينة قبل الذكر.
- مقابلة (قيل) فى الخاتمة بـ (قيل) فى الفاتحة.

ولابأس من تقديم نص يحلل فيه عبد القاهر الشعر فى ضوء نظرية النظم، ونختار حديثه عن أبيات للبحتري. قال: «وإذ قد عرفت ذلك (أى دور النظم فى جمال التعبير وفساده) فاعمد إلى ما توافقه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً، دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل فى النظم، وتأمله، فإذا رأيتك قد ارتحت واهتزت واستحسن، فانظر إلى حركات الأريحية ثم كانت؟ وعند ماذا ظهرت؟ فإنك ترى عياناً أن الذى قلت لك كما قلت، اعمد إلى قول البحتري:

بلونسا ضرائب من قد نرى	فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادنا	ت عزمك وشيكك ورأيا صليبا

تَنَقَّلَ فِي خُلُقَيْ سُوْدٍ      سَمَاحاً مُرْجَى وَبَاساً مَهِيَا  
فَكَالْسَيْفَ إِنْ جَتَّهَ صَارِخاً      وَكَالْبَحْرَ إِنْ جَتَّهَ مَسْتِيهَا<sup>(١)</sup>

وإذا رأيته قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعدّ فانظر في السبب واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدّم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه، وأتى ما يوجب الفضيلة.

أفلا ترى أن أول شيء يروك منها قوله: «هو المرء أبدت له الحادثات» ثم قوله: «تنقل في خلقي سود» بتكثير «السود» وإضافة «الخلقين» إليه، ثم قوله «فكالسيف»، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ؛ لأن المعنى لا محالة: فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله: «والبهر»، ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله «صارخاً» هناك و«مستيباً» ههنا؟ لا ترى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عدت، أو ما هو في حكم ما عدت، فأعرف ذلك<sup>(٢)</sup>.

ومن العلماء الذين اهتموا بالحديث عن إعجاز القرآن الكريم في ضوء «النظم» فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ونحاول التعرف على ما في هذا الكتاب إجمالاً؛ لأن الرجل اعتمد في تأليفه على عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، وقد صرح بذلك في المقدمة حين قال: «ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاهد فوائدتهما ومقاصد فرائدهما، وراعت الترتيب، مع التهذيب، والتحرير، مع التقرير، وضبطت أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع

(١) لفتح: هو الفتح بين خاقان، والضرائب جمع ضريبة، وهي الطبيعة والخلق. والضرب: المثل والشبه، والمستيب: طالب الثواب.

(٢) الدلائل ٨٤ وما بعدها

الاجتناب عن الإطناب الممل، والاحتراز عن الاختصار المخل».

فالكاتب إذن تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر في صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية وتنحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقاً. وإذا تقدمنا في قراءته وجدنا الفخر الرازي يذكر اسم علي بن عيسى الرُماني وينقل عنه مراراً، كما نجده يلم بأطراف من آراء الزمخشري، وسرد طائفة من الألوان البديعية، ومن يرجع إلى كتاب (حداائق السحر في دقائق الشعر) الذي ألفه في البلاغة الفارسية معاصرة رشيد الدين العمري المعروف بالطوطا والمتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة يراه يجلب هذه الألوان منه<sup>(١)</sup>، وقد نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي، وهو محاولة دقيقة لتطبيق ما اصطلاح عليه أصحاب البديع العربي على الأدب الفارسي، ووزع الطوطا أمثلة الشعر والنثر فيه بين الأدبين الفارسي والعربي. ونرى الفخر الرازي ينقل عنه الأمثلة العربية مع الألوان البديعية التي تمثلها، ومصطلحاتها الخاصة. وكان الطوطا يتمثل أحياناً في تلك الألوان ببعض أشعاره العربية، وساق الفخر بعض أبياته في مواضعها من تلك الألوان<sup>(٢)</sup>، مما يدل دلالة قاطعة على أنه قرأ كتابه قراءة دقيقة<sup>(٣)</sup>.

وإذا حاولنا التعرف على موقف الفخر الرازي من إعجاز القرآن الكريم، وهل أشار إلى دور النظم في ذلك الإعجاز، فإننا نرى الرجل يتحدث عن أربعة مذاهب، لم يأخذ بها جميعاً، وهي مذهب الصرفة الذي قال به إبراهيم بن سيار النظام والذي أوضحنه من قبل، ومذهب من قالوا بمخالفة أسلوبه لأساليب الشعر والخطب والرسائل وخاصة في مقاطع الآيات، ومذهب من قالوا بأنه ليس فيه اختلاف وتناقض بينما يشيعان في كلام العرب حتى لا يوجد لهم شعر ولا نثر يخلو منهما، ثم مذهب من رجعوا الإعجاز إلى اشتغال القرآن الكريم على الغيوب، وهو مذهب - كما يقول الفخر الرازي - ينطبق على بعض الآي دون بعض. والمذهب الصحيح في رأيه هو تعليل إعجازه بفصاحته، وهي عنده - كما عند

(١) انظر في ذلك كتاب: البلاغة عند السكاكي للدكتور أحمد مطلوب ٢٤٣

(٢) قارن (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) به (حداائق السحر في دقائق الشعر) ١٧٨ وما بعدها.

(٣) الدكتور شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٢٧٥ وما بعدها

عبد القاهر - ترجع إلى الأنفاظ والمعاني، وبذلك ترادف البلاغة. وعقد لها الفصل الثاني في مقدمة كتابه وقال إن مبحثها أجل المباحث وأشرفها، ومضى يقول: إنها إما أن تكون راجعة إلى مفردات الكلام، وإما أن تكون راجعة إلى تأليفه وتركيبه، ومن أجل ذلك رتب كتابه على جملتين (مبحثين): جملة خاصة بالمفردات، وجملة خاصة بالنظم أو التأليف، وبحث في الجملة الأولى طائفة من المحسنات اللفظية بالإضافة إلى الصور البيانية، وبحث في الجملة الثانية مجموعة القواعد الخاصة بالنظم كما صوره عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) مع العناية بطائفة من المحسنات المعنوية، وقد أشار إلى أن «النظم» عبارة عن توخي معاني النحو، ولا يحصل في الكلمة الواحدة، وإنما يحصل في الكلمات يُضم بعضها إلى بعض؛ بحيث يختار في مفرداتها من الدلالة ومن مواقعها ومن اتصال بعضها ببعض ما يلائم الصورة البليغة<sup>(١)</sup>.

ولقد اهتم المحدثون من علمائنا وشيوخنا بدراسة الإعجاز في ضوء النظم، ومن أهمهم الشيخ محمد عبده الذي توقف أمام قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)<sup>(٢)</sup> ثم كتب فصلاً في تفسيره عنوانه «في تحقيق وجوه الإعجاز» عرض فيه للأقوال المختلفة الخاصة بذلك الإعجاز، وبهنا في هذا المقام ما يتصل بالنظم والتركيب والأسلوب. قال الشيخ: «ولعمري إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر. ولم يوفها أحد حقها على كثرة ما أبدأوا وأعادوا فيها، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد، وإنما هو مائة وأكثر: القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر، من السبع الطوال إلى مادونها. وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين المعين على الفهم المفيد للتأثير، على اختلافها في الفواصل، وتفاوت آياتها في الطول والقصر. وهي على ما فيها من

(١) انظر مقدمة (نهاية الإيجاز)، والبلاغة تطور وتاريخ: ٢٧٦.

(٢) البقرة / ٢٣ و ٢٤.

متشابه وغير متشابه في النظم، متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض. ثم يقول الشيخ محمد عبده: «ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر أو نثر، أنك ترى السور ذات النظم الخاص والقوافي المقفاة، تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة فتزيدها حسناً وجمالاً وتأثيراً في القلوب، وتأتي في بعض آخر آياته مخالفة لسائر آياتها في فواصلها وزناً وقافية، فترفع قدرها وتكسوها جلالاً وتكسيها روعة وعظمة، وتجدد من نشاط القارئ وترهف من سمع المستمع. وكان ينبغي للخطباء والمتراسلين أن يحاكيوا هذا النوع من محاسنه، وإن كانوا يعجزون عن معارضة السورة في جملتها أو الصعود إلى أفق بلاغتها»<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لما يتصل بنظم القرآن الكريم، نشير إلى أن الحديث عن النظم عموماً يعد أرقى ما توصل إليه البلاغيون؛ لأنهم ينظرون في ضوئه إلى النصوص نظرة شاملة لا تعرف الفصل بين فروع اللغة بأصواتها وأبنيثها الصرفية وتراكيبها النحوية ودلالة ألفاظها.

(٣)

## أسرار فوائج السور

في القرآن الكريم تسع وعشرون سورة تفتتح بحروف مختلفة من «حروف التهجي» وهي على النحو الآتي:

١- (الم): البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

٢- (المص): الأعراف.

٣- (الر): يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر.

٤- (كهيعص): مريم.

٥- (طه): طه.

(١) الشيخ محمد عبده: تفسير الذكر الحكيم ١ / ١٩٨.

٧- (طسم): الشعراء، القصص.

٨- (طس): النمل.

٩- (يس): يس.

١٠- (ص): ص.

١١- (حم): غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

١٢- (حم، عسق): الشورى.

١٣- (ق): ق.

١٤- (ن): القلم.

وتلك السور كلها مكية، ماعدا البقرة وآل عمران والرعد فهي مدنية. وقد نالت فواخ السور وأسرارها عناية القدماء والمحدثين بحثاً ودرساً وتأليفاً، وأشاروا إلى أن مجموعها، دون ما هو مكرر منها، أربعة عشر حرفاً، وهي بذلك نصف حروف اللغة العربية، وتلك الحروف الموجودة في فواخ السور هي: الألف، اللام، الميم، الصاد، الراء، الكاف، الهاء، الياء، العين، الطاء، السين، الحاء، القاف، النون.

وقد أثارت فواخ السور الكثير من القضايا اللغوية والبلاغية؛ لذلك عدّها بعض العلماء من الأسرار التي لا يعلمها سوى العلى القدير، وقد روى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: «في كتاب الله سر، وسر الله في القرآن، في الحروف التي في أوائل السور»، وأشار إلى هذا أبو حيان حين قال: «وقد أنكر جماعة من المتكلمين أن يكون في القرآن ما لا يفهم معناه. فانظر إلى هذا الاختلاف المنتشر الذى يكاد ينضبط في تفسير هذه الحروف والكلام عليها. والذى أذهب إليه أن هذه الحروف في فواخ السور هو المتشابه الذى استأثر الله بعلمه، وسائر كلامه تعالى محكم». وأضاف أبو حيان: «والى هذا ذهب أبو محمد على بن أحمد البزيدى، وهو قول الشعبي والثوري وجماعة من المحدثين. قالوا: هي سر الله في القرآن، وهي من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن

تكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونعمرُ كما جاءت»<sup>(١)</sup>. ولكن الذى عليه الجمهور من علماء العربية على اختلاف اهتماماتهم العلمية أنه يجب البحث فى تلك الفواخ، ومحاولة التماس الفوائد المندرجة تحتها، والمعانى التى تتخرج عليها، والتأويل الخاص بها، وهذا ما نحاول التعرف عليه فى ضوء النقاط الآتية:

١- يروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه سبحانه وتعالى؛ فالألف من «الله»، واللام من «لطيف»، والميم من «مجيد»، و (الم): أنا الله أعلم، و (المص): أنا أفصل، و (الر): أنا الله أرى وغير ذلك مما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما. ويروى عن السدى أنه قال: فواخ السور أسماء من أسماء الرب جل جلاله، فُرقت فى القرآن. وحكى الكرمانى فى قوله (ق) أنه حرف من اسمه «قادر» و «قاهر»، وحكى غيره فى قوله (ن) أنه مفتاح اسمه تعالى «نور» و «ناصر».

ومن هنا فإن تلك الأقوال كلها ترجع إلى قول واحد، وهى أنها حروف مقطعة، كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الاكتفاء ببعض الكلمة دون استعمالها كاملة مما تعرفه اللغة العربية، ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

قُلْنَا لَهَا قَمِي فَقَالَتْ قِ

فإن الحرف «ق» تعبير عن قولها «وقفت» وقال الشاعر:

بالخير خيرات وإن شراً فسا ولا أريدُ الشرَّ إلا إنْ سا

أراد الشاعر: وإنْ شراً فشر، وإلا أن تشاء. أى إن:

فا = فشر

تا = تشاء

٢- يرى بعض المفسرين أن تلك الحروف المقطعة فى فواخ السور ذُكرت

(١) البحر المحيط: ١ / ٣٥. وقد روى عن الشعبي قوله: «إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل». انظر البرهان فى علوم القرآن ١ / ١٧٣.



للدلالة على أن القرآن الكريم مؤلف من حروف الهجاء التي يستعملها العرب سواء أكانت مفردة أم مركبة، ومع ذلك فهم لا يستطيعون الإنثيان بسورة من مثله. وهذا الرأي أقرب ما قيل من حيث صلة تلك الفواخ بقضية الإعجاز والبيان، وقد شرحه الزمخشري بقوله: «أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تخدى بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤددهم النظر إلى أن يستيقنوا، إن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم، عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحراس على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتنها لكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا أنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدرة»<sup>(١)</sup>.

وقد أيد ابن كثير في تفسيره هذا الرأي، وأضاف إليه قوله: «قلت: ولهذا، كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته. وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: (الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه)<sup>(٢)</sup>. (الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه)<sup>(٣)</sup>. (المص. كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه)<sup>(٤)</sup>. (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم)<sup>(٥)</sup>. (الم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين)<sup>(٦)</sup>. (حم.

(١) الكشف: ٩٥ / ١ وما بعدها.

(٢) البقرة / ١ و ٢.

(٣) آل عمران / ١ - ٣.

(٤) الأعراف / ١ و ٢.

(٥) إبراهيم / ١.

(٦) السجدة / ١ و ٢.

تنزيل من الرحمن الرحيم<sup>(١)</sup>. (حم. عسق. كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم)<sup>(٢)</sup>. وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء القائلون بأنها إشارة إلى أن القرآن المعجز جاء من مألوف حروفهم لمن أمعن النظر<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا فإن ابن كثير قد أيد هذا الرأي الذى يشير إلى مجئ تلك الحروف بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها.

٣- أشار بعض المفسرين إلى أن تلك الحروف المقطعة أسماء للسور؛ فإن (الم) اسم لهذه، و (حم) اسم لتلك؛ وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز؛ فهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها، ونقله الزمخشري عن الأكثرين<sup>(٤)</sup>، وأن سيبويه نص عليه فى كتابه<sup>(٥)</sup>. وقال الإمام فخر الدين: هو قول أكثر المتكلمين. فإن قيل: فقد وجدنا (الم) افتتح بها عدة سور، فأين التمييز؟ قلنا: قد يقع الوفاق بين اسمين لشخصين، ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت، كما يقال: زيد وزيد، ثم يميزان بأن يقال: زيد الفقيه، وزيد النحوى، فكذلك إذا قرأ القارىء: (الم). ذلك الكتاب) فقد ميزها عن (الم). الله لا إله إلا هو الحى القيوم).

٤- هناك من يرى أن تلك الحروف إنما جئ بها للتنبيه؛ لأن القرآن الكريم كلام عزيز وفوائده عزيزة، فينبغى أن يرد على سمع متنبه، فكان من الجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى قد علم فى بعض الأوقات كون النبى ﷺ فى عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل عليه السلام بأن يقول عند نزولهم (الم و الر و حم) ليمسح النبى صوت جبريل فيقبل عليه ويصغى إليه، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة

(١) فصلت / ١ و ٢.

(٢) الشورى / ١ - ٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ١ / ٦٨.

(٤) الكشف: ١ / ٩٨.

(٥) الكتاب: ٣ / ٢٥٧.

فى التنبية كـ «ألا، و» إما؛ لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم، والقرآن الكريم كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤدى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ فى قرع سمعه.

٥- ربط المفسرون استعمال تلك الحروف فى فوايح السور بأحوال العرب؛ فهم إذا سمعوا القرآن الكريم لغوا فيه، وقال بعضهم: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه»<sup>(١)</sup> فأنزل العلى القدير هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة.

وقيل إنها كالمهيجة لمن سمعها من الفصحاء، والمروقة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل، والأخذ فى التفاضل، وهى بمنزلة زمجرة الرعد قبل الناظر فى الأعلام لتعرف الأرض فضل الغمام، وتحفظ ما أفيض عليها من الإنعام. وما هذا شأنه خليف بالنظر فيه، والوقوف على معانيه، بعد حفظ مبانيه<sup>(٢)</sup>.

وهناك تأويلات أخرى كثيرة قال بها العلماء العرب، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن أبا الحسين أحمد بن فارس وغيره اختاروا أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً؛ فيقال إن الله جل وعلا افتتح السور بهذه الحروف لإرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرة، لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً، وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله عز وجل قد وضعها هذا الوضع فسمى بها، وأن كل حرف منها فى آجال قوم وأرزاق آخرين، وهى مع ذلك مأخوذة من صفات الله تعالى فى إنعامه وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن الكريم من لم يكن سمع، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدالُّ على نبوة محمد ﷺ بهذه الحروف، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعائمة بينهم دليل على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع أول كل سورة فهو اسم لتلك السورة. ثم يضيف ابن فارس: وهذا القول الجامع للتأويلات كلها،

والله أعلم بما أراد من ذلك.

وبعد هذا العرض نشير إلى أنه قد قامت حول إعجاز القرآن الكريم والكشف عنه حركة بلاغية في ضوء ثلاثة من العلوم هي المعاني والبيان والبدیع، وقد تضمنت الكثير من البحوث الجلیلة، والدراسات النافعة التي اهتمت بأصوات الكتاب العزيز، وأبنته الصرفية، وتراكيبه النحوية، ودلالة ألفاظه الشريفة، وسوف نتوقف أمام هذا كله بالدراسة التفصيلية في ضوء «علم الجمال اللغوي» الذي يضم:

١- علم الجمال الصوتي.

٢- علم الجمال التركيبي.

٣- علم الجمال الدلالي.

وستكون تلك الدراسة تطبيقية في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربي، والجمل والعبارات الافتراضية. وقبل الدخول في تلك الدراسة نحاول التعرف على ما أسميناه بـ «النقد اللغوي للشعر»، وهو موضوع الفصل الأول.

## الفصل الأول

### فى النقد اللغوى للشعر



### تمهيد

من الأمور اللافتة للنظر فى تاريخ العرب اهتمامهم الشديد بلغتهم، وعنايتهم بشأنها، واحتفاؤهم بها، والدليل على ذلك أنهم إذا نبغ منهم شاعر أو خطيب أقاموا الولائم، واحتفوا به، وجعلوه عيداً لهم وفخراً؛ بالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب الفصاحة والبلاغة والمقدرة على التعبير من الشعراء والخطباء كانوا رؤساء الوفود عند العرب، وهم أهل الرأى والشورى الذين يرجع إليهم. وقد ورد عنهم الكثير من الشعر والنثر فى مديح اللسان، ومن ذلك قول الشاعر:

أرى الناس فى الأخلاق أهلَ تخلُّق	وأخيارهم شتى فُعرفَ ومنكَّرُ
قريباً تدانيهم إذا ماريتهم	ومختلفاً ما بينهم حين تجبرُ
فلا تحمذن الدهرَ ظاهرَ صفحة	من المرء ما لم تبل ما ليس يظهرُ
فما المرء إلا الأصغر إن لسانه	ومعقوله والجسم خلق مصورُ
وما الزين فى ثوبٍ تراه وإنما	يزين الفتى مخبوره حين يخبرُ
فإن طرّة راقك منهم فربما	أمر مذاق العود والعود أخضر <sup>(١)</sup>

وكان الشاعر فى الجاهلية يقدّم على الخطيب بفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوق، وتسرعوا إلى أعراض من الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر؛ لذلك قالوا إن الشعر وضع من قدر النابغة الذبياني، ولو كان فى الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة<sup>(٢)</sup>.

وقد حرص العرب على إقامة الأسواق الأدبية فى مواسم معينة، وكانوا يجدون

(١) أهل تخلُّق: يقلد بعضهم بعضاً فى الأخلاق، وليسوا على طبع واحد، حين تخبر: حين تتكشف أحوالهم وحقائق أمورهم، ظاهر الصفحة: حسن الوجه وجمال الهيئة، تبلو: تخبر وتكشف، طرة: مجاز يراد به أية حالة ظاهرة خادعة بهرجها.

فيها الفرصة في سبيل إذاعة شعرهم ونشره بين القبائل الأخرى، وكانت عدتهم في تلك الأسواق «اللسان» الذي أحبوا فيه البيان والطلاقة، والتجوير والبلاغة، والتخلص والرشاقة. وكانت تلك الأسواق أشبه بمعارض لسانية أو مؤتمرات أدبية، تخرج فيها القبيلة عن عزلتها وتلتحم بغيرها من القبائل العربية، ويعود الفضل إلى تلك الأسواق في خلق الوحدة اللغوية أو في إيجاد ما يمكن أن نسميه بـ «اللغة المشتركة» التي ينشدون بها أشعارهم، وقد خلّت تلك اللغة من العيوب التي لحقت بعض اللهجات كالشكشة والعننة والتثنية وسواها؛ لذلك نستطيع أن نقول إنها منتقاة مختارة من كل لهجات القبائل. وبعد «سوق عكاظ» من أشهر أسواقهم الأدبية وأكثرها عمراناً بفنون القول من الشعر والنثر؛ لذلك أعدوا فيه المنابر يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام.

وقد اهتم بعض الشعراء في العصر الجاهلي بفنهم اهتماماً شديداً، ونال جل عنايتهم، وينصرف هذا الاهتمام وتلك العناية - في الأغلب الأعم - إلى التفتيح والتهذيب، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ في قوله: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاَ كَرِيْتاً (عاماً تاماً كاملاً) وزمناً طويلاً، يرد فيها نظره ويقلب فيها رأيه، انهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله ذماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلّدات والمنقحات والمحكمات؛ ليصير قائلها فحلاً خنذيلاً (فحلاً مجيداً) وشاعراً مقلّماً»<sup>(١)</sup>. وكان الأصمعي يقول: زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من يجود في جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر؛ حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة. وكان يقال: لولا أن الشعر قد استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتبس قعر الكلام واغتصاب الألفاظ - لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتت بهم المعاني سهواً ورهواً (سهلاً متدفقاً) وتنثال (تأتي عفواً بلا تكلف) عليهم الألفاظ انثيالاً»<sup>(٢)</sup>.

(١) السابق : ٧ / ٢ .

(٢) السابق : ١١ / ٢ .



ولكل فن أدواته، والشعر فن أداته اللغة بأصواتها وصيغها الصرفية ونراكيبها النحوية ودلالة ألفاظها؛ تلك اللغة التي عرفها ابن جني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم<sup>(١)</sup>؛ لذلك إذا استطاع الشاعر توظيف اللغة في عمله الفني توظيفاً جيداً لقي إعجاب النقاد واستحسانهم، أما إذا حدث العكس فإن الاستهجان هو ما يجنيه من قريضة. ولقد كان للغويين دور في الحياة النقدية عند القدماء، والدليل على ذلك تلك الروايات التي وردت في كتب الطبقات والتراجم مشيرة إلى تتبعهم للغة في الشعر؛ بل إن واحداً من كبارهم هو ابن قتيبة اهتم بـ (الشعر والشعراء) في واحد من مؤلفاته القيمة.

وهذا الفصل الذي نعقده للحديث عن النقد اللغوي للشعر محاولة للتعرف على الانتقادات التي وُجّهت للشعر والشعراء، مع الاهتمام بدور الشعراء في النقد اللغوي، وأدوات الشعر، والتعليل اللغوي لأسماء الشعراء وألقابهم، وعمود الشعر وسواها.

---

(١) الخصائص: ٣٣ / ١. وللتعرف على هذا المفهوم للغة انظر كتابنا: فقه اللغة وعلم اللغة ١٠ -

## دور الشعراء في النقد اللغوى

ظهر دور الشعراء في هذا النقد اللغوى منذ العصر الجاهلى، واشتهر به جماعة منهم، وعلى رأسهم النابغة الذبياني الذى كان تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت، ثم الشعراء، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته، فقال لها النابغة: والله لولا أن أبا بصير أنشدني أنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك! فقبض النابغة على يده، ثم قال: يابن أخى، إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى:

فإنك كالليل الذى هو مذكرسى وإن خلت أن المتأى عنك واسع  
ثم قال للخنساء: أنشديه، فأنشدته، فقال: والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك!  
فقال له الخنساء: والله ولا ذا خصيين<sup>(١)</sup>. ويروى أيضاً أن حسان بن ثابت ثار عليه، وقال إنه أشعر منه ومن الخنساء؛ فقال له النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفّنات الغرّ يلمعن بالضحي وأسافنا يقطرن من نجدة دما  
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنماً<sup>(٢)</sup>

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفنانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. وفي رواية أخرى: إنك قلت «الجفّنات» فقللت العدد ولو قلت: الجفان لكان أكثر، وقلت «يلمعن فى الضحي»، ولو قلت: يبرقن بالدجي لكان أبلغ فى المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً، وقلت «يقطرن من نجدة دماً» فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً<sup>(٣)</sup>.

(١) النقاء: ثعلبة بن عمرو مزريقياً أحد أجداد الأزد القدماء من اليمن، والمرق: جبلة بن الحارث أمير النخاسة فى الشام لأوائل القرن السادس.

(٢) الأغاني: ٩ / ٣٤٠، وانظر نقد الشعر: ٦٠، والموضع ٨٢.

ويمكن دراسة نقد النابغة في ضوء «الإحلال» replacement بين المفردات والتراكيب النحوية كما في الجدول الآتي:

مسلل	حسان	النابغة
١	الجفنان	الجفان
٢	بلمعن	يرقرن
٣	بالضحي	بالدحي
٤	يقطرن	يجرين

وهذا الإحلال يرتبط عند النابغة بالدلالة، ويمكن إيضاح ذلك في النقاط الآتية:

١- تدل «الجفان» على الكثرة في العدد<sup>(١)</sup>.

٢- «يرقرن بالدحي» فيه الدلالة على المبالغة في المدح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً.

٣- التركيب النحوي «يجرين» فيه الدلالة على كثرة انصباب الدم.

وقد أشار النابغة إلى ما يتصل بالدلالة في البيت الثاني دون أن يلجأ إلى الإحلال، وهو يتصل بفخر حسان بمن ولد دون الفخر بمن ولده.

وإذا تركنا العصر الجاهلي للتعرف على دور الشعراء في النقد اللفوي؛ فإننا نجد جرير بن عطية وقد ألقى ببعض الملاحظات اللفوية حين نقد الشعر؛ إذ كان يتتبع المفردات التي يستعملها الشعراء، مع ربطها بالسياق فقد سمع عمر بن لجا التيمي ينشد أرجوزة له يصف إبله:

(١) يرى أبو بكر بن الأنباري رأياً مخالفاً لذلك؛ فقد أورد بيت حسان وعلق عليه بقوله: «فالجفنان ههنا معناها الكثرة؛ لأنه لم يرد أن لنا جفنان قليلة؛ لأنه لو أراد ذلك لم يكن مبالغة في المدح. وقرئت القراء: (وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم) [التوبة / ١٠٣] فليس معنى الصلوات القلة؛ إنما معناها الكثرة. المذكر والمؤنث: ٢٠٣ / ١، وانظر رد قدامة على النابغة في: نقد الشعر

قد وردت قبلَ إني ضحائها  
تقرش الحيات في غشائها  
جرّ العجوز الثني من كسائها<sup>(١)</sup>

فقال له جرير: كان أولى بك أن تقول «جر العروس» لا «جر العجوز» التي تنساقط خوراً وضعفاً<sup>(٢)</sup>. ونقد جرير ينصب على دلالة كل من «العروس» و «العجوز» في المعجم العربي.

ويروى أن ذا الرمة قدم الكوفة، فوقف راحلته بالكناسة ينشد قصيدته الحائية؛ فلما بلغ إلى هذا البيت:

إذا غيرَ التأني المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح<sup>(٣)</sup>  
فقال له ابن شبرمة: يا ذا الرمة؛ أراه قد برح. ففكر ساعة، ثم قال:

إذا غيرَ التأني المحبين لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح  
وقد لجأ ذو الرمة إلى الإحلال بين الفعلين «يكاد» و «أجد»، وإن كان أبو الحكم بن البختری بن المختار قد علّق على هذا الإحلال الذي لجأ إليه الشاعر بقوله: «أخطأ ابن شبرمة حيث أنكر عليه، وأخطأ ذو الرمة حيث رجع إلى قوله؛ إنما هذا كقول الله عز وجل: (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)<sup>(٤)</sup>؛ أي لم يرها ولم يكد<sup>(٥)</sup>.

ونترك هذا الحديث عن الشعراء ودورهم في النقد اللغوي إلى حديث آخر، يتصل بتحكيك الشعراء في الخصومات، يدلنا على ذلك ما جرى بين الحطيئة

(١) ورد الرجز «ونفرس» مكان «نقرش»، و «خرشائها» مكان «غشائها». انظر الموشح: ٢٠٢.

(٢) طبقات ابن سلام: ٣٦٢.

(٣) رسيس الهوى: أثره.

(٤) التور / ٤٠.

(٥) الموشح: ٢٨٣.

والزُّبْرَقَانِ بنِ بدر، الذى هجاء الحطيئة بعدة أبيات منها قوله:

دع المكارمَ لآترحَلْ لُبَيْتُهَا      واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فاستعدى عليه الزُّبْرَقَانُ عمرَ بن الخطاب، رضى الله عنه، وأنشده هذا البيت، فقال له عمر: ما أعلمه هجاءك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟ قال: إنه لا يكون فى الهجاء أشدُّ من هذا. ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فسأله عن ذلك فقال: لم يهجه، ولكن سلح عليه! فحبسه عمر وقال: ياخيبي! لأشغلنك عن أعراض المسلمين؛ فقال وهو محبوب:

ماذا أُرِدْتُ لأفراخَ بذي مَرخ      حُمِرَ الحواصلُ لا ماءً ولا شجر<sup>(١)</sup>  
أَلْقَيْتُ كاسيهم فى قعرٍ مظلمةٍ      فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمر

فرق له عمر وخلقى سبيله، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً من المسلمين<sup>(٢)</sup>. ومن هنا فإن وصفه بـ «الطاعم الكاسى»<sup>(٣)</sup> من أشد أنواع الهجاء كما نلمح من قول حسان؛ بالإضافة إلى أن أمير المؤمنين كان يعلم ذلك؛ لأنه يتذوق الشعر ويعرف أغراضه ومعانيه، ولكنه فضل أن يكون الحكم لواحدٍ من الشعراء أنفسهم.

ويروى أيضاً أن النجاشي الحارثي (قيس بن عمرو بن مالك) هجا بنى العجلان؛ فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: ما قال فيكم؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهلَ لؤمٍ ورقيةٍ      فعادى بنى العجلانِ رهطَ ابنِ مُقبلٍ

فقال عمر: إنما دعا، فإن كان مظلوماً استجب له، وإن كان ظالماً لم يستجب له، قالوا: وقد قال أيضاً:

قُبيلةٌ لا ينفدرون بدميةٍ      ولا يظلمون الناسَ حبةَ خردلٍ

(١) ذو مرخ: اسم موضع.

(٢) الشعر والشراء: ١ / ٣٢٨.

(٣) من الظواهر التى تطيح الجملة العربية التحويل فى الصيغ الصرفية، و «الطاعم الكاسى» المراد بهما اسم المفعول. انظر كتابنا: ظاهرة التحويل فى الصيغ الصرفية.

فقال عمر: ليت آل الخطاب هكذا! قالوا: وقد قال أيضاً:

ولا يَرُدُّونَ المَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً    إذا صدر الرُّادُ عن كُلِّ مَنَهَلٍ

فقال عمر: ذلك أقلُّ للكاك<sup>(١)</sup>! قالوا: وقد قال أيضاً:

تَعَاثُ الكلابُ الضارياتُ لحومهم    وتَأْكُلُ من كعبٍ وعوفٍ ونَهْشَلٍ

فقال عمر: أجنُّ القومُ موتاهم فلم يضيئهم! قالوا: وقد قال:

وما سُمِّيَ العجلانَ إلا لقليلهم    خَذِ القَعْبَ واحْلُبْ أيها العبدُ واعجَلِ<sup>(٢)</sup>

فقال عمر: خير القوم خادهم، وكلنا عبيد الله. ثم بعث حسان والحطيئة، وكان محبوساً عنده، فسألهما، فقال حسان مثل قوله في شعر الحطيئة، فهدد عمر النجاشي وقال له: إن عدتَ قطعتُ لسانك<sup>(٣)</sup>.

(١) اللكاك: الزحام.

(٢) القعب: القدح الضخم الغليظ.

(٣) الرواية في عدة مصادر كالشعراء والشعراء: ١ / ٣٣٠ و ٣٣١، والعمدة: ١ / ٣٧ و ٣٨.

## موقف اللغويين من شعر معاصريهم

رفض بعض اللغويين شعر معاصريهم؛ حتى إن اللغوى قد يسمع شعراً، وينال هذا الشعر إعجابه، فإذا أخبر بأنه لواحد من معاصريه رفضه. قال القاضى الجرجاني: «وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة، من يلهج بعبق المتأخرين، فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده، ويعجب منه ويختاره؛ فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه، ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث، والإقرار بإحسان مولده»<sup>(١)</sup>. فقد حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال: أنشدت الأصمعي: هل إلى نظرة إليك سبيلُ فيلُ الصدى ويشقى الغليلُ إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال: والله هذا الديباج الخسرواني، لمن تشدني؟ فقلت: إنهما ليليتهما؛ فقال: لاجرم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهره<sup>(٢)</sup>.

وقد حاول ابن قتيبة في دراسته للشعر والشعراء أن يتخلص من التعصب للقدماء ضد المحدثين، وأن يسوى بينهم في تلك الدراسة؛ لذلك نجده يقول: «ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلاهما حظه، ووفرت عليه حقه. فأبى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرف خارجة في أوله؛ فقد

(١) الوساطة: ٥٠.

(٢) أخبار أبي تمام: ١٧٣.

كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعدّون محدّثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثّر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممتُ بروايته. ثم صار هؤلاء قداماً عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هاني وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حدّاه سنه. كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه<sup>(١)</sup>.

ولكن الدكتور شوقي ضيف يعلّق على هذا النص بقوله: «غير أن ابن قتيبة كان شذوذاً على ذوق اللغويين، ولم يلبث أن عاد إليهم بعد قوله السالف بقليل؛ إذ حرم على المحدثين الخروج عن مذاهب المتقدمين في بكاء الأطلال ووصف الناقاة والورود على المياه الآسنة، فليس لهم في رأيه أن يبكوا مشيد البنيان ولا أن يصفوا بغلاً ركبوه، بل لا بد أن يجعلوه ناقاة، ولا بد أن ينعتوا ماء عذباً جارياً وردوه؛ بل حتى ليس لهم أن يذكروا الترجس والورد والآس وما إلى ذلك من أزهار الحاضرة، إنما يذكرون الشيخ والحنوة والعرار وما إلى ذلك من أزهار البادية»<sup>(٢)</sup>.

وننتقل الآن إلى الحديث عن الانتقادات اللغوية التي وجهها القدماء للشعر، وقد جمعنا معظم تلك الانتقادات، ورأينا أن تصنف حسب المستويات اللغوية، ونبدأ بالعرض لما يتصل بالأصوات.

(١) الشعر والشعراء: ١ / ٦٢ و ٦٣.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ: ٧٤.



## النقد اللغوي والأصوات

اهتم القدماء بالتوقف أمام الأصوات المفردة بالدرس والتحليل، وبيان التنافر والتلاؤم فيما بينها حين تأليف الكلمات من مجموعها. وقبل الدخول في العرض للاتقادات التي وُجِّهَت للشعر في ضوء الأصوات، نتوقف أمام ما قاله ابن سنان الخفاجي حول مفهوم «الصوت».

قال: «الصوت مصدر صات الشيء يَصُوت صوتاً فهو صائت، وصوت تصويتاً فهو مصوت، وهو عام لا يختص. يقال: صوت الإنسان وصوت الحمار، وفي الكتاب الكريم: (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)<sup>(١)</sup>»، وقال الراجز:

كأنما أصواتها في السوادي أصوات حُجج من عُمان غاد<sup>(٢)</sup>

وقال جرير بن عطية:

لما تذكرت بالديرين أرقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس  
والصوت مذكر؛ لأنه مصدر كالضرب والقتل، وقد ورد مؤنثاً على ضرب من التأول. قال رؤشد بن كثير الطائي:

يأبها الراكب المزجي مطيته بلسغ بنى أمد ما هذه الصوت  
فأراد الاستغثة... ويقال: رجل صات؛ أي شديد الصوت... وقولهم: لفلان صيت، إذا انتشر ذكره، من لفظ الصوت، إلا واوه انقلبت ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها<sup>(٣)</sup>.

ويدل هذا النص على أن الصوت مصدر مذكر عام يوصف به العاقل وغير العاقل، وما ورد في الشعر من تأنيث الصوت له تأويل دلالي، كأن يكون بمعنى الاستغثة. وقد أشار ابن سنان، بعد ذلك، إلى أن الصوت معقول؛ لأنه يدرك، ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك، وهو عرض ليس بجسم، ولاصفة لجسم،

(١) لقمان / ١٩.

(٢) حج: جمع ومفردها حاج.

(٣) سر الفصاحة: ١٥ و ١٦.

والدليل على أنه ليس بجسم، أنه مدرك بحاسة السمع؛ فلو كان جسماً لكانت الأجسام جميعها مدركة بحاسة السمع، وفي علمنا ببطلان ذلك دليل على أن الصوت ليس بجسم.

وبعد هذا العرض لمفهوم الصوت عند علماء البلاغة، كما عبر عنه ابن سنان، نشير إلى أنه لا يوجد صوت مفرد حسن وآخر قبيح؛ فالطاء - مثلاً - ليست أجمل من الزاي أو العكس؛ بل كلاهما صوت يتشكل مع غيره؛ ليكون اللفظة المفردة التي يدخلها الحُسْن أو القبح حين التأليف، وليس قرب المخرج أو بعده أيضاً هو الذي يؤدي إلى الحسن أو القبح؛ بل الأساس في التأليف دونما اعتبار لقرب أو بُعد للصوت من حيث خروجه من الحلق. وقد أفصح عن ذلك يحيى العلوى فيما كتبه تحت عنوان: «في بيان ما يجب مراعاته من حسن التركيب» قائلاً: «اعلم أن هذا النظر إنما يختص بالمفردات؛ فإنها وإن كانت مختلفة؛ أعني مفردات الحروف في العذوبة والسلاسة؛ فإن شيئاً منها غيره مستكره، لكن الاستكره إنما يعرض من أجل التأليف، لما يحصل بسببه من التنافر والثقل؛ فلأجل هذا كانت العناية في أحكام التركيب والتأليف؛ لأنه ربما حصل على وجه يفيد دقة اللفظ وحلاوته فيكون حسناً، وربما حصل على وجه يفيد ثقلًا وتعثرًا في اللسان فيكون قبيحًا؛ فإذاً العناية كلها في التركيب...»<sup>(١)</sup>.

ثم يشير يحيى العلوى إلى ما يتصل بالألفاظ في أصل وضعها اللغوي من حيث عدم الجمع بين أصوات بعينها قائلاً: «قد بان من حسن تصرف واضع اللغة امتناعه من الجمع بين العين والحاء، وبين الغين والحاء، ومن الجمع بين الجيم والصاد، وبين الجيم والقاف، وبين الذال المعجمة والزاي». ولكن ما تعليل هذا عند يحيى العلوى؟ يجيب عن هذا التساؤل بقوله: «وما ذاك إلا لما يحصل من تأليف هذه من البشاعة والثقل على الألسنة في النطق، وليس ذلك من أجل ما يحصل من تقارب مخارج الحروف وتباعدها...». والدليل على أن بُعد المخرج أو قربه ليس السبب في ذلك كلمة «ملع»<sup>(٢)</sup>؛ فالعين من حروف الحلق، والميم من

(١) الطراز: ١ / ١٠٧.

(٢) ملح: عدا.

الشفة، واللام من وسط اللسان - كما يقول العلوى - ومع ذلك فإنها ثقيلة على اللسان، ينبو عنها الذوق، ولا تستعمل في كلام فصيح. وربما عرض لما تقاربت حروفه حسن الذوق في اللسان فكان حسناً، ومثاله قولنا «ذقته بقمي»؛ فإن الباء والفاء والميم كلها أحرف متقاربة شفوية، وهي رقيقة حسنة يخف حملها على اللسان؛ لذلك لا يوجد حسن أو قبح يتعلق بقرب المخرج أو بعده.

وقد درس علماء البلاغة فصاحة الأصوات التي يتكون منها اللفظ المفرد خلال الجانب التطبيقي، ومن أمثلتهم تلك الرواية التي تقول إن أعرابياً سئل عن ناقته؛ فقال: «تركتها ترعى الهعْخُع»<sup>(١)</sup>، وهذا الاستعمال لكلمة «الهعْخُع» يمثلون به للتنافر وعلامته الثقل على اللسان، وعُسْر النطق<sup>(٢)</sup>، وهي أعلى درجات التنافر. وهناك استعمال أقل في التنافر، ويمثله كلمة «مستشزرات» في بيت امرئ القيس:

غداً ثمره مستشزراتٌ إلى العلا    تفضلُ المقاص في مثني ومُرسل<sup>(٣)</sup>  
وهناك تنافر يتصل بتكرار أصوات بعضها كالحاء والهاء في «أمدحه» من بيت أبي تمام:

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى    معى وإذا مالمته لمته وخدى  
قال الخطيب القزويني: «فإن في قوله أمدحه نقلاً ما؛ لما بين الحاء والهاء من تنافره»<sup>(٤)</sup>. ويبدو أن تكرار التركيب النحوي «أمدحه» هو الذى أدى إلى هذا التنافر بين الصوتين ويمكن أن يدخل في هذا التنافر قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر    وليس قرب قبر حرب قبر<sup>(٥)</sup>

(١) ضرب من الشجر أو النبات.

(٢) الإيضاح: ٧٥.

(٣) الغدائر: الذوايب، واحدها غديرة، ومستشزرات: مرفوعات؛ وأصل الشز: القتل على غير الجهة، فأراد أنها مفتولة على غير الجهة من كثرتها، والمقاص: ما جمع من الشعر كهيفة الكبة، وفي مثني ومرسل: معناه منها ما قد ثنى ومنها ما لم يثن. انظر: شرح القصائد السبع: ٦٣.

(٤) الإيضاح: ٧٥.

(٥) الطراز: ١/ ١٠٤.

الذى احتوى على تكرار لأصوات القاف والياء والراء، تبعه تكرار لبعض المفردات. وما يتصل بالتنافر الكراهة في السمع، ومن علاماته أن تُمعج الكلمة، ويُتبرأ من سماعها، كما يُتبرأ من سماع الأصوات المتكررة؛ فإن اللفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ماتستلذ النفس سماعه، ومنها ما تكره النفس سماعه؛ فإنه يستلذ بصوت القمرى، ويكره صوت الغراب، ويستظرف صهيل الفرس، ويستنكر نهيق الحمار<sup>(١)</sup>. وقد مثلوا لما يكره سماعه كلمة «الجِرشى» فى قول المتنبي:

مبارك الاسم أغرُّ القلبِ      كريمُ الجِرشى شريفُ النسبِ<sup>(٢)</sup>

و «حقلد» فى قول زهير:

تقى نقى لم يكثر غنيمه      بنهكة ذى قرى ولا بحقلد<sup>(٣)</sup>

قال ابن سنان: «الحقلد كلمة توفى على قبح الجرشى وتزيد عليها»<sup>(٤)</sup>.

وما يتصل بالكراهة فى السمع والثقل على اللسان ما أشار إليه علماء البلاغة من كثرة عدد الأصوات المفردة التى تتشكل منها اللفظة، ومتى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة<sup>(٥)</sup>، كما يقول ابن سنان، ومن أمثلة ذلك قول أبى نصر بن نباتة:

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم      ألا إن مغناطيسهن الذوائبُ

(١) الطراز: ١ / ١٠٤.

(٢) الجرشى: النفس، واللقب: ما يبرز به الرجل. والمعنى: يريد أن اسم سيف الدولة على، وهو اسم مبارك يترك به لكان على عليه السلام، وهو مشتق من العلو، والعلو محبوب مطلوب. ويريد أنه مشهور اللقب بسيف الدولة، قد اشتهر به فى الآفاق فهو أغر، والأغر: الواضح الأبلج، وشريف النسب؛ لأنه من ربعة، وهم كرام أشراف. انظر شرح ديوان المتنبي: ١ / ٩٩.

(٣) الحقلد: سبيء الخلق. شرح ديوان زهير: ٢٣٤. وانظر معنى اللبيب: ٦٨٥، إذ إن أبا حيان سأل ابن هشام عن المطف فى «ولاحقده»، ولم يجب ابن هشام إلا بعد أن عرف معنى «الحقلد».

(٤) سر الفصاحة: ٦٦.

(٥) السابق: ٨٨.

فإن «مغناطيسهن» مكونة من عنصرين الاسم الذى أضيف إلى الضمير بعده، مما أدى إلى الطول. ومن هذا النوع أيضاً قول أبى تمام:

فَلأَذْرِيْجَانِ اِخْتِيَالٌ بَعْدَ مَا      كَانَتْ مَعْرُسٌ عِبْرَةً وَنِكَالِ  
سَمَّجَتْ وَنَهْنَهَا عَلَى اسْتِمَاجِهَا      مَا حَوْلَهَا مِنْ نَضْرَةٍ وَجَمَالِ

قال ابن سنان: فقولهُ «فَلأَذْرِيْجَانِ» كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها وهى غير عربية، ولكن هذا وجه قبحها، وكذلك قوله فى البيت الثانى «استمَاجِهَا» ردىء لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد فى الألفاظ إلى الشاذ النادر<sup>(١)</sup>. وعبارة «فَلأَذْرِيْجَانِ» مكونة من ثلاثة عناصر نحوية: الفاء واللام والاسم، و«استمَاجِهَا» مكونة من عنصرين: الاسم المضاف إلى الضمير، وقد عاملهما ابن سنان على أن كلا منهما كلمة مفردة.

ونحو من هذا قول أبى الطيب المتننى:

إِنَّ الْكَرِيمَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمْ      مِثْلَ الْقُلُوبِ بِلَا سُيُودَاوَاتِهَا  
فـ «سُيُودَاوَاتِهَا» كلمة طويلة جداً. ومنه أيضاً قول أبى تمام:

أَنِلَّهِ بِاسْتِمَاعِكِهِ مَحَلًّا      يَفْسُوتُ عَلَيْهِ الطَّرْفُ الطُّمُوحَا  
فليس بقبح قوله «بِاسْتِمَاعِكِهِ» خفاء لكثرة الحروف .... وكذلك قوله أيضاً:

الْعَيْشُ تَعْلَمُ أَنَّ حَوَاوَاتِهَا      رِيحٌ إِذَا بَلَغَتْكَ إِنْ لَمْ تُتَخَيَّرِ<sup>(٢)</sup>  
و «حَوَاوَاتِهَا» كلمة طويلة جداً. ومنه قول أيضاً:

وإِلَى مُحَمَّدٍ ابْتِغَتْ قَصَائِدِي      وَرَفَعْتُ لِلْمُسْتَشْدِيْنَ لَوَائِي  
فـ «المُسْتَشْدِيْنَ» كلمة كثيرة الحروف .....<sup>(٣)</sup>.

واهتم النقاد بالنظر فى الوزن وبيان ما يعثره من عيوب، وهى تتصل بالأصوات

(١) السابق والصحيفة نفسها.

(٢) حوايات: جمع حواء، ومعناها النفس.

(٣) سر الفصاحة: ٨٨ و ٨٩.

اتصالاً مباشراً، ومن تلك العيوب «التخليع»، وهو أن يكون قبيح الوزن قد أفرط قائله في تزحيفه، وجعل ذلك بنيةً للشعر كله، حتى مِيلَه إلى الانكسار، وأخرجه عن باب الشعر الذى يعرف السامع له صحة وزنه فى أول وهلة، إلى ما ينكره حتى ينعم ذوقه، أو يعرضه على العروض فيصح فيه، فإن ماجرى من الشعر هذا المجرى ناقص الطلاوة، قليل الحلاوة؛ وذلك مثل الأسود بن يعفر:

إنا ذمنا على ما خيلتُ	سعد بن زيد وعمراً من تميم
وضبة المشتري العار بنا	وذاك عم بنا غير رحيم
لا ينتهون الدهر عن مولى لهم	قورك بالسهم حافات الأديم
ونحن قوم لنا رماح	وثرورة من موالٍ وصميم
لانشتكى الوصم فى الحرب ولا	نغن منها كئانان السليم

ومثل قول عروة بن الورد:

يا هند بنت أبى ذراع	أخلفتنى ظنى ووترتنى عشقى
ونكحت راعى ثلة يثمرها	والدهر فائمه بما يقى

ومثل قصيدة عبيد بن الأبرص، وفيها أبيات قد خرجت عن العروض البتة، وقبح ذلك جودة الشعر، حتى أصاره إلى حد الردىء منه؛ فمن ذلك قوله:

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تعذيب  
فهذا معنى جيد، ولفظ حسن، إلا أن وزنه قد شانه وقبح حسنه، وأفسد جيده<sup>(١)</sup>.

فما جرى من التزحيف هذا المجرى فى القصيدة أو الأبيات كلها أو أكثرها، كان قبيحاً من أجل إفراطه فى التخليع واحدة، ثم من أجل دوامه وكثرته ثانية، وإنما يستحب من التزحيف ما كان غير مفرط، أو كان فى بيت أو بيتين من القصيدة من غير توالي ولا اتساق، ولا إفراط يخرج عن الوزن، مثل ما قال متمم ابن نويرة:

(١) نقد الشعر: ١٨١ و ١٨٢؛ والموشح: ١٢١ و ١٢٢.

وَقَفَدُ بَنَى أُمَّ تَدَاعَوْا فَلَمْ أَكُنْ      خِلَافَهُمْ لِأَسْتَكِينُ وَأَضْرَعَا  
فَأَمَّا الْإِفْرَاطُ وَالِدَوَامُ فَقَبِيحٌ .

والتخليع من عيوب الوزن، وهناك ما يتصل بعيوب القوافي، وهو التجميع، ويعرفونه بأن تكون قافية المصراع الأول من البيت الأول على روى متهى لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه، فتأتى بخلافه، مثل ما قال عمرو بن شأس:  
تذكرتُ ليلي لات حين اذكارها      وقد حنَّ الأَصْلَابُ ضُلًّا بتضلال  
ومثل قول الشماخ:

لِمَنْ مَنَزَلٌ عَافٍ وَرَسْمٌ مَنَازِلُ      عَفْتُ بَعْدَ عَهْدِ الْعَاهِدِينَ رِيَاضَهَا<sup>(١)</sup>  
\* \* \*

### النقد اللغوى والتركيب

أشار اللغويون والنقاد إلى بعض المآخذ التى أخذوها على الشعراء فى نظمهم، ويمكن تنظيمها على النحو الآتى:

-١-

#### التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من الظواهر التى تطبع الجملة العربية فى تركيبها النحوى، وقد لجأ إليهما الشعراء، ولكن هذا أدى إلى الإبهام فى الدلالة. قال النابغة:

يَصَاحِبُهُمْ حَتَّى يُغَرْنَ مَغَارَهُمْ      مِنْ الضَّارِيَاتِ بِالدَّمَاءِ الدَّوَارِبِ<sup>(٢)</sup>

يريد: من الضاريات الدوارب بالدماء؛ فقدم وأخر؛ وإنما يقبح مثل هذا إذا التبس بما قبله؛ لأن «الدماء» جمع، و «الدوارب» جمع؛ ولو كان من الضاريات بالدم الدوارب لم يلتبس؛ وإن كانت هذه الكلمة حاجزة بين الكلمتين - أعنى بين الضاريات والدوارب - اللتين يجب أن تقرنا معاً<sup>(٣)</sup>.

(١) السابق: ١٨٥ .

(٢) انظر عبار الشعر: ٤٤ .

(٣) الموضح: ٥٣ .

ومن التقديم والتأخير الذى أدى إلى حدوث الغلط قول خدّاش بن زهير:  
 وتُرَكَّبُ خَيْلٌ لَاهُودَاءَ بَيْنَهَا      وتشقى الرماحُ بالضياطرة الحُمْرِ<sup>(١)</sup>  
 وإنما الضياطرة هى التى تشقى بالرماح<sup>(٢)</sup>. وقال الشاعر:  
 كانتْ فريضةً ما نقولُ كما      كان الزّناءُ فريضةً الرّجَمِ  
 وإنما الرجم فريضة الزّناء<sup>(٣)</sup>. وقال الفرزدق يصف ذئباً:  
 وأطلسَ عيالٍ وما كان صاحباً      رفعتُ لنارى مؤنّها فأناشى  
 قال المبرد: «قوله: رفعتُ لنارى، من المقلوب إنما أراد: رفعتُ له نارى»<sup>(٤)</sup>. وقال  
 عبيد الله بن قيس الرقيات:  
 أسلمتُه فى دمشق كما      أسلمتُ وحشيةً وهَقّاً  
 أراد: كما أسلم وحشيةً وهَقّاً؛ فقلب على الغلط<sup>(٥)</sup>. ومن الخطأ قول أبى تمام:  
 طللُ الجميع لقد عفوت حميداً      وكفى على رزئى بذاك شهيداً  
 قال الآمدى: «أراد وكفى بأنه مضى حميداً شاهداً على أنى رزئت، وكان وجه  
 الكلام أن يقول: وكفى برزئى شاهداً على أنه مضى حميداً؛ لأن حميداً من  
 الطلل قد مضى، وليس بشاهد ولا معلوم، ورزؤه بما يظهر من تفجعه مشاهد  
 معلوم؛ فلأن يكون الحاضر شاهداً على الغائب أولى من أن يكون الغائب شاهداً  
 على الحاضر». وقد ورد الآمدى على من أشار إلى أن بيت أبى تمام جاء على  
 التقديم والتأخير؛ أى القلب، فقال: «التأخر لأيرخص له فى القلب؛ لأن القلب  
 إنما جاء فى كلام العرب على السهو، والتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم، ويقضى  
 بهم؛ وليس ينبغى له أن يتبعهم فيما سهوا فيه»<sup>(٦)</sup>.

(١) الضياطرة: جمع ضيطر، وهو اللثيم الضخم.

(٢) سر الفصاحة: ١١٤.

(٣) السابق: ١١٥، وتأويل مشكل القرآن: ١٩٩.

(٤) الكامل: ١/ ٣٢٠.

(٥) تأويل مشكل القرآن: ١٩٨.

(٦) الموازن: ١/ ٢١٧.



ومما جاء على الخطأ فى التقديم والتأخير قول عروة بن الورد:  
فدبتُ بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطبقُ  
يريد أن يقول: فدبتُ نفسه بنفسى<sup>(١)</sup>.

ومن الأبيات التى لها رواج معين فى باب التقديم والتأخير قول الفرزدق:  
وما مثله فى الناس إلا مملُكا أبو أمه حتى أبو يقاربه  
فقد قالوا إنه «من الكلام الغث المستكره الغلق»<sup>(٢)</sup>. وقال المرزبانى: «وإنما أراد: وما مثله فى الناس حتى يقاربه إلا مملُك أبو أمه أبوه، فتعسف هذا التعسف الشديد، ووضع أشياء فى غير مواضعها؛ وإنما مدح بهذا الشعر خال هشام، فقال: ما فى الناس حتى يقارب خال هشام إلا هشام الذى أبو أمه أبوه؛ يعنى أن جد هشام لأمه أبو هذا الممدوح»<sup>(٣)</sup>.

وللفرزدق بيت آخر، أكثر فيه من التقديم والتأخير، الذى لا يؤدى إلى فهم المعنى المراد إلا بعد تدبر كثير. قال:

فليست خراسان التى كان خالدٌ بها أسدٌ إذ كان سيفاً أميرها  
وقد أوضح ابن جنى ما يقصده الفرزدق بقوله: «وذلك أنه - فيما ذكر - يمدح خالد بن الوليد ويهجو أسداً، وكان أسد وليها بعد خالد؛ قالوا فكأنه قال: وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفاً، إذ كان أسد أميرها؛ ففى «كان» على هذا ضمير الشأن والحديث، والجملة بعدها التى هى «أسد أميرها» خبر عنها. ففى هذا التنزيل أشياء: منها الفصل بين اسم «كان» الأولى وهو «خالد» وبين خبرها الذى هو «سيفاً» بقوله «بها أسد إذ كان» فهذا واحد. وثان: أنه قدّم بعض ما «إذ» مضافة إليه وهو «أسد» عليها. وفى تقديم المضاف إليه أو شئ منه على

(١) سر الفصاحة: ١١٤.

(٢) عيار الشعر: ٧٢، والمثل السائر: ١/ ٣٩٧ و ٢/ ٢٢٩.

(٣) الموشح: ١٥٢. وتقدير البيت: وما مثله فى الناس حتى يقاربه إلا مملُكاً أبو أمه أبوه؛ إذ إن الفرزدق

يمدح هشام بن إسماعيل المخزومى، وهو خال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى.

المضاف من القبح والفساد ما لاخفاء به ولا ارتياب. وفيه أيضاً أن «أسده» أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير على شريطة التفسير؛ أعنى ما فى «كان» منه. وهذا الضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده. ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول<sup>(١)</sup>.

وهناك تقديم للمعطوف على المعطوف عليه. قال ابن عصفور: «وأحسن ما يكون ذلك فى الواو. ولا يجوز التقديم فيها إلا بشرط أن لا يؤدى التقديم إلى وقوعها صدر الكلام، لا يقال: وزيد عمرو قائمان، وبشرط أن لا يكون المعطوف عليه مخفوضاً، لا يقال: مررت وزيد بعمرو<sup>(٢)</sup>». ومما ورد على هذا النحو قول الشاعر:

جمعتَ وفحشاً غيباً ونميمةً ثلاثَ خصالٍ لست عنها بمرعوى<sup>(٣)</sup>

وقول حسان بن ثابت:

لعنَ الإلهُ وزوجَهَا معها هندَ الهنودِ طويلةَ البظرِ<sup>(٤)</sup>

يريد: لعنَ الإلهُ هندَ الهنودِ وزوجَهَا معها. وقول ذى الرمة:

وأنتَ عزيزٌ لا أظنُّ قضاءه ولا العنزى القارظَ الدهرَ جاثياً

يريد: لا أظنُّ قضاءه جاثياً ولا العنزى القارظَ الدهرَ، فقدم المعطوف عليه وعامله، وهو الضمير المستتر فى «جاء»<sup>(٥)</sup>. وقول متمم بن نويرة اليربوعي يرثى أخاه مالكا:

وإني متى ما أدعُ باسمك لأتجبُ وكنتَ جديراً أن تُجيبَ فتسمعا  
أى: أن تسمع فتجيب<sup>(٦)</sup>.

(١) الخصائص: ٢ / ٣٩٧.

(٢) الضرائر: ٢١٠.

(٣) الخصائص: ٢ / ١٣٨٣ وما يجوز للشاعر فى الضرورة للقرآن: ١٧٠.

(٤) المحتجب: ١ / ٣٤١، والمقرب لابن عصفور: ١ / ٢٣٤.

(٥) الضرائر: ٢١١.

(٦) السابق: ٢١١، وقد ورد البيت «أن تجيب وتسمعا». انظر العقد الفريد: ٣ / ٢٦٤.

ويلجأ الشعراء إلى تقديم النعت كما في قول الفرزدق:

متقلداً لأبيه كانت عنده أرباق صاحب ثلثة وبهام

يريد: متقلداً أرباق صاحب ثلثة وبهام كانت عنده لأبيه؛ فقدم النعت على المنعوت بدلاً منه<sup>(١)</sup>. وقال الشاعر:

ولست مقررًا للرجال ظلامه أبى ذاك عمى الأكرمان وخاليا

يريد: أبى ذاك عمى وخالي الأكرمان؛ فقدم النعت على أحد المنعوتين<sup>(٢)</sup>. وقال علقمة بن عبدة:

فأوردتها ماءً كأنَّ جماهه من الأجن حناءً معاً وصبيبٌ

يريد: كأن جماهه حناءً وصبيب معاً<sup>(٣)</sup>.

ويلجأون إلى تقديم ما بعد «إلا» عليها كما في قول الأعشى:

أحلَّ به الشيبُ أنقاله وما اغتره الشيبُ إلا اغترارا

يريد: وما اغتره اغتراراً إلا الشيبُ، فقدم. وإنما لم يكن بد من هذا التقدير؛ لأنها لو جعلت داخلة على المصدر لفظاً وتقديراً، لم يكن للكلام فائدة؛ إذ معلوم أنه لا يغتره الشيب خلاف الاغترار<sup>(٤)</sup>.

ويلجأ الشعراء إلى تقديم المجرور على حرف الجر، ولكن هذا التقديم من

القلة بحيث لا يلتفت إليه، ويجعل منه ابن عصفور قول الشاعر:

أَجْزَعُ إنْ نَفْسُ أَتَاهَا حَمَامُهَا فهِلَّا التي عن بينَ جنبيك تُدْفَعُ

يريد: فهلا التي بين جنبيك تدفع<sup>(٥)</sup>.

(١) الضرائر: ٢١٢.

(٢) المعنى: ٨٠٣، والضرائر: ٢١٢.

(٣) الضرائر: ٢١٢.

(٤) الضرائر: ٢١٢، والمعنى: ٣٨٩، وخزانة الأدب: ٣٠ / ٢.

(٥) يرى ابن هشام أن «عن» زائدة في البيت للتعويض من أخرى محذوفة. وهناك رواية أخرى له «فهل أنت عما بين جنبيك تدفع»، ولا شاهد فيه حينئذ. انظر المعنى: ١٩٨. وقال ابن جني: «أراد فهلا تدفع عن التي بين جنبيك، فحذفت «عن» من أول الموصول، وزيدت بعده» احتسب:

نخلص من هذا إلى أن التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تطبع الأداء اللغوي في الشعر، ولها تعليلان؛ أولهما يتصل بالدلالة؛ حيث يلجأ الشاعر إلى تقديم ما يكون معقد الفائدة وأساس الاهتمام، والآخر يتصل بالضرورة.

\* \* \*

-٢-

## الفصل

«الفصل» من المصطلحات الأصلية في الدرس النحوي والبلاغي، ويستخدمه العلماء للإشارة إلى ما يصيب بيت الشعر من الفصل بين العناصر النحوية -Grammatical Elements المتلازمة؛ كالفصل بين المضاف والمضاف إليه، والصفة والموصوف، وحرف العطف والمعطوف ... وهكذا. ويؤدي هذا الفصل إلى «القيح» في النظم والصعوبة في التوصل إلى المعنى، وإن كان قد خرج على أنه ضرورة، تجوز للشاعر دون الناثر. وتقدم، فيما يلي، بعض أمثله.

بعد الفصل بين المضاف والمضاف إليه أكثر شيوعاً في الشعر، ويكون بالظرف والجار والمجرور، الذي نبدأ به. قالت ذو الرمة:

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مَنْ يُبْغَالِهِنَّ بَنَاءً      أَوْ آخِرِ الْمَيْسِ أَصْوَاتُ الْفَرَارِيحِ<sup>(١)</sup>

والتركيب النحوي الذي أصابه الفصل أصله «كَأَنَّ أَصْوَاتَ أَوْ آخِرِ ...» والذي فصل بين عناصره «مَنْ يُبْغَالِهِنَّ بَنَاءً». وقالت دُرَّة بنت عبيدة:

هُمَا أَخَوَا فِي الْحَرْبِ مَنْ لَا أُنْهَالَهُ      إِذَا خَافَ يَوْمًا نَبْؤَةَ فِدْعَاهُمَا<sup>(٢)</sup>

والتركيب الذي أصابه الفصل «هُمَا أَخَوَا مَنْ ...» بواسطة الجار والمجرور «في الحرب». وقال الشاعر:

مُؤَخَّرٌ عَنْ أَنْبَاءِهِ جَلْدٌ رَأْسُهُ      وَأُسْنَانُهُ مِثْلُ الزَّجَاجِ خَرُوجُ<sup>(٣)</sup>

(١) المقتضب: ٤ / ٣٧٦؛ والخصائص: ١٤٠٤ / ٢؛ والموشح: ٢٩٢، والإبدال: الإبدال «هـ» في «بغالهن» تعود على

الإبل في بيت سابق، والميس: شجر ينتخذ منه الرجل والأقارب، والفراريج: صغار الدجاج، مفردا فروج.

(٢) الموشح: ٣٥٦.

(٣) معاني القرآن: ٨١ / ١، والضرائر: ١٩٢.

والتقدير «مؤخرٌ جلد...»، وتم الفصل بـ «عن أنياه».

ومن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف قولُ أبي حية النيمري (الهيثم ابن الربيع):

كما خُطَّ الكتابُ بكفٍ يوماً      يهودىً يقاربُ أو يُزِيلُ  
وترتيب الكلام: كما خُطَّ الكتابُ بكفٍ يهودى يوماً ... وقد فصل الشاعر بالظرف «يوماً». وقول عمرو بن قميئة:

لما رأتُ سائديما استعبرتُ      لله در اليومَ منَ لامها<sup>(١)</sup>  
يريد: لله در منَ لامها اليومَ. وقول الشاعر:  
فرشنى بخيرٍ لا أكوننَّ ومدحتى      كناحتٍ - يوماً - صخرةً بمسيل<sup>(٢)</sup>  
يريد: كناحتٍ صخرةً بمسيل يوماً.

وهناك فصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور؛ وذلك نحو الفصل بينهما بالمعطوف على الاسم المضاف مع حرف المعطف. قال الفرزدق:

يا من رأى عارضاً أُسرَّ به      بين ذراعى وجهة الأسد<sup>(٣)</sup>  
أراد بين ذراعى الأسد وجهة الأسد، كما يقول المبرد<sup>(٤)</sup>، وأضاف ابن عصفور:  
«فقدم المعطوف وحرف المعطف، وفصل بهما بين المضاف والمضاف إليه، وحذف الضمير لفهم المعنى اختصاراً»<sup>(٥)</sup>، ومثل هذا البيت قول الأعشى:

ولا نقاتنَّ لُ بالعِصَى      ولانرامى بالحجارة

(١) السابق والصحيفة نفسها، و«سائديما» اسم جبل كما فى معجم البلدان: ٣ / ١٦٨ و ١٦٩.

(٢) معانى القرآن: ٢ / ٨٠، والمخصص: ١١ / ٢٠٣. ويقول ابن عصفور عن معنى «عسيل»:

«والمسيل: مكسة يكتس بها المطار بلاطه من المطر». الضرائر: ١٩٣.

(٣) سر الصناعة: ١ / ٢٩٧. والمعارض: السحاب، والذراعان والجيبة: من منازل القمر الثمانية والعشرين.

(٤) المقنَّب: ٤ / ٢٢٩.

(٥) الضرائر: ١٩٤، وانظر شرح المفصل: ٣ / ٢١.

إلا علالةً أو بدا هة قارح نهدي الجزارة<sup>(١)</sup>  
يريد: إلا علالة قارح نهد الجزيرة أو بداهته<sup>(٢)</sup>.

وهناك فصل بين المضاف والمضاف إليه بسائر الأسماء التي ليست ظروفًا ولا مجرورات؛ وذلك نحو الفصل بالمفعول به. قال الشاعر:

فز ججتها بمزجة زج القلوص أبى مزاده<sup>(٣)</sup>  
وترتيب الكلام: زج أبى مزادة القلوص. وقال جندل بن المثنى:

يفركن حب السبل الكنافج بالقاع فرك القطن المحالج<sup>(٤)</sup>  
وترتيب الكلام: فرك المحالج القطن. وقال عمرو بن كلثوم:

وحلق الماذي والقوانس فداهم دوس الحصاد الدائس<sup>(٥)</sup>  
وترتيب الكلام: دوس الدائس الحصاد. وقال الطرماح:

يُطفن بجوزي المرائع لم يرغ بواديه من قرع القسي الكنائس<sup>(٦)</sup>  
ويقع الفصل بالمفعول لأجله. قال الشاعر:

أشم كأنه رجل عبوس مخالط جرأة وقت التوادى<sup>(٧)</sup>  
وترتيب الكلام: مخالط وقت التوادى جرأة؛ فقدم المفعول لأجله «جرأة» وهو المصدر، وفصل بينهما.

(١) العلالة: بقية جرى الفرس، والبداعة: أول جرى الفرس، والقارح: الذي بلغ أقصى أسنانه من الخيل، والنهد: المرتفع، والجزارة: الرأس واليدان والرجلان، وهي الأصل فيما يذبح.

(٢) الضرائر: ١٩٤.

(٣) الخصائص: ٢ / ٤٠٦، والرج: الطعن بسنان الرمح، والمرجة: رمح قصير، والقلوص: الناقة الفتية.

وانظر معاني القرآن: ١ / ٣٥٨ و ٢ / ٨١.

(٤) الضرائر: ١٩٧، والكنافج: السمين الممتلئ.

(٥) السابق والصحيحة نفسها، وانظر شرح الشواهد للمعنى: ٣ / ٤٦١.

(٦) الخصائص: ٢ / ٤٠٦، والشاعر يصف بقر الوحش، والحوزي: الفحل، وفي الأصل: المتوحد.

(٧) المختضب: ٤ / ٣٧٧، ويرى «الهودى» جمع هادية وهي من كل شيء أوله.

ونترك الحديث عن الفصل بين المضاف والمضاف إليه إلى نوع آخر، حكم عليه اللغويون والبلاغيون بالقبح، وهو الفصل بين حرف الجر والمجرور؛ وذلك كما في قول الفرزدق:

وإني لأطوى الكشحَ من دون ما انطوى      وأقطعُ بالخرقِ الهبوعِ المراجعِ<sup>(١)</sup>  
يريد: وأقطع بالهبوع المراجع الخرق، وفصل بين الباء ومخفوضها وهو «الهبوع»، وقول الشاعر:

لو كنت في خلقاء أو رأس شاهق      وليس إلى منها النزولِ سبيل<sup>(٢)</sup>  
وفصل بين حرف الجر «إلى» والاسم المجرور «النزول» بالجار والمجرور «منها». وهناك فصل بين الحروف التي لا يليها إلا الفعل في سعة الكلام وبين الفعل؛ وذلك كقول الشاعر:

لما رأيتُ أبا يزيدَ مقاتلاً      أدعَ القتالَ وأشهدَ الهجاءَ<sup>(٣)</sup>  
وترتيب الكلام: لن أدعَ القتالَ ما رأيتُ أبا يزيدَ مقاتلاً؛ ففصل بينها وبين منصوبها بالظرف الذي هو «مارأيتُ أبا يزيدَ»؛ أي مدة رؤيتي<sup>(٤)</sup>. ولا بد أن يلي الفعل «قد»، ولكن قال أحد الشعراء:

فقد والشكُّ بينَ لى عناءً      يوشكُ فراقهم صردٌ يصيحُ<sup>(٥)</sup>  
وترتيب الكلام: فقد بينَ لى يوشكُ فراقهم صردٌ يصيحُ والشكُّ عناءً؛ ففصل بين «قد» والفعل<sup>(٦)</sup>. ومثله قول الآخر:

(١) الضرائر: ٢٠٠.

(٢) الخصائص: ٣٩٥ / ٢، وروى الشطر الأول: مخلقة لا يستطاع ارتقاؤها، انظر المغرب: ١ / ١٩٧، والضرائر: ٢٠١. وخلقاء: ملساء، ويقصد صخرة ملساء، وشاهق: جبل عال.

(٣) «لما» مكونة من عنصرين «لن» الناصبة للمضارع و«ما». الخصائص: ٤١١ / ٢.

(٤) قال ابن هشام عن البيت: «وهو لفز، يقال فيه: أين جواب لما؟ وبم انتصب أدع؟ وجواب الأول أن الأصل «لن ماء» ثم أدغمت النون في الميم للتقارب، ووصلًا خطأ للإلغاز، وإنما حقهما أن يكتبتا منفصلين». المعنى ٣٧٣.

(٥) الملل السائر: ٢٥ / ٢.

(٦) الطراز: ١٧٥ / ٢.

تهتم علينا لأن الذئب كلمكم فقد لعمري أبوكم كلم الذئبا<sup>(١)</sup>  
يريد: فقد كلم أبوكم الذئب لعمري؛ ففصل بين «قد» والفعل «كلم». وفصل  
الشاعر إبراهيم بين الأسود النخعي بين «سوف» والفعل «نمر» في قوله:

عليك سلامٌ بعد سوف سلامها تمرُّ سنون بعدها وشهورُ  
وترتيب الكلام: بعد سلامها سوف تمر سنون بعدها؛ ففصل بين «سوف»  
والفعل، وفصل بين «بعد» والاسم المحرور بالإضافة إليها «سلامها». وفصل  
الفرزدق بين «لما» والفعل «دعا» في قوله:

فلما للصلاة دعا المنادى نهضتُ وكنت منها في غرورٍ<sup>(٢)</sup>  
وترتيب الكلام: فلما دعا المنادى للصلاة. وفصل أحد الشعراء بين «لم» والمضارع  
المجزوم بها «تطرق». قال:

نوابثٌ من لادن ابن آدمٍ لم تنزلُ تباكرُ من لم بالحوادثِ تطرقِ<sup>(٣)</sup>  
وترتيب الكلام: تباكر بالحوادث من لم تطرق، وقال ذو الرمة:

فأضحتُ مغانيها قفاراً رسومها كأن لم سوى أهلٍ من الوحش تؤهل<sup>(٤)</sup>  
وترتيب الكلام: كأن لم تؤهل.

ويقع الفصل بين الأعداد والتمييز المنتصب بها كما في قول الفرزدق:

في خمس عشرة من جمادى ليلة لا أستطيع على الفراش رقادى<sup>(٥)</sup>

(١) الضرائر: ٢٠١.

(٢) هذا من غزل قصيدة يمدح فيها الوليد بن عبد الملك، وقد ذكر أنه زاره طيف محبوبته في المنام،  
وقوله «نهضت»: هببت من نومي وأيقظني أذان الفجر، وقوله «وكنت منها في غرور» أى كان  
متاعه بمحبوته في الحلم، فكان ذلك باطلاً. انظر الخصائص: ٢ / ٣٩٠ (الهامش).

(٣) الضرائر: ٢٠٣.

(٤) مغانيها: جمع «مغنى»، وهو المنزل، ويروى «مباديها»؛ أى حيث تبدو، والقفار: جمع قفر وهى  
الأرض الخالية، وتؤهل: من أهل الدار: نزلها. تأويل مشكل القرآن: ٢٠٧؛ والمغنى: ٣٦٧.

(٥) المقتضب: ٣ / ٥٥.



وترتيب الكلام «فى خمس عشرة ليلة من جمادى»، وقول العباس بن مرداس السلمي:

على أنسى بعد ما قد مضى ثلاثون للهجر حولاً كميلاً<sup>(١)</sup>

وترتيب الكلام «ثلاثون حولاً كميلاً للهجر»، وقول سحيم عبد بن الحساس:

وأشهد عند الله أنى رأيتها وعشرين منها إصبعا من وراثيا<sup>(٢)</sup>

وترتيب الكلام «وعشرين إصبعا منها». وقد قال ابن عصفور عن الفصل هاهنا: «وإنما قبح الفصل بين هذه الأعداد وتمييزاتها لضعف عملها فيها من حيث كانت محمولة فى العمل على الصفة المشبهة، والصفة المشبهة محمولة فى عملها على اسم الفاعل، واسم الفاعل محمول فى عمله على الفعل»<sup>(٣)</sup>.

ويقع الفصل بين الصفة والموصوف كما فى قول الشاعر:

أمرت من الكتان خيطاً وأرسلت رسولاً إلى أخرى جرياً يعينها<sup>(٤)</sup>

أراد: وأرسلت إلى أخرى رسولاً جرياً، وقول عروة بن الورد:

أقول لقومى فى الكنيف تروحوأ عشيةً بتنا عندما وإن رزح<sup>(٥)</sup>

أراد: أقول لقومى رزح.

ويقع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه كما فى قوله لبيد بن ربيعة:

فصلقنا فى مراد صلقةً وصُداءٍ أحتتهم بالثَّل<sup>(٦)</sup>

أراد: فصلقنا فى مرادٍ وصداًٍ صلقة، وقول البعيث الحنفى (البعيث بن حريث بن

(١) انظر أساس البلاغة: (كمل) ٥٥١.

(٢) شرح المفصل: ٤ / ١٣٠.

(٣) الضرائر: ٢٠٤.

(٤) أمرت خيطاً: شدت فله، والجري: الوكيل، انظر المحتسب: ٢ / ٢٥٠، والخصائص: ٢ / ٣٩٦.

(٥) أمالى القالى: ٢ / ٢٣٧.

(٦) صلقتنا: صحنا، ومراد وصداً: حيّان من مذبح، والثَّل: الهلاك. انظر المحتسب: ٢ / ٢٥٠ و

٢٥١ والمعانى الكبير: ٩٣٣.

جابر):

وجدتُ أباها راضياً بى وأُمها فاعطيتُ فيها الحكم حتى حريتها<sup>(١)</sup>  
أراد: وجدت أباها وأُمها راضيا.

ويقع الفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف أو المحرور، نحو قول  
الأعشى:

وفى كلِّ عام أنت جاشم غزوة تشدُّ لأقصاها غريم عزائك  
مورثةً مالا وفى الحى رفعةً لما ضاع فيها من قروء نساك<sup>(٢)</sup>

أى: مورثة مالا ورفعة فى الحى، وقول الأعشى أيضاً:

يوماً تراها كئيبه أردية العصب ويوماً أديمها نغلا<sup>(٣)</sup>  
والتقدير: تراها يوماً كمثل أردية العصب، وأديمها يوماً آخر نغلا، ففصل  
بالظرف بين حرف العطف والمعطوف به على المنصوب من قبله، وهو «ها» من  
تراها، كما يقول ابن جنى<sup>(٤)</sup>.

(١) الضرائر: ٢٠٦.

(٢) انظر مجاز القرآن: ١ / ٧٤.

(٣) المقرب: ١ / ٢٣٥؛ ومجمع الأمثال للميداني: ٢ / ٢٣٩.

(٤) الخصائص: ٢ / ٣٩٥.

-٣-

## الإعراب

يؤدي «الإعراب» دوراً مهماً في النقد اللغوي الذي ورد عن القدماء؛ لأن الشعراء وقعوا في بعض الأخطاء المتصلة به، وتتبعها العلماء، وإن كان بعضها يعود إلى «الضرورة الشعرية». ونحاول التعرف على النقاط الرئيسية التي احتواها النقد اللغوي للإعراب.

كما وقع فيه بعض الشعراء تسكين ما كان ينبغي له أن يحركه، وذلك كقول لبید:

تَرَكَ أَمَكْنِي إِذَا لَمْ أَرْضَهَا      أَوْ يَتَلَقَّ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامَهَا<sup>(١)</sup>

لقد ورد الفعل «يعتلق» ساكناً، وكان حقه التحريك بالفتحة؛ لأنه منصوب به. «أن» مضمرة بعد «أو»، ولكن الذي ألجأ الشاعر إلى ذلك إقامة «البحر الكامل».

وقد سَكَنَ أبو نواس كلمة «لاستحق» ذلك، ولكن ابن قتيبة علل ذلك بتتابع الحركات وكثرتها<sup>(٢)</sup>. والكلمة التي سَكَنَهَا هي «محدثة» في قوله:

وَصِيفُ كَاسٍ مَحْدَثُهُ مَلِكٌ      تِيَهُ مُغْنٌ وَظَرْفٌ زَنْدِيقٌ

وهذا التسكين يُعَلِّلُ عند ابن قتيبة، في ضوء تتابع الحركات وكثرتها، مثلما سَكَنَ امرؤ القيس «أشرب» في قوله:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحَقِّ      إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ<sup>(٣)</sup>

وتوقف ابن قتيبة أمام قول أبي نواس في الخمر:

(١) شرح القصائد السبع: ٥٧٣.

(٢) ربط ابن قتيبة بيت أبي نواس ببيت امرئ القيس الذي سَكَنَ فيه «أشرب»، لذلك جمعنا البيتين معاً.

(٣) الشعر والشعراء: ٩٨/١. وقال ابن هشام عن تسكين الفعل في بيت امرئ القيس: «فليس قوله «أشرب» مجزوماً، وإنما هو مرفوع، ولكن حذفت الضمة للضرورة، أو على تنزيل «ربيع» من قوله «أشرب» غير منزلة «عُصِدَ» بالضم؛ فإنهم قد يجرّون المنفصل مجرى المتصل، فكما يقال في «عصده» بالضم «عصده» بالسكون، كذلك قيل في «ربيع» بالضم «ربيع» «بالإسكان» للباء. انظر: الشذور: ٢٦٩.

شَمُولُ تَخَطَّيْهَا الْمَنُونُ فَقَدْ أَتَتْ      سَنُونُ لَهَا فِي دَنْهَا وَسِنُونُ  
تَرَاتُ أَنْاسِي عَنْ أَنْاسٍ تَخْرَمُوا      تَوَارَتْهَا بَعْدَ الْبَيْنِ بَنُونُ

قائلاً: «فرغ نون الجماعة (سنون وبنون) وهذا يجوز في المعتل، وقد أتى مثله، كأنه لما ذهب منه حرف، صار كأنه كلمة واحدة، وصارت «سنون» كأنها «منون» و«بنون» كذلك»<sup>(١)</sup>.

ومن العيوب المتصلة بالإعراب «ترك التنوين» مع بعض الأسماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

وَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ      وَلَا ذَاكَرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(٢)</sup>

فقد ترك تنوين اسم الفاعل «ذاكر» مع إعماله النصب في لفظ الجلالة، والأصل المقدر هو: وَلَا ذَاكَرَ اللَّهِ. وقال حسان بن ثابت:

لَوْ كُنْتُ مِنْ هَاشِمٍ أَوْ مِنْ بَنِي أُسْدٍ      أَوْ عَبْدُ شَمْسٍ أَوْ أَصْحَابُ اللَّوَى الصَّيْدِ  
أَوْ مِنْ بَنِي زَهْرَةَ الْأَخْيَارِ قَدْ عَلِمُوا      أَوْ مِنْ بَنِي خَلْفِ الْخَضِرِ الْجَلَاعِيدِ<sup>(٣)</sup>

يريد: من بنى خلف الخضر. وقال ابن قيس الرقيات:

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتَبْدِي      عَنْ خِدَامِ الْعَقِيلَةِ الْعِذْرَاءَ<sup>(٤)</sup>

يريد: عن خدام العقيلة. وقال الشاعر:

حَمِيدُ الذِّى أَمَجَ دَارِهِ      أَخُو الْخَمْرِ ذُو الشَّيْبَةِ الْأَصْلَعِ<sup>(٥)</sup>

يريد: حميد الذي. وقال الراجز:

لَتَجِدَنَّيَ بِالْأَمِيرِ بَرًّا

(١) الشعر والشعراء: ٢ / ٨١٩.

(٢) الكتاب: ١ / ١٦٩ (ط هارون).

(٣) الضرائر: ١٠٥.

(٤) معاني القرآن: ١ / ٤٣٢ و ٣ / ٣٠٠، والخدام: الخلال.

(٥) الكامل: ١ / ١٤٨.

وبالقنائة مدعساً مكرراً  
إذا غُطِّفَ السُّلَمَى فَرّاً<sup>(١)</sup>

يريد: غطيف السُّلَمَى.

وقد أشار اللغويون إلى أن السبب في ترك التنوين التقاء الساكنين، ويقصدون بذلك أن التنوين عبارة عن نون ساكنة تلحق آخر الاسم نطقاً لا كتابة، وبعدها «ال» التعريف ساكنة؛ لذلك يحذف الساكن الأول، وهو التنوين. وقد قال الأعلام عن بيت أبي الأسود: «وفي حذف تنوينه لالتقاء الساكنين وجهان: أحدهما أن يُشَبَّه بحذف النون الخفيفة إذا لقيها ساكن كقولك: اضرب الرجل، تريد: اضربن. والوجه الثاني: أن يشبه بما حذف تنوينه من الأسماء الأعلام إذا وصف بابن مضاف إلى علم؛ كقولك: رأيت زيد بن عمرو»<sup>(٢)</sup>.

ومما يطبع التركيب النحوي للجملة العربية، وله صلته بالإعراب «الحمل على الموضع»؛ فإننا نقول:

ليس زيدٌ ببخيلٍ ولا جباناً

بنصب كلمة «جباناً» عطفاً على موضع «ببخيل» وهو خبر «ليس» منصوب بالفتحة المقدرة لاشتغال المحل بحركة الباء الزائدة. ولكن بعض الشعراء أخطأ حين حمل على الموضع؛ فقد قال عقيبة بن هبيرة الأسدي:

مُعَاوَى إِنَّا بَشَرٌ فَأَسْجَعُ فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ

قال ابن قتيبة: «كأنه أراد: لسنا الجبال ولا الحديد، فردّ الحديد على المعنى قبل دخول الباء، وقد غلط الشاعر؛ لأن هذا الشعر كله مخفوض. قال الشاعر:

فَهْنَهَا أُمَّةٌ ذَهَبَتْ ضِيَاعَا يَزِيدُ أَمِيرُهَا وَأَبُو يَزِيدَ  
أَكَلْتُمُ أَرْضَنَا وَجَرَدْتُمُوهَا فَهَلْ مِنْ قَاتِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدٍ<sup>(٣)</sup>

(١) معاني القرآن: ٤٣١ / ١. والمدسر: المطاعن، والمكر: الذي يكر في الحرب، وعكسه المفر.

(٢) الكتاب: ١٦٩ / ١ (الهامش).

(٣) الشعر والشعراء: ٩٨ / ١ و ٩٩. وانظر الكتاب: ٦٧ / ١ (الهامش).

وعرض القدماء لعيب من عيوب الشعر، يتصل بالإعراب، وهو «الإقواء»، وقد عرفه أبو عمرو بن العلاء بأنه اختلاف الإعراب في القوافي؛ وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة؛ كقول النابغة:

قالت بنو عامر خالوا بنى أسد      يابسوس للجهل ضرراً لأقوام  
وقال فيها:

تبدو كواكبُه والشمسُ طالعةٌ      لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامٌ

وقال أبو عمرو أيضاً: فحلان من الشعراء كانا يقويان: النابغة وبشر بنى أبي خازم؛ فأما النابغة فدخل يثرب ففُتني بشعره ففطن فلم يعد للإقواء، وأما بشر بنى أبي خازم فقال له أخوه سودة: إنك تقوى، قال: وما الإقواء؟ قال: قولك:

ألم ترَ أنَّ طولَ الدهرِ يسلى      وينسى مثل ما نيتَ جذامٌ  
ثم قلت:

وكانوا قومنا فبنغوا علينا      فسقناهم إلى البلد الشام<sup>(١)</sup>

وقد حفلت الكتب العربية<sup>(٢)</sup> بأمثلة للإقواء؛ ومن ذلك قول النابغة:

زعم البوارحُ أنَّ رحلتنا غداً      وبذلك خبرنا الغرابُ الأسودُ  
لا مرجأً بندي ولا أهلاً به      إن كان تفريقُ الأحبةِ في غدٍ

ومنه قول دريد بن الصمة:

نظرتُ إليه والرماحُ تنوشه      كوقع الصباصى فى النسيجِ الممددِ

ثم قال:

فأرهبتُ عنه القومَ حتَّى تبددوا      وحتى علانى حالكُ اللونِ أسودُ

وكقول حسان بن ثابت:

(١) الموشح: ١١ و ١٢ والشعر والشعراء: ١ / ٢٧٠.

(٢) الموشح: ١١ و ١٢ و ٤٧ و ٤٨ ورسالة الغفران: ١٤٣ وطبقات اللغويين والنحويين: ٣٢.

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عظمٍ      جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ  
ثم قال:

كأنهم قصبٌ جوفٌ أسافله      مشقبٌ نفخت فيه الأعاصيرُ  
وقال الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك:

مستقبلين شمالاً الشام تضر بهم      بحاصبٍ كنديفٍ القطن منشورٍ  
على عمائمنا تلقى وأرحلنا      على زواحفٍ تزجى مخها رير

وقال أبو الهندي (عبد المؤمن بن عبد القدوس):

سيفنى أبا الهندي عن وطب سالم      أباريقُ لم يعلق بها وضر الزيد  
مقدمة قرأ كأن رقابها      رقابُ بناتِ الماء أفرعها الرعدُ

وهناك بعض الأسباب التي تؤدي إلى وقع الإقواء، من أهمها «الارتجال»  
للقصيدة. قال الأصمعي: قد أقوى الحارث بن حلزة في قصيدته التي ارتجلها.  
قال:

فملكنا بذلك الناس إذما      هلك المنذر بن ماء السماء  
ويضيف ابن قتيبة: «ولن يضر ذلك في هذه القصيدة؛ لأنه ارتجلها، فكانت  
كالخطبة»<sup>(١)</sup>.

(١) الشعر والشعراء: ١٩٧ / ١ و ١٩٨؛ وانظر أمثلة أخرى في نقد الشعر: ١٨٥ - ١٨٧.

-٤-

## الحذف

من النقد اللغوى الذى تعرض له العلماء حين نظروا فى التركيب النحوى للشعر «الحذف» الذى لجأ إليه بعض الشعراء، وقد أشاروا إلى ما يتصل به من انتقادات، لأن هناك حذفاً لم يكن مقبولاً؛ فقد زعم أبو عبيدة أن حكيم مَعِيَّة التميمي قال:

قد وعدتني أم عمرو أن تا  
تذهن رأسي وتفكيني وا  
وتمسح القنفاء حتى تتنا

وقال آخر:

بالخير خيرات وإن شراً فإ ولا أريد الشـرُّ إلا أن تا  
يريد «فشرراً»، ويريد «إلا أن تريد». قال: فسألت الأصمعي عن ذلك، فقال: هذا ليس بصحيح فى كلامهم؛ وإنما يتكلمون به أحياناً.

قال: وكان رجلان من العرب أخوان، ربما مكثا عامة يومهما لا يتكلمان.  
قال: ثم يقول أحدهما «ألاتا»؛ يريد ألا تفعل فيقول صاحبه «بلى فاه»، يريد فأفعل.  
وليس هذا بكلام مستعمل فى كلامهم<sup>(١)</sup>.

ومن النقد اللغوى المتصل بالحذف «ترخيم الاسم فى غير النداء» وذلك كقول امرئ القيس:

لنعم الفتى تمشو إلى ضوء ناره  
أى: ابن مالك، وقول الأسود بن يعفر:  
وهذا ردائي عنده يستعيره  
طريف بن مالٍ ليلة الجوع والخصر<sup>(٢)</sup>  
ليسلبنى نفسى أمالُ بن حنظل<sup>(٣)</sup>

(١) الموضح: ١٥.

(٢) السابق: ١٥٥. والخصر: شدة البرد.

(٣) أمالى ابن الشجرى: ١ / ١٢٧، ٢ / ٨٩.



أى: ابن حنظلة، وقول جميل:

بشبن الزمى «لا» إن «لا» إن لزمتي      على كثرة الواشين أى معون<sup>(١)</sup>

أى: أى معونة، وقول الزبير:

مالك لاتهم يا فلاح      إن النهيم للسقاء راح<sup>(٢)</sup>

أى: راحة.

\*

-٥-

### تكرار العناصر النحوية

يكثر بعض الشعراء من استعمال عناصر نحوية بعينها فى شعرها، مما يؤدى إلى ضعف العمل الفنى، مع الدلالة على التكلف. ويمكن التمثيل لذلك بما ورد فى شعر المتنبى من تكرار اسم الإشارة فى بعض الأبيات. قال:

قد بلغت الذى أردت من البر ومن حق ذا الشريف عليك

وإذا لم تسر إلى الدار فى وقتك ذاخفت أن تسير إليك<sup>(٣)</sup>

قال الجرجاني: «وهو أكثر الشعراء استعمالاً لـ «ذا» التى هى للإشارة، وهى ضعيفة فى صنعة الشعر، دالة على التكلف». ثم يورد أبياتاً أخرى استعمل فيها المتنبى اسم الإشارة، ويعلق عليها قائلاً: «فهو كما تراه سخافة وضعفاً، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الإشارة، وأنت لا تجد منها فى عدة دواوين جاهلية حرفاً، والمحدثون أكثر استعانة بها، لكن فى الفرط والندرة

(١) الضرائر: ١٣٧، وإصلاح المنطق: ٢٢٣، وقد ورد فيه نقلاً عن الفراء: «وقوله: معون، أراد: جمع معونة». انظر معاني القرآن: ٢ / ١٥٢.

(٢) الضرائر: ١٣٧.

(٣) قال البهتين عند أبى محمد بن طنج: يريد: أنه كان عنده فى مجلس الشراب ليلاً وأطال، فقال له: بلغت بنا ما أردت من الإكرام، وقضيت حق هذا الشريف، وكان عنده رجل علوى، فقم إلى منزلك، وإذا لم نقم خفت أن تجئ إليك الديار، اشتياًك إليك، ومحبة لك». الديوان: ٢ / ٣٨٤.

أو على سبيل الغلط والغلطة<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الإكثار من استعمال الإشارة ظاهرة أسلوبية تطيع بعض أبيات المتنبي، وقد تنبه إلى ذلك ابن جني، الذي قال للمتنبي: «إنك تكرر في شعرك «ذاه» و «ذى» كثيراً، ففكر ساعة ثم قال: إن هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد، فقلت: صدقت، إلا أن المادة واحدة، فأمسك<sup>(٢)</sup>».

\* \* \*

### النقد اللغوي والدلالة

يعد التوصل إلى «المعنى» Meaning غاية التحليل الصوتي والصرفي والنحوي، وقد كانت هناك روايات كثيرة وردت على ألسنة الشعراء وغيرهم تتصل اتصالاً مباشراً بالدلالة التي وجهوا إليها انتقادات على أساس التطبيق في النص نفسه؛ فيذكرون أن أبا نواس ومسلم بن الوليد اجتماعاً وتلاحياً؛ فقال له مسلم: ما أعلم لك بيتاً يسلم من سَقَطَ! فقال له أبو نواس: هات من ذلك بيتاً واحداً؛ فقال له مسلم: أنشد أنت أي بيتٍ شعرٍ شئت من شعرك، فأنشد أبو نواس:

ذكر الصبوحَ بِسُحْرَةٍ فارتاحا      وأمله ديكُ الصبّاحِ صياحاً

فقال له مسلم: قف عند هذا البيت، لمَ أمله ديكُ الصبّاح وهو يبشره بالصبوح الذي ارتاح له؟ قال له أبو نواس: فأنشدني أنت؛ فأنشده مسلم:

عاصى الشابَ فراح غيرَ مُفَنِّدٍ      وأقام بين عزيمةٍ وتجلّد

فقال له أبو نواس: ناقضت، ذكرت أنه راح، والرواح لا يكون إلا بانتقال من مكان إلى مكان، ثم قلت: وأقام بين عزيمة وتجلّد، فجعلته متنقلاً مقيماً<sup>(٣)</sup>. ومن هنا فإن الشاعرين كليهما قد انتصب نقدهما اللغوي على «التناقض في الدلالة»؛ إذ إن مسلماً يرى أن أبا نواس قد ناقض نفسه حين قال «وأمله ديكُ الصبّاح صياحاً»

(١) الوساطة: ٩٧.

(٢) سر الفصاحة: ١٠٧.

(٣) الشعر والشعراء: ٨٠٦ / ٢.

وهو يشره في الوقت نفسه بالصبوح الذي ارتاح له في الشطر الأول من البيت. ثم إن أبا نواس نظر أيضاً في بيت مسلم نظرة دلالية أساسها التناقض بين دلالتى الفعلين «راح» و«أقام»؛ لذلك جعل الشاعر الفاعل متقللاً مقيماً.

والذى بلغت النظر أن واحداً من كبار اللغويين، وهو ابن قتيبة، قد دافع عن الدلالة في البيتين بقوله: «والبيتان جميعاً صحيحان، لا عيب فيهما، غير أن من طلب عيباً وجده، أو أراد إعنتاً قدر عليه، إذا كان متحاملاً متحِيناً، غير قاصد للحق والإنصاف».

وهناك عدة جوانب لغوية اهتمَّ بها النقاد واللغويون حين نظروا في النص خلال الدلالة، ويمكن الإشارة إليها خلال النقاط الآتية:

-١-

### فساد التفسير

وقع الشعراء فيما يمكن أن نسميه «فساد التفسير»؛ وذلك كما في قول بعض المحدثين:

فيأَيُّهَا الحِيرانُ في ظَلَمِ الدُّجَى      وَمَنْ خَافَ أَنْ يَلْقَاهُ بَغْيٌ مِنَ العَدَى  
تعالَ إِلَيْهِ تَلَقَّ مِنْ نَوْرِ وَجْهِهِ      ضِيَاءٌ وَمَنْ كَفَى بِهِ حَرًّا مِنَ النَّدَى

ويرى قدامة أن العيب في هذين البيتين أن هذا الشاعر لما قدم في البيت الأول الظلم وبغى العدى كان الجيد أن يفسر هذين المعنيين في البيت الثاني لما يليق بهما؛ فأتى بإزاء الإظلام بالضياء، وذلك صواب، وكان يجب أن يأتي بإزاء بغى العدى بالنصرة أو بالعصمة أو بالوزر، أو بما جانس ذلك مما يحتمى به الإنسان من أعدائه؛ فلم يأت بذلك، وجعل مكانه ذكر الندى، ولو كان ذكر في البيت الأول الفقر أو العدم لكان ما أتى به صواباً<sup>(١)</sup>.

-٢-

## التناقض من جهة القنية والعدم

أشار النقاد إلى ما أسموه «التناقض على طريق القنية والعدم»، ويمثلون له بقول يحيى بن نوفل:

لأَعْلَاجِ ثَمَانِيَّةٍ وَشَيْخٍ      كَبِيرِ السِّنِّ ذِي بَصَرٍ ضَرِيرِ  
قال المرزباني: «لفظة «ضريير» إنما تستعمل - وهي تصريف فعليل من الضر - في الأكثر للذي لا بصر له، وقول هذا الشاعر في هذا الشيخ إنه ذو بصر وإنه ضريير تناقض من جهة القنية والعدم؛ وذلك أنه كأنه يقول: إن له بصرًا ولا بصر له؛ فهو بصير أعمى<sup>(١)</sup>. وقد أشار قدامة إلى أنه قد يقول قائل: «إنه ضريير، راجع على البصر بأنه أعمى؛ فالعرب أولاً إنما تريد بضريير الإنسان الذي قد لحقه الضرُّ بذهاب بصره لا البصر نفسه، وأيضاً فليس البصر هو العين التي يقع عليها العمى، بل ذات الإبصار، وذات الإبصار لا يقال: إنها عمياء، كما لا يقال: إن حدة السيف كليلية، بل إنما يقال: إن السيف كليل؛ لأن الحدة لا تنكّل، وكذلك البصر لا يعمى، ولكن هو في توسع اللغة، وتسمح العرب في اللفظ جائز على طريق المجاز، وقد جاء في أقوى المواضع حجة، وهو القرآن في قوله عز وجل: (فإنها لاتعمى الأبصار)<sup>(٢)</sup> ولكنه جاز في البصر أن يقال: أعمى؛ فلا أراه يجوز أن يقال فيه: مضرور، وأرى أنه إنما يدخل في هذا الباب<sup>(٣)</sup>؛ أي باب التناقض عن طريق القنية والعدم.

ومن هذا الباب أيضاً قول إبراهيم بن هرمة:

نراه إذا ما أبصر الضيفَ كلبُهُ      يكلمُهُ من حُبِّه وهو أعجمُ

فإن هذا الشاعر أفنى الكلب الكلام في قوله: أنه يكلمه، ثم أعدمه إياه عند قوله: إنه

(١) الموشح: ٣٦٨. والأعلاج: الرجال من كفار المعجم.

(٢) الحج / ٤٦.

(٣) نقد الشعر: ٢٠٩ و ٢١٠.

أعجم، من غير أن يزيد في القول ما يدل على أن ما ذكره إنما أجراه على طريق الاستعارة<sup>(١)</sup>.

### - ٣ -

## التكلف في طلب القافية

يؤدي «التكلف في طلب القافية» إلى أن يشتغل معنى سائر البيت بها، وذلك كقول أبي تمام:

كالظبية الأدماء صافت فارتمت زهر العررار الغض والجشائسا  
قال قدامة: «فجميع هذا البيت مبنى لطلب هذه القافية، وإلا فليس في وصف الظبية بأنها ترعى الجشجات كبيرة فائدة؛ لأنه إنما توصف الظبية - إذا قصد لنعثها بأحسن أحوالها - بأن يقال: إنها تعطو الشجر؛ لأنها حينئذ رافعة رأسها، وتوصف بأن ذعراً قد لحقها، كما قال الطرمّاح:

مثل ما عابنت مخروفة نصها ذاعر روع مؤام<sup>(٢)</sup>

فأما أن ترعى الجشجات، فلا أعرف له معنى في زيادة الظبية من الحسن، لاسيما والجشجات ليس من المراعى التي توصف بأن ما يرتعى يؤثره<sup>(٣)</sup>.

### - ٤ -

## الأسماء في الشعر

نالت «الأسماء» التي ترد في الشعر اهتمام اللغويين والنقاد من حيث الدلالة، حتى إن بعضهم كان يحكم على البيت أو الأبيات بالقبح لوجود أسماء معينة فيه؛ فقد استعمل الخليل في شعره اسمين هما «أم البنين» و«بوزع». قال:

(١) السابق والصحيفة نفسها؛ وانظر الشعر والشعراء: ٧٥٤ / ٢.

(٢) المغرور: المقصود بها الظبية التي رعت عشب الخريف، نصها: جعلها ترفع رأسها، والروع: الفزع، والمؤام: المقارب السير.

(٣) نقد الشعر: ٢٢٣ و ٢٢٤؛ وانظر الموشح: ٣٦٩.

إِنَّ الْخَلِيطَ تَصَدَّغُ      فَطَبَّرَ بِدَائِكَ أَوْقَعُ  
لَوْلَا جَوَارِحَانُ      حُورُ الْمَدَامِيعِ أَرْبَعُ  
أُمُّ الْبَنِينِ وَأَسْمَاءُ      وَالرَّيَّابُ وَبُورُغُ  
لَقَلْتُ لِلرَّاحِلِ ارْحَلْ      إِذَا بَدَا لَكَ أَوْ دَغُ

قال ابن قتيبة: «ولو لم يكن في هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه»، ويدل على ذلك بموقف يتصل بالشاعر جرير الذي أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته التي أولها:

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا      أَوْ كُلَّمَا جَدُّوا لَيْسَ تَحْزَعُ  
كَيْفَ الْعَزَاءُ وَلَمْ أَجِدْ مَذْبَنُتُمْ      قَلْبًا يَقْرُ وَلَا شَرَابًا يَنْقَعُ

وهو يتحفر ويزحف من حسن الشعر، حتى إذا بلغ إلى قوله:

وتقول بوزع قد دبت على العصا      هَلَا هَزَنْتَ بغيرنا يا بوزع  
قال له: أفسدت شرك بهذا الاسم<sup>(١)</sup>. فاستعمال اسم «بوزع» أفسد الشعر من وجهة نظر الخليفة الأموي.

-٥-

### الإخفاق في التعبير عن المعنى

توقف العلماء أمام بعض الآيات موجهين النقد إلى الشاعر على أساس عدم التوفيق في التعبير عن المعنى، ومن أمثلة ذلك قول امرئ القيس:

أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حَبَكِ قَاتِلِي      وَأَنْكِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ  
فقد علقوا عليه بقولهم: «إذا لم يغرها هذا فأى شيء يغرها؟ قال ابن المعتز: «وإنما هذا كإسير قال لمن أسره: أغرك مني أنى فى يديك وفى إيسارك وأنك ملكت سفك دمي؟»<sup>(٢)</sup>. ولكن ابن قتيبة استطاع توجيه الدلالة توجيهاً آخر هو

(١) الشعر والشعراء: ١ / ٧٠، وانظر العمدة: ٢ / ٩٨، ورسر القصاحة: ٦٨.

(٢) الموضح: ٣٨.

الذى قصده امرؤ القيس من وجهة نظره: «ولا أرى هذا عيباً، ولا المثل المضروب له شكلاً؛ لأنه لم يرد بقوله: حيك قاتلى، القتل بعينه؛ وإنما أراد به: أنه قد برح بى فكأنه قد قتلنى. وهذا كما يقول القاتل: قتلتنى المرأة بدلها وبعينها، وقتلتى فلان بكلامه. فأراد: أغرك منى أن حيك قد برح بى، وأنتك مهما تأمرى قلبك به من هجرى والسلو عنى يطعمك؛ أى فلا تغترى بهذا؛ فإننى أملك نفسى وأصبرها عنك وأصبر هواى»<sup>(١)</sup>.

وقد جمع المرزبانى فى موشحه<sup>(٢)</sup> بعض الأبيات التى عابوا فيها الدلالة كما عابوا بيت امرئ القيس، وقدم لها بقوله: «ومن الأبيات المستكرهة الألفاظ، المتفاوتة النسخ، القبيحة العبارة التى يجب الاحتراز من مثلها قول الأعشى:

وأنتكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فأى نكرة تكون أنكرك من هذا عندها؟. وقال الأعشى أيضاً:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

وقد عابه قوم بذلك؛ لأنهم رأوا ذكر القلب والفؤاد والكبد يتردد كثيراً فى الشعر عند ذكر الهوى والمحبة والشوق، وما يجده المغمم فى هذه الأعضاء من الحرارة والكرب، ولم يجدوا الطحال يستعمل فى هذه الحال؛ إذ لا صنع له فيها، ولا هو مما يكتسب حرارة وحركة فى حزن ولا عشق، ولا برداً وسكوناً فى مزح أو ظفر؛ فاستهجنوا ذكره. وعابوا على طرفه قوله:

أسد غيلٍ فإذا ما شربوا وهبوا كل أمونٍ وطمر

فقيل: إنما يهبون عند الآفة التى تدخل على عقولهم، وفضلوا قول عنترة بن شداد العيسى:

وإذا شربت فإننى مستهلك مالى، وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

(١) الشعر والشعراء: ١ / ١٣٥، وانظر شرح القصائد السبع: ٤٥.

(٢) الموشح: ٧٠ و ٧٦ و ٧٨.

## -٦-

## اخطاء في الدلالة

وقع الشعراء في بعض الأخطاء الخاصة بالدلالة، وذلك نحو:

مثل النصارى قتلوا المسيحاً<sup>(١)</sup>

وإنما اليهود، على ما قالت اليهود والنصارى، قتلوا المسيح. وقد كذبهم الله في ذلك بقوله: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)<sup>(٢)</sup>. والذي غلطه كون اليهود والنصارى مخالفين للإسلام؛ فظن أنهم جميعاً مشتركون فيما يتكروونه من الأشياء<sup>(٣)</sup>.

ومن الأخطاء في الدلالة استعمال الشعراء لكلمة على أنهم يقصدون معنى بعينه، ولكنه غير صحيح؛ فقد استعمل رؤية لفظة «اللب» بمعنى «الحديد»؛ وذلك في قوله:

ومحور أخلص من ماءِ اللَّبِّ<sup>(٤)</sup>

فغلط «وإنما اليب جلود يضم بعضها إلى بعض ويجعل تحت البيض وقاية»<sup>(٥)</sup>. ويبدو أنَّ الذي أوقعه في الخطأ قول عمرو بن كلثوم:

علينا البيضُ واللَّبُّ اليماني وأسيافٌ يَقمَنَ وينحنينا<sup>(٦)</sup>

فتوهم أن اليب أجود من الحديد. ويعاب على امرئ القيس قوله:

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢٠٢؛ وقال ابن قتيبة في (المعاني الكبير: ٢/ ٨٧٩) معلقاً: «سمع بالنصارى، والمسيح، ولم يدر كيف كان الأمر؛ فقال على ما توهم».

(٢) النساء/ ١٥٧.

(٣) ضرائر الشعر: ٢٤٦.

(٤) مجالس ثعلب: ١/ ١٣٢ و ١٣٣.

(٥) ضرائر الشعر: ٢٤٦.

(٦) انظر شرح القاصد السبع: ٤١٤؛ حيث أورد أبو بكر الأنباري المعاني الخاصة بكلمة «اللب» في



إذا ما الثريا في السماء تعرضت  
تعرض أثناء الوشاح المفصل<sup>(١)</sup>  
وقالوا: الثريا لاتعرض لها، وإنما أراد الجوزاء، فذكر الثريا على الغلط<sup>(٢)</sup>. وقال  
المتلهم:

وقد أناسى الهم عند احتضاره  
بناج عليه الصعيرة مكدم<sup>(٣)</sup>  
والصعيرة سمة للنوق لا للفحول، فجعلها لفحلي. وسمعه طرفة وهو صبي  
ينشد هذا؛ فقال: «استنوق الجمل»<sup>(٤)</sup>، فضحك الناس وسارت مثلاً<sup>(٥)</sup>. وقال  
المرقش في المرأة:

صحا قلبه عنها على أن ذكره  
إذا خطرت دارت به الأرض قائما  
قالوا: كيف يصحو من إذا ذكرت له دارت به الأرض؟<sup>(٦)</sup> ويعاب الأعشى  
بقوله في ملك الحيرة:

ويأسر للبحموم كل عشية  
بقت وتعليق فقد كاد يستق<sup>(٧)</sup>

(١) الثريا: مجموعة من النجوم في صورة الثور، وكلمة النجم علم عليها، والجوزاء: برج من بروج  
السماء. وقال أبو بكر الأنباري عن معنى البيت: «قوله: تعرضت، معناه أن الثريا تستقبلك بأنفها  
أول ما تطلع، فإذا أردت أن تسقط تعرضت، كما أن الوشاح إذا طرَح تلقاك بناحيته. والوشاح:  
خزيم يعمل من كل لون، والمفصل: الذي فصل بالزبرجد، وأثناء الوشاح: نواحيه ومنقطعه». شرح  
القصاصد السبع: ٥٠ و ٥١.

(٢) الشعر والشعراء: ١/ ١١١، والوساطة: ١٣.

(٣) في الموشح: ١١٠ «اذكاره» مكان «احتضاره»، والصعيرة: اعتراض في السير، وهو من سمات  
النوق في أعناقها خاصة، والمكدم: الغليظ أو الصلب.

(٤) «الجمل» بالنصب مفعول؛ أي جملة كالثاقة، ويؤيده تفسير الأغاني (١٣٢/ ٢١): «أى وصفت  
الجمل بوصف الثاقة وخلطت» وضبط في اللسان (١٢٧/ ٦) و (٢٤١/ ٩) بالرفع وفسره عن  
ابن سيده: «استنوق الجمل: صار كالثاقة في ذلها». من تعليقات الشيخ أحمد محمد شاكر  
هامش ١/ ١٨٣ من الشعر والشعراء.

(٥) الشعر والشعراء: ١/ ١٨٣، وانظر الموشح: ١١٠.

(٦) ولكن الشيخ أحمد شاكر يدافع عن الدلالة قائلاً: «النائد يقيس بالشبر والذراع، والشاعر بصور  
فيبالغ في ثبات حبه، فيثبت صحوه عنها قولاً، وينفيه عملاً وفعلاً، وقد أوفى في هذا على الغاية:  
يدعى السلو، والذكرة تصرعه». هامش ١/ ٢١٦ من الشعر والشعراء.

(٧) الجحوم: فرس النعمان بن المنذر، سمي بذلك لسواده؛ لأن الجحوم الأسود من كل شيء،  
والقت: نوع من العلف، ويسق: يشم ويتخم من الطعام أو الشراب.

قالوا: هذا مما لا يُمدح به رجلٌ من خُساس الجنود؛ لأنه ليس من أحِدٍ له فرسٌ إلا وهو يعلفه قَتاً ويُقَضِّمه شعيراً، وهذا مديحٌ كاللهجاء.

ولكن ابن قتيبة دافع عن هذا المعنى الذى طرقه الأعشى فى ضوء العادات العربية قاتلاً؛ ولست أرى هذا عيباً، لأن الملوك تُعدُّ فرساً على أقرب الأبواب من مجالسها يسرجه ولجامه، خوفاً من عدو يفجؤها، أو أمر ينزل، أو حاجة تعرض لقلب الملك فيريد البدار إليها، فلا يحتاج إلى أن يتلوم على إسراج فرسه ولجامه، وإذا كان واقفاً غَدَى وعَشَى، فوضع الأعشى هذا المعنى، ودلَّ به على ملكه وعلى حزمه<sup>(١)</sup>. وأخذ على جرير قوله فى بنى الفدوكس رهط الأخطل:

هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفةً      لو شئتُ ساقكمُ إلى قُطَيْنَا<sup>(٢)</sup>

وهناك عدة تعليقات صدرت على هذا البيت؛ فقد قيل له: «يا أبا حزره، لم تصنع شيئاً، أعجزت أن تفخر بقومك حتى تعديت إلى ذكر الخلفاء؟» وقال له عمر بن عبد العزيز: جعلتني شرطياً لك؛ أما لو قلت: لو شاء ساقكم إلى قُطَيْنَا، لسقتهم إليك عن آخرهم<sup>(٣)</sup>. أو قيل لجرير: «يا أبا حزره ما وجدت فى بنى نعيم فخرأ تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة، لا والله إن صنعت فى هجائهم شيئاً<sup>(٤)</sup>». أو قال يزيد بن عبد الملك أو بعض إخوته: أما ترون جهل جرير؛ يقول لى: ابن عمى، ثم يقول: لو شئت ساقكم، أما لو قال: لو شاء ساقكم لأصاب، ولعللى كنت أفعل<sup>(٥)</sup>.

ومن الخطأ فى الدلالة عدم مراعاة الشاعر لما يمكن أن نسميه حال المدح أو المخاطب من حيث وجود بعض العيوب الخلقية؛ فقد أنشد أبو النجم هشام بن عبد الملك أرجوزته التى أولها:

(١) الشعر والشعراء: ١ / ٢٦٤.

(٢) القطين: العبد والإمام.

(٣) عيار الشعر: ١٥٢ و ١٥٣.

(٤) الشعر والشعراء: ١ / ٤٧٠.

(٥) الموضع: ١٩٠ و ١٩١.

الحمد لله الوهوب المجزّل

وهى أجود أرجوزة للعرب، وهشام يصفق بيديه من استحسانه لها؛ فلما بلغ قوله فى الشمس:

حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ جَلَّاهَا الْمُجْتَلَى  
بَيْنَ سِمَاطِي شَفَقِي مُرْعَبِلٍ  
صَفْوَاءٌ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ  
فَهَى عَلَى الْأَفْقِ كَعَيْنِ الْأُحُولِ<sup>(١)</sup>

أمر هشام بوجّه<sup>(٢)</sup> رقبته وإخراجه، وكان هشام أحول<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان أبو النجم قد فاته «حال» من يخاطبه بشعره فوقع فى الخطأ حين التشبيه بعين الأحول؛ فإن الأخطل قال فى عبد الملك بن مروان:

وقد جعل الله الخلافةَ مِنْهُمْ لأبيضٍ لا عارى الخِوانِ ولا جذب  
وهذا مما لا يجوز أن يمدح به خليفة، ويجوز أن يمدح به غيره؛ كقول الآخر:

إلى امرئٍ لا تخطئه الرفاقُ ولا جَدْبُ الخِوانِ إذا ما استثنى المرق<sup>(٤)</sup>

فإن «لا عارى الخوان ولا جذب» لا يجوز أن يمدح بها خليفة من الخلفاء، ولكن يجوز هذا مع غيره؛ لذلك لم يراع الأخطل «حال الممدوح»، والحال هنا مكانته الاجتماعية والسياسية.

ويتصل بالخطأ فى الدلالة أن ينقلب المدح إلى الهجاء لعدم مراعاة «الحال» أيضاً. ووقع فى هذا الأخطل؛ فقد أجاره رجل من بنى أسد اسمه سِمَاك بن حمير؛ فقال قاصداً مدحه:

(١) السِّمَاط: الصف، والمرعبل: المقطع أو الممزق، وصفواء: مائلة للغروب؛ يقال: صفت الشمس

والنجوم: مالت للغروب.

(٢) وجأ فلاناً يَجْؤ وَجْأً ووجاء: دفعه بجُمع كفه فى الصدر أو العنق.

(٣) الشعر والشعراء: ٢ / ٦٠٤.

(٤) الشعر والشعراء: ١ / ٤٨٧.

نعم المجيرُ سَمَّاكَ مِنْ بَنِي أُسْدٍ      بِالطُّفِّ إِذْ قَتَلْتَ جِيرَانَهَا مُضَرُّ<sup>(١)</sup>  
 قَدْ كُنْتُ أَحَبِّهِ قَيْنًا وَأَبْوُهُ      فَالْيَوْمَ طِيرَ عَنْ أَتَوَابِ الشَّرِّ

وكان يقال لرهمطه «القَيُون»، وقال الأخطل: فلما أجارني وأحسن إلي طار الشر عن أتوابه؛ أي بطل هذا اللقب. وهذا مدح كالهجاء<sup>(٢)</sup>. وهناك عدة تعليقات على هذين البيتين، من بينها أن سماكاً الذي قصد الأخطل مدحه قال له: «يا أخطل أردت مدحي فهجوتني، كان الناس يقولون قولاً فحققته»، وقال له الجلاح ابن ضوء أيضاً: «لو أردت المبالغة في هجائه مازدت على هذا»<sup>(٣)</sup>. وأراد الأخطل هجاءً سويد بن منجوف فقال:

وَمَا جِدْعُ سَوْدٍ خَرَبَ السَّوسُ وَسَطُهُ      لَمَّا حَمَلَتْهُ وَائِلٌ بِمُطِيقٍ  
 وَعَلَّقَى سَوِيدٌ عَلَى الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: «هَجَوْتَنِي بِزَعْمِكَ فَمَدَحْتَنِي؛ لَأَنْتَ جَعَلْتَ وَائِلًا حَمَلَتْنِي أُمْرَهَا، وَمَا طَمَعْتُ فِي بَنِي تَغْلِبَ مِنْهَا»<sup>(٤)</sup>.

ويلجأ الشعراء إلى بعض الصور البلاغية كالاتعارة والتشبيه ولكن بعضهم يجانبه التوفيق في استعماله لتلك الصور؛ فقد أخذ ثعلب على قيس بن الخطيم قوله:

حَوْرَاءُ جِيْدَاءُ يُسْتَضَاءُ بِهَا      كَأَنَّهَا عُودٌ بَانِي قَصِيفُ  
 لَأَنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا تُشَبِّهُ بِالْعُودِ الْمُتَنَشِّئِ لَا بِالْمُتَقَصِّفِ<sup>(٥)</sup>. وما يستقيم من تشبيه رؤية قوله للمرأة:

يُكْسِنَ مِنْ لَيْنِ الشَّبَابِ نَيْمًا

و«النَّيْم» القرو القصير إلى الصدر، قيل له نيم؛ أي نصف قَرُوً بالفارسية<sup>(٦)</sup>. وعاب

(١) الطُّفُّ: موضع قرب الكوفة، وما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. القاموس ٣ / ١٧٤.

(٢) الشعر والشعراء: ١ / ٤٨٧ و ٤٨٨.

(٣) الأغاني: ٧ / ١٧٥.

(٤) الشعر والشعراء: ١ / ٤٨٨.

(٥) الموشح: ١١٧.

(٦) المغرب: ٣٨٧.

قوم على أوس بن حجر قوله:

وَذَاتُ هِذِمٍ عَايِرٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالمَاءِ تَوَلِباً جَدْعاً<sup>(١)</sup>  
لأنه أفحش الاستعارة بأن سمى الصبي تولباً، وهو ولد الحمار، ومثله قوله الآخر:  
ومَا رَقْدُ الوِلْدَانِ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبَكْرِ يَمْرِيه بِسَائِي وَحَافِرِ<sup>(٢)</sup>  
فسمي رجل الإنسان حافراً. قال قدامة: «فإن ماجرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح  
لا عذر فيه»<sup>(٣)</sup>.

وقد اهتم ابن طباطبا بالصور البلاغية من حيث البعد والغلو، وخصّ التشبيه  
بذلك؛ فتحدث عن التشبيهات البعيدة التي لم يلفت أصحابها فيها، ولم يخرج  
كلامهم في العبارة عنها سهلاً<sup>(٤)</sup>.

ومن الخطأ في الدلالة قول ابن أحمر:

لَمْ تَدْرِ مَا نَسَجَ الْيَرَنْدَجُ قَبْلَهَا وَدِرَاسُ أَعْوَصَ دَارِسٍ مُتَجَدِّدٍ<sup>(٥)</sup>  
«اليرندج» جلد؛ فظن أنه منسوج<sup>(٦)</sup>. ومن الخطأ كذلك قول أبي نخيلة:  
بَرِيَّةٌ لَمْ تَأْكُلِ المَرْقَقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ البَقُولِ الفُسْتَقَا  
ظن أن «الفستق» بقل<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) ذات هدم: يعني امرأة ضعيفة، والهدم: الكساء الخلق الرث، والنواشر: عصب باطن الذراع وعرقه،  
ويقصد الشاعر هنا ذراع المرأة، والجدع: السئ الغذاء.  
(٢) البكر: الفتى من الإبل، ويمريه: يستخرج ما عنده من الجرى.  
(٣) نقد الشعر: ١١٥.  
(٤) عيار الشعر: ٨٥.

(٥) اليرندج والأرندج أصله بالفارسية «رنده» وهو جلد أسود، كما في (المعرب: ٦٤). وقال ابن  
دريد في (الجمهرة: ١٣ / ٥٠٤) عن معنى البيت: «قال بعض أهل العلم إن هذه المرأة لفرثها وقلة  
تجاربها ظنت أن اليرندج منسوج، وإنما هو جلد ... قوله في البيت: دراس، يريد مدراسة،  
والأعوص: الذي قد أعوص من الكلام؛ أي عدل به عن جهته». والدارس: الذي يغمض أحياناً  
فلا يرى.

(٦) مجالس ثعلب: ١ / ١٣٣، وضرائر الشعر: ٢٤٧.

(٧) الشعر والشعراء: ٢ / ٦٠٢.

وكلمة «الأيدع» معناها «دم الأخوين»، وقد توهم رؤية أنه «الزعفران»؛ فقال:  
كما أتقى مُحَرَّم حج أيدعاً<sup>(١)</sup>

ولكن ابن سيده قال: «الأيدع هنا الزعفران؛ لأن المحرم يتقى أن يمس الطيب»<sup>(٢)</sup>.  
ولذلك فإن استعمال رؤية لها ليس خطأ. وحملوا على الخطأ قول حميد بن ثور:

لما تحملت الحمل حسبتهَا دوماً بأيلة ناعماً مكموماً<sup>(٣)</sup>

قال ابن عصفور: «ظن بعضهم أن ذلك غلط؛ لأن الدوم لا يكمم، وإنما يكمم النخل، وليس كذلك عندي؛ بل ينبغي أن يحمل على أنه سَمِيَ النخل دوماً لشيبه به»<sup>(٤)</sup>. وكذلك توقف ابن عصفور أمام قول لييد:

نحن بنى أم البنين الأربعة المطعمون الجفنة المددعة<sup>(٥)</sup>

وأشار إلى أن الشاعر لم يقل الأربعة، وهم خمسة، على جهة الغلط، وإنما قال ذلك لأن أباه كان مات وبقي أعمامه، وهم أربعة<sup>(٦)</sup>.

ونختم هذا العرض للأخطاء التي أشار إليها اللغويون والنقاد ببيت زهير:  
فتنتج لكم غلماناً أشام كلهم كأحمر عاد ثم ترضع نفطيم  
قال ثعلب شارحاً: «تنتج لكم، يعني الحرب، غلمان أشام: في معنى غلمان شؤم، فجعل أشام مصدرًا، ولم يحتج إلى «من»، ولو كان أفعل لم يكن له بد من «من»؛ أي كلهم في الشوم كأحمر عاد، ورفع «كلهم» بالكاف، وإنما أراد أحمر نمود، فقال: أحمر عاد، وهذا غلط»<sup>(٧)</sup>.

\*

(١) ضرائر الشعر: ٢٤٧.

(٢) المفصص: ٩٣ / ١٣.

(٣) الحمل: الهوداج، وأيلة: اسم موضع، ومكوم: غطى وستر بالكفامة.

(٤) ضرائر الشعر: ٢٤٨.

(٥) المددعة: المملوءة.

(٦) ضرائر الشعر: ٢٤٩.

(٧) شرح ديوان زهير: ٢٠، وانظر أساس البلاغة: ٣١٨؛ وشرح القصائد السبع: ٢٦٩. وقد أشاروا إلى أن «أحمر نموده» هو قدار بن سالف، عاقر الناقة، وأشاروا أيضاً إلى أن الشاعر لم يخطئ، ولكنه جعل عاداً مكان نمود اتساعاً ومجازاً؛ إذ قد عرف المعنى مع تقارب ما بين عاد ونمود في الزمن

-٧-

### الاستعمال السياقي للألفاظ

هناك ألفاظ في اللغة العربية لها رواج معين في الشعر، وحين يستعملها الشعراء في التراكيب المختلفة داخل النص الشعري يخلعون عليها أوصافاً معينة؛ حتى إن تلك الأوصاف قد أصبحت من ملامح أى «استعمال سياقي» ترد فيه تلك الألفاظ، ومن ذلك «الحلم» الذى خلع عليه الشعراء بعض الصفات التى تصلح لأن تشكل معجماً له، ويؤدى الخروج عنها إلى الخطأ حين التعبير، ومن أمثلته قول أبى تمام:

رقيقُ حواشىِ الحلمِ لو أنَّ حلمه      بكفِّكَ مامارىت فى أنه بُردُ  
وقد علقوا على هذا الوصف الدلالى للحلم بقولهم: «هذا الذى أضحك الناس منذ سمعوه». والخطأ يعود إلى أن الحلم لا يوصف بالرقّة، ولم يعرف ديوان الشعر العربى هذا الوصف، وإنما يوصف بالعظم والرجحان والرزانة ونحو ذلك. وهذه مجموعة من الأبيات التى احتوت على بعض أوصاف الحلم. قال النابغة:

وأعظم أحلاماً وأكثر سيّداً      وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

فقد وصف النابغة الحلم فى بيته بالعظم، والوصف نفسه تجده فى قول الأخطل:

شُمسُ العداوةِ حتّى يستقادَ لهم      وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

وقال عدى بن الرقاع:

فى شدّةِ المقدِّ والحلمِ الرزينِ وفى      القولِ الثبِتِ إذا ما استنصتَ الكلمُ

فقد وصف عدى الحلم بالرزانة، والوصف نفسه تجده فى قول أبى ذؤيب الهذلى:

وصبرٌ على حدثِ النابِثاتِ      وحلمٌ رزِينٌ وقلبٌ ذكى

وقال عدى:

قرّمَ له مع دينه وتماهى      حلمٌ إذا وُزنَ الحلوُمُ ثَقِيلُ

فقد وصفه بالثقل.

ثم أشار الشعراء إلى أن هذا الحلم بصفاته المختلفة يزن الجبال، وهو يرتد إلى الصفات السابقة. قال عدى:

أَبَتْ لَكُمْ مَوَاطِنُ طَيِّبَاتٍ وَأَحْلَامُ لَكُمْ تَزُنُ الْجِبَالَ

وقال الفرزدق:

أَحْلَامُنَا تَزُنُ الْجِبَالَ رِزَانَةً وَتَخَالُنَا جَنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ

وقال أيضاً:

إِنَّا لَتُوزَنُ بِالْجِبَالِ حُلُومُنَا وَبِزَيْدٍ جَاهِلُنَا عَلَى الْجَهْلِ

وكما قال الآخر

وعَظِيمُ الْحَلَمِ لَوْ وَازَنَتْهُ بِشَيْءٍ أَوْ بَرَضَوَى لِرَجَحٍ

ومن هنا فإنه يمكن تلخيص بعض أوصاف الحلم كما يأتي:



والذى يلفت النظر أن أبا تمام حين وصفه بالركة لم يكن ليجهل تلك الأوصاف؛ لذلك قال الأمدى: «وأبو تمام لا يجهل هذا من أوصاف الحلم، ويعلم أن الشعراء إليه يقصدون، وإياه يعتمدون، ولعله قد أورد مثله، ولكنه يريد أن يتدع فيقع في الخطأ»<sup>(١)</sup>.



## -٨-

## المعجم اللغوى لألفاظ الشعر

نال «المعجم اللغوى» لألفاظ الشعر اهتمام النقاد واللغويين، ونقصد بذلك أن أولئك توقفوا أمام الألفاظ من حيث موافقتها لكلام العرب أو عدم موافقتها، وهل هناك ألفاظ أعجمية فى هذا الشعر أو لا؟ وغير ذلك من الجوانب اللغوية المتصلة بدلالة الألفاظ؛ فقد ذكر أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء قوله: «كان عدى ابن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم، يعارضها ولا يجرى مجاريها. قال: والعرب لا تروى شعره؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان نصرانياً من عبَاد الحيرة<sup>(١)</sup>، قد قرأ الكتب»<sup>(٢)</sup>.

وتوقف العلماء أمام بعض الآيات لبيان ما فيها من ألفاظ أعجمية، وقد استطاع أوس بن حجر أن يجمع ثلاثة ألفاظ فى بيت واحد. قال:

وقارفت وهى لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمى سفيسر<sup>(٣)</sup>  
«الفصافص» الرطبة، وهى بالفارسية «إِسْبَسَتْ» و«النمى» الفلوس بالرومية، و«السفيسر» السمار<sup>(٤)</sup>.

ووردت بعض الألفاظ على ألسنة بعض الشعراء دون أن تكون معروفة، ومنهم ابن أحمر الباهلى الذى قال عنه ابن قتيبة: «وقد أتى ... فى شعره بأربعة ألفاظ لا تعرف فى كلام العرب؛ فقد سُمى النار «ماموسة» وذلك فى قوله:

تطايح الطل عن أعطافها صعداً كما تطايح عن ماموسة الشرر  
وسمى حوار الناقة «بابوساً»؛ فقال:  
حنت قلوصى إلى بابوسها جزعاً فما حنينك أم ما أنت والذكر

(١) قال ابن دريد: «العباد: قوم من قبائل شتى من العرب، اجتمعوا على النصرانية، فأنفوا أن يتسموا

بالعبيد. فقالوا: نحن العبادة. الجمهرة: ١/ ٢٤٥.

(٢) الشعر والشعراء: ١/ ٢٣٠.

(٣) انظر للمرب: ٢٣٣ و ٢٨٨ و ٣٨٧، وقد نسب الجوالقى البيت للناجعة ثم أوس.

(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٢٠٦ و ٢٠٧.

واستعمل الفعل «بَنَسَ» في قوله:

وَبَنَسَ عَنْهَا فَرَقْدَ خَصِرٍ

أى تأخر، ولا يُعرف «التَّبْنِيسُ». واستعمل «الْأَرْتَةُ» بمعنى ما لُفَّ على الرأس، وذلك في قوله:

وَتَقْنَعُ الْحَرِيَاءُ أُرْتَتَهُ      مَتَشَاوِسًا لَوْرِيْدَهُ نَقْرٌ<sup>(١)</sup>

- ٩ -

### عيوب المعانى

من النقد اللغوي الذى اهتم به العلماء ويتصل بالدلالة اتصالاً مباشراً مادرسوه تحت اسم «عيوب المعانى»، ونبدأ هذا الحديث بـ «المديح»؛ فقد أنشد عبيد الله بن قيس الرقيات الخليفة عبد الملك بن مروان بآتيته التى يمدحه فيها؛ فلما انتهى إلى قوله:

يَأْتَلِقُ النَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ      عَلَى جِبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

غضب عبد الملك، وقال له: قد قلت في مصعب بن الزبير:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ قَدْ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذى هو كالذهب فى النضارة<sup>(٢)</sup>. قال قدامة: «فَوَجَّهَ عَتَبَ عَبْدِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنْ هَذَا الْمَادِحُ عَدَلَ بِهِ عَنِ الْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ، الَّتِي هِيَ الْعَقْلُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدْلُ وَالشَّجَاعَةُ، وَمَا جَانَسَ ذَلِكَ وَدَخَلَ فِي جَمَلَتِهِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ الْجِسْمِ فِي الْبَهَاءِ وَالزَّيْنَةِ»<sup>(٣)</sup>. وهذا الذى مدح به عبيد

(١) السابق: ٣٥٧ / ١ و ٣٥٨.

(٢) كتاب الصناعتين: ٩٨.

(٣) نقد الشعر: ١٨٩. ويقول طه إبراهيم: «إن البيت لم يقع مرقعاً حسناً من نفس عبد الملك، لا لأنه عدل في مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة؛ بل لأن بين البيتين بوئاً شامعاً في الجمال والقوة والروح؛ لأن بيت ابن الرقيات في مصعب أروع وقعاً وأعلى نفساً، وأمس بالثور العلوى، وأشد اتصالاً بالله الذى يحرص الخلفاء على أن يمثلوه فى الأرض، ولهذا وحده عتب عبد الملك على الشاعر، وليس لخلو بيته من الفضائل النفسية؛ فليس فى بيت مصعب شيء منها على النحو الذى يفهمه قدامة». تاريخ النقد: ١٣٨ و ١٢٩.

الله الخليفة من عيوب المدح.

ويدور أن المدح بالأشياء المادية كالذهب والفضة وغيرهما من عيوب المدح بصفة عامة؛ فقد مدح أيمن بن خريم الأمير الأموي بشر بن مروان بأبيات يقول فيها:

يا ابنَ الدَّوَابِّ والذَّرَى والأرْضَى	والفرعُ من مُضَرَّ العَفْرَا الأَقْصَى <sup>(١)</sup>
وابنَ الأكْرامِ من قريشِ كُلِّها	وابنَ الخِلاَفِ وابنَ كلِّ قَلَمٍ <sup>(٢)</sup>
من فرعِ آدمَ كابرًا عن كابر	حتى انتهتْ إلى أبيك العنسي <sup>(٣)</sup>
مروانَ إن فَنَاقَه خطيئةٌ	غُرِستْ أرومتُها أعزَّ المَغْرِبِ
وبنيتْ عندَ مقامِ ربِّكَ قبةٌ	خضراءَ كُلِّ تاجِها بالفِلسِ
فَسَمَاؤُها ذهبٌ وأسفلُ أرضِها	ورِقٌّ تَلَأُ في البَهِيمِ الحِنْدِسِ <sup>(٤)</sup>

وعلق عليها قدامة بقوله: «فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الحقى؛ وذلك أن كثيراً من الناس لا يكونون كأبائهم في الفضل، ولم يذكر هذا الشاعر شيئاً غير الآباء، ولم يصف الممدوح بفضيلة في نفسه أصلاً، وذكر بعد ذلك بناء قبة، ثم وصف القبة بأنها من الذهب والفضة، وهذا أيضاً ليس من المدح؛ لأن في المال والثروة مع الضعة والفقر<sup>(٥)</sup> ما يمكن معه بناء القباب الحسنة واتخاذ كل آلة فائقة، ولكن ليس ذلك مدحاً يعتد به، ولانعتاً جارياً على حقه<sup>(٦)</sup>».

ومما يتصل بعيوب المدح أن تكون للعبارة دلالة على أمر مكروه خارج عما جئ به للدلالة عليه، إما باشتراك وقع في اللفظ، أو بعرف واستعمال حدث فيه

(١) العفرا: الأسد القوى، والأقصى: الثابت.

(٢) قلمس: بحر زاجر، ورجل عظيم.

(٣) العنسي: الأسد، والمقصود هنا أولاد العنابس من قريش.

(٤) الحنيس: الشديد الظلمة.

(٥) الفقة: العي.

(٦) نقد الشعر: ١٩٠ و ١٩١.

ولو للعامة. فيجب أن يتحفظ من ذلك حيث تنهياً تلك العبارة بنفسها أو مع ما يكتنف بها؛ لأن ما يفهم منها بحسب الاشتراك الواقع فيها، أو بحسب العرف والاستعمال أمر قبيح في حق ممدوح أو مندوب أو منسوب أو نحو ذلك مما يكره في حقه القبح. ومن ذلك قول الصاحب في عضد الدولة:

ضُمَّتْ عَلَى أُنْثَاءٍ تَغْلِبُ نَاءَهَا      فَتَغْلِبُ مَا كَرُّ الْجَدِيدَانِ تُغْلِبُ

فقال عضد الدولة: بقي الله. قال حازم القرطاجني: «وما أكد القبح في هذه اللفظة التي هي قوله «تَغْلِبُ» وقوعها قافية؛ فإنها مقطع الكلام وموضع تخلى السامع وتفرغه لتفقد مامر على سماعه مما وقع فيها. فالسمع أقرب عهداً به، وهو أشد ارتساماً فيه. ولو وردت اللفظة التي أنكرها عضد الدولة في أثناء البيت لكان الأمر فيها أسهل»<sup>(١)</sup>.

ولأيمان بن خريم الذي أشرنا إليه من قبل أبيات يمدح فيها بشر بن مروان أيضاً، وقد قال في بيت منها:

فإننا قد وجدنا أم بشرٍ      كأم الأسدِ مذكاراً ولوداً

وأشاروا إلى أنه قريب من الذم؛ وذلك أنه جعل أمه ولوداً، والناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة، يكون أعسر، ويستدلون على ذلك بقول كثير الخزاعي:

بُغَاثُ الطَيْرِ أَكْثَرُهَا فَرَاخاً      وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتٌ نَزُورٌ<sup>(٢)</sup>

ونختم هذا الحديث عن «عيوب المدح» ببعض الأبيات التي أوردتها ابن رشي، وتتصل بتلك العيوب. قال البحرى يمدح المعتز بالله:

لا العذلُ يردُّه ولا التعنيفُ عن كرمِ يصدّه

وقالوا: مَنْ ذا يعنف الخليفة على الكرم أو يصدّه، هذا بالهجاء أولى منه بالمدح.

وعيب على الأخطل قوله في عبد الملك بن مروان:

(١) منهاج البلاغة: ١٥٠ و ١٥١.

(٢) نقد الشعر: ١٩٢.

وقد جعل الله الخلافة منهم لأبيض لأعاري الخوان ولا جذب وقالوا: لو مدح به حرسياً لعبد الملك لكان قد قصر به. وعابوا على الأخص قوله للملك:

وأراك تفعل ماتقول وبعضهم مدق الحديث يقول ما لا يفعل فقالوا: إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة، وإنما تمدح بالإغراق والتفضل، بما لا يتسع غيرهم لبذله. ومن هذا النوع قول كثير:

رأيت ابن ليلى يعترى صلب ماله مسائل شتى من غنى ومصرم  
مسائل إن توجد لديك تجذبها يدك وإن تظلم بها تظلم  
لأن هذا إنما يقع لمن دون الخليفة والملك<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لعيوب المدح نجدها تتلخص في المدح بالأشياء المادية؛ وذلك على نحو مدح عبيد الله لعبد الملك بأن التاج فوق جبينه كأنه الذهب، وهذا لأفضل للممدوح فيه، مما عدّ عيباً؛ بل إن الخليفة نفسه تنبه إلى هذا. بالإضافة إلى استعمال المشترك اللفظي، ومدح الملوك بما تمدح به العامة.

ومن الموضوعات التي تتصل بـ «عيوب المعاني»، وعرض لها النقاد واللغويون «النسيب» الذي يعرفونه بأنه ذكر الشاعر خلق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى به معهن، وقد تحدث ابن رشيق عن بعض عيوبه قائلاً: «ومن عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل، ويقل المديح، كما يحكى عن شاعر أتى نصر بن سيار بأرجوزة فيها مائة بيت نسيباً، وعشرة أبيات مديحاً؛ فقال له نصر: والله ما أبقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بنسيبك؛ فإن أردت مديحي فاقتصد في النسيب. فغدا عليه فأنشده:

هل تعرف السدار لأم عمرو دغ ذا وجبر مدحة في نصر

فقال نصر: لا هذا ولا ذاك، ولكن بين الأمرين<sup>(٢)</sup>. ويقصد نصر بذلك ألا

(١) المعلقة: ١٠٣ / ٢ - ١٠٤.

(٢) المعلقة: ٩٩ / ١.

يطغى جانب على جانب آخر إذا كان الشاعر ينشد أحداً؛ فالشاعر هاهنا قد طغى الغزل عنده على المدح الذى يعد الغرض الأساسى، وقد لجأ إلى العكس، ولكنهلقى الانتقاد أيضاً.

ومن عيوب المعنى فى باب النسب أن يعكس الشاعر فينسب بنفسه، وهذا ما وقع فيه عمر بن أبى ربيعة؛ بل كان معروفاً من أمره، ومن أمثلة ذلك قوله:

بينما ينعتننى أبصرتنى      دون قيد الميل يعدو بى الأغرُّ  
قالت الكبرى أتعرفن الفتى      قالت الوسطى نعم هذا عمرُ  
قالت الصغرى وقد تيمّتها      قد عرفناه وهل يخفى القمرُ

وقد قال له ابن أبى عتيق: أنت لم تنسب بها، إنما كان ينبغى أن تقول: قلت لها، فقالت لى، فوضعت خدى، فوطئت عليه<sup>(١)</sup>.

ومن عادة العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة والراغبة والمخاطبة، وهنا دليل كرم التحيزة فى العرب وغيرها على الحرم، ولكن عمر بن أبى ربيعة وقع فى عيب حين جعل المرأة هى التى تسعى إليه. قال:

قالت لترب لها تحذنها      لتفقدن الطواف فى عمر  
قوسى تصدى له ليصيرنا      ثم اغمزيه يا أخت فى خفر  
قالت لها غمزته فأبسى      ثم اسبطرت تشدد فى أترى

قال كثيرٌ لعمر معلقاً على الأبيات: «أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك ... كنت قد أسأت صفتها. أهكذا يقال للمرأة؟ إنما توصف بالخفر، وأنها مطلوبة ممنعة ...»<sup>(٢)</sup>.

وما يتصل بالدلالة فى باب النسب تلك الرواية التى تقول إن الأقيشر دخل على عبد الملك بن مروان وعنده قوم، فتذاكروا الشعر، وذكروا قول نصيب:

(١) الأغاني: ١١٨/١. و«قيد الميل» فى البيت الأول: مقداره.

(٢) المونج: ٣٥٨.

أَمِيمٌ بَدْعِدٍ مَا حَيَّتُ فَإِنْ أُمْتُ      فَيَاوِيحِ دَعْدٍ مِنْ يَهِيمٍ بِهَا بَعْدِي<sup>(١)</sup>  
 فقال الأقيشر: والله لقد أساء قاتل هذا الشعر، قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قاتله؟ قال: كنت أقول:  
 تحبكم نفسى حياتى، فإن أمتُ      أو كُلُّ بَدْعِدٍ مِنْ يَهِيمٍ بِهَا بَعْدِي  
 قال عبد الملك: والله لأنت أسوأ قولاً منه حين توكل بها. فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أقول:  
 تحبكم نفسى حياتى، فإن أمتُ      فلا صَلَحَتْ هُنْدٌ لَذَى خُلَّةٍ بَعْدِي  
 فقال القوم جميعاً: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْ الْعُيُوبِ فِي هَذَا الْبَابِ مَاورد فِي قول إسحاق الأعرج مولى عبد العزيز بن مروان:

فَلَمَّا بَدَأَ لى مَارَابِنى      نَزَّعْتُ نَزْوَعَ الْأَبَى الْكَرِيمِ  
 ويقال إن أبا السائب المخزومي لما أنشد هذا البيت قال: قَبَّحَهُ اللهُ، لا والله ما أحبها ساعة قط. ومثلها لنباعة بنى تغلب:

هَجَرْتُ أَمَامَةَ هَجْرًا طَوِيلًا      وَمَا كَانَ هَجْرَكَ إِلَّا جَمِيلًا  
 عَلَى غَيْرِ بَغْضٍ وَلَا عَنْ قَلَى      وَلَا حِيَاءَ وَلَا ذَهْوِلًا  
 بَخَلْنَا لِبَخْلِكَ قَدْ تَعْلَمِينَ      فَكَيْفَ يَلُومُ الْبَخِيلُ الْبَخِيلًا  
 ومن الكلام المستحسن في الغزل قول عبد الرحمن بن عبد القس:

سَلَامٌ لَيْتَ لِسَانًا تَنْطَقِينَ بِهِ      قَبْلَ الَّذِي نَالَنِي مِنْ صَوْتِهِ قُطْعًا  
 قال قدامة: «فما رأيت أغلظ ممن يدعو على معشوقته، حيث أجادت في غنائها له بقطع لسانها»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر تعليق كثير على هذا البيت في الموضع: ٢٦٠.

(٢) الشعر والشعراء: ٤١٢/١.

(٣) نقد الشعر: ١٩٧ - ١٩٩.

ونستمر في العرض لـ «عيوب المعاني» حتى نصل إلى «باب الهجاء»، ومن العيوب في هذا الباب حين هجاء أحد «أن يُنسب إلى أنه قبيح الوجه، أو صغير الحجم، أو ضئيل الجسم، أو مقتر، أو معسر، أو من قوم ليسوا بأشراف، إذا كانت أفعاله في نفسه جميلة، وخصاله كريمة نبيلة، أو أن يكون أبواه مخطئين، إذا كان مصيباً، أو غويين، إذا وجد رشيداً سديداً، أو بقلة العدد، إذا كان كريماً، أو بعدم النظر، إذا كان راجحاً شهماً»<sup>(١)</sup>؛ فليس هذا داخلاً في الهجاء.

وهناك عدة أبيات تدل على أن القبح والشحوب والسماجة ليست بعار، ومن ذلك قول الشاعر:

رَأَتْ نَضْوَ أَسْفَارٍ أَمِيمَةٍ قَاعِدًا      عَلَى نَضْوِ أَسْفَارٍ فَجَنُّ جَنُونِهَا<sup>(٢)</sup>  
فَقَالَتْ: مَنْ أَيْ النَّاسِ أَنْتَ وَمَنْ تَكُنْ      فَإِنَّكَ رَاعِي ثَلَاثَةٍ لَا تَزِينُهَا  
فَقُلْتُ لَهَا: لَيْسَ الشُّحُوبُ عَلَى الْفَتَى      بَعَارٍ وَلَا خَيْرَ الرِّجَالِ سَمِينُهَا

ويعد «الوصف» واحداً من أهم موضوعات الشعر العربي؛ إذ إن الشعراء توقفوا أمام وصف السيف والفرس والإبل والسحاب وسواها، وخلال هذا الوصف أخفق بعضهم؛ لأن ماعرضه لم يكن بالدقة المطلوبة، وهذا يرد إلى السياق العام الذي ورد فيه الوصف، وما احتواه من ألفاظ وعبارات تؤدي إلى دلالة بعينها. ونقدم، فيما يلي، بعض الروايات والتعليقات النقدية المتصلة بالنقد الدلالي للوصف.

هناك بعض الانتقادات التي وجهها العلماء لوصف الفرس؛ فقد أنشد رؤبة سلم بن قتيبة قوله في وصف قوائم الفرس:

يَهْوِينَ شَتَّى وَيَقَعْنَ وَقَفًا<sup>(٣)</sup>

فقال له سلم: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف، جعلته مقيداً<sup>(٤)</sup>. ويعود السبب في

(١) نقد الشعر: ١٩٢.

(٢) النضو: المهزول من الحيوان.

(٣) الشحوب: تغير اللون والجسم من السفر وغيره.

(٤) وفقاً: معاً، وهو من الموافقة بين الشيئين كالإلتحام. انظر مجمل اللغة: ٩٣٢ / ٢ (وفق).

(٥) الشعر والشعراء: ٥٩٦ / ٢.



هذا الخطأ حين الوصف لقوائم الفرس أن رؤية لم يكن صاحب خيل، وكان صاحب إبل ونعتها<sup>(١)</sup>؛ لذلك قال رؤية لسلم حين وجه إليه هذا الانتقاد: «أدنى من ذنب البعير»، ويقصد بذلك أنه يجيد وصف الإبل لا الخيل.

وكان أبو النجم الراجز وصافاً للفرس، وأخذ عليه في صفته قوله:

يَسْبَحُ أَخْرَاءَ وَيَطْفُو أَوْلَهُ

قال الأصمعي: إذا كان ذلك كذلك فحمار الكساح أسرع منه؛ لأن اضطراب ماخيره قبيح. قال: وما أحسن في قوله «ويطفو أوله»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو ذؤيب في وصف الفرس:

قَصَرَ الصَّبُوحَ لَهَا فَشَرَّجَ لَحْمَهَا      بالنِّسْبَةِ فِيهِ تَشْوُخٌ فِيهَا الْإِصْبَعُ

قال الأصمعي: «شَرَّجَ لحمها: صار شريجين، شحماً ولحماً، وتشوخ: تغيب، مثل تسوخ. وهذا من أحب ما نعتت به الخيل، والصواب أن توصف بصلابة اللحم»<sup>(٣)</sup>.

وتوقف النقاد أمام وصف الفرس في شعر امرئ القيس، وعلى الرغم من اتفاقهم على إبداعه في هذا الوصف؛ فإنهم تتبعوا بعض الأبيات التي أشاروا إلى أن الشاعر لم يصادفه التوفيق؛ فقد عابوا عليه:

لَهَا ذَنْبٌ مِثْلُ ذَيْلِ الْعُرُوسِ      تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرٍ

وقالوا: ذيل العروس مجرور، ولا يجب أن يكون ذنب الفرس طويلاً مجروراً ولا قصيراً. قالوا: والصواب قوله:

ضَلِيعٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ      بِضَافٍ فَوْقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعَزَلٍ<sup>(٤)</sup>

(١) انظر طبقات ابن سلام: ٢٨.

(٢) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٤ و ٦٠٥، وانظر الوساطة: ١٢.

(٣) السابق: ٢/ ٦٥٥، وانظر الوساطة: ١٢.

(٤) قال أبو بكر الأنباري: «يقال: فرس ضليع ويمبر ضليع، إذا كانا قوين متنفحين الجنبين، وهي الضلالة... وفرجه: ما بين رجله، بضاف: معناه بذنب ضاف، وهو السابغ... وبكره من الفرس أن يكون أعزل ذنبه في ناحية، وأن يكون قصير الذنب، وأن يكون طويلاً عليه، ويستحب منه أن يكون سابغاً قصير العنق». شرح القصائد السبع: ٩٠.

وعاب الأصمعي قولَ امرئ القيس:

وأركبُ في الرَّوعِ خيفانَةً      كنّا وجهها سَعَفٌ منتشر<sup>(١)</sup>

وقال: إذا غطت الناصيةُ الوجهَ لم يكن الفرسُ كريماً، والجيد الاعتدال، كما قال عبيد:

مضبرٌ خلَقَها تضيييراً      ينشئُ عن وجهها السيب<sup>(٢)</sup>

وقد كان وصف الفرس واحداً من الموضوعات التي حرص كل شاعر على أن يتفوق فيه على صاحبه، ولعلنا نذكر في مجال الوصف ما جرى بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة من تنازع بينهما أيهما أشعر؟ فقال كل واحد منهما: أنا أشعر منك. فقال علقمة: قد رضيتُ بامراتك أم جندب حكماً بيني وبينك، فحكماهما؛ فقالت أم جندب لهما: قولاً شعراً تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروى واحد؛ فقال امرؤ القيس:

خليلي مُراً بى على أمّ جندبٍ      نقضُ لَباناتِ الفؤادِ المعذبِ

وقال علقمة:

ذهبتَ من الهجرانِ في غيرِ مذهبٍ      ولم يكُ حقاً طولُ هذا التجنّبِ

فأنشدها جميعاً القصيدتين؛ فقال لامرئ القيس: علقمة أشعر منك، قال: وكيف؟ قالت: لأنك قلت:

فللسَّوطِ أَلْهَوْبٌ وللسَّاقِ دِرَّةٌ      وللزجرِ منه وَقَعٌ أُخْرِجَ مُهْذِبٌ<sup>(٣)</sup>

الأخرج: ذكر النعام، والخروج: بياض في سواد، وبه سُمي، فجهدتُ فرسك

(١) الخيفانة: الجراة، وقد شبه امرؤ القيس فرسه بها لسرعتها وخفتها؛ لذلك يقال: فرس خيفانة، وشبه شعر الناصية بسعف النخلة. المازني: ١ / ٣٧.

(٢) المضبر: الموثق، والسبب: شعر الناصية. انظر: الموشح: ٣٩؛ والوساطة: ١٠؛ وجمهرة أشعار العرب:

١٠١.

(٣) مهذب: الإهذاب السرعة في الطيران والعدو، ومرّ الفرس بهذب. مجمل اللغة: ٢ / ٩٠٢.

(هذب)؛ وانظر الموازنة ١ / ٣٩.

بسوطك فى زجرك، ومرّيته<sup>(١)</sup> فأتعبته بساقلك. وقال علقمة:

فأدر كهنٌ ثانياً من عَنانهِ      يمرُّ كمرِّ الراحِ المتحلِّبِ<sup>(٢)</sup>  
فأدر ك فرسه ثانياً من عَنانهِ، لم يضره ولم يتعبه<sup>(٣)</sup>.

واهتم الشعراء بوصف السيف، وتتبع النقاد واللغويون أشعارهم الخاصة بذلك، ومن أمثلة عيوب هذا الوصف عندهم قول النمر بن تولب:

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ      أسبأ سيفٌ قديمٍ إثرهُ بادٍ  
تظلُّ تخفر عنه إن ضربت به      بعد الذراعين والساقين والهادى

ذكر أنه قطع ذلك كله ثم ركب فى الأرض، حتى احتاج إلى أن يحفر عنه، وهذا من الإفراط والكذب<sup>(٤)</sup>.

ووصف الشعراء ورود الإبل، ولكن أبا النجم لم يحسن فى قوله:

جاءت تسامى فى الرعيل الأولِ      والظلُّ عن أخفافها لم يَفْضُلِ  
ذكر أنها وردت فى الهاجرة، والعادة فى هذا أن توصف بالورود غلَسًا والماء بارد؛  
كقول الآخر:

فوردت قبلَ الصباحِ الفاتقِ

وكقول لبید:

إنَّ من وِردَى تَغْلِيسَ النَّهْلِ

وكقول الآخر:

فوردنَ قبلَ تبْيِيسِ الألوانِ

(١) مرّيت الفرس: إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره، ومرّى الفرس بيده: إذا حركها على الأرض كالعابث.

(٢) الراح: السحاب، والمتحلّب: المتساقط المتتابع.

(٣) الموشح: ٢٨ و ٢٩؛ والشعر والشعراء: ١/ ٢١٨ و ٢١٩.

(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٣١١؛ والموشح: ١١٣.

ووصف الشعراء النخل، وكان الأصمعي يخطئ المرار العدوى فى قوله فى  
صفة نخل:

كَأَنَّ فُرُوعَهَا فِي كُلِّ رِيحٍ      عَدَارَى بِالذَّوَابِّ يَنْتَصِينَا  
ضَرْبِنَ الْعَرَقِ فِي يَنْبُوعِ عَيْنٍ      طَلَبْنَ مَعِينَهُ حَتَّى رَوْنَا  
بَنَاتُ الدَّهْرِ لَا يَخْشِينَ مَحَلًّا      إِذَا لَمْ تَبْقَ سَائِمَةٌ بَقِينَا<sup>(١)</sup>

وقال: لم يكن له علم بالنخل، وإذا تباعد النخل كان أجود له وأصلح لشمره، ومما  
كانت العرب تقولُه عن الأشياء: قالت نخلة لأخرى:

أَبْعِدِي ظِلِّي مِنْ ظِلِّكَ      أَحْمِلْ حِمْلِي وَحْمَلْكَ<sup>(٢)</sup>

ووصف الشعراء راعى الإبل، وقد أخذوا على أبى النجم قوله:

صَلَبُ الْعَصَا جَافٍ عَنِ التَّغْزِيلِ

قال الأصمعي: لا يوصف راعى الإبل بصلابة العصا، والجيد قول الراعى:

ضَعِيفُ الْعَصَا بَادَى الْعُرُوقِ تَرَى لَهُ      عَلَيْهَا إِذَا مَا أَمَحَلِ النَّاسُ إَصْبَعًا<sup>(٣)</sup>  
وَأَخَذَ عَلَى أَبِي ذُؤَيْبٍ قَوْلَهُ فِي وَصْفِ الدُّرَّةِ:

فَجَاءَ بِهَا مَا شَتَّ مِنْ لَطِيفَةٍ      يَدُومُ الْفِرَاتُ فَوْقَهَا وَيُمُوجُ<sup>(٤)</sup>

وقالوا: الدُّرَّةُ لا تكون فى الماء الفرات، إنما تكون فى الماء المَلْحُ؛ لذلك هناك رواية  
أخرى للبيت هى «تدوم البحارة»، تؤدى إلى نفى الغلط فى الوصف<sup>(٥)</sup>. ووصف أبو  
نواس الدار فقال:

كَأَنَّهَا إِذْ خَرَسَتْ جَارِمٌ      بَيْنَ ذَوَى تَغْنِيْدِهِ مُطَرِّقٌ

(١) الذَّوَابِّ: الضفادع، وينتصين: يتجاذبن، وأخجل: الجذب.

(٢) الشعر والشعراء: ٢ / ٦٩٨.

(٣) الشعر والشعراء: ٢ / ٦٠٩.

(٤) اللطيفة: نسبة إلى اللطيمة، وهى سوق فيها أوعية المطر.

(٥) الشعر والشعراء: ٢ / ٦٥٨ و ٦٥٩؛ وانظر الوساطة: ١٣.

شبه ما لا ينطق أبداً فى السكوت بما قد ينطق فى حال، وإنما كان يجب أن يشبه الجارم<sup>(١)</sup> إذا عذله فسكت وأطرق وانقطعت حجته بالدار، وإنما هذا مثل قائل قال: مات القوم حتى كأنهم نيام، والصواب أن يقول: نام القوم حتى كأنهم موتى<sup>(٢)</sup>.

وبما يتصل بالحديث عن عيوب المعانى أن كتب النقد والبلاغة عرفت مجموعة من المصطلحات والعبارات التى استخدمها العلماء للدلالة على تلك العيوب، ومن بينها مخالفة العرف والإخلال والحشو والتثليم ونسبة الشيء إلى ما ليس منه والزيادة فى اللفظ مما يؤدي إلى فساد المعنى، ونحاول التعريف بتلك المصطلحات والعبارات خلال بعض الأمثلة من الشعر.

يقع الشعراء فيما أسماه العلماء مخالفة العرف، والإتيان بما ليس فى العادة والطبع؛ وذلك مثل قول المراء:

وخالٍ على خديك يبدو كأنه سنا البدرِ فى دَعَجَاءٍ بادٍ دَجُونُهَا<sup>(٣)</sup>

فالتعارف المعلوم أن الخيلان سود، أو ما قاربها فى ذلك اللون، والخدود الحسان إنما هى البيض، وبذلك تنعت؛ فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى. ومن هذا الجنس قول الحكم الخضرى:

كانت بنو غالبٍ لأمتها كالغيثِ فى كل ساعةٍ يكف<sup>(٤)</sup>

فليس فى المجهود أن يكون الغيث واكفاً فى كل ساعة<sup>(٥)</sup>.

ونترك الحديث عن مخالفة العرف والإتيان بما ليس فى العادة والطبع إلى عيب آخر من عيوب المعانى وهو «الإخلال»، والمقصود به أن يترك الشاعر من

(١) الجارم: المحرم.

(٢) الشعر والشعراء: ٢ / ٨٠٢، وانظر العمدة: ٢ / ٢٢٦.

(٣) دَعَجَاء: سوداء، وهى أولى ليالى الخاق وهى ليلة ثمان وعشرين، ودجونها الدجون جمع الدجن: الغيم المظلم المطبق.

(٤) يكف: وكف الغيث سال وقطر قليلاً قليلاً.

(٥) نقد الشعر: ٢١٥.

اللفظ ما به يتم المعنى؛ وذلك كما فى قول عبِيدِ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:

أَعَاذِلْ عَاجِلُ مَا أَشْتَهَى أَحَبُّ مِنَ الْأَكْثَرِ الرَّائِثِ<sup>(١)</sup>  
فإنما أراد أن يقول: عاجل ما أشتهى مع القلة أحب إلى من الأكثر المبطل؛  
فترك «مع القلة» وبه يتم المعنى. ومثل ذلك قول عروة بن الورد:  
عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نَفْسَهُمْ وَمَقْتُلُهُمْ عِنْدَ الْوَعَى كَانَ عُذْرًا  
فإنما أراد أن يقول: عجبْتُ لَهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نَفْسَهُمْ فِي السَّلَمِ، وَمَقْتُلُهُمْ عِنْدَ الْوَعَى  
أَعْذَرُ؛ فترك «فى السِّلَمِ»<sup>(٢)</sup>. ومن هذا الجنس قول الحارث بن حلزة:

وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ لِ النُّوْكِ مِمَّنْ عَاشَ كَذًّا<sup>(٣)</sup>  
فأراد أن يقول: والعيش خير فى ظلال النوك من العيش بكذ فى ظلال العقل؛  
فترك شيئاً كثيراً، وعلى أنه لو قال ذلك لكان فى هذا الشعر خلل آخر؛ لأن الذى  
يظهر أنه أراد، هو أن يقول: إن العيش الناعم فى ظلال النوك خير من العيش الشاق  
فى ظلال العقل؛ فأخل بشئ كثير<sup>(٤)</sup>.

ومن الإخلال إسقاط عنصر نحوى له وظيفة دلالية محددة، مما يؤدى إلى  
قلب المعنى؛ فإن «لا» من بين وظائفها النفى، ولكن أبأ الصلت بن أبى ربيعة  
الشففى قال:

لَا يَرْمِضُونَ إِذَا حَرَّتْ مَغَافِرُهُمْ وَلَا تَرَى مِنْهُمْ فِي الطَّعْنِ مِيَالًا  
وَيَفْشِلُونَ إِذَا نَادَى رَيْثُهُمْ أَلَا أَرَكِبُنْ فَقَدْ آنَسْتُ أَبْطَالًا<sup>(٥)</sup>

(١) الرأث: المبطى.

(٢) نقد الشعر: ٢١٦؛ والموشع: ٣٦٣؛ وكتاب الصناعين: ١٨٨.

(٣) النوك: مفردا الأنوك: الأحمق.

(٤) نقد الشعر: ٢١٧؛ والموشع: ٣٦٤.

(٥) رمض الرجل: إذا اشتد عليه الحر، والمغافر: مفردا المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس،  
يلبس تحت القنوسة، والرئ: الطليعة.

فأراد أن يقول «ولا يفشلون» فحذف «لا»، فعاد المعنى إلى الضد<sup>(١)</sup>.

وهناك عيب عكس السابق، وهو أن يزيد الشاعر في اللفظ ما يفسد به المعنى؛ وذلك نحو:

فما نطفة من ماء نحض عذبة      تمنع من أيدي الرقة ترومها  
بأطيب من فيها لو أنك ذقت      إذا ليلة أسجت وعارت نجومها<sup>(٢)</sup>

فإن «لو أنك ذقت» زيادة توهم أنه لو لم يذقه لم يكن طيباً.

ويلاحظ الشعراء إلى «الحشو» وهو أن يحشى البيت بلفظ لا يحتاج إليه، لإقامة الوزن. مثال ذلك ما قال أبو عدى القرشي:

نحن الرؤوس وما الرؤوس إذا سمت      في المجد للأقوام كالأذنان  
فقلوه «للاقوام» حشو لا منفعة فيه. وقال مصقلة بن هبيرة:

ألكنى إلى أهلي المراق رسالة      وخُص بها، حُيت، بكر بن وائل<sup>(٣)</sup>  
فقلوه «حيت» حشو لا منفعة فيه<sup>(٤)</sup>.

وهناك عيب خاص بالأسماء ويطلق عليها «التثليم» وهو أن يأتي الشاعر بأسماء يقصر عنها العروض، فيضطر إلى تلحمها والنقص منها، مثال ذلك قول أمية ابن أبي الصلت:

لا أرى من يُعينني في حياتي      غير نفسي إلا بنى إسرائيل  
ويقصد «إسرائيل». وقال في هذه القصيدة:

أيما شاطني عصاه عكاه      ثم يلقى في السجن والأكبال<sup>(٥)</sup>

(١) نقد الشعر: ٢١٧.

(٢) النطفة: الماء الصافي، وأسجت: سكت.

(٣) ألكنى: أرسلني؛ أي كن رسولاً إليه.

(٤) نقد الشعر: ٢١٨، ٢١٩؛ والموشح: ٣٦٥.

(٥) يصف سليمان بن داود، وعكاه في الحديد: قيده وشده.

ويقصد «أيما شيطان». وقال علقمة بن عبدة:

كَأَنَّ يُرِيقُهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ      مُقَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَثْلُومٌ

ويقصد «بسبائب الكتان»<sup>(١)</sup>. وقال لبيد بن ربيعة:

دَرَسَ الْمَنَّا بِمُتَالَعِ فَأَبَانَ      بِالْحَسِ بَيْنَ الْبَيْدِ وَالسَّوْبَانِ<sup>(٢)</sup>

ويقصد «درس المنازل»<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان الشعراء يلجأون إلى التثليم والنقص من الأسماء؛ فإن هناك عيباً عكس ذلك، وهو «التذنيب»، وذلك أن يأتي الشاعر بالفاظ تقصر عن العروض فيضطر إلى الزيادة فيها. مثال ذلك ما قال الكمي:

لَا كَعْبِدَ الْمَلِكِ أَوْ كَبَزِيدَ      أَوْ سَلِيمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهْشَامَ

فالملك والملِك اسمان لله عز وجل، وليس إذا سُمِّيَ إنسان بالتعبد لأحدهما وجب أن يكون مسمى بالآخر؛ كما أنه ليس من سمي «عبد الرحمن» هو من سمي «عبد الله».

ويلجأ الشعراء إلى تغيير الاسم عن حاله وصورته إلى صور أخرى، إذا اضطرته العروض إلى ذلك، كما قال النابغة الذبياني يذكر سليمان عليه السلام:

وَكُلُّ صَمُوتٍ ثَلَاثَةٌ تَبْعِيَّةٍ      وَنَسَجُ سُلَيْمٍ كُلُّ قَضَاءٍ ذَائِلٍ<sup>(٤)</sup>

وقال الحطيئة:

فِيهِ الرِّمَاحُ وَفِيهِ كُلُّ سَابِغَةٍ      جَدَلَاءُ مُحْكَمَةٍ مِنْ نَسَجِ سَلَامٍ<sup>(٥)</sup>

وقال الأسود بن يعفر:

(١) السبائب: جمع سبيبة وهي الشُّعْة الرقيقة من الكتان.

(٢) متالع الحبس: موزمان، وأبان: جبل، والسوiban: واد.

(٣) نقد الشعر: ٢١٩ و ٢٢٠؛ والوساطة: ٤٥٠ و ٤٥١.

(٤) الصموت من الدروع: اللينة الملمس، وثلة: واسعة، وتبعية: نسبة إلى تبع ملك اليمن، وقضاء:

محكمة، وذائل: طويلة الذيل.

(٥) السابغة: الدرع الوسيعة، وجدلاء: محكمة النسيج.



ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داود أبي سلام  
أرادوا «داود» فقلوا إلى «سليمان»، ثم حرفوا اسمه فقالوا «سلام» و «سليم»<sup>(١)</sup>.

- ٩٠ -

## السرقات الشعرية

من الموضوعات التي لها أهميتها في تاريخ الحركة النقدية عند القدماء والمحدثين «السرقات الشعرية». وللجانب اللغوي موقف واضح في مجال الدلالة؛ إذ إن هناك بعض المعاني المتداولة التي إن وردت عند عدة شعراء فلا يمكن الحكم عليها بالسرقة.

وبعد «باب التشبيه» واحداً من أبواب البلاغة التي تتصل اتصالاً مباشراً بالدلالة، وقد نال اهتمام النقاد من حيث ربطه بالسرقة، ومن أولئك القاضى الجرجاني، الذي بدأ دراسته بالوقوف أمام المعاني المشتركة والمتداولة قائلاً: «فمتى نظرتُ فرأيتُ أن تشبيه الحَسَنَ بالشمس والبدر، والجواد بالغيث والبحر، والبليد البطي بالحجر والحمار، والشجاع الماضي بالسيف والنار، والصب المستهام بالمخبول في حيرته، والسليم في سهره، والسقيم في أُنَيْنِه وتألّه، أمورٌ متقررة في النفوس، متصورة للعقول، يشترك فيها الناطق والأبكم، والفصيح والأعجم، والشاعر والمفحم، حكمتُ بأن السرقة عنها منتفية، والأخذ بالاتباع مستحيل ممحنت، وفصلتُ بين ما يشبه هذا وبيانيه، وما يلحق به وما يتميز عنه، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع؛ فوجدت منه مستفيضاً متداولاً لا يعد في عصرنا مسروقاً، ولا يُحسب مأخوذاً، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به، وأوله للذي سبق إليه؛ كتشبيه الطلل المحيل بالخط الدارس وبالبرد النهج<sup>(٢)</sup> والوشم في المعصم، والظعن المتحملة بالنخل، وعلاقتها بأعذاق البُسر، والفحل بالفدن<sup>(٣)</sup>، المشيد، والظليم المهيج بأحقب<sup>(٤)</sup> يسوق أُنْتَه، وكوصف الحمول وموران<sup>(٥)</sup> الآل بها، وذم الغراب،

(١) نقد الشعر: ٢٢٠ و ٢٢١؛ والموضح: ٣٦٧؛ والوساطة: ١٤.

(٢) نهج البرد: بلى وأخلق.

(٣) الفدن: القصر.

(٤) الأحقب: الحمار الوحشي في بطنه بياض.

(٥) الموران: الاضطراب.

والصرد<sup>(١)</sup>، والسائح<sup>(٢)</sup>، والبارح<sup>(٣)</sup>، وسؤال المنزل عن أهله، والتفجع لمن استبدل بعد ساكنه، ولوم النفس على بكاء الدار، واستعطاف العقل واستبطاء الصبر، وتحسينه تارة وتقبيحه أخرى، وتشبيه الفرس بالقوة<sup>(٤)</sup>، والظبي بشهاب قذف، والعقاب بالدلو التي خانها الرشاء، وكوصف الغيث بالعموم والتطبيق<sup>(٥)</sup>، واقتلاع الدوح، وتفريق الوحش، وتشبيه دفعه بـعط<sup>(٦)</sup> المزاد، وحلّ العزالي<sup>(٧)</sup> ووصف البرق بخطف الأبصار، وسرعة اللحم، وأنه كالقَبَس من النار، وكالحريق المتضرم، وكمصباح الراهب<sup>(٨)</sup>.

لذلك يرى الجرجاني أن التشبيهات صنفان؛ صنف مشترك عام الشركة، لا ينفرد أحد منهم بسهم لا يساهم عليه، ولا يختص بقسم لا ينازع فيه، وصنف سبق المتقدم إليه ففاز به، ثم تدوّل بعده فكثُر واستعمل.

ولكن هذا الصنف الأول يستطيع الشاعر إذا كان متمكناً من صناعة الشعر أن يأتي بلفظة تستعذب، أو ترتب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيره؛ فميرك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع؛ وذلك كقول

ليبد:

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زيرٌ تجد متونها أقلامها<sup>(٩)</sup>

(١) الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، أكبر من العصفور، والعرب ينشأون به.

(٢) السائح: الطائر أو الظبي مرّ من ميسارك إلى ميامنك فولاك ميامنه، والعرب يقيمون به.

(٣) البارح: الطائر أو الظبي مرّ من بعين الراي إلى يساره، والعرب تشاءم به.

(٤) القوة: المُقاب الخفيفة السريعة الاختطاف.

(٥) طبق السحاب الجو، والغيث السماء، والماء وجه الأرض: غشاه وعمّه.

(٦) العط: الشئ.

(٧) العزالي: مفردها العزلاء، مصبّ الماء من القرية ونحوها، وصيغة الجمع يفتح اللام وكسرهما.

(٨) الوساطة: ١٨٣ - ١٨٥.

(٩) قال أبو بكر الأتباري شارحاً: «معناه: جلت السيولُ التراب عن الطلول؛ أي كشفت ... والطلول والأطلال: ما شخّص من آثار الديار، وزير: جمع زبور، وهو الكتاب ... وتجد متونها أقلامها: معناه يعاد عليها الكتاب بعد أن درست، ومتونها: ظهورها وأسطها». شرح القصائد السبع: ٥٦٦ و

فالدلالة التي أراد لبيد أن يعبر عنها وصف كشف السيول للتراب عن الأطلال؛ فلجأ إلى التشبيه في «كأنها زبر». ومثل هذا التشبيه موجود في شعر امرئ القيس وحاتم الطائي وأبى ذؤيب الهذلي وسواهم، وقد ذكر القاضي الجرجاني أبياتاً فيها التشبيه بالزبر، ثم علق عليها بقوله: «وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة، ولا يخفى شهرة، وبين بيت لبيد وبينها ما تراه من الفضل، وله عليها من الزيادة والشَّفْ»<sup>(١)</sup>.

ويمثل القاضي الجرجاني للتجديد في التشبيه خلال بيت لعلى بن الجهم، وقد قدّم له بقوله: «ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود، والخدود بالورد، نثراً ونظماً، وتقول فيه الشعراء فتكثر، وهو من الباب الذي لا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تُضمُّ إليه، أو معنى يُشَفَّع به، كقول علي بن الجهم:

عشيرة حيانى بورٍ كأنه      خدودٌ أضيفت بعضهم إلى بعض  
فأضاف بعضهم إلى بعض له، وإن أخذ فمنه يؤخذ، وإليه ينسب»<sup>(٢)</sup>.

وهناك بعض الجوانب الخاصة بقضية السرقات التي بالغ النقاد فيها؛ وذلك كأن يتحدثون عن أخذ شاعر لمعنى من المعاني ورد في بيت واحد، ثم يأتي بعده شاعر آخر، ويوزع المعنى في أربعة أبيات؛ فقد قال ابن منذر<sup>(٣)</sup>:

تراضينا بحكم الله فينا      لنا أدبٌ وللتقوى مالٌ

وأخذ العطوى هذا المعنى، ووزعه في الأبيات الآتية:

رضينا بحكم الله بين عباده	رضاً علماءٍ لاتسخط جهال
لئن خص قوماً بالباهة والغنى	وألبسنا ثوبى خمولى وإقلال
لقد جاء بالعلم النفيس الذى به	رشدنا فلم نلبس ملاس ضلال
فلو سُمِّتنا لم نعطِ علماً بشروء	ولم نرَ للتميز كفواً من المال

ويبدو أن الذى دفع النقاد على الحكم على تلك الأبيات الأربعة بالسرقة من

(١) الوساطة: ١٨٧.

(٢) السابق: ١٨٧.

(٣) السابق: ١٩٠.

البيت التشابه بين بعض التراكيب النحوية مثل «تراضينا بحكم الله» و «رضينا بحكم الله»؛ بالإضافة إلى أن الدلالة العامة واحدة، ونعني بذلك أن الشعارين كليهما يفخر بوجود الأدب والعلم دون الغنى والمال.

وهناك بعض المعاني المتداولة على ألسنة العامة، ولكن الصياغة اللغوية يمكنها أن تخلع عليها لوناً من ألوان التعبير الأدبي غير المبتذل؛ فقد قال المتنبي:

فاستعمار الحديد لوناً وألقى لونه في ذوائب الأطفال<sup>(١)</sup>

قال الجرجاني عن هذا البيت إنه «وإن كان مأخوذاً من قول العامة: هذا أمر يشيب الطفل، وكانت الشعراء قد تداولته وابتذلت حتى أخلق ورث، وقد زاد فيه الزيادة المليحة»<sup>(٢)</sup>.

## - ١١ -

### التضمين

ويتصل بالنقد اللغوي حين النظر في الدلالة ما أطلق عليه القدماء مصطلح «التضمين»، وقد وضعوا له عدة تعريفات من بينها تمام وزن البيت قبل تمام المعنى، أو تضمين البيت الثاني معنى الأول؛ لأن الأول لا يتم إلا بالثاني، أو يسمى افتقار أول البيتين إلى الآخر تضميناً؛ لأن تتمة معناه في ضمن الآخر، ويوضح تلك التعريفات هذا البيتان للمناجاة الذياني:

وهم وردوا الجفار على نعيم      وهم أصحاب يوم عكاظ أنى  
شهدت لهم موارد صادقات      شهدن لهم بصدق الودنى<sup>(٣)</sup>

(١) قال المكي شارجاً: «الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر الرأس، والأطفال: جمع طفل، وهو الصغير، ويكون واحداً وجمعاً...» المعنى: يقول إن السيوف والرماح توصف بالبياض، فلما باشرت القتل اكتست الدم، ولم يكن عليها فصارت سوداء، فكانها استعارت لوناً غير ألوانها، وألقت ألوانها، وهي البياض، في ذوائب الأطفال؛ لأنهم يشيبون من شدة ما يتألمهم من الفزع». شرح ديوان المتنبي: ٣ / ٢٠٠.

(٢) الوساطة: ١٩٠.

(٣) التنوخي: القوافي ١٣٥.

والبيت الثاني هو الذى تتم معنى الأول ووضحه. وقد بالغ فى استعمال التضمين داخل النص الشعرى بعض الشعراء كما فى الأبيات الآتية:

ياذا الذى فى الحبّ يلحى أما	والله لو حملت منه كما
حملت من حبّ رخيماً لما	لئت على الحبّ فذرني وما
أطلبُ إنى لست أدري بما	قتلت إلا أننى بنيمًا
أنا يبابِ القصرِ فى بعض ما	أطلب من قصرهم إذ رمى
شبه غزال بهام فما	أخطأ سهماء ولكنما
عيناه سهمان له كلما	أراد قتلى بهما سلماً <sup>(١)</sup>

والذى دفع القدماء إلى عيب التضمين رغبتهم فى أن يكون البيت عبارة عن وحدة دلالية مستقلة، حين نسمعه يمكن التوصل إلى المعنى مباشرة، دونما انتظار للبيت الذى يليه؛ لذلك يقول المرزبانى: «المضمّن عيب شديد من الشعر، وخير الشعر ما قام بنفسه، وخير الأبيات عندهم ما كفى بعضه دون بعض، مثل قول النابغة:

ولست بمستبقي أحاً لائلمه على شعث، أى الرجال المهذب؟<sup>(٢)</sup>

ويقول ابن كيسان أيضاً: «أما التضمين فإنه ليس بالعيب القبيح، ولكن أجزل الكلام ما كان قائماً بنفسه، إذا أنشد كل بيت من القصيدة مفرداً استوعب المعنى الذى وضع له»<sup>(٣)</sup>. والذى دفعهم إلى عيب التضمين أيضاً كون القافية محل الوقف والاستراحة، فإذا كانت مفتقرة إلى ما بعدها لم يصح الوقف عليها، وأدرجت فى الكلام، فتفقد كثيراً من رنينها الذى يحب العرب المحافظةً عليه وإبرازه<sup>(٤)</sup>.

وهناك نوع من التضمين يكون البيت الأول منه قائماً بنفسه يدل على جمل غير مفسّرة، ويكون فى البيت الثانى تفسير تلك الجمل، فيكون الثانى يقتضى الأول كافتضاء الأول له كقول امرئ القيس:

(١) الخطيب التبريزى: الكافى ١٦٦.

(٢) الموضح: ٢٦١.

(٣) تلقيب القوافى: ٥٧.

(٤) الدكتور حسين نصار: القافية فى العروض والأدب ١١٢.

وتعرف فيه من أبيه شمائلًا ومن خاله ومن يزيد ومن حجرٌ  
سماحة ذا، وبرذا، ووفاء ذا ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكرٌ

فالمنعنى تم في البيت الأول، ولكن امرأ القيس فصله وفسره في البيت الثاني؛  
فالسماحة لأبيه، والبر لخاله، والوفاء ليزيد، والنائل لحجر.

وهناك نوع من التضمين تفتقر فيه بعض أجزاء الكلمة إلى بعض، وربما  
صنع شعر قوافيه على هذا الوضع ليعنى موضع القافية، وهو قبيح جدًا، وقد أطلق  
عليه أبو العلاء المعري اسم «الإغرام»<sup>(١)</sup>، وقال عنه: «وكان بعض المتأخرين يزعم  
أن الإغرام أن يتم وزن البيت ولا تتم الكلمة، وهذا لا يعرف في شعر العرب، وإنما  
يتعمده المحدثون كقول القائل:

أبا بكرٍ لقد جاءك من يحيى بن منصور  
رِ الكأسُ، فخذها منه صِرْفًا غير ممزوّ  
جِة، جنبك الله أبا بكر من السُّو  
فقد لجأ الشاعر إلى التجزئة لكلمتي «منصور» و «ممزوجة»<sup>(٢)</sup>.

ومن المعروف أن الضمير يغنى عن تكرار الاسم وإعادته، ولكن بعض الشعراء  
يميل إلى تكرار الاسم دون استعمال الضمير العائد عليه حتى يظهر الكلام  
مستقلًا غير مفتقر إلى ما قبله، وذلك كقول الخنساء:

وإن صخرًا لوالينا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشئوا لنحارُ  
وإن صخرًا لتأثم الهداة به كأنه علم في رأسه نارُ  
وقد علق حازم القرطاجني على البيتين بقوله: «ولو قالت: وإنه لتأثم الهداة به

(١) يقول التنوخي: «ومعنى التضمين والإغرام عائد إلى شيء واحد في اللغة، كما تقول: ضمنتك  
كلنا وأغرمتك إياه، ويكون معناهما الزمنك إياه. فكان الشاعر قد ألزم البيت الثاني إتمام الحال.  
ومن ذلك سُمي الغريم غريمًا ملازمته. قال تعالى: (إن عذابها كان غراما) [ الفرقان / ٦٥ ].»  
القوافي ١٣٥.

(٢) انظر المنهاج ٢٧٧ والفصول والغايات ٤٤٦.

فأضمرت لكان البيت ناقصاً مفتقراً، فإنما أظهرت لفظ صخر ثانياً وثالثاً تباعداً بالكلام عن الافتقار، وقصداً لتعديل أقطاره وحسن تفصيله وتقديره<sup>(١)</sup>.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن قدامة بن جعفر قد أطلق على التضمين اسم «المبتور» وهو عنده من عيوب ائتلاف المعنى والوزن، وقال عنه: «وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد، فيقطعه بالقافية، ويتمه في البيت الثاني، مثال ذلك قول عروة بن الورد:

فلو كاليرم كان على أمرى      ومن لك بالتدبر فى الأمور

فهذا البيت ليس قائماً بنفسه فى المعنى، ولكنه أتى بالبيت الثانى بتمامه، فقال:

إذا للملك عصمة أم وهب      على ما كان من حسل الصدور<sup>(٢)</sup>

وقال امرؤ القيس:

أبعد الحارث الملك ابن عمرو      وبعد الخير حجر ذى القباب

فالمنى ناقص عن تمامه، فأنتمه فى البيت الثانى، وقال:

أرجى من صروف الدهر لينا      ولم تغفل عن الصم الصلاب<sup>(٣)</sup>

وقد أشار ابن رشيق إلى أنه كلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثانى بعيدة من القافية كان أسهل عيباً من التضمين، وذلك كقول إبراهيم بن هرمة:

إما ترينى شاحياً متبذلاً      كالسيف يخلق جفنه فيضيع  
فلرب لذة ليلة قد نلتها      وحرامها بحلالها مدفوع

فالبيت الثانى جواب لـ «إما» التى فى صدر البيت الأول والدليل على ذلك وجود الفاء فى صدره<sup>(٤)</sup>.

(١) المنهاج: ٢٧٨.

(٢) الحسل: الحقد والعدواة.

(٣) القباب: الأبنية، والصروف: الأمور المتقلبة بالناس، والصم: الحجارة الصلبة المصمتة. انظر نقد الشعر: ٢٢٢ و ٢٢٣.

(٤) العمدة: ١/ ١١٣.

## سنن العرب والدلالة

لا بد من الإلمام بالعادات والتقاليد العربية حين دراسة الشعر؛ لأن هذا الإلمام يساعد في الوصول إلى المعنى الذي أراده الشاعر، ونقدم بعض الأبيات التي يمكن تفسيرها في ضوء سنن العرب وعاداتها وتقاليدها، وهي على النحو الآتي:

١- من عادات العرب أنها تمسك عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركتها بكت حينئذٍ قتلاها، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ      فليأتْ نَسَوْتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ  
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدَبْنَهُ      يَلْظُمْنَ أَوْ جِهَهْنَ بِالْأَسْحَارِ  
قَدْ كُنَّ يَكْنُسْنَ الْوُجُوهُ تَسْرًا      فَالآنَ حِينَ بَرَزْنَ لِلنَّظَارِ

يقول: من كان مسروراً بمقتل مالك فليستدل بكاء نساتنا ونديهن إياه على أنا قد أخذنا بثأرنا، وقتلنا قاتله<sup>(١)</sup>.

٢- تقوم العرب، إذا أصاب العرُّ والجربُ، بكى السليم منها ليذهب العرُّ عن السقيم، وفي ذلك يقول النابغة ميموناً:

لَكَ لَفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرْكَهُ      كَذَى الْعُرِّ يَكْوِيْ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ<sup>(٢)</sup>

٣- إذا أحبَّ الرجل من العرب امرأةً وأحبته فلم يشقَّ برقعها وتشقَّ هي رداءه، تحكم العرب على هذا الحب بالفساد، وإذا فعلا ذلك دام أمرهما، وقد عبر عن هذا المعنى سحيم بن عبد بنى الحساس بقوله:

فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِءَاءِ مُحِبٍّ      وَمِنْ بَرْقِعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسٍ  
إِذَا شَقَّ بَرْدٌ شُقٌّ بِالْبَرْدِ مِثْلُهُ      دَوَالِيكَ، حَتَّى كَلْنَا غَيْرَ لَابِسٍ<sup>(٣)</sup>

٤- تعلق العرب الحليّ والجلجل على السليم ليفيق، وفي ذلك يقول النابغة:

(١) عيار الشعر: ٥١ و ٥٢؛ وشرح الحماسة: ٢ / ٩٩٥؛ ونهاية الأرب: ٣ / ١٢٢.

(٢) الجاحظ: الحيوان / ٧.

(٣) محاضرات الراغب: ١ / ١٥٥.



يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا      لَحَلَّى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ فِقَاقِعُ  
ويقول رجل من عُذْرَةَ:

كَأَنِّي سَلِيمٌ نَالَهُ كُلُّهُ حَيَّةٌ      تَرَى حَوْلَهُ حَلَّى النِّسَاءِ مُوضَعًا<sup>(١)</sup>

٥- من عادات العرب فقاً عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً، فإن زادت على ألف فقأوا العين الأخرى، يقول: إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين. وفي ذلك يقول قائلهم يشكر ربّه على ما وهب له:

وهبتها وأنت ذو امتنان

تُفَقِّأُ فِيهَا أَعْيُنَ الْبُحْرَانِ

وقال بعض العرب ممن أدرك الإسلام يذكر أفعالهم:

وكان شكرُ القومِ عند المنسَنِ

كَيُّ الصَّحِيحَاتِ وَقَفّاً الْأَعْيُنِ<sup>(٢)</sup>

٦- تسقى العربُ العاشقُ الماءَ على خرزة تسمى السُّلْوَانِ فيسلو؛ ففي ذلك يقول القائل:

يَا لَيْتَ أَنَّ لِقَابِي مِنْ يَحْلِلُهُ      أَوْ سَاقِيَا فَسْقَانِي عَنْكَ سُلْوَانَا

وقال آخر:

شَرِبْتُ عَلَى سُلْوَانَةِ مَاءٍ مَزْنَةٍ      فَلَا وَجْدِيهِ الْعَيْشِ بِأَمْسٍ مَا أَسْلُو<sup>(٣)</sup>

٧- توقد العرب خلف المسافر الذي لا يحيون رجوعه ناراً، ويقولون: أبعده الله وأسحقه، وأوقد ناراً إثره، ويسميها الجاحظ «نار المسافر»<sup>(٤)</sup>، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَذِمَّةِ أَقْوَامٍ حَمَلَتْ وَلَمْ تَكُنْ      لَتَوْقَدُ نَاراً لِإِثْرِهِمْ لِلتَّنْدَمِ

(١) عيار الشعر: ٥٣.

(٢) نهاية الأرب: ٣ / ١٢١؛ خزائن الأدب: ٢ / ٤٦٢.

(٣) تهذيب اللغة: ١٣ / ٦٨؛ ومحاضرات الراغب: ١ / ١٥٥.

(٤) الحيوان: ٤ / ٤٧٤.

ويقول بشار:

صحوت وأوقدت للجهل نارا ورد عليك الصبا ما استعاراً<sup>(١)</sup>

٨- تضرب العرب الثور إذا امتنعت البقر من الماء، يقولون: إن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب. قال الأعشى:

فأنسى وما كلفتموني وربكم ليعلم من أمسى أعق وأحوبا  
لكالثور والجنى يركب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا  
وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا ليضربا

وقال نهشل بن حرى:

أترك عامر وبنو عدي وتغرم دارم وهم برءاء  
كذلك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء<sup>(٢)</sup>

٩- تزعم العرب أن المقلات<sup>(٣)</sup> إذا وطئت قتيلاً شريفاً بقى ولدها، وفي ذلك يقول بشر بن أبى خازم:

تظل مقاليث النساء يطأنه يقلن: ألا يلقى على المرء ميزر

وقال الكميت بن زيد:

وتظل المرزآت المقاليث يطلن القعود بعد القيام

وإنما تفعل النساء ذلك بالشرىف، إذا كان مقتولاً غدرأ أو قوة<sup>(٤)</sup>.

١٠- تزعم العرب أن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه، ذهب

عن الخلد. قال كثير:

(١) المعاني الكبير: ٤٣٣ / ١، وانظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للشمالي ص ٥٧١ وما بعدها؛

حيث خصص الباب التاسع والأربعين للمحدث عن «النيران».

(٢) عيار الشعر: ٥٥ و ٥٦.

(٣) المقلات: التى لا يلقى لها ولد.

(٤) عيار الشعر: ٥٦.

إذا خدرت رجلى ذكركِ أشتفى      بدعواكِ من مَذَلٍ بها فيهن  
وقالت امرأة من بنى أبى بكر بن كلاب:  
إذا خدرت رجلى ذكركِ ابن مُصعب      فإن قلت: عبد الله أجلى فتورها  
وقال آخر:  
صبُّ محبٍ إذا ما رجله خدرتُ      نادى كُبَيْسَةَ حتى يذهب الخدر<sup>(١)</sup>  
١١- من عادات العرب أن الصبى منهم يحذف سنّه، إذا سقطت، فى عين  
الشمس، ويقول: أبديلنى بها أحسن منها، وليجْرِ فى ظِلْمِها إِيَّانَكَ<sup>(٢)</sup>. وزعم  
العرب أن الصبى إذا فعل ذلك لم تنبت أسنانه عوجاً ولا ثُعلاً، وقال طرفة بن  
العبد فى ذلك:  
بدلتُ الشمسُ من منبته      برداً أبيضَ مصقول الأثر  
وقال أيضاً:  
سفته إِياءَ الشمسِ إلا لثانهِ      أسِفٌ، ولم تكدم عليه بالمد<sup>(٣)</sup>

(١) نهاية الأرب: ١٢٥ / ٣.

(٢) إياء الشمس: ضيائها وشعاعها.

(٣) عيار الشعر: ٥٨؛ ومحاضرات الراغب: ١ / ١٥٤.

## التعليل اللغوي لأسماء الشعراء وألقابهم

هناك بعض الأسماء والألقاب التي أطلقت على الشعراء، وقد ذكرها أصحاب كتب «الطبقات والتراجم» حين تعرضوا لحياتهم، ونحاول التعرف على بعض تلك الأسماء والألقاب، مع بيان السبب في إطلاقها على هؤلاء الشعراء، ثم نوضح صلتها بالناحية اللغوية بعد ذلك، وهي على نحو الآتي:

- ١- جرير بن عبد المسيح من بني ضُبَيْبَةَ، وَسُمِّيَ الْمُتَلَمَّسُ بقوله:  
وذاك أوانِ العِرْضِ جُنَّ ذبابُهُ      زنايَـبُـرُهُ والأَزْرَقُ الْمُتَلَمَّسُ
  - ٢- ربيعة بن سعد بن مالك، أو عمرو بن سعد بن مالك، وسمى المُرْقَشُ بقوله:  
الدار قَقْرٌ والرسومُ كَمَا      رَقَشَ فَيَ ظَهَرَ الأَدِيمُ قَلَمٌ
  - ٣- علقمة بن عبدة، وهو الذي يقال له علقمة الفحل، وَسُمِّيَ بذلك لأنه احتكم مع امرئ القيس إلى امرأته أم جُنْدَبٍ لتحكم بينهما، فقالت: قولاً قولاً تصفان فيه الخيل على روى واحد وقافية واحدة. وقد فضلت علقمة على امرئ القيس، فطلقها فَخَلَفَ عليها علقمة فسمى بذلك «الفحل».
- ويقال: بل كان في قومه رجل يقال له «علقمة الخَصِي» ففرقوا بينهما بهذا الاسم.

- ٤- يُسَمَّى الأعشى ميمون بن قيس «صنّاجة العرب»، لأنه أول من ذكر الصنّج في شعره فقال:  
ومستجيبٌ لصوت الصنّج تسمعُهُ      إذا تُرْجِعَ فِيهِ القَيْنَةُ الفُضْلُ
- ويقال أيضاً إن الأعشى سمي كذلك لجودة شعره.

- ٥- زيد الخيل بن مُهْلِلٍ من طي، جاهلي، وأدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ في وفد طي، وأسلم، وسماه «زيد الخير».

- ٦- عدى بن زيد، وهناك عدة روايات تتصل بإطلاق «مهليل» عليه واشتقاقه، من بينها ما يأتي:

- سُمِّيَ مهلهلاً؛ لأنه هلهل الشعر؛ أى أرقه.
- إنما سُمِّيَ مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه.
- اشتقاق مهلهل من قولهم: ثوب هلهال؛ إذا كان رقيقاً، وذكر الأصمعي أنه إنما سُمِّيَ مهلهلاً؛ لأنه كان يهلهل الشعر؛ أى يرققه ولا يحكمه.
- سُمِّيَ بذلك لرداءة شعره؛ وقيل: لأنه أول من أرق الشعر.
- إنما لُقِّبَ مهلهلاً لطيب شعره ورقته. وكان أحد من غنى من العرب فى شعره.
- ٧- عُنَيْتٌ، ويقال عُنَيْة بن مَرْدَاسٍ، من بنى نعيم. وكان ابن فسوة أسره رجل من قومه؛ فأثاء عُنَيْتة فاشتراه منه فُلُقَبَ به، فقال فى نفسه:
- وَحَوْلَ مولانا عَلَيْنَا اسمَ أمه      أَلَا ربِّ مولى ناقصٌ غير زائد
- ٨- عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد، رهط الأضبط، وسمى المُستَوْرِ لقوله فى فرس:
- يَنْشُ المَاءُ فى الرَّبَلَاتِ مِنْهَا      نَشِيشَ المَاءِ فى اللَّبَنِ الوَغِيرِ
- ٩- مِحْصَن بن ثعلبة أو عائذ، أو عائذ الله بن محصن بن ثعلبة، وسُمِّيَ المُثَقَّبَ لقوله:
- رَدَدْنُ نَحِيَّةً وَكُنْ أُخْرَى      وَثَقَبْنُ الوَصَاوِصَ لِلْعَيُونِ
- ١٠- شَأْس بن نهار، وسُمِّيَ المُعَرِّقَ لقوله:
- فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ خَيْرَ أَكْلٍ      وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلِمَا أُمَرِّقِ
- ١١- سالم بن دارة، واسم أبيه مُسَافِع، وأمه دارة من بنى أسد، وسُمِّيَ دارة لجمالها، شُبِّهَتْ بدارة القمر.
- ١٢- صُرَيْم بن معشر، وهو من بنى تغلب، وسُمِّيَ أَثْنُونَ ببيت قاله.
- ١٣- المُخْبِل: المجنون، وبه سُمِّيَ المُخْبِلُ الشاعر، واسمه ربيعة بن مالك.

١٤- زياد بن سلمى، ويقال: زياد بن جابر بن عامر، من عبد القيس، وكان ينزل إصطخر، ويقال له الأعجم، وهناك عدة روايات خاصة بهذا الاسم، منها ما يأتي:

- كانت فيه لُكنة؛ فلذلك قيل له الأعجم.

- كان زياد الأعجم، وهو رجل من عبد القيس، يرتضع لكنة أعجمية، يذهب فيها إلى مذهب قوم بأعيانهم من العجم. وأُشدد المهلب بن أبي صفرة في مدحه إياه:

فتى زاده السلطان فى المدح رغبةً إذا غيّر السلطانُ كلَّ خليل  
يريد: السلطان؛ وذلك أن بين التاء والطاء نسباً؛ فلذلك قلبها تاء؛ لأن التاء من مخرج الطاء، فقال: السلطان.

١٥- طفيل بن كعب الغنوى. وكان من أوصف الناس للخيّل، وكان يقال له فى الجاهلية المحبر، لحسن شعره.

١٦- جرير بن عطية بن حذيفة، ولُقّب حذيفة الخَطَفَى لقوله:

وعَتَقًا باقى الرسيم خِطَفًا

١٧- همام بن غالب بن صعصعة، وإنما لُقّب بالفردق لغلظه وقصره، شُبّه بالفتية التى تشربها النساء، وهى الفردقة، وكنيته أبو فراس.

١٨- خِدَاش بن بشر، من بنى مجاشع، وإنما لُقّب بالبعث بقوله:

تَبَعْتُ مَنْى ما تبعث بعدما أُمِرْتُ قِوَاى واستمر عزيمة  
أراد أنه قال الشعر بعدما أَسْنَى وكبر.

١٩- غيلان بن عُقبَة بن بَهِيش، ويكنى أبا الحارث، وإنما سُمّي ذا الرمة بقوله فى الوند:

لم يبقَ منها أبداً الأبيد غير ثلاثٍ ما ثلاثٍ سود  
وغير مرضوخ القفا موتود أشعث باقى رمة التقليد

٢٠- عُبيد الله بن قيس، أحد بنى عامر بن لؤي. وإنما سُمي الرقيات؛ لأنه كان يُشَبِّب بثلاث نسوة يقال لهن جميعاً رقية.

٢١- عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان. وكان ينزل بموضع قبل الطائف يقال له «العرج» فنسب إليه فقيل العرجي.

٢٢- أبو نخيلة الراجز، واسمه يعمر، وإنما كنى أبا نخيلة؛ لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة.

٢٣- ثابت بن كعب، وقيل ثابت بن عبد الرحمن ابن كعب، وهو من شعراء خراسان وفرسانهم، ذهب عينه، وكان يحشوها بقطنة فسُمي ثابت قطنة، وقال فيه حاجب الفيل:

لا يعرف الناسُ منه غير قطنته وما سواه من الأنساب مجهول

٢٤- صخر الغي، واسمه صخر بن عبد الله الخيشمي الهذلي، ولُقِّب بذلك لخلاصته وشدة بأسه وكثرة شره.

٢٥- عروة بن الورد، وكان يُلقَّب عروة الصماليك؛ لقوله:

لحي الله صعلوكاً إذا جنَّ ليله	مُصافى المشاشِ ألفاً كلَّ مجزِرٍ
يُعَد الغنى من دهره كلُّ ليلةٍ	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح قاعداً	يحت الحمى عن جنبه المتعفر
ولله صعلوك صفيحة وجهه	كضوء شهاب القابس المتنور
مطل على أعدائه يزجرونه	بساحتهم زجزز المنيع الشهر

٢٦- عبد الله بن الأعور، وقيل له الكتاب الكذبه.

٢٧- ذو الإصبع، وهو حرثان، من عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، وسمى ذا الإصبع؛ لأنَّ حية نهشته في إصبعه فقطعها.

٢٨- عامر بن الحارث بن كلفة، وقيل: كلة، وإنما سُمي جرَّان العود لقوله يخاطب امرأته:

عمدت لعمود فالتحيتُ جُرانه وللكيس أمضى فى الأمور وأنجح  
خذنا حنْراً يا ضَرَّتسى فإتنسى رأيتُ جِران العمود قد كان يصلح

٢٩- عامر بن المجنون، من قضاة، وسمى مدرج الريح لقوله:

ولها بأعلى الجَزَع رِبعٌ دارسٌ درجت عليه الريحُ بعدك فاستوى  
وهناك رواية أخرى تقول إنما سُمي بهذا الاسم بشعر قاله فى امرأة كان يزعم أنه  
يهواها من الجنِّ، وأنه يسكن إليها فى الهواء، وتراءى له، وكان محمقاً، وشعره  
هذا:

لابنةِ الجنى فى الجوِّ طللٌ دارسُ الآياتِ عافٍ كالخلل  
درسته الريح من بين صبا وجنوبٍ درجت حيناً وطلل

٣٠- محمد بن عمير، من كندة، وكان من أجمل الناس وجهاً، وأمدهم قامة؛  
فكان إذا كشف عن وجهه لقع، أى أصيب بالعين، فكان يتقنع دهره،  
فسمى المُقنَع.

٣١- مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني، ويقال: إنه مدح الرشيد بقصيدة  
مطلعها:

أديرا على الكأس لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى دَحلى<sup>(١)</sup>  
فلما دخل عليه وبلغ قوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين الثجل  
قال له الرشيد: أنت صريع الغواني. فسمى بذلك حتى صار لا يعرف إلا به.

٣٢- ابن شادة المعروف بالخنث، ولم يكن مختثاً إنما كان لا يهجو أحداً ولا يعرض  
له، فسمى بذلك مختثاً على التلقب، وكان أدب الناس.

هذه هى بعض الأسماء والألقاب التى أطلقت على أولئك الشعراء الذين  
ذكرناهم من قبل. وهناك بعض الملاحظات التى يمكن التوصل إليها خلال النظر



فى تلك الأسماء والألقاب من بينها أن بعضها مرتبط ببيت من الشعر وردت فيه كلمة يتم اشتقاق الاسم أو اللقب منها أو تركبها كما هى مثل المتلمس والمرقش وصريع الغواني وسواها. وهناك أسماء وألقاب وضعت للتفريق بين بعض الشعراء الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كقولهم «علقمة الفحل» للتفريق بينه وبين «علقمة الخصي»، ومنها ما أطلق على بعض الشعراء؛ لأنه أول من ذكرها فى شعره؛ فالأعشى ميمون بن قيس أول من ذكر الصنّج؛ لذلك قيل له «صناجة العرب». ومن الأسماء ما تم تغييره بإحلال صوت مكان آخر حتى تكون الدلالة مستحبة كـ «زيد الخيل» الذى سمّاه الرسول ﷺ «زيد الخير». وهناك بعض الشعراء الذى يصادف صعوبة حين الأداء الصوتى لبعض كلمات اللغة العربية لذلك قيل له: الأعجم على نحو ما حدث مع زياد بن سلمى أو زياد بن جابر بن عامر. وتتصل بعض الأسماء بالصفات الخلقية للشعراء وذلك على نحو ما كان من أمر همام بن غالب الذى كان فيه غلظ وقصر ف قيل له الفرزدق ... وهكذا إذا تتبعنا ما سبق ذكره من الأسماء والألقاب لوجدنا له صلة ببعض الجوانب اللغوية.

## أحكام أطلقت على الشعراء

عرف تاريخ النقد العربي مجموعة من الأحكام التى أطلقت على بعض الشعراء، وهى تحاول بيان مقدرة الشاعر الفنية وتفرقه على غيره. وقد احتوت تلك الأحكام على بعض الجوانب اللغوية؛ خاصة فيما يتصل بالنظم والدلالة؛ لذلك وجدنا ألفاظاً وعبارات من نحو عدم المعاطلة بين القول، وعدم اتباع حوشى الكلام، وجودة المقاطع وسواها.

وحين نبدأ الحديث عن تلك الأحكام نتوقف أمام ما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه؛ فقد ورد أنه قال: أنشدوني لأشعر شعرائكم، قيل: ومن هو؟ قال: زهير؛ قيل: ولم صار كذلك؟ قال: كان لا يعاقل بين القول، ولا يتبع حوشى الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه<sup>(١)</sup>. وقد توقف الأمدى أمام ما روى عن أمير المؤمنين موضعاً تفسيره قائلاً: «وقد فسّر أهل العلم هذا من قول عمر، وذكروا معنى المعاطلة، وهى: مداخلة الكلام بعضه فى بعض، وركوب بعضه لبعض؛ كقولك: تعاقل الجراد، وتعاظلت الكلاب، ونحوهما مما يتعلق ببعضه ببعض عند السّفاذ، وأكثر ما يستعمل فى هذين النوعين».

«وكذلك فسروا معنى حوشى الكلام، وهو اللفظ الغريب الذى لا يتكرر فى كلام العرب كثيراً؛ فإذا ورد ورد مستهجناً، وقالوا فى معنى قوله «وكان لا يمدح الرجل إلا بما فى الرجال» أنه أراد: لا يمدح السوق بما يمدح به الملوك، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصماليك والأبطال وحملة السلاح؛ فإن الشاعر إلى فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه؛ فذكروا هذه الجملة، ثم مثّلوا لها أمثلة تزيد ما قاله عمر، رضى الله عنه، وضوحاً وبياناً<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن شرح الأمدى قول عمر، رضى الله عنه، اعتماداً على من سبقه، قدّم له درساً تطبيقياً، مع شرحه الخاص له؛ فالمعاطلة عنده شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض، وأن يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها أو تتجانسها، وإن

(١) الشعر والشعراء: ١ / ١٣٨.

(٢) المواز: ١ / ٢٩٣ و ٢٩٤.

أُخِلَ بالمعنى بعض الإخلال؛ وذلك كقول أبي تمام:

خان الصفاء أخَّ خان الزمانُ أخاً عنه فلم يتخون جسمه الكمدُ

وقد علّق الآمدى على هذا البيت قائلاً: «فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت، وهى سبع كلمات آخرها قوله «عنه» ما أشد تشبث بعضها ببعض، وما أقيح ما اعتمده من إدخال ألفاظ فى البيت من أجل ما يشبهها، وهى قوله «خان» و «خان»، و «يتخون» وقوله «أخ» و «أخاً». وإذا تأملت المعنى، مع ما أفسده من اللفظ، لم تجد له حلاوة، ولا فيه كبير فائدة؛ لأنه يريد: خان الصفاء أخَّ خان الزمان أخاً من أجله؛ إذ لم يتخون جسمه الكمد».

ويمثل للمعاطلة بيت ثانٍ من شعر أبى تمام، وهو قوله:

يا يومَ شَرَدَ يومَ لهوى لهوُّه      بصباتى وأذلَّ عَزَّ تجلدى

وعلق عليه الآمدى قائلاً: «فهذه الألفاظ إلى قوله «بصباتى» كأنها أيضاً سلسلة فى شدة تعلق بعضها ببعض. وقد كان أيضاً يستغنى عن ذكر اليوم فى قوله «يوم لهوى»؛ لأن التشريد إنما هو واقع بلهوه، فلو قال: يا يوم شَرَدَ لهوى، لكان أصح فى المعنى من قوله: يا يوم شَرَدَ يوم لهوى، وأقرب فى اللفظ؛ فجاء باليوم الثانى من أجل اليوم الأول، وباللهو الثانى من أجل اللهو الذى قبله، ولهو اليوم أيضاً بصباته هو من وساوسه وخطائه، ولا لفظ هو أولى بالمعاطلة من هذه الألفاظ»<sup>(١)</sup>.

ويتوقف الآمدى أمام قول عمر رضى الله عنه فى زهير «إنه كان لا يتبع حوشى الكلام»، مطبقاً ذلك على بعض الأبيات من شعر أبى تمام أيضاً، قال: «فإن أبا تمام كان لعمري يتبعه (يقصد حوشى الكلام) ويتطلبه، ويتعمل لإدخاله فى شعره؛ فمن ذلك قوله:

أهلس أليس لجاء إلى همم      تفرق العيس فى آذنها اللبس

...! والهلّاس، السلال من شدة الهزال، فكان قوله «أهلس» يريد خفيف

(١) الموازى: ٢٩٤ / ١ و ٢٩٥.

للحم. والأليس: الشجاع البطل الغاية في الشجاعة، وهو الذى لا يكاد يرح موضعه فى الحرب حتى يظفر أو يهلك فهاتان لفظتان مستكرهتان إذا اجتمعتا، ثم لم يفتح بـ «أهلس أليس» حتى قال فى آخر البيت «الليسا»، يريد جمع أليس<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لما قدمه الأمدى، نحاول دراسة المعاطلة بالتفصيل؛ لأن حديث علماء البلاغة عنها لغوى فى مجمله، وتجمع تلك الدراسة بين النظر والتطبيق.

وقد سبقت الإشارة إلى تعريف الأمدى لها، وهناك تعريف آخر لقدامة بن جعفر؛ فهو إدخالك فى الكلام ما ليس من جنسه، وإلزامه إياه، ومن أمثلة ذلك قول أوس بن حجر:

وَذَاتُ هَيْدَمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا      تَصْمَتُ بِالْمَاءِ تَوَلِبًا جَدَّعًا  
فَسَمَى الصَّبَى «تولبًا»، والتولب ولد الحمار، وهذا لوجه له لأمرين:

- أما أولاً فلأنه يلزم أن تكون الاستعارة معاطلة، وهو فاسد.
- وأما ثانياً فلأنه إنما يكون الاعتراض والاستطراد وغير ذلك من الكلمات الدخيلة معاطلة.

وهناك تعريف آخر للمعاطلة وهو تركيب الكلام وترادف ألفاظه على جهة التكرير، واشتقاقه من قولهم «تعاطلت الجراد» إذا ركب بعضها بعضاً عند الازدحام، أو «تعاطلت الكلاب» إذا لزم بعضها بعضاً عند السَّفَاد.

وحين ننظر فى الأمثلة التى قدمها العلماء للمعاطلة نجدها تنصرف إلى ما يتصل بالأصوات والصيغ الصرفية وتركيب الجملة من حيث التكرار للصفات والإضافة، ويمكن توضيح ذلك خلال النقاط الآتية:

أولاً: يلجأ بعض الشعراء إلى تكرار الأصوات، وهذا يؤدى إلى الصعوبة فى النطق حين الأداء اللغوى للشعر، ومن المعروف أن العرب عدلوا عن هذا التكرار للأصوات بحسبهم اللغوى؛ لأنه يتنافى مع الفصاحة والبلاغة، والدليل على ذلك

ميلهم إلى «الإدغام» في نحو «شدَّ» و «مدَّ» و «مرَّ» والأصل فيها «شدَدَّ» و «مدَدَّ» و «مرَّر».

كذلك أبدلوا من أحد حرفي التضعيف حرف لين حذراً من ذلك، وهذا كما قالوا «تسريت» في «تسرَّرت» و «تطبَّيت» في «تطبَّيتُ» وفي نحو «ديوان» و «ديباح» والأصل فيهما «دَوَّان» و «دَبَّاح».

ومن الأمثلة المتداولة في الكتب العربية كالمعاظلة الخاصة بالأصوات:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر  
الذى يطبعه التكرار لصوتى القاف والراء. وكذلك:

وازهر من كان له زائراً وعاف عافى العرف عرفانه  
الذى يطبعه التكرار لصوتى الراء والفاء.

ثانياً: تؤدي حروف الجر دوراً مهماً في دلالة الجملة العربية؛ إذ إن حرف الجر حين يتشكل مع غيره من الكلمات يكتسب دلالة بعينها، ولكن بعض الشعراء يلجأ إلى الإكثار من استعمالها، كما في قول المتنبي:

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

فقد قال: «لها منها عليها»، وهذا يؤدي إلى التناثر والثقل على اللسان. قال يحيى العلوى معلقاً على البيت: «فقوله: لها منها عليها، من قبيح السبك وسوء التأليف، وما ذاك إلا لأجل تكرار أحرف المعاني، فأكسبته هذا الثقل الذى تعافه النفوس»<sup>(١)</sup>. ومن ذلك ما ورد في شعر أبي تمام قوله:

كأنه فى اجتماع الروح فيه له فى كل جارية من جسمه روح  
فقد قال: فيه له فى كل ....»

ثالثاً: يلجأ بعض الشعراء إلى تكرار صيغ فعلية معينة، وذلك نحو استعمال فعل الأمر قال المتنبي:

أَقْلَ أَنْلَ أَقْطَعَ أَحْمَلَ عَلَّ سَلَّ أَعَدَّ زَدَّ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلَ أَدَنَ سُرَّ صَبَلْ  
وهناك تكرار للأمر، مع العطف بالواو. قال ديك الجنّ (عبد السلام بن رغيان):

أَحْلُ وامرر وضُرُّ وانفع وَلِنْ وأخْشُ ورِشْ وأمرُ وانتدب للمعالى

قال يحيى العلوى: «فهذا كالأول (يقصد بيت المتنبي) خلا أن هذا ليس فى الكراهة كالوجه الأول فى الثقل، وما ذاك إلا من أجل توسط الواو فأكسبته خفة ورقة»<sup>(١)</sup>. أى إن البيتين كليهما فيه تلك المعاطلة من حيث استعمال صيغة الأمر، ولكن الثانى أقل فى الثقل لوجود العطف بالواو.

والمعاطلة ها هنا تنصل بالصرف والنحو وذلك من حيث تكرار «الصيغ» Form، وتلك الصيغ فعلية.

وابعاً: تؤدى «الصفة» دوراً مهماً فى الدلالة الخاصة ببيت الشعر، ويكفى أن نقول إنها تخلع بعض الصفات على الموصوف مما يؤثر فى المعنى. ويرى البلاغيون أن تعددها وتواليها يؤدى إلى المعاطلة فى التركيب النحوى. قال المتنبي:

دان بعيد محب مبغض بهج أعز حلو ممر ليس شبرس  
ند أبسى غرواف أخى ثقة جعد سرى نه ندب رضى ندىس

وقال أبو تمام يصف رمحاً:

مارنه لدنه مثقفه عراضه فى الأكف مطرده

وقال أيضاً يصف سحابة:

مُسْفَه ثرة مسححة وابلة مخضلة برده

ويلجأ الشعراء إلى تكرار نوع آخر من التراكيب النحوية كالإضافة. قال الشاعر

حمامة جرعى حومة الجنديل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

فقد أضاف «حمامة» إلى «جرعى»، وأضاف «جرعى» إلى «حومة»، وأضاف

«حومة» إلى «الجدل».

وتوقف النقاد أمام شعر النابغة، وأصدروا عليه بعض الأحكام اللغوية وغير اللغوية؛ فيقال: «كان النابغة أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف، ونيغ بالشعر بعدما احتك، وهلك قبل أن يهتر». وقال أبو عبيدة: «يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء: هو أوضحهم كلاماً، وأقلهم سقطاً وحشواً، وأجودهم مقاطع، وأحسنهم مطالع، ولشعره ديباجة، إن شئت قلت: ليس بشعر مؤلف، من تأثته ولينه، وإن شئت قلت: صخرة لو رديت بها الجبال لأزالها»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن المعتز عن بشار وشعره: «وكان بشار يعد في الخطباء والبلغاء. ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع فضله، ولا رغب عن شعره. وكان شعره أنقى من الراحة، وأصفى من الزجاجة، وأساس على اللسان من الماء العذب. وما يستحسن من شعره - وإن كان كله حسناً - قوله:

أصِـبَتْ فِي سَكَراتِ الموتِ سَكَراتُنا	أَمِنْ تَجَنَّى حَبِيبٍ راح سَكَراتُنا
كَأَنما لا تَرَى لِلنَّاسِ أَشْجاناً	لا تَعْرِفُ النِّوَمَ، مِنْ شَوْقٍ إلى شَجَنِ
إِلا سَلاماً يَـبْـرُدُ القَلْبَ حيراناً	أَوْدَ مَنْ لَمْ يَنْلِ مِنْ مودَتِهِ
والأذُنُ تَعشِقُ قَبْلَ العَيْنِ أحياناً	يا قَـسَـومُ أَذْنِي لِبَعْضِ الحَيِّ عاشِقَةً

وهذا معنى بديع، لم يسبقه إليه أحد»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن المعتز عن أبي نخيلة: «من أفصح الناس وأشعرهم، وكان مطبوعاً مقتدرًا، كثير البدائع والمعاني، غزيراً جداً، وكان الغالب عليه الرجز، ومع ذلك لا يقصر في القصيدة»<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن الحديث عن حوشى الكلام كان يطبع النقد اللغوي للشعر عند

(١) الشعر والشعراء: ١٥٧ و ١٦٨.

(٢) طبقات الشعراء: ٢٨ و ٢٩.

(٣) السابق: ٦٣.

القدماء من العلماء العرب على اختلاف اهتماماتهم العلمية، يدلنا على ذلك تلك الرواية التي أوردها المزياني في موشحه. قال: «حدثني أبو الحسن علي بن هارون المنجم، قال: حضر أحمد بن أبي طاهر مجلس جدى أبي الحسن علي بن يحيى يوماً بعد أن أخل به أياماً، فعاتبه أبو الحسن عن انقطاعه عنه، فقال أحمد: كنت متشاغلاً باختيار شعر امرئ القيس. فأنكر عليه أبو الحسن قوله هذا، وقال: أما تستحيى من هذا القول؟ وأى مرذول فى شعر امرئ القيس حتى تحتاج إلى اختياره! واتسع القول بينهما فى ذلك إلى أن قال أبى - أبو عبد الله هارون بن علي - لأبيه الحسن: قد صدقت ياسيدى فى وصف شعر امرئ القيس، ولكن فيه ما يفضل بعضه بعضاً، وإلا فقوله:

يا هند لا تنكحى بوهة <sup>(١)</sup>	عليه عقيته أحسباً <sup>(١)</sup>
مرسمة بين أرباقه	به عسم يتغى أربا <sup>(٢)</sup>
ليجعل فى ساقه كمها	حذار النية أن يعطبا
ولست بخزافة فى القمود	ولست بطيافة أخدبا <sup>(٣)</sup>
ولست بذى رثية إمير	إذا قيد مستكرها أصحبا <sup>(٤)</sup>

أمرهما يختار ويوصف بهذه الأوصاف، مع مافى هذه الأبيات من حوشى الكلام، وجساء الألفاظ، وغلوها من كثير من الفائدة<sup>(٥)</sup>.

(١) البوهة: البومة، تضرب مثلاً للرجل لا خير فيه ولا عقل له. عليه عقيته: عليه شعره الذى ولد به؛ يريد أنه لا يتهيأ ولا ينتظف. والأحسب: من الحسبة؛ وهى صهبة تضرب إلى الحمرة، وهى مذمومة عند العرب.

(٢) المرسعة مثل المأذنة، وكان الرجل من جهلة العرب يعقد سيراً مرسماً معاذة، مخافة أن يموت أو يصيبه بلاء. والعسم: يمس فى الرسع وأعوجاج.

(٣) الخزافة: الخوكر الضعيف، والطيافة: الذى لا يزال يقع فى سوء لحمقه. والأخدب: الذى لا يملك عن الحق والجهل والاستطالة.

(٤) الرثية: وجع المفاصل من الضعف والكبر. والإمر: الضعيف.

(٥) الموشح: ٤٣ و ٤٤، والهامش أيضاً.



وحين وازن الآمدى بين أبى تمام والبحترى أشار إلى الكثير من الأحكام اللغوية التى أطلقت على كلا الشاعرين من مؤيدهما لبيان أيهما أشعر، ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على ذلك، وعلل الآمدى عدم اتفاقهما بقوله: «ميل من فضل البحرى ونسبه إلى حلاوة اللفظ، وحسن التخلص، ووضع الكلام فى موضعه، وصحة العبارة، وقرب المأثى، وانكشاف المعانى. وهم الكتابُ والأعرابُ والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة وميل من فضل أبا تمام، ونسبه إلى غموض المعانى ودقتها، وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج. وهؤلاء أهل المعانى والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفى الكلام».

ثم يشير الآمدى إلى فريق جعل الشاعرين كليهما طبقة، وذهب إلى المساواة بينهما، ولكنهما، عند الآمدى، مختلفان، «لأن البحرى أعرابى الشعر، مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام .... ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعانى، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعانى المولدة ....».

وربما يتساءل الدارس عن أى الشاعرين أشعر عند الآمدى نفسه؟ ولم يجب الرجل عن السؤال، ولكنه وضع أحكاماً لغوية أطلقها على الشاعرين كليهما «فإن كنت ... ممن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرواق؛ فالبحترى أشعر عندك ضرورة. وإن كنت تميل إلى الصنعة، والمعانى الغامضة التى تستخرج بالفصوص والفكرة، ولاتلوى على ما سوى ذلك؛ فأبو تمام عندك أشعر لا محالة»<sup>(١)</sup>.

وما يتصل بالحديث عن تلك الأحكام اللغوية وغير اللغوية التى أطلقت على الشعراء، توقف العلماء أمام الأبيات المفردة والأشعار التى نالت إعجابهم واستحسانهم، وقد أطلقوا عليها بعض الأحكام، وعلقوا عليها ببعض التعليقات التى تبيح هذا الاستحسان. ونشير إلى أن تلك التعليقات - فى الأغلب الأعم -

كانت لغوية، ويمكن الاستدلال على ذلك بما قاله ابن طباطبا عن أبيات من معلقة زهير مقدماً لها. قال: «فمن الأشعار المحكمة، المتقنة، المستوفاة المعاني، الحسنة الوصف، السلسلة الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً، فلا استكراه في قوافيها، ولا تكلف في معانيها، ولا عي لأصحابها فيها، قول زهير:

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا، لَا أَبَالِكَ، يَسَامُ<sup>(١)</sup>

ويذكر عدة أبيات من المعلقة. ولم يعلل ابن طباطبا لهذا الاستحسان الذي نالته أبيات زهير؛ بل إنه يذكر أبياتاً أخرى له ولغيره في صفحات كثيرة، ويعلق عليها كلها تعليقاً عاماً، قال فيه: «فهذه الأشعار وما شاكلها من أشعار القدماء والمحدثين؛ أصحاب البدائع والمعاني اللطيفة الدقيقة، تجب روايتها والتكثير لحفظها»<sup>(٢)</sup>.

ومن الطبيعي أن يتوقف ابن طباطبا أمام الأشعار الغثة التي لم تنل إعجابه، وقد قدّم لها بقوله: «ومن الأشعار الغثة الألفاظ، الباردة المعاني، المتكلفة النسخ، الغلقة القوافي، المضادة للأشعار التي قدمناها قول الأعشى:

بَانَتْ سَعَادٌ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَ واحْتَلَّتِ الْغَمْرُ فَالْجَدِينِ فَالْفِرْعَا

لا يسلم منها خمسة أبيات، ونكتبها ليوقف على التكلف الظاهر فيها. ثم يذكر القصيدة بأكملها، ويشير، فيما بعد، إلى أنها ستة وسبعون بيتاً، التكلف فيها ظاهر بين إلا في ستة أبيات، وهي:

تَقُولُ بَنْتِي، وَقَدْ قَرَبْتُ مَرَحَلًا	يَارِبُ جَنْبِ أَبِي الْإِتْلَافِ وَالرَّجَمَا
بَذَاتِ لَوْثٍ عَفْرَانَةٍ إِذَا عَشَرْتُ	فَاللَّعْنُ أَذْنِي لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا
بِأَكْلِيبِ كَسْرَاءِ النَّبْلِ ضَارِيَةٍ	تَرَى مِنَ الْقِدِّ فِي أَعْنَاقِهَا قِطْعًا
يَاهُوذُ إِنَّكَ مِنْ قَوْمِ أُولَى حَسِبِ	لَا يَفْتَشِلُونَ إِذَا مَا آتَسَوْا فِرْعَا
أَغْرَ أَبْلَجٍ يَسْتَسْقَى الْغَمَامَ بِهِ	لَوْ قَارَعَ النَّاسَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ قَرَعَا
لَا يَرِيقُ النَّاسُ مَا أَوْهَى وَإِنْ جَهِدُوا	طَوَّلَ الْحَيَاةَ، وَلَا يَوْهُونُ مَا رَقَعَا

(١) عيار الشعر: ٨٢

(٢) السابق: ١١٠

ثم يعلق على تلك الأبيات الستة بقوله: «وفيها خلل ظاهر، ولكنها؛ بالإضافة إلى سائر أبيات، نقية، بعيدة من التكلف»<sup>(١)</sup>.

ومن الموضوعات الأساسية في تاريخ الدرس النقدي، وله صلتة بتلك الأحكام الصادرة على الشعر والشعراء، توقف العلماء أمام أبيات المفردة والحكم عليها من حيث الدلالة؛ لذلك وجدنا حديثاً عما يسمى بأشعر بيت، أو أهدج بيت ... والذى يدل على الاحتمام بالبيت المفرد أنه قيل لأبي المهوش الأسدی: لِمَ لا تطيل الهجاء؟ فقال: لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً. وقيل أيضاً إنه اجتمع عند عبد الملك أشراف من الناس والشعراء؛ فسألهم عن أرق بيت قالته العرب؛ فاجتمعوا على بيت امرئ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى      بهميّك في أعشار قلبٍ مقتلٍ  
وقال عبد الملك لقرن من الشعراء: أى بيت أمدح؟ فاتفقوا على بيت زهير:

نراه إذا ما جتّه متهللاً      كأنك تعطيه الذى أنت سائله  
ويتصل بذلك تشبيه زهير لامرأة في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد فقال:

تنازعت المهاشبهاً ودرّ البحور      وشاكت فيها الظباء  
أى إن تلك المرأة:

- فيها شبه من البقر في العيون.

- ومن الدر في الصفاء.

- ومن الظباء بطول العنق.

وقال النابغة في العفة، وهو أحسن ما قيل فيه:

رقاق النعال طيب حجزاتهم      يحيون بالريحان يوم السباب<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

(١) السابق: ١١٩.

(٢) انظر الشعر والشعراء: ١ / ١٣٩ و ١٦٣

## أدوات الشعر

الذى دفعنا للدخول في العرض لأدوات الشعر أنها - في مجملها - مجموعة من الأدوات اللغوية التي تفيد فائدة حقيقية في التعرف على الإطار العام الذى دار حوله النقد اللغوى عند القدماء، ولكن قبل الدخول في العرض لها، نحاول التعرف على مفهوم الشعر وتعريفه عندهم.

يقول قدامة بن جعفر عن حد الشعر: «إنَّ أول ما يحتاج إليه في العبارة عن هذا الفن معرفة حد الشعر الحائز له عما ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبليغ ولا أوجز - مع تمام الدلالة - من أن يقال فيه: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى». ثم يأخذ قدامة في شرح هذا التعريف قائلاً: «فقولنا: قول: دال على أصل الكلام الذى هو بمنزلة الجنس للشعر. وقولنا: موزون: يفصله مما ليس بموزون؛ إذ كان من القول موزون وغير موزون. وقولنا: مقفى: فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين مالا قوافي له ولا مقاطع. وقولنا: يدل على معنى: يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى»<sup>(١)</sup>.

ويتضح من هذا التعريف تأكيد قدامة على بعض النواحي اللغوية خاصة الدلالة التى هى أساس القول الموزون المقفى؛ لذلك نجد علم اللغة الحديث Modern Linguistics لا يتعامل مع الكلام الذى لا معنى له، ولعله من المفيد أن نذكر هذا المثال المتداول وهو قولهم: Colouress green ideas sleep furiously<sup>(٢)</sup> وترجمته بالعربية: الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام نوماً غاضباً.

فهذا مثال من النثر تتحقق فيه القواعد كافة، لكنه لا يدل على معنى؛ لذلك فإنه يخرج عن نطاق الدرس اللغوى، ولذلك أيضاً حكم سيبويه في كتابه على تراكيب من نحو:

\* حملتُ الجبل

(١) نقد الشعر: ١٧.

(2) Chomsky: Syntactic Structures, P. 15.

\* شربتُ ماء البحر

بأنها «مستقيم كذب»<sup>(١)</sup>.

نأتى، بعد ذلك، إلى الحديث عن أدوات الشعر، وقد اهتم بها كثيرون، وعلى رأسهم ابن طباطبا؛ فماذا قال عنها: «وللشعر أدوات يجب إعدادهما قبل مرامه وتكلف نظمه، فمن نقصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبأن الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة. فمنها: التوسع فى علم اللغة، والبراعة فى فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب....<sup>(٢)</sup> الشعر، والتصرف فى معانيه فى كل فن. قالته العرب فيه وسلوك مناهجها فى صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها، والسنن المستعملة منها، وتعريضها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مبادئها، وحلاوة مقاطعها، وإفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز فى أحسن زى وأبهى صورة، واجتناب ما يشينه من مفساد الكلام وسخيف اللفظ، والمعانى المستبعدة، والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لا يكون ملفقاً مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة، والوشى المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كاللذاز السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد البناء يتركب عليها، ويعلو فوقها ويكون ما قبلها مسبوقاً إليها ولا تكون مسبوقة إليه فتتقلق فى مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ متقادة لما تراد له، غير مستكربة ولا متعبة، مختصرة الطرق، لطيفة المواجه، سهلة المخارج. وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذى به تتميز الأضداد، ولزوم العدل، وإثبات الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها»<sup>(٣)</sup>.

(١) الكتاب: ١ / ٢٦، وانظر كتابنا (التركيب غير الصحيحة نحوياً فى الكتاب لسبويه - دراسة لغوية).

(٢) مكان النقط كلمة ناقصة، وقد أشار إلى ذلك محقق الكتاب.

(٣) عيار الشعر: ٦ و ٧.

وقد أشار حازم القرطاجنى<sup>(١)</sup> إلى أن هناك ثلاثة أشياء تؤدي إلى تأتى النظم على أكمل وجه وهى: المهيئات والأدوات والبواعث:

وتحصل المهيئات من جهتين:

١- النشء فى بقعة معتدلة الهواء، حسنة الوضع، طيبة المطاعم، أنيقة المناظر، ممتعة من كل ما للأغراض الإنسانية به علاقة.

٢- الترعير بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان.

وكانت الأدوات تنقسم إلى العلوم المتعلقة بالألفاظ والعلوم المتعلقة بالمعاني.

وكانت البواعث تنقسم إلى أطراب وإلى آمال. وكان كثير من الأطراب إنما يعترى أهل الرحل بالحنين إلى ماعهده ومن فارقوه، والآمال إنما تعلق بخدام الدول النافعة وجب ألا تكمل تلك المهيئات للشاعر إلا بطيب البقعة وفصاحة الأمة وكرم الدول ومعاودة التنقل والرحلة. فقلما برع فى المعانى من لم تشتهه بقعة فاضلة، ولا فى الألفاظ من لم ينشأ بين أمة فصيحة، ولا فى جودة النظم من لم يحمله على مصابرة الخواطر فى إعمال الروية الثقة بما يرجوه من تلقاء الدولة، ولا فى رقة أسلوب النسيب من لم تشط به عن أحبابه رحلة ولا شاهد موقف فرقة.

وبعد هذا العرض لأدوات الشعر على نحو ما ورد عند القدماء نتوقف أمام وصية أبى تمام للبحرئى لاحتوائها على الكثير من الأدوات المتصلة بالشعر.

قال البحرئى: «كنت فى حدثائى أؤرم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، فانقطعت فيه إليه، واتكلت فى تعريفه عليه، فكان أول ما قال لى: يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم. واعلم أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شئ أو حفظه فى وقت السحر؛ وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوَجِّعِ الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق. وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياذ، فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبين معاطه، وشرّف

مقامه، وتقاص المعاني واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية. وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسنة العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ولعله مما يكمل الحديث عن «أدوات الشعر» التوقف أمام ما كتبه ابن رشيقي عن «آداب الشاعر»<sup>(٢)</sup> لاحتوائه على بعض الجوانب اللغوية. وقد بدأ ابن رشيقي العرض لتلك الآداب بقوله: «من حكم الشاعر أن يكون حلو الشماثل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطى الأكتاف؛ فإن ذلك مما يجيبه إلى الناس، ويزينه في عيونهم، ويقربه من قلوبهم. وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحس، عزوب الهممة، نظيف البزة، أنفاً؛ لتهابه العامة، ويدخل في جملة الخاصة، فلا تمجّه أبصارهم، سمح اليدين».

ويرى ابن رشيقي أن الشاعر مطالب بحفظ الشعر والخبر ومعرفة النسب وأيام العرب؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريد من ذكر الآثار وضرب الأمثال، وليلقى بنفسه بعض أنفاسهم، ويقوى طبعه بقوة طباعهم. وقال الأصمعي: «لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروى أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ. وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزاناً له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه، والنسب وأيام العرب ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم».

وأشار القدماء إلى مَنْ يطلق عليه «الفحل» من الشعراء، وقالوا إنه الرأوية، والمقصود بذلك أنه إذا روى استفحل، وقال يونس بن حبيب: «وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة». وقد

(١) وردت وصية أبي تمام للبحر في عدة مصادر، نكتفى منها بـ (منهاج البلغاء) ص ٢٠٣.

(٢) العمدة: ١/ ١٣١ وما بعدها.

كان الفرزدق على فضله ومكانته المعروفة فى الشعر يروى للحطيطه كثيرًا، وكان الحطيطه راوية زهير، وكان زهير راوية أوس بن حجر، وطفيل الغنوى جميعاً، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الإيادى مع فضل نحيزة وقوة غريزة.

ويحتاج الشاعر إلى حسن التأنى والسياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذلّ وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخلّ وأوجع، وإن فخر خبّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان ليدخل إليه من بابه، ويدخله فى ثيابه؛ فذلك هو سر صناعة الشعر ومغراه الذى به تفاوت الناس وبه تفاضلوا.

ومن المأثورات عن العرب قولهم «لكل مقام مقال» وقد ربطها ابن رشيق بأغراض الشعر وطرق التعبير والموقف نفسه الذى يقال فيه؛ لذلك فإنّ شعر الشاعر لنفسه وفى مراده وأمور ذاته من مزح وغزل ومكاتبه ومجون وخمرية وما أشبه ذلك غير شعره فى قصائد الحفل التى قوم بها بين السماطين، يقبل منه فى تلك الطرائق غفو كلامه وما لم يتكلف له ولا ألقى به بالأى، ولا يقبل منه فى هذه إلا ما كان محككاً معاوداً فيه النظر جيداً لا غث فيه ولا ساقط ولا قلق، وشعره للأمر والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ماتقدم من هذه الأنواع.

ويجب على الشاعر إعادة النظر فى فنه. قال ابن رشيق: «ولا يكون الشاعر حاذقاً مجوداً حتى يتفقد شعره ويعيد فيه نظره، فيسقط رده ويثبت جيده، ويكون سمحاً بالركيك منه، مطرحاً له، راغباً عنه، فإن بيتاً جيداً يقاوم ألفى ردى، وقال امرؤ القيس - وهو أول من زعموا أنه اختبر له وعلم به أنه يكون أفضل الشعراء والمقدم عليهم:

أزود القوافى عنى زياداً	ذباد غلام جرى جرادة
فلما كثرنّ وعينته	تخير منهن شتى جيادا
فأعزل مرجانها جانباً	وأخذ من درهما المستجادا



... فإذا كان أشعر الشعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه فكيف ينبغي لغيره أن يصنع<sup>(١)</sup>.

ولا يجوز للشاعر كما لا يجوز لغيره أن يكون معجباً بنفسه مثنياً على شعره، وإن كان جيداً في ذاته حسناً عند سامعه، فكيف إن كان دون ما يظن تقوم أفردوا لذلك أنفسهم وأفنوا فيه أعمارهم وما يحصلون على طائل، وقد قال الله عز وجل: (فلا تزكوا أنفسكم)<sup>(٢)</sup> اللهم إلا أن يريد الشاعر ترغيب الممدوح أو ترهيبه فيثني على نفسه ويذكر فضل قصيدته، فقد جعلوه مجازاً مسامحاً فيه، كالذي يعرض لكثير من الشعراء في أشعارهم من مدح قصائدهم. ويجب على الشاعر أن يتواضع لمن دونه ويعرف حق من فوقه من الشعراء

\* \*

وبعد هذا العرض لآداب الشاعر نتوقف أمام ما عُرف عند القدماء بـ «عمود الشعر»، مع الاهتمام بما ورد عند المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة.

### عمود الشعر

قبل الدخول في بيان المقصود بعبارة «عمود الشعر» نشير إلى أن هناك بعض المحاولات التي جرت للتعرف على التطور التاريخي لاستعمالها في الدراسات النقدية والبلاغية؛ لذلك يقال إن أقدم استخدام نعرفه لتلك العبارة ورد في كتاب (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري) لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدى (٣٧٠ هـ). فقد استخدم الأمدى هذا التعبير ثلاث مرات في كتابه، لم يعزه إلى أحد في إحداها، وعزاه مرة إلى البحري، وأخرى إلى من سماه صاحب البحري.

قال في المرة المهمة: وإن كان كثير من الناس قد جعلهما طبقاً ... وإنهما مختلفان؛ لأن البحري أعرابي ... وما فارق عمود الشعر المعروف<sup>(٣)</sup>. وقال في الثانية: «والذي أرويه عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني ... وكان صديق

(١)

(٢) الموازن: ٦/١

البحترى - أنه قال: سُئل البحترى عن نفسه وعن أبي تمام فقال: كان أغوص على المعاني منى، وأنا أقول بعمود الشعر منه<sup>(١)</sup>. وقال فى الثالثة: «قال صاحب البحترى ... حصل للبحترى أنه ما فارق عمود الشعر»<sup>(٢)</sup>.

وتبين هذه الأقوال أن البحترى (ت ٢٨٤هـ) هو صاحب هذا التعبير، وإن كان عدم صدور النص عنه شخصياً غير مستبعد، ويكون السجستاني أو الأمدى قد روى قوله بالمعنى، وألبسه رداء من لفظه، فيكون أحدهما صاحباً للتعبير، ومهما يكن من شيء فالمطمأن إليه أن عبارة «عمود الشعر» عُرِفَتْ وشاعت فى القرن الرابع الهجرى، وسجلت للمرة الأولى فى الموازنة<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان الأمدى أول من استخدم «عمود الشعر» فى كتابه منسوبة إلى غيره، فإنه لم يقدم تحديداً لها، وإن كنا نستطيع أن نقول إن عمود الشعر عند الأمدى المقصود به هو طريقته المعهودة أو مذهب الأوائل؛ لذلك إذا عدنا ثانية إلى أقواله لنطلع على بقيتها وجدناه يقول فى إحدى المرات: «البحترى أعرابى الشعر، مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام». ويقول فى الثانية: «حصل للبحترى أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيراً فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ، وصحة المعانى، وحتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته».

ونجد ناقداً آخر يستعمل عبارة «عمود الشعر» بعد الأمدى بحوالى ربع قرن وهو القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) فى كتابه (الرسالة بين المتنبي وخصومه) وذلك فى قوله: «وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى

(١) السابق: ١٢ / ١.

(٢) السابق: ١٨ / ١.

(٣) انظر البحث الذى كتبه الدكتور حسين نصار تحت عنوان «عمود الشعر العربى»، وهو منشور ضمن كتاب (شوقي ضيف: سيرة ونجدة) ص ٢٥٧ وما بعدها. وانظر أيضاً (تاريخ النقد الأدبى عند العرب) للدكتور إحسان عباس ١٦٢ وما بعدها.

الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتُسَلَّم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبَدَّه فأغزر، ولمن كثرت سواثر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض<sup>(١)</sup>

ويرى المشتغلون بالدراسات النقدية والبلاغية<sup>(٢)</sup> أن هذا النص يضع ستة عناصر لمكونات عمود الشعر عند الجرجاني هي:

- ١ - شرف المعنى وصحته.
- ٢ - جزالة اللفظ واستقامته.
- ٣ - إصابة الوصف.
- ٤ - المقاربة في التشبيه.
- ٥ - الغزارة في البديهة.
- ٦ - كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة.

ونصل، بعد ذلك، إلى أبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١هـ) فنجد أنه يقدم تحديداً علمياً لعمود الشعر؛ لأنه جعل هذا التحديد هدفاً له. لذلك أصبح حديثه عن عمود الشعر متداولاً في كتب النقد والبلاغة عند المحدثين.

بدأ المرزوقي حديثه عن عمود الشعر بقوله: «فالواجب أن يُتَبَيَّن ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب، لِيَتَمَيَّزَ تَلِيدُ الصَّنْعَةِ مِنَ الطَّرِيفِ، وَقَدِيمُ نِظَامِ الْقَرِيضِ مِنَ الْحَدِيثِ، وَلِيُعْرَفَ مَوَاطِئُ أَقْدَامِ الْمُخْتَارَيْنِ فِيمَا اخْتَارُوهُ، وَمَرَامِسُ إِقْدَامِ الْمَزْفِينِ عَلَى مَا زَفَوْهُ، وَيَعْلَمَ فَرْقُ مَا بَيْنَ الْمَصْنُوعِ وَالْمَطْبُوعِ، وَفَضِيلَةُ الْاِثْنَى السَّمْعِ، عَلَى الْاِبْنَى الصَّعْبِ»<sup>(٣)</sup>

١١ - الوساطة ٣٣ وما بعدها

١٢ - انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٣٢٢

٣ - ديوان الحماسة ٨ ما بعده

ويرى المرزوقى أن هناك سبعة أبواب هى عمود الشعر، وتلك الأبواب السبعة هى:

- ١ - شرف المعنى وصحته.
- ٢ - جزالة اللفظ واستقامته.
- ٣ - الإصابة فى الوصف.
- ٤ - المقاربة فى التشبيه.
- ٥ - التحام أجزاء النظم والتشامها على تخيير من لذيد الوزن.
- ٦ - مناسبة المستعار منه للمستعار له.
- ٧ - مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما.

وأشار المرزوقى أن لكل باب منها معياراً؛ فمعيار المعنى أن يُعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جنبنا القبول والاصطفاء، مستأنساً بقرائته، خرج وإفياً، وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشته.

ومعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم مما يهجه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم، وهذا فى مفرداته وجملته مراعى؛ لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجيناً.

ومعيار الإصابة فى الوصف الذكاء وحسن التمييز، فما وجداه صادقاً فى العلوق ممازجاً فى اللصوق، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه، فذاك سيماء الإصابة فيه. ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال فى زهير «كان لا يمدح الرجل إلا بما يكون الرجال».

ومعيار المقاربة فى التشبيه الفطنة وحسن التقدير، فأصدق ما لا ينتقض عند العكس، وأحسن ما أوقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفردهما ليين وجه التشبيه بلا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له؛ لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس وقد

قيل: «أقسام الشعر ثلاثة: مثل سائر، وتشبيه نادر، واستعارة قريبة».

وعيار التحام أجزاء النظم والتشابه على تخير من لذيذ الوزن، الطبع واللسان، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحسب اللسان في فصوله ووصله، بل استمر في واستسهله، بلا ملال ولا كلال، فذاك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة تسالماً لأجزائه وتقارناً ... وإنما قلنا «على تخير من لذيذ الوزن» لأن لذيذه يَطْرَبُ الطبع لإيقاعه، ويمارجه بصفائه، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه، واعتدال نظومه. ولذلك قال حسان:

تَنَنُّ في كل شعر أنت قائله      إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ  
وعيار الاستعارة الذهن والفطنة. وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمثبه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار؛ لأنه المنقول عما كان له في الوضع إلى المستعار له.

وعيار مشكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية، طول الدربة ودوام الممارسة، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض، لاجفاء في خلالها ولأنبؤ، ولا زيادة فيها ولا قصور. وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعاني: قد جعل الأخص للأخص، والأخص للأخص، فهو البريء من العيب. وأما القافية فيجب أن تكون كالموعد به المنتظر، يتسوقها المعنى بحقه واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقة في مقرها، مجتلبة لمستغني عنها.

وينهى المرزوقي حديثه بقوله: «فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفلح المعظم، والمحسن المقدم. ومن لم يجمعها كلها فيقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان، وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن».

\*

\*

وبعد هذا العرض للنقد اللغوي للشعر نتقل إلى الحديث عن المصطلحات البلاغية وعلاقتها بالأداء اللغوي، وهذا هو موضوع الفصل التالي.



## الفصل الثاني

### المصطلحات البلاغية وعلاقتها بالأداء اللغوي





للبلاغة العربية مجموعة من المصطلحات الخاصة بها التي اكتسبت مدلولاً معيناً في إطار البحث فيها والدراسة لها، وحين النظر في تلك المصطلحات نجد بها عدة جوانب تتصل بالأصوات والتركيب والدلالة اتصالاً مباشراً؛ بالإضافة إلى أن المصطلحات الأساسية كالبلاغة والفصاحة والمجاز والمعاني والبيان والبديع تتضمن في تعريفها بعض تلك الجوانب اللغوية المتصلة باستعمال اللغة بواسطة «المتكلم السامع المثالي» Ideal speaker listener.

ونحاول في هذا الفصل دراسة بعض مصطلحات البلاغة العربية خلال ربطها بـ «الأداء اللغوي» متخذين من مستويات التحليل اللغوي عند المحدثين أساساً لتلك الدراسة.

#### - ١ -

ونبدأ بمفهوم البلاغة نفسها؛ إذ إن تعريفها عند القدماء به تلك الجوانب اللغوية التي سبقت الإشارة إليها، ولكن قبل الدخول في هذا التعريف نتوقف أمام بعض المعاني اللغوية التي يدر في إطارها الجذر المعجمي Lexical root (بلغ)، ويمكن تنظيمها على النحو الآتي:

- بلغت المكان: إذا أشرفت عليه، وإن لم تدخله. قال تعالى: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف)<sup>(١)</sup> فهذه المشاركة.

- البلوغ: الوصول، والعرب تقول: هو أحقق بلغ، أي إنه مع حماقته يبلغ ما يريد.

- تبلغت العلة به: اشتدت.

- بلغ الفارس: إذا مد يده بعنان فرسه ليزيد في عدوه.

- أبلغ فلاناً عنى السلام: أوصله إليه<sup>(٢)</sup>.

ونستطيع أن نقول إن الأساس في المعنى اللغوي هو الوصول. نأتي، بعد ذلك، إلى

(١) الطلاق: ٢.

(٢) مجمل اللغة: ١/ ١٣٥.

مفهوم المصطلح عند علماء البلاغة.

حين طرح الجاحظ سؤاله المشهور: ما البلاغة؟<sup>(٣)</sup> كانت هناك عدة إجابات يمكن تنظيمها كما يأتي:

- معرفة الفصل من الوصل.
- تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.
- حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.
- وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.
- البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة.
- التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التيسر من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر.

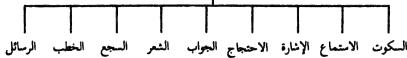
تلك هي الإجابات الخاصة بالسؤال الذى طرحه الجاحظ، وهى ترد إلى الأداء اللغوى الذى أساسه معرفة الفصل من الوصل، وحسن اختيار الكلام، والإيجاز أو الإطناب حسب المقام، ووضوح الدلالة، والابتعاد عن المعانى الغامضة. وهناك إجابة كانت تحتاج إلى إيضاح وهى «البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة»، وقد أوضحها الجاحظ بقوله: «أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقه، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالنظر».

ومن النصوص المهمة فى مجال تعريف البلاغة والحديث عنها هذا النص الذى ورد عن ابن المقفع. قال: «البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجرى فى وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل. فعامه ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين؛ فالإكثار فى غير خطل، والإطالة فى غير إملال. وليكن فى

صبر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته. فقيل له: فإن ملّ السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تلتله، وقد كان يقال: رضا الناس شيء لا يُنال<sup>(٤)</sup>.

ونلاحظ أن ابن المقفع قد حدد تسعة وجوه يجرى فيها معنى البلاغة، ويمكن بيانها كما يأتى:

#### وجوه البلاغة



ولكن ما الأداء اللغوى الذى حدده ابن المقفع مع تلك الوجوه التسعة حتى يمكن وصف الشخص بأنه بليغ؟ يرى ابن المقفع أن هناك عدة طرق لهذا الأداء اللغوى. قال: «فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة». وليس الإيجاز مستحباً على الدوام؛ إذ إن هناك بعض المقامات التى تتطلب إكثاراً وإطالة. قال: «فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل، والإطالة فى غير إملال».

ويدعو أن مراعاة «المقام» من أسس الدرس البلاغى؛ فقد أشار الخطيب القزوينى<sup>(٥)</sup> إلى أن بلاغة الكلام معناها مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ثم أوضح أن مقتضى الحال مختلف، وشرح هذا الاختلاف بقوله: «فإن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام

(٤) البيان والتبيين ١٠٩/١ وما بعدها.

(٥) الإيضاح: ٨٠ وما بعدها.

القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى. وكذا لكل كلمة مع صاحبيتها مقام.... وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقتها للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقتها له. فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب.

ويلاحظ من هذا النص الذى شرح به الخطيب مقتضى الحال أنه ينصرف، فى الأغلب الأعم، إلى التركيب النحوى؛ لذلك أشار إلى أن ما يقصده بمقتضى الحال هو الذى يسميه عبد القاهر «النظم» حيث يقول: «النظم تأخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام»<sup>(٦)</sup>.

ونستمر فى حديثنا عن البلاغة وما يحيط بها من جوانب لغوية؛ فنجد صحيفة مهمة فى التراث العربى وهى «صحيفة بشر بن المتمر»<sup>(٧)</sup>، ونحاول التعرف على ما فى تلك الصحيفة من النواحي المتصلة بالأداء اللغوى، وهى على النحو الآتى:

١- تتصل الحالة النفسية للفنان والوقت الذى يختاره بالإبداع، وتؤدى تلك الحالة إلى تحقيق بعض المميزات اللغوية؛ فالفنان أو المبدع سيبعد عن فاحش الخطأ، ويجلب كل غرة من لفظ كريم ومعنى بديع.

٢- يجب الاعتماد عن «التوعر»، وقد استعمل بشر أسلوب التحذير؛ إذ قال: «إياك والتوعر»، ولكنه لم يحدد المقصود به، وإن كانت المعاجم العربية تشير إلى أن التوعر فى الكلام معناه التحير، وهو يؤدى إلى «التعقيد» الذى يصيب العمل الفنى باثنين من العيوب المتصلة بالدلالة؛ أولهما استهلاك المعنى، والآخر خلع القبح على الألفاظ التى هى أساس التركيب النحوى ومكوناته لذلك يصيبه القبح هو الآخر، وقد قال بشر: «والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك».

(٦) انظر دلائل الإعجاز: ٨١.

(٧) الصحيفة المذكورة فى عدة مصادر. انظر البيان والتبيين: ١/ ١٢٦ وما بعدها؛ والصناعتين: ١٣٥

٣- أشار بشر في صحيفته عن البلاغة إلى بعض المواصفات الخاصة باللفظ والمعنى. قال: «أن يكون لفظك شريفاً عذبا، وفخماً سهلاً، ويكون هناك ظاهراً مكشوفاً، وقریباً معروفاً». ولم يغفل الحديث عن «النظم» أو «التركيب» الذى هو عبارة عن مجموعة من الألفاظ التى تؤدى إلى المعنى الظاهر المكشوف، القريب المعروف، والدليل على ذلك حديثه عن اللفظة التى لم تقع موقعها، ولم تصل إلى مركزها، ولم تتصل بسلكها، وكانت قلقة فى موضعها، نافرة عن مكانها. ويقصد بشر بالموقع والسلك والموضع والمكان النظم أو التركيب أو السياق الذى تقع فيه اللفظة.

٤- ربط بشر بين ثلاثة أشياء: أقدار المعانى، وأوزان المستمعين، وأقدار الحالات، وهى جزء مما يعرف فى الدرس الحديث باسم «سياق الحال» Context of situation، وقد أوضح هذا الربط بقوله: «فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات».

٥- هناك بعض الألفاظ التى لها رواج معين فى إطار علم من العلوم؛ لذلك تعد تلك الألفاظ جزءاً من المصطلحات الخاصة به؛ فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين؛ كما أنه إن عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ناسبه ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن، وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوها على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم؛ فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع؛ ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس<sup>(٨)</sup> وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكروا الهذبة والهوية والماهية<sup>(٩)</sup> وأشياء ذلك.

(٨) الأئیس فى علم الكلام الوجود والإنبات، وهو ضد الییس الذى یعنى العدم والنقی.

(٩) الهذبة: نسبة إلى هذا، والهوية: نسبة إلى هو، والماهية: نسبة إلى ما هی.

ومن هنا فإن «الخطيب من أصحاب علم الكلام إذا خاطب أوساط الناس كان عليه أن يتحاشى فى خطابه ألفاظ المتكلمين الاصطلاحية؛ لأن الجمهور لا يفهمها، فإذا خاطبه بها فكأنما يتكلم إليه بالفارز، أما إذا خاطب أمثاله من المتكلمين فإن من حقه أن يسلك هذه الألفاظ فى كلامه؛ لأن أسماعهم تهش لها وقلوبهم إليها أحن وبها أشغف؛ إذ هى ملتزمة بعقولهم ومتصلة بأذهانهم ومحبة إلى نفوسهم»<sup>(١٠)</sup>.

والذى يلفت النظر أن علماء البلاغة حددوا بعض الصفات الخاصة بالشخص نفسه من حيث الهيئة والنطق تساعد فى أن يكون بليغاً؛ فقالوا: «أن تكون السوائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية؛ فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال. وقال العتائى: «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حجة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويغوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق. وقال له السائل: قد عرفت الإعادة والحجة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: «يا هناء، ويا هذا، ويا بهي، واسمع منى، واستمع إلى، وافهم عنى، أو لست تفهم، أو لست تعقل. فهذا كله وما أشبهه عي وفساده»<sup>(١١)</sup>.

ويلاحظ من هذا النص استخدام العتائى لثلاثة من المصطلحات الخاصة بالأداء اللغوى وهى الإعادة والحجة والاستعانة، وقدم تعريفاً بالمصطلح الثالث منها. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن «الحجسة» ترجمة عربية لها رواج فى العصر الحديث للمصطلح اللغوى aphasia، والمقصود به الفوضى فى استخدام اللغة، وهى ناتجة عن خلل فى الدماغ يؤثر فى مقدرة الشخص على إنتاج التراكيب النحوية والدلالية أو فهمها، ويعد جزءاً من علم اللغة البيولوجى<sup>(١٢)</sup>.

(١٠) الدكتور شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ٤٥.

(١١) البيان والتبيين: ١/ ١٠٦ وما بعدها.

(12) Crystal, David, The cambridge Encyclopedia of language, p. 415.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالبلاغة في اللغة والاصطلاح نقدم النص الكامل لصحيفة بشر بن المعتمر في البلاغة. قال: «خُذْ من نفسك ساعةً نشاطك وفراغَ بالك وإجابتها إياك؛ فَإِنَّ قَلِيلَ تلك الساعة أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ في الأَسْمَاعِ وَأَحْلَى في الصدورِ وَأَسْلَمُ من فاحش الخطأ وأَجْلِبُ لكل عَيْنٍ وَغَرَّةٍ من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أَجْدَى عليك مما يعطيك يَوْمُكَ الأطول بالكَدِّ والمطاولَة والمجاهدة، وبالتكلف والمعادة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه.

ولِياك والتوَعَرُ؛ فَإِنَّ التَوَعَرَ يُسَلِّمُكَ إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أَرَاغَ معنى كريماً فليلتبس له لفظاً كريماً؛ فَإِنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حققهما أن تصونهما عما يُفسدهما ويهيجُهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتبس إظهارهما، وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما.

فكن في ثلاث منازل؛ فَإِنَّ أَوَّلِي الثلاث أن يكون لفظك رشيقياً عذياً وفخماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضَعُ بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي. فَإِنَّ أَمَكَّنَكَ أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفوَ عن الأَكْفَاء، فَأَنْتَ البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تعتريك ولا تنسج لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تُصِرْ إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحلَّ في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا نكرها على اغتصاب الأماكن

والنزول فى غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك بصيراً بما عليك ومالك عابك من أنت أقل عيباً منه ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعاصى عليك بعد إجمالة الفكرة فلا تتعجل ولا تنسج، ودعه يبايض يومك وسواد ليلك، وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لاتعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق. وهى المنزلة الثانية.

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغلٍ عرض ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك، فإنك لم تشتتها ولم تنازع إليها إلا وبينكما نسب، والشئ لايحز إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات؛ لأن النفوس لاتجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمهبة.

وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً؛ حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العرض والجوهر وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكر الهذبة والهوية والماهية وأشياء ذلك.

وقد لاحظنا خلال النصوص السابقة اهتمام العلماء، وعلى رأسهم الجاحظ،



بالأداء الصوتي الذي يعد جزءاً من أدوات الخطيب الماهر؛ لذلك اهتموا بالوقوف أمام عيوب النطق وأمراض الكلام؛ لأنها تؤدي إلى استهجان الجمهور للخطيب وعدم الإقبال عليه، وهذا التوقف يندرج تحت التعريف بمصطلح «البلاغة» في الدرس العربي، ومن المفيد أن نحاول دراسة تلك العيوب والأمراض بالتفصيل.

## - ٢ -

اهتم القدماء من العلماء العرب بالوقوف أمام «عيوب النطق» أو «أمراض الكلام»، ومنهم الجاحظ الذي أشار إلى الجمال الصوتي في اللغة المنطوقة، وأتبع ذلك بما يعرض للمتكلم من عيوب تتصل بنطقه لبعض الأصوات، وقد أطلال الوقوف مع واصل بن عطاء الذي جانب صوت الراء في إحدى خطبه، ونوه بذلك بشار في قوله:

تكلّفوا القول والأقوام قد حفلوا	وحبّروا خطباً ناهيك من خطب
فقام مرجلاً تغلسى بداهته	كمرجل القين لما حُفّ باللهب
وجانّب الراء لم يشعر به أحد	قبل التصفّح والإغراق في الطلّب

ويرى الجاحظ أن هناك أربعة أصوات تدخلها «الثقة» هي: القاف، والسين، واللام، والراء؛ ثم أشار - بعد ذلك - إلى الشين وما يدخلها من الثقة، وأوضح أن هذا شيء لا يصوره الخط لأنه ليس من الأصوات المعروفة وإنما هو مخرج من الخارج، والمخرج لا تنحصى ولا يوقف عليها.

والثقة التي تعرض للسين تكون ثاء كما في الأمثلة الآتية:

أبو يكسوم ← أبو يكثوم

بسرة ← بشرة

بسم الله ← باثم الله

والثقة التي تعرض للقاف يجعل صاحبها القاف طاء كما في:

قلت له ← طلت له

قال لى ← طال لى

واللثة التى تقع فى اللام يجعل صاحبها اللام ياءً كما فى:

اعتلت ← اعتيبتُ

جمل ← جمى

وأضاف الجاحظ حول تلك اللثة: «وآخرون يجعلون اللام كافاً كالذى

عرض لعمر أخى هلال؛ فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلةُ فى هذا؟ قال: ما  
الكمة فى هذا؟»<sup>(١٣)</sup>.

واللثة التى تقع فى الراء تكون عن طريق نطقها ياءً، نحو:

عمرو ← عمى

أو نطقها غيناً، نحو:

عمرو ← عمغ

أو نطقها ذالاً، نحو:

عمرو ← عمد

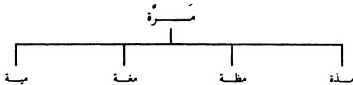
أو نطقها ظاءً، نحو:

مرة ← مظّة

ويقدم الجاحظ تطبيقاً على نطق بعض الناس لكلمة «مرة» فى قول الشاعر:

واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبدُّ

كما يأتى:



وحَدَّدَ الجاحظ بعض من استمع إليه حين نطق كلمة «مرة»، ومنهم على بن جنيْد بن فريْدى، وهو بمثابة «الراوي» أو «المصدر البشرى» informant.

ثم قال: «وأما اللُّغة الخامسة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدوى الشاعر؛ فليس إلى تصويرها سبيل. وكذلك اللُّغة التي تعرض في الشين كنحو ما كان لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر، فإن تلك أيضاً ليس لها صورة في الخط ترى بالعين، وإنما بصورها اللسان، وتأتى إلى السمع. وربما اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفين، كنحو لُّغة شوشى صاحب عبد الله بن خالد الأموى؛ فإنه كان يجعل اللام ياءً، قال مرة:

موبأى وبى أبى

يريد:

مولأى ولى الرى<sup>(١٤)</sup>

وهناك بعض الجوانب المهمة التى أشار إليها الجاحظ حين توقف أمام عيوب النطق أو أمراض الكلام، من بينها ما يأتى:

١- فسر الجاحظ بعض الألفاظ الخاصة بعيوب النطق؛ فقد قال - نقلاً عن الأصمعي - «إذا تتعتع اللسان فى التاء فهو تمتاز، وإذا تتعتع فى الفاء فهو فأفاء». قال رؤبة بن العجاج:

يا حَمْدُ ذاتِ المنطقِ التَّعام  
كأَنَّ وسواسَكَ فى اللَّعامِ  
حديثُ شيطانِ بنى هَمَّامِ

وقال الشاعر:

لستُ بفأفاءٍ ولا تمتازِ ولا كثيرُ الهُجرِ فى المنامِ

ومن الألفاظ المستعملة للإشارة إلى عيوب النطق ماورد فى قول أبى عبيدة:

«إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف، وقيل: بلسانه لَفَفٌ، وأنشدني لأبي الزاحف الراجز:

كَأَنَّ فِيهِ لَفَفًا إِذَا نَطَقَ      مِنْ طُولِ تَحْسِيسٍ وَهُمْ وَارِقُ

كانه لما جلس وحده، ولم يكن له من يكلمه، وطال عليه ذلك أصابه لفف في لسانه. فالجاحظ يرى أن اللغة أساسها الحوار والتواصل الاجتماعي، وإذا لم يتم التواصل أصيب اللسان باللفف، وأيد الجاحظ ذلك بمثالين، أولهما خاص بيزيد ابن جابر قاضي الأزارقة<sup>(١٥)</sup> الذي كان قال له «الصموت» لأنه لما طال صمته نقل عليه الكلام، فكان لسانه يلتوى، ولا يكاد يبين. والآخر غير عنه بقوله: «وأخبرني محمد بن الجهم أن مثل هذا اعتراه أيام محاربة الرُّط<sup>(١٦)</sup> من طول التفكير ولزوم الصمت. قال وأنشدني الأصمعي:

حديث بنى رُط إذا ما لقيتم      كنزِو الدي في العرفج المتقارب<sup>(١٧)</sup>

قال ذلك حين كان في كلامهم عجلة<sup>(١٨)</sup>.

وإذا كان الجاحظ قد أشار إلى التمتام والفأفاء والألف، فإنه فسر لفظة رابعة مما يدور في إطار أمراض الكلام وعيوبه وهي «الحِيسَة»، والمقصود بها عنده إذا كان الكلام يشغل عليه، ولم يبلغ حد الفأفاء، وفسر لفظة خامسة وهي «اللكنة» والمقصود بها إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج. وفسر لفظة سادسة وهي «الحُكْلَة»؛ فإذا قالوا في لسانه حكمة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال. ويبدو أن الحكلة قد انتشرت على بعض الألسنة لاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب؛ لذلك وردت على ألسنة الشعراء. قال رؤبة بن العجاج:

(١٥) الأزارقة: فرقة من فرق الخوارج، ورأسهم نافع بن الأزرق.

(١٦) الرُّط: قوم من الهند خرجوا على الناس في العصر العباسي.

(١٧) النزو: الوشب، والديبي: صغار الجراد، والعرقع: نوع من الشجر السهل.

(١٨) البيان والتبيين: ٤٧/١.

لَوَأْنْتِي أَوْتَيْتُ عِلْمَ الْحُكْلِ      عِلْمَ سَلِيمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ  
 وقال محمد بن ذؤيب في مديح عبد الملك بن صالح:  
 ويفهم قولَ الحكل لو أن ذرةً      تُساوِدُ أخرى لم يفتنه سوادُها  
 وقال الشاعر يهجو بني تغلب:  
 ولكن حُكلاً لا تبين ودينُها      عبادةُ أعلاجٍ عليها البرانسُ

٢- تنبه الجاحظ إلى إمكان علاج بعض عيوب الكلام وأمراضه، ويكون ذلك عن طريق التدريب على النطق السليم للأصوات التي يعترضها المرض أو العيب، يدلنا على ذلك قوله: «والثلثة في الرء إذا كانت بالياء فهي أحقرهن وأضعهن لذى المروءة، ثم التي على الظاء، ثم التي على الغين فهي أيسرهن. ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه، وأخذ لسانه، وتكلف مخرج الرء على حقها والإفصاح بها، لم يكن بعيداً من أن يجيبه الطبيعة، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثراً حسناً. وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين، وكان إذا شاء أن يقول: عمرو لعمري، وما أشبه ذلك على الصحة قاله، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيؤ لذلك؛ فقلت له: إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر، فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهراً واحداً إن لسانك كان يستقيم»<sup>(١٩)</sup>. فالنص يشير إلى العلاج عن طريق الشخص المصاب الذي عليه أن يجهد نفسه ولسانه ويحاول نطق صوت الرء نطقاً صحيحاً، وليس بمستبعد أن يتخلص من هذا العيب؛ بل إن الجاحظ قد حدّد الوقت الذي يستغرقه التكلف والتتبع للنطق لصوت الرء بأنه شهر واحد حسب.

وإذا كان الجاحظ قد حدد في نصه السابق العلاج لعيوب النطق وأمراض الكلام؛ فإنه حاول تعليلها وبيان السبب فيها؛ فقد «زعم ناس من العوام أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان أثلغ، ولم يقفوا من الحروف التي كانت تعرض له في شيء بعينه؛ فممنهم من جعل ذلك خلقة، ومنهم من زعم أنه إنما اعتراه حين قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون لفرعون: لا تقتل طفلاً لا يفرق الجمر من

التمر؛ فلما دعا له فرعون بهما جميعاً تناول جمرَةً، فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه<sup>(٢٠)</sup>.

٣- اعتمد الجاحظ في وصفه لعيوب الكلام وأمراض النطق على «السماع» و «المشاهدة» للخطباء؛ بالإضافة إلى نقله عن سمع أو شاهد، وقد ذكر بعض العيوب الخاصة بالخطيب، ومن ذلك ما ورد في شعر لسحيم بن حفص في الخطيب الذي تعرض له التحنحة والسعلة؛ وذلك إذا انتفخ سحره، وكبأ زنده، ونبا حده؛ فقال:

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْإِهْمَالِ      وَمِنْ كَلَالِ الْغَرَبِ فِي الْمَقَالِ  
وَمِنْ خَطِيبٍ دَائِمِ السُّعَالِ<sup>(٢١)</sup>

فإن «السعال» حين الخطابة عيب ربما يؤدي إلى الإبهام على المستمعين، وعدم القدرة على فهم المعنى؛ لأن الجمل والعبارات والمفردات تختلط بالسعال مما يؤدي إلى هذا الإبهام. وقال بشر بن المعتمر:

وَمِنْ الْكِبَائِرِ مَقُولٌ مُتَعَتِّعٌ      جَمُّ التَّنَحْنَحِ مُتَعَبٌ مَيَّهَوْرٌ<sup>(٢٢)</sup>

وقد علق الجاحظ على هذا البيت قائلاً: «وذلك أنه شهد ريسان بخطيب، وقد شهدت أنا هذه الخطبة، ولم أر جباناً قط أجراً منه، ولا جريئاً قط أجبن منه».

ومما يتصل بذلك قول الجاحظ: «قال الأشبل الأزرقى» - من بعض أحوال عِمْرَانَ بن حِطَّانِ الصُّفْرَى القمدي - في زيد بن جندب الإبادي خطيب الأزارقة، واجتماعاً في بعض المحافل؛ فقال، بعد ذلك، الأشبل البكري:

نَحَّحَ زَيْدٌ وَسَعَلَ      لَمَّا رَأَى وَقَعَ الْأَسْلَ<sup>(٢٣)</sup>  
وَيَلْمُهُ إِذَا ارْتَجَلَ      ثُمَّ أَطَالَ وَاحْتَفَلَ

وقد اهتم الجاحظ بصفات الخطيب، نقلاً عن أبي دؤاد بن جرير، وقد جرى

(٢٠) السابق والصحيفة نفسها.

(٢١) الغرب: الحد.

(٢٢) ميهور: متحير.

(٢٣) الأسل: الرماح.

شئ من ذكر الخطب، وتحجير الكلام واقتضابه، وصعوبة ذلك المقام وأهواله، الذى قال: «تخليص المعانى رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر فى عيون الناس عي، ومس اللحية هلك، والخروج مما بنى عليه أول الكلام إسهاب». وقال أبو دؤاد أيضاً: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه»<sup>(٢٤)</sup>.

وبعد هذه المحاولة للتعرف على ما يحيط بـ «البلاغة» من جوانب لغوية، نتقل إلى الحديث عن «الفصاحة».

### - ٣ -

والفصاحة فى اللغة عبارة عن البيان والظهور، ونقدم بعض التراكيب النحوية التى توضح المعنى اللغوى، وهى كما يأتى:

- أفصحَ اللبنُ: إذا ذهب عنه اللَّبَاءُ وانجملت رغوته.

قال الشاعر:

ولم يخشوا مصالته عليهم      وتحت الرغوةِ اللبنُ الفصيحُ  
ولذلك يقال: سقاهم لبناً فصيحاً، وهو الذى أخذت رغوته، أو ذهب عنه لبأؤه وخلص منه.

- أفصح العجمى: إذا خلس كلامه عن اللكنة واللحن، أو تكلم بالعربية.

- أفصح الصبى فى منطقته: فهم ما يقول فى أول ما يتكلم.

- جاء فصَحَ النصارى: أى يوم بروزهم فى معيدهم، وقد تكلمت به العرب. قال حسان بن ثابت:

ودنا الفصح فالولائد ينظمن سراعاً أكلة المرجان

ويجوز أن يكون ذلك لاعتقادهم أن عيسى عليه السلام ظهر فيه.  
- أفصح كل شيء: إذا وضع، وفي الكتاب العزيز: (وأخى هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي)<sup>(٢٥)</sup>.

- له مال فصيح وصامت. قال الشاعر:

وقد كنتُ ذا مالٍ فصيحٍ وصامتٍ      وذا إبلٍ قد تعلمين وذا غنمٍ  
- أفصح الصبح: إذا ظهر وعلا ضوءه.  
- سَمَى الكلام الفصيح فصيحاً كما أنهم سموه بياناً لإعراجه عما عُبر به عنه وإظهاره له إظهاراً جليلاً، روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش»<sup>(٢٦)</sup>.

نأتي، بعد ذلك، إلى مفهوم الفصاحة في اصطلاح علماء البلاغة فنجدهم يشيرون إلى أن الفصاحة خاصةٌ تقع صفةً للمفرد؛ فيقال: كلمة فصيحة، ولا يقال: كلمة بليغة.

وحين درسوا فصاحة المفرد أشاروا إلى بعض الشروط التي يجب توافرها فيه<sup>(٢٧)</sup>، وصل بها ابن سنان الخفاجي إلى ثمانية<sup>(٢٨)</sup>، وهي مجموعة من الشروط

(٢٥) القصص / ٣٤.

(٢٦) انظر سر الفصاحة: ٥٨ وما بعدها؛ وأساس البلاغة: ٤٧٤؛ والطرارز: ١ / ١٠٣؛ ومجمل اللغة: ٣ / ٧٢٢؛ والإيضاح: ٧٢.

(٢٧) من المفيد الإشارة إلى أنه ليست هناك كلمة جميلة وأخرى قبيحة، وإنما يرد هذا كله إلى السياق أو التركيب النحوي. قال عبد القاهر: «وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، قد حدث في مذاقة حروفها وأصداؤها لم تكن، لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعونها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن. الدلائل: ٣٨٦. وإنما إذ نعرض لتلك الشروط عند ابن سنان إنما نحاول التعرف على المناخ العام للتفكير اللغوي عند علماء البلاغة.

(٢٨) سر الفصاحة: ٦٤ - ٩٢.



اللغوية التي تؤدي إلى تلك الفصاحة، ويمكن العرض لها خلال النقاط الآتية:

أولاً: أن يكون تأليف اللفظة المفردة من حروف متباعدة المخارج، وعلى هذا جل كلام العرب، ومن أمثلة التأليف من الحروف المتقاربة في مخارجها الذي يؤدي إلى الصعوبة في النطق كلمة «الهَمْع»<sup>(٢٩)</sup>؛ فقد روى أن أعرابياً سئل عن ناقلته، فقال: تركتها ترعى الهَمْع<sup>(٣٠)</sup>.

ثانياً: أن تجدد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها، وإن تساوى في التأليف من الحروف المتباعدة، مثال ذلك الحروف (ع ذ ب) فإن السامع يجد لقرولهم «العذيب» اسم موضع، و «عذبية» اسم امرأة، وعَذَب وعَذَاب وعَذَب وعَذَابات، ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف، وليس سبب ذلك بُعد الحروف في المخارج فقط، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير.

وقد مثل ابن سنان لبعض الكلمات القبيحة في تأليفها مثل «الجِرشى» في قول المتنبي:

مباركُ الاسمِ أغرُّ اللقبِ      كريمُ الجِرشى شريفُ النسبِ<sup>(٣١)</sup>  
و «الحقلد» في قول زهير:

تقى نقى لم يكثر غنيمَةً      بنكهة ذى قرى ولا بحقلد<sup>(٣٢)</sup>

قال ابن سنان: «الحقلد كلمة توفى على قبح الجرشى وتزيد عليها».

ثالثاً: أن تكون الكلمة غير متوعدة وحشية، كقول أبي تمام:

(٢٩) ضرب من الثبت.

(٣٠) الإيضاح: ٧٣.

(٣١) الجرشى: النفس، واللقب: ما ينيز به الرجل. والمعنى: يريد أن اسم سيف الدولة على، وهو اسم مبارك يترك به لكان على كرم الله وجهه، وهو مشتق من العلو، والعلو محبوب مطلوب. ويريد أنه مشهور اللقب بسيف الدولة، وقد اشتهر به في الأفاق فهو أغر والأغر: الواضح الأبلج، وشريف النسب لأنه من ربعة وهم كرام أشرف. انظر شرح ديوان المتنبي: ٩٩ / ١.

(٣٢) الحقلد: سئ الخلق؛ شرح ديوان زهير: ٢٣٤. وانظر المعنى: ٦٨٥؛ إذ ل: أبا حيان سأل ابن هشام عن العطف في «ولاحقلد» ولم يجب ابن هشام إلا بعد أن عرف معنى «الحقلد».

لقد طلعتُ في وجه مصر بوجهه بلا طالع سد ولا طائر كهل  
فإن كهلًا ها هنا من غريب اللغة، وقد روى أن الأصمعي لم يعرف هذه  
الكلمة، وليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين. وقد قيل: إن الكهل الضخم،  
وكهل لفظة ليست بقبیحة التأليف لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعي.

رابعاً: أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية، ومن أمثلتها قول أبي تمام:  
جليتَ والموت مبدٍ حرٌّ صفحته وقد تفرعن في أفعاله الأجلُ  
فإن «تفرعن» مشتق من اسم فرعون، وهو من ألفاظ العامة، وعاداتهم أن  
يقولوا «تفرعن فلان» إذا وصفوه بالجبرية.

خامساً: أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة،  
ويدخل في هذا القسم كلُّ ما ينكره أهل اللغة، ويرده علماء النحو من التصرف  
الفاسد في الكلمة، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية، كما  
أنكروا على أبي الشيص قوله:

وجناح مقصوص تخيف ريشه ريبُ الزمان تخيف المقراض  
وقالوا: ليس «المقراض» من كلام العرب.

وقد تكون الكلمة عربية، ولكن قد عُبرَ بها عن غير ما وضعت له في عرف  
اللغة، كما قال أبو تمام:

حلت محل البكر من معطى وقد زُفَّت من المعطى زفاف الأيم  
فوضع «الأيم» مكان «الثيب» وليس الأمر كذلك؛ لأن الأيم هي التي لا زوج  
لها، بكراً كانت أو ثيباً. قال تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم  
وامأنتكم) (٣٣) أفترأه أراد أنكحوا الثيبات من النساء دون الأبقار؟ إنما أراد تبارك  
اسمه: أنكحوا النساء اللواتي لا أزواج لهن. فالثيب والبكر والصغيرة والكبيرة ممن  
لا زوج لها تدخل في الآية الكريمة (٣٤)، قال الشماخ:

يقر بعيني أن أحدثَ أنها وإن لم أنلها أيم لم تزوج

(٣٣) النور / ٣٢.

(٣٤) الموازن: ١ / ١٦٧.

سادساً: ألا تكون الكلمة قد عُبرَ بها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا أُوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، ومثال هذا قول عروة بن الورد العبسي:

قلت لقوم في الكنيف تروحوأ عشية بتنا عند ماوان رزح<sup>(٣٥)</sup>

قال ابن سنان: «والكنيف أصله السائر، ومنه قيل للترس كنيف، غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهر بها؛ فأنا أكرهه في شعر عروة، وإن كان ورد ورداً صحيحاً، لموافقة هذا العرف الطارئ، على أن لعروة عذراً، وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده، بل لا أشك أنه كذلك؛ لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو وإن كان معذوراً وغير ملوم ببيته مما يصلح التمثيل به».

سابعاً: أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف؛ فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. قال المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

فـ «سويداواتها» كلمة طويلة جداً عند ابن سنان.

ثامناً: أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو مايجرى مجرى ذلك، فإنها تحسن به، ولعل ذلك لموقع الاختصار بالتصغير ومثال ذلك قول الشريف الرضي:

يولعُ الطلُ بردننا وقد نسمت رويحةُ الفجرِ بين الضالِّ والسلم

فلما كانت الريح المقصودة هنا نسيماً مريضاً ضعيفاً حسنت العبارة عنه بالتصغير، وكان للكلمة طلاوة وعذوبة.

هذه هي الشروط الثمانية الخاصة بفصاحة الكلمة على نحو ما أشار ابن سنان.

وبعد هذا العرض لبعض ما يتصل بمصطلح الفصاحة من جوانب لغوية،

(٣٥) ماوان: قرية من أرض اليمامة، ورزح: يقال قوم رزح: صمالك.

نتوقف أمام مصطلح مهم في تاريخ الدرس البلاغي عند القدماء وهو «المجاز» .

- ٤ -

ويتصل «المجاز» بالاستعمال اللغوي اتصالاً مباشراً، وقبل أن نحاول التعرف على هذا الاتصال نتوقف أمام كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة؛ باعتباره أول ما وصل إلينا ويحمل في عنوانه كلمة «المجاز» ولكن قبل الدخول في ذلك نتوقف أمام السبب في تأليفه؛ لأنه سبب لغوي، وقد ورد على لسان أبي عبيدة نفسه قال: «أرسل إليّ الفضل بن الربيع في الخروج إليه سنة ثمانٍ وثمانين ومائة، فقدمت إليّ بغداد واستأذنت عليه، فأذن لي وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسى .... ثم دخل على رجل في زى الكتاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة، أقدمناه لاستفيد من علمه، فدعا له الرجل ورقظه لفعله هذا، وقال إنني كنت إليك مشتقاً، وقد سألت عن مسألة، أفأذن لي أن أعرفك إياها؟ فقلت هات، قال: قال الله عز وجل: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين)<sup>(٣٦)</sup>، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقنلتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به. فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وعزمت في ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته مجاز<sup>(٣٧)</sup>.

ولكن ما مفهوم المجاز عند أبي عبيدة؟ لقد تحدث الرجل في بداية كتابه<sup>(٣٨)</sup> عن بعض الظواهر اللغوية في القرآن الكريم، وهي توضح هذا المفهوم وتكشف

(٣٦) الصافات / ٦٥ .

(٣٧) معجم الأدباء: ١٦٧ / ٧، ووفيات الأعيان: ٢٣٦ / ٥، وشذرات الذهب: ٢ / ٢٥ .

(٣٨) مجاز القرآن: ١ / ٨ - ١٦ .

عنه، وقدّم لتلك الظواهر بقوله: «قالوا: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، ومصدق ذلك في آية من القرآن. وفي أية أخرى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) <sup>(٣٩)</sup> فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي ﷺ أن يسألوا عن معانيه؛ لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتخليص. وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني».

وقد عرض أبو عبيدة لبعض الظواهر اللغوية التي تطبع الأسلوب القرآني العظيم، ومن تلك الظواهر ما يأتي:

١- اهتم أبو عبيدة بالتوقف أمام ما ورد في الآيات الكريمة من «الحذف» - deletion. قال تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها) <sup>(٤٠)</sup> والأصل المقدر - the underlying structure هو «واسأل أهل القرية» ويدرج هذا الحذف تحت «حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه».

٢- أشار إلى ما ورد في الآيات الكريمة من «الاختصار» - reduction. قال: «ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه ضمير، قال: (وانطلق الملائة منهم أن امشوا واصبروا) <sup>(٤١)</sup> فهذا مختصر فيه ضمير مجاز: (وانطلق الملائة منهم) ثم اختصر إلى فعلهم وأضمر فيه وتواصوا أن امشوا، أو تنادوا أن امشوا أو نحو ذلك».

٣- توقف أبو عبيدة أمام بعض الظواهر اللغوية التي يدرسها المحدثون في إطار «الفصائل النحوية» grammatical categories وتشمل «الجنس» gender و «العدد» number و «الزمن» Tense <sup>(٤٢)</sup>، ومن ذلك توقف أبي عبيدة أمام التعبير بلفظ الواحد عن الجميع. قال تعالى: (والملائكة بعد ذلك ظهير) <sup>(٤٣)</sup>، (ظهير) في موضع «ظهراء».

(٣٩) إبراهيم / ٤.

(٤٠) يوسف / ٨٢.

(٤١) ص / ٦.

(42) Palmer, Frank, Grammar, p. 74.

(٤٣) التحريم / ٤.

وقال أبو عبيدة: «ومن مجاز ما فيه لغتان فجاء بإحدهما قال: (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه)»<sup>(٤٤)</sup>؛ فالأنعام بذكر ويؤنث، وقال: (كذبت قوم نوح المرسلين)»<sup>(٤٥)</sup> يقال: هذه قومك، وجاء قومك ومن مجاز ما أظهر من لفظ المؤنث ثم جعل بدلاً من المذكر فوصف بصفة المذكر بغير الهاء كذلك، قال: (السماء منفطر به)»<sup>(٤٦)</sup> جعلت السماء بدلاً من السقف بمنزلة تذكير سماء البيت».

٤- اهتم أبو عبيدة بالتوقف أمام وجوه الإعراب دون بيانها بالتفصيل وذلك كما في قوله تعالى: (إن هذان لساحران)»<sup>(٤٧)</sup>، وتلك الوجوه مما يندرج تحت المجاز.

٥- أشار إلى ماورد من الآيات التي أُعمل فيها الفعل مباشرة، دون أن يتعدى بحرف الجر. قال تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم)»<sup>(٤٨)</sup> والفعل يتعدى بـ «إلى» واللام: إلى الصراط المستقيم.

٦- مما يطبع الأسلوب القرآني وضع المصدر موضع الاسم أو الصفة. قال تعالى: (ولكن البر من آمن بالله)»<sup>(٤٩)</sup>؛ أى البار، وقال تعالى: (أن السموات والأرض كانتا رتقا)»<sup>(٥٠)</sup>، والرتق مصدر، وهو في موضع مرتوقتين.

٧- مما يندرج تحت المجاز عند أبى عبيدة اختلاف دلالة الألفاظ عند اللغويين. قال تعالى: (وغدوا على حرّ قادرين)»<sup>(٥١)</sup> ففسروه على ثلاثة أوجه؛ قال بعضهم: على قصد، وقال بعضهم: على منع، وقال آخرون: على غضب وحقد.

(٤٤) النحل / ٦٦ .

(٤٥) الشعراء / ١٠٥ .

(٤٦) المزمّل / ١٨ .

(٤٧) طه / ٦٣ .

(٤٨) الفاتحة / ٥ .

(٤٩) البقرة / ١٨٩ .

(٥٠) الأنبياء / ٣٠ .

(٥١) القلم / ٢٥ .

٨- توقف أبو عبيدة أمام «التقديم والتأخير». قال تعالى: (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)<sup>(٥٢)</sup> أراد: ربت واهتزت، وقال تعالى: (لم يكذبها)<sup>(٥٣)</sup> أى لم يرها ولم يكذبها.

٩- أشار أبو عبيدة إلى التكرار. قال تعالى: (رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)<sup>(٥٤)</sup>، أعاد الرؤية.

١٠- زيادة الحروف من الظواهر التي تطبع التركيب النحوى لبعض الآيات الكريمة، وتندرج تلك الزيادة تحت المجاز. قال تعالى: (فما منكم من أحد عنه حاجزين)<sup>(٥٥)</sup>، وقال تعالى: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكليم)<sup>(٥٦)</sup>.

تلك هى أهم الموضوعات التى تندرج تحت «المجاز» عند أبى عبيدة، وهى مجموعة من الظواهر اللغوية المتصلة بالصرف والنحو والدلالة. ولعله من المفيد أن نشير إلى ما قاله ابن جنى من أن «هذه اللغة أكثرها جارا على المجاز، وقلما يخرج الشئ منها على الحقيقة.... فلما كانت كذلك، وكان القوم الذين خطبوا أعرف الناس بسعة مذاهبها، وانتشار أنحائها، جرى خطابهم بها مجرى ما يألّفونه. ويعتادونه منها، وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم وعادتهم فى استعمالها»<sup>(٥٧)</sup>.

وبعد هذه المحاولة للتعرف على مفهوم «المجاز» عند أبى عبيدة، نحاول دراسة المصطلح عند علماء البلاغة، وقد أشار إليه الجاحظ حين تحدث عن الحقيقة والمجاز قال: «وإذا قالوا: أكله الأسد؛ فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا: أكله الأسود»<sup>(٥٨)</sup>؛ فإنما يعنون النهش والدغ والعص فقط. وقد قال الله عز وجل: (أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً)<sup>(٥٩)</sup> ويقولون فى باب آخر: فلان يأكل

٥٢ - الصح/ ٥٣ - النور / ٤٠.

٥٤ - يوسف ٤. ٥٥ - الحاقة / ٤٧.

٥٦ - المؤمنون / ٢٠.

(٥٧) الخصائص: ٢٤٥ / ٣ وما بعدها.

(٥٨) الأسود: نوع خبيث من الأفاعى.

(٥٩) الحجرات/ ١٢.

الناس، وإن لم يأكل من طعامهم شيئاً، وكذلك قول دهمان النهري:

سألتني عن أناس أكلوا شرب الدهر عليهم وأكل

فهذا كله مختلف وهو كله مجاز<sup>(٦٠)</sup> فالتركيب النحوي «أكله الأسد» جاء على الحقيقة عند الجاحظ، أما ما يتصل بالأكل في التراكيب الأخرى فهو مجاز.

وتوقف ابن فارس أمام الحقيقة والمجاز أيضاً، وأشار إلى أن الحقيقة «الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل، ولانقديم فيه ولا تأخير؛ كقول القائل: أحمَدُ الله على نعمه وإحسانه. وهذا أكثر الكلام»؛ أي إن الكلام الحقيقي عند ابن فارس يمضي لسننه لا يعترض عليه، وقد يكون غيره يجوز جواره لقربه منه، إلا أن فيه من تشبيه واستعارة، كف ما ليس في الأول، وذلك كقولك: عطاء فلان من؛ فهذا تشبيه، وقد جاز مجاز قوله: عطاء كثير واف<sup>(٦١)</sup>؛ أي إن المجاز عند ابن فارس كاد يقترب من الحقيقة، ولكن هناك بعض التصرف في القول عن طريق استخدام الاستعارة والتمثيل والتقديم والتأخير.

واهتم ابن رشيق بالمجاز في باب من أبواب كتابه (العمدة)<sup>(٦٢)</sup>، وقد أشار إلى أن العرب كثيراً ما تستعمل المجاز وتعدده من مفاخر كلامها؛ فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات. ومعنى المجاز - عند ابن رشيق - طريق القول ومأخذه، وهو مصدر: جزت مجازاً؛ كما تقول: قمت مقاماً، وقلت مقالاً... والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز؛ لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخل تحت المجاز، إلا أنهم خصصوا به (المجاز) باباً يعينه وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب كما قال جرير بن عطية:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(٦٠) الحيوان : ٢٨/٥ و ٢٧/٥.

(٦١) الصحاحي: ٣٢١ - ٣٢٣.

(٦٢) العمدة : ١٧٨/١ - ١٨٠.



أراد المطر لقربه من السماء، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب؛ لأن كل ما أظلك فهو سماء وقال «سقط»؛ يريد سقوط المطر الذى فيه، وقال «رعيناه» والمطر لا يُرعى ولكن أراد النبت الذى يكون عنه؛ فهذا كله مجاز.

ويعرف عبد القاهر الجرجاني المجاز بأنه كل «كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهى مجاز. وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً ولملاحظة ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز»<sup>(٦٣)</sup>.

وبعد هذا العرض للتعريفات التى قال بها العلماء للمجاز، نستطيع أن نقول إنه عكس «الحقيقة» وإنه خروج عن طريق التعبير الحقيقى فى استعمال الألفاظ داخل التراكيب النحوية، وهو من سنن العرب فى كلامها.

وقد ربط يحيى العلوى فى (الطراز)<sup>(٦٤)</sup> بين «المجاز» ووجوه التصرف فى الأداء اللغوى خلال خمسة عشر أمراً، نستطيع أن نقول إنها تمثل المجالات التى يدور فى إطارها المصطلح عند القدماء، ويمكن تقديم تلك الأمور على النحو الآتى:

١ - تسمية الشئ باسم الغاية التى يصير إليها، وهذا نحو تسميتهم «العنب» بالخمير لما كان يصير إليها، و«العقد» بالنكاح لما كان موصلاً إليه.

٢ - تسمية الشئ بما يشابهه، وهذا نحو تسميتهم المذلة العظيمة بالموت، والمرض الشديد بالموت أيضاً.

٣ - تسميتهم «اليد» باسم القدرة كقوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم)<sup>(٦٥)</sup>؛ أى قدرته، وقولهم: يد فلان على غيره قاهرة. ووجه المجاز من جهة أن اليد محل للقدرة، أو من جهة أن اليد آلة فى الفعل، والفعل لا يمكن حصوله إلا بواسطة القدرة؛ فلأجل هذا تجوزوا فى تسمية اليد بالقدرة.

(٦٣) أسرار البلاغة : ٢٨١ وما بعدها.

(٦٤) الطراز : ٦٩/١ - ٧٣.

(٦٥) الفتح / ١٠.

٤ - تسمية الشيء باسم قابله؛ حيث قالوا: سال الوادى، والحقيقة: سال ماء الوادى؛ فإسناد السيلان إلى الوادى من باب المجاز المركب، وتسمية الماء بالوادى من باب المجاز المفرد، لما كان الوادى قابلاً له.

٥ - تسمية الشيء باسم ما يكون ملائماً له كما سمو المطر بالسما؛ فقالوا: جادتنا السماء، لما كان المطر نازلاً منها.

٦ - إطلاقهم الاسم أخذاً من غيره لاشتراكهما فى معنى من معانيه؛ كما أطلقوا لفظ «الأسد» على الشجاع باعتبار الشجاعة، وكما أطلقوا «الحمار» على البلبد لأجل البلادة، وهذا هو الذى يقال إنه من باب الاستعارة.

٧ - تسمية الشيء باسم ضده كقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها)<sup>(٦٦)</sup>.

٨ - تسمية الكل باسم الجزء، كإطلاق لفظ العموم مع أن المراد منه الخصوص كقوله تعالى: (وهو على كل شيء قدير)<sup>(٦٧)</sup>، فقد خرج من هذا كثير من الموجودات التى لا يقدر عليها؛ فالعموم صار مجازاً فى الخصوص.

٩ - تسمية الجزء باسم الكل كما يقال للزنجى إنه أسود، فقد اندرج بياض أسنانه وبياض عينيه فى هذا الإطلاق.

١٠ - إطلاق اللفظ المشتق بعد زوال المشتق منه كإطلاق قولنا: قاتل وضارب بعد فراغه من القتل والضرب، فإن إطلاقه على جهة الحقيقة فى الحال؛ فأما بعد ذلك فهو مجاز.

١١ - المجاورة. وهذا كنقل اسم الراوية من ظرف الماء إلى ما يحمل عليه من الجمل وغيره، ونحو تسمية الشراب بالكأس لأجل مجاورته له.

١٢ - إطلاق لفظ «الدابة» على الحمار؛ فإنه كان بالوضع اللغوى لكل ما يدب كالبدوة والنملة، ثم تعورف على قصره على ذوات الأربع من الدواب؛ فإذا قصر من ذوات الأربع على الحمار كان هذا مجازاً بالإضافة الى العرف.

(٦٦) الشورى / ٤٠.

(٦٧) المائدة / ١٢٠. وآيات كريمة أخرى.

١٣ - مجاز بالزيادة كقوله تعالى: (ليس كمثله شيء)<sup>(٦٨)</sup> فالكاف ههنا مزيدة؛ لأنها لو أسقطت لاستقام الكلام؛ فلهذا كان مجيئها للزيادة المجازية.

١٤ - المجاز بالنقصان، وهذا كقوله تعالى: (واسأل القرية)<sup>(٦٩)</sup> فإن المراد أهل القرية؛ ولهذا فإنه لوجى بها لصح الكلام واستقام.

١٥ - تسمية المتعلق باسم المتعلق كتسمية المعلوم علماً، والمقدور قدرة؛ كما قال تعالى: (ولا يحيطون بشئ من علمه)<sup>(٧٠)</sup>؛ أى معلومه، وقولهم: هذه قدرة الله؛ أى مقدوره.

ومن هنا فإن مفهوم المجاز عبارة عن التصرف فى استعمال اللغة خلال أبينتها وتراكيبها النحوية ودلالة ألفاظها<sup>(٧١)</sup>.

وبعد هذه المحاولة للتعرف على الصلة بين المجاز والأداء اللغوى، نتوقف أمام ثلاثة من المصطلحات التى تكون معاً «علم البلاغة العربى»، وهى البيان والمعانى والبديع، ونبدأ بالحديث عن «علم البيان».

## - ٥ -

يقول عبد القاهر عن علم البيان: «إنك لانرى علماً هو أرسخ أصلاً وأسبق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأثور سراجاً، من علم البيان، الذى لولاه لم تر لساناً يحوك الوشى، ويصوغ الحلى، ويلفظ الدر، وينث السحر، ويقرى الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانسع من الثمر، والذى لولا تخفيه بالمعلوم، وعنايته بها، وتصويره إياها، لبقيت كائمة مستورة، ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولا ستمر السار بأهلتها، واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدر كها الإحصاء، ومحاسن

(٦٨) الشورى / ١١.

(٦٩) يوسف/ ٨٢.

(٧٠) البقرة / ٢٥٥.

(٧١) انظر ما عقده ابن قتيبة تحت عنوانه «باب القول فى المجاز» فى كتابه: تأويل مشكل القرآن ١٠٣.

لا يحصرها الاستقصاء<sup>(٧٢)</sup>.

ونقدم فيما يلي، بعض التعريفات التي وردت عند علماء البلاغة:

- قال بدر الدين ابن مالك: «علم البيان» هو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة وبالتقصان؛ ليحترز بذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه<sup>(٧٣)</sup>.

- قال يحيى العلوى: «إن علم البيان حاصله إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، في وضوح الدلالة عليه كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها<sup>(٧٤)</sup>.

- قال الخطيب القزويني: «علم البيان»: علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه<sup>(٧٥)</sup>.

ويتضح من تلك التعريفات أن علم البيان أساسه إيراد المعنى meaning بطرق مختلفة تؤدي إلى وضوح الدلالة. ويدو أن المقصود بتلك الطرق المختلفة التراكيب النحوية التي يمكن إيرادها بعدة صور، من أهمها التشبيه والاستعارة والكناية، التي هي أساس التصرف في القول.

وننتقل الآن إلى الحديث عن تعريف «علم المعاني» وعلاقة هذا بالأداء اللغوي

## -٦-

قدم علماء البلاغة تعريفات كثيرة لعلم المعاني، وهذه بعضها:

- قال بدر الدين ابن مالك: «علم المعاني» هو تتبع خواص تراكيب الكلام وقبود دلالاته؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال

(٧٢) الدلائل: ٥ وما بعدها.

(٧٣) المصباح: ١٠٣.

(٧٤) الطراز: ١١/١.

(٧٥) الإيضاح: ٣٢٦.

ذكره<sup>(٧٦)</sup>.

- قال الخطيب القزويني : «هو علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال<sup>(٧٧)</sup>».

- قال السكاكي : «هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال ذكره<sup>(٧٨)</sup>».

ويتضح من تلك التعريفات أن أساس البحث في «علم المعاني» هو تتبع الخصائص التي تطبع التركيب النحوي كالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والانساع وسواها؛ ليكون هذا التركيب مطابقاً للحال نفسه؛ ومن هنا فإن هذا العلم يرتبط بالأداء اللغوي ارتباطاً مباشراً.

ونحاول النظر في بعض الخصائص التركيبية لإيضاح الصلة بين علم المعاني والأداء اللغوي وهي على النحو الآتي:

أولاً :

يعد الحذف deletion أحد الأبواب الرئيسية في علم المعاني، وهو يرتبط بالأداء اللغوي الذي يخلع عليه الحذف جمالاً، وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر في قوله : «هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسكر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجحدك أنطق ما تكون إذ لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين»<sup>(٧٩)</sup>.

وهناك مجموعة من العوامل اللغوية التي تخلع الجمال على الحذف، يأتي على رأسها ما يتصل بـ «سياق الحال» الذي يتفرع عنه المناسبة التي قيلت فيها الأبيات، ومن ذلك قول الأقيشر في ابن عم له موسر، سأله فمعه، وقال : كم

(٧٦) المصباح : ٧

(٧٧) الإيضاح : ٨٤.

(٧٨) المفتاح : ١٦١.

(٧٩) الدلائل : ١٤٦.

أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لا يفيك والله لا أعطيتك. فتركه حتى اجتمع القوم  
فى ناديبهم وهو فيهم، فشكاه إلى القوم وذمّه، فوثب إليه ابن عمه فلطمه؛ فأنشأ  
يقول:

سريعٌ إليّ ابنُ العمِّ يُلطمُ وجهه      وليس إلى داعى الندى بسريع  
حريصٌ على الدنيا مضيعٌ لدينه      وليس لما فى بيته بمضيع<sup>(٧٩)</sup>

ومما يخلع على الحذف جمالاً حين الأداء اللغوى أن يكون الشعر على شكل  
حوار، متضمناً أفعالاً تتولد من الجذر المعجمى (ق و ل)؛ وذلك كقول الشاعر:  
قال لى : كيف أنت ؟ قلت : عليل      سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويل<sup>(٨٠)</sup>  
ويمكن إعادة تشكيل البيت على شكل حوار، وإن كان هذا سيؤدى إلى أن  
يفقد جماله، وهو كما يأتى:

قال: كيف أنت ؟

قلت : عليل ؛ حالى سهر دائم وحزن طويل.

مع ردّ العنصر المحذوف، وهو المبتدأ.

ومما يخلع جمالاً على الحذف حين الأداء اللغوى «القطع والاستئناف»؛  
فمن عادة الشعراء البدء بذكر الرجل مع تقديم بعض ما يتصل به، ثم يدعون  
ذلك؛ أى يقطعونه ويستأنفون كلاماً آخر، تركيبه النحوى عبارة عن مبتدأ محذوف  
وبعده الخير، ومن أمثلته قول أبى البرج القاسم بن حنبل المرى:

همُّ حلوا من الشرف الملقى      ومن حسب العشرة حيث شاءوا  
بناء مكارم وأساءة كلم      دماؤهم من الكلَب الشفاء<sup>(٨١)</sup>  
والتقدير «هم بناء مكارم»

(٧٩) الإيضاح : ١١٠ وما بعدها.

(٨٠) السابق: ١٠٩.

(٨١) الدلائل : ١٥٢.

## ثانياً:

من الظواهر التركيبية التي يهتم بها علم المعاني، ولها صلتها بالأداء اللغوي «التوكيد بإن»، وأساسه أن هذا التوكيد يأتي على أن في الجملة السابقة عليها خبراً يتلقاه السامع وهو متحير، ويأتي التوكيد ليزيل ذلك. قال بدر الدين ابن مالك: «وكثيراً ما يخرجون الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ فيحلون المحيط بفائدة الخبر محل الخالي ذهن عنها لتجهيله. ويقيمون من لا يسأل مقام من يسأل، إذا كانوا قدموا إليه ما يلوح بالخبر، فيستشرفون له استشراف الطالب المتحير. فيخرجون الجملة إليه مؤكدة»<sup>(٨٢)</sup> ويمكن تطبيق هذا على قول بشار:

بكرًا صاحبي قبل الهجيرِ      إنَّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ  
فإنه لما خاطب به «بكرًا» محرضاً صاحبيه على التثمير في شأن السفر،  
تصورهما حائمين حول : هل التبكير يثمر النجاح؟ فتلقاهما به «إن».

والذي يلفت النظر أن بشاراً كان مدركاً لهذه التركيب النحوي الذي لجأ إليه في عجز البيت؛ فحين سمع خلف الأحمر البيت من بشار، قال له: لو قلت - يا أبا معاذ - مكان «إن ذاك النجاح»: بكرًا فالنجاح، كان أحسن؛ فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت: إن ذاك النجاح، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكرًا فالنجاح، كان هذا كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال الأصمعي: فقام خلف فقبل بين عينيه<sup>(٨٣)</sup>.

## ثالثاً:

مما يطبع الأداء اللغوي «التقديم والتأخير» وقد قال عنه عبد القاهر: «هو باب كثير الفرائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتقر لك عن بدعية، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن

(٨٢) المصباح: ١٠ وما بعدها.

(٨٣) الإيضاح: ٩٥.

مكان إلى مكان<sup>(٨٤)</sup>.

وقد درس عبد القاهر جمال الاستعارة في ضوء التقديم والتأخير، ومن ذلك قول سبيع بن الخطيم التيمي لزيد الفوارس الضبي:

سالت عليه شعابُ الحيِّ حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير  
قائلاً: «فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن  
وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها  
قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وإن شككت فاعمد إلى الجارين  
والظرف، فأزل كلاماً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: سالت شعاب  
الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف  
يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحتك التي كانت؟ وكيف تذهب النشوة  
التي كنت تجدها<sup>(٨٥)</sup>.

#### رابعاً:

نظر البلاغيون في أساليب الكتاب العزيز، وقارنوا بين الآيات الكريمة من حيث  
النظر في العناصر النحوية وربطوا ذلك بالدلالة، وذلك كما حدث حين  
تعرضوا للإنكار؛ إذ إننا نقول: «إني صادق» لمن ينكر صدقك، ولكنه لم يبالغ في  
إنكاره، ونقول: «إني لصادق» لمن ينكر صدقك كذلك، ولكنه يبالغ في  
هذا الإنكار. والعناصر النحوية للتركيبين واحدة، ماعدا وجود اللام  
المزحلقة في التركيب الثاني، وتفيد الدلالة على التوكيد في ضوء السياق الذي  
وقعت فيه.

وعليه قوله تعالى: (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ  
أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا  
بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم

(٨٤) الدلائل: ١٠٦.

(٨٥) الدلائل: ٩٩.



لمرسلون<sup>(٨٦)</sup>. فقد قال فى المرة الأولى: (إنا إليكم مرسلون) وفى الثانية: (إنا إليكم مرسلون)، ويعود السبب فى إلحاق اللام (لمرسلون) إلى أنه قبل المرة الثانية، وردت بعض الكلمات الدالة على النفى؛ نحو (ما أنتم إلا بشر مثلنا) و(ما أنزل الرحمن من شيء) و (إن أنتم إلا تكذبون) بالإضافة الى وجود القصر فى (ما) مع (إلا)، ووجود (من) الزائدة قبل المفعول به (من شيء) وكلها عناصر نحوية تؤدي إلى التأكيد على النفى؛ لذلك لابد من التأكيد أيضاً على الإرسال؛ فوردت اللام فى (لمرسلون).

لذلك قارن العلماء بين التراكييب النحوية التى تصيها «الاتساع» expansion، الذى يؤدي إلى اختلاف الدلالة كما يأتي:

عبد الله قائم —————، إخبار عن قيامه (ابتدائي)

إن عبد الله قائم —————، جواب عن سؤال سائل (طلبي)

إن عبد الله لقائم —————، جواب عن إنكار منكر (إنكارى)

وإخراج الكلام على هذه الوجوه يسمى إخراجاً على مقتضى الظاهر<sup>(٨٧)</sup>.

وهناك موضوعات أخرى تدرج تحت «علم المعاني» وهى عبارة عن معالجة لغوية للتركيب النحوى كالفصل والوصل، والقصر وسواهما، وننتقل الآن إلى الحديث عن «علم البديع».

•

أشار الجاحظ إلى البديع<sup>(٨٨)</sup> إذ إنه أورد أحياناً للأشهب بن رمية، وهى قوله:

هم القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدٍ	وإنَّ الأليَّ حانت بفلجٍ دماؤهم
وما خير كفو لا تنوءُ بساعدٍ	هم ساعد الدهرِ الذى يتقى به
تساقوا على حردِ دماء الأساودِ	أسود شرى لأقت أسود خفية

(٨٦) يونس / ١٣ - ١٦

(٨٧) انظر الإيضاح : ٩٣ .

(٨٨) البيان والتبيين : ٢٥٤ / ٣ .

ثم علق عليها قائلاً: قوله: هم ساعد الدهر، إنما هو مثل، وهذا الذى تسميه الرواة البديع، وقد قال الراعى:

هم كاهلُ الدهرِ الذى يتقى به      ومنكبُهُ إن كان للدهرِ منكبُ

وقد جاء فى الحديث: موسى الله أحد وساعد الله أشد. البديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأريت على كل لسان ..... .

واتخذ ابن المعتز من «البديع» عنواناً لكتابه، وقد قال فى مقدمته: «قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع؛ ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيهم وملك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف زمانهم حتى سمي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودل عليه»<sup>(٨٩)</sup>. والأبواب التى عالجهها الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي، وهى خمسة أبواب، جعلها ابن المعتز أساس كتابه. وربما يعترض معترض على أساس أن تلك الأبواب نقل أو تكثر؛ لذلك رد على هذا الاعتراض بقوله: «قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا، وقال: البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها، فيقل من يحكم عليه؛ لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر، يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم؛ فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو، وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد، وألفت سنة أربع وسبعين ومائتين»<sup>(٩٠)</sup>.

وحين درس ابن رشيق البديع، تعرض لمصطلحين آخرين هما «المخترع» و«التوليد»، حتى يصل إلى مفهوم للبديع، قال: «وأما البديع فهو الجديد، وأصله

(٨٩) البديع: ١.

(٩٠) السابق: ٥٧ وما بعدها.

فى الحبال ؛ وذلك أن يُقتل الحبل جديداً، ليس من قوى حبل نقضت ثم فُتلت  
فتلاً آخر ..... والبديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة .... «ويذكر الأقسام الخمسة  
التي ذكرها ابن المعتز»<sup>(٩١)</sup>.

ولم يقدم السكاكى تعريفاً لعلم البديع، وإنما أشار إلى أنه قسمان: البديع  
المعنوى، ويتضح من التسمية أنه يرجع إلى المعنى والموضوعات التي تندرج تحتها هي  
المطابقة والمقابلة والمشاكلة ومراعاة النظر واللف والنشر والمزاوجة ... وسواها. والبديع  
اللفظي، ويتضح من التسمية أنه يرجع إلى اللفظ، والموضوعات التي تندرج تحتها  
التجنيس بأنواع المختلفة والسجع والترصيع وسواها<sup>(٩٢)</sup>.

وعرف الخطيب القزوينى علم البديع بأنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام  
بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. وهذه الوجوه ضربات ترجع  
إلى اللفظ والمعنى<sup>(٩٣)</sup>.

وقال عنه ابن خلدون: «النظر فى ترتيب الكلام وتحسينه بنوع من التنميق؛ إما  
بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى  
المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك»<sup>(٩٤)</sup>.

ويتضح من التعريفات السابقة أن مباحث علم البديع تنصرف إلى التعامل مع  
اللفظ والمعنى، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

١ - مما يتصل باللفظ والمعنى حديث العلماء عن المطابقة أو الطباق أو التضاد،  
وهى الجمع بين المتضادين، أى معنيين متقابلين فى الجملة. وهذا الجمع  
يأتى عن طريق:

- الاسم مع الاسم . قال تعالى: (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود)<sup>(٩٥)</sup>.

(٩١) العمدة: ١ / ١٧٥ - ١٧٨.

(٩٢) الفتح: ٤٢٣ - ٤٣٢.

(٩٣) الإيضاح: ٤٧٧.

(٩٤) المقدمة: ٥٥١.

(٩٥) الكهف / ١٨.

- الفعل مع الفعل. قال تعالى: (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء)<sup>(٩٦)</sup>.

وقال الرسول (ﷺ) للأَنْصار: «إنكم لتكثرُونَ عند الفزع وتقلون عند الطمع».

- الحرف مع الحرف: قال تعالى: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)<sup>(٩٧)</sup>.

- استعمال لفظين من نوعين. قال تعالى: (أو من كان ميتاً فأحييناه)<sup>(٩٨)</sup>: أي ضالاً فهديناه<sup>(٩٩)</sup>.

٢ - وما يتصل بالدلالة ويندج تحت «علم البديع» حديث العلماء عن «مراعاة النظرية»، وتسمى أيضاً التناسب والائتلاف والتوفيق أيضاً، وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لابل تضاد؛ قوله تعالى: (الشمس والقمر بحسبان)<sup>(١٠٠)</sup>. وقال ابن رشيقي:

أصبح وأقوى ماسمعناه في الندى من الخير المأثور منذ قديم  
أحاديث ترويه السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم  
فإنه ناسب فيه بين الصحة والقوة والسماع والخير المأثور والأحاديث والرواية،  
ثم بين السيل والحيا والبحر وكف تميم، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب  
في العنقة؛ إذ جعل الصاغر عن كابر، كما يقع في سند الأحاديث؛ فإن السيول  
أصلها المطر، والمطر أصله البحر على ما يقال، ولهذا جعل كف الممدوح أصلاً  
للبحر مبالغة<sup>(١٠١)</sup>.

وقد أطلق ابن أبي الإصبع<sup>(١٠٢)</sup> على «مراعاة النظرية» اسم «الاستقصاء» وربطه

(٩٦) آل عمران / ٢٦.

(٩٧) البقرة / ٢٨٦.

(٩٨) الأنعام / ١٢٢.

(٩٩) الإيضاح: ٤٧٨.

(١٠٠) الرحمن / ٥.

(١٠١) الإيضاح: ٤٤٨ وما بعدها.

(١٠٢) تحرير التحرير: ٢٩٠ وما بعدها.

بالدلالة ربطاً مباشراً؛ إذ إن الاستقصاء هو أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه، ومثل له بقول البحرى فى صفة الإبل الأنضاء التى أنحلها السير:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

فقد شبه الإبل بالقسي، وأراد أن يكرر التشبيه، وكان يمكن أن يشبهها - مثلاً - بالعراجين، أو نون الخط؛ لأن المعنى واحد فى الانحناء والركة ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم من ذكر القسي.

٣ - وذكر العلماء ضمن مباحث علم البديع «المشاكلة» وحين ننظر فى تعريفها نجد تتصل بالدلالة اتصالاً مباشراً؛ إذ إنها ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحتة تحقيقاً أو تقديراً؛ فالأول كقوله تعالى: (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك)<sup>(١٠٣)</sup>؛ حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى لوقوعه فى صحة نفسى. وقال الشاعر:

قالوا: اقترح شيئاً نجد له طبخة      قلت: اطبخوا لى جبةً وقميصاً  
كأنه قال: خيطوا لى والثانى نحو قوله تعالى: «صبغة الله»<sup>(١٠٤)</sup> ف (صبغة)  
مصدر مؤكد لقوله (أمنّا بالله)، ومعناها: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس  
فغير عن الإيمان بالله بـ (صبغة الله) لوقوعها فى حبة الإيمان<sup>(١٠٥)</sup>.

٤ - اهتم العلماء بالحديث عن حسن الخروج أو الاستطراد<sup>(١٠٦)</sup> والمقصود به أن يأخذ المتكلم فى معنى، وقبل أن يتمه يأخذ فى معنى، ومن أمثله قول حسان بن ثابت:

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى      فنحوت منحى الحارث بن هشام  
ترك الأحبة أن يقتاتل دونهم      ونجنا برأس طمرة ولجام

(١٠٣) المائدة / ١١٦ .

(١٠٤) البقرة / ١٣٨ .

(١٠٥) الإيضاح : ٤٩٣ وما بعدها .

(١٠٦) انظر كتاب البديع لابن المعتز ٦٦؛ إذ إنه أطلق على «الاستطراد» اسم «حسن الخروج» .

فالبيت الأول يبدأ بالشرط بـ «إن» ولم يأت حسان بالجواب ولكنه استطرده وأحسن الخروج، فأخذ يحكى هذا الذى فعله الحارث بن هشام، أى إنه خرج من الغزل إلى هجاء الحارث بن هشام.

وبعد فإن مصطلحات العلوم الثلاثة: البيان والمعاني والبدیع ترتبط فى مجملها بالتركيب اللغوى من حيث الأصوات والتركيب والدلالة؛ لذلك حق للمرحوم أستاذنا الدكتور السيد أحمد خليل أن يطلق على تلك العلوم الثلاثة اسم «علم الجمال اللغوى». قال: «ونحن لا يهمنا من هذا العلم «يقصد علم الجمال بصفه عامة» فى حديثنا، أو بعبارة أدق فيما يتصل بالجانب اللغوى الذى نقول فيه، سوى علم الجمال اللغوى، إذ صبح أن نسميه بهذه التسمية. ويظهر أن القدماء من علمائنا أحسوا أو شعروا بضرورة أن يكون لهذا الجانب من دراسة علم الجمال تسمية خاصة به، وإن كانوا قد أسرفوا فى هذه التسمية، فسموا ما يتصل بالعمل الجمالى الخاص بالتركيب، بملاحظة حال المخاطب، علم المعاني. وسموا التصرف فى فنون القول وضروبه للتعبير عن الفكرة التى يراد أدائها بعلم البيان، كما سموا أنواع الزخرف التى يصطنعها الأدباء بعلم البديع، وهذه التسميات جميعها تشكل تحديداً إصلاحياً لعلم الجمال اللغوى<sup>(١٠٧)</sup>.

ونختم هذا العرض بمحاولة ربط بعض مصطلحات العلوم الثلاثة التى تشكل علماً واحداً هو «علم الجمال اللغوى» ببعض مصطلحات علم اللغة الحديث.

#### - ٨ -

تتصل المصطلحات البلاغية، فى بعض جوانبها بـ «اللغة المنطوقة» spoken language، ومن بين خصائص تلك اللغة وجود حوار بين شخصين أو أكثر، وقد تنبه علماء البلاغة إلى ذلك ولفتوا إليه حين تحدثوا عما أسموه «المراجعة»<sup>(١٠٨)</sup>؛ وهى أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ومحاورة فى الحديث جرت بينه وبين

(١٠٧) دراسات فى القرآن : ٣١.

(١٠٨) أطلق الرازى على المراجعة عبارة «السؤال والجواب». انظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز :

غيره، بأوجز عبارة وأرشق سبك وأسهل لفظ إما في بيت واحد أو في أبيات أو جملة واحدة<sup>(١٠٩)</sup>، ومن أمثلتها قول عمر بن أبي ربيعة:

بينما ينعتننى أبصرننى      مثل قيد الرمح يعدو بى الأغسر  
قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى؟      قالت الوسطى لها: هذا عمر  
قالت الصغرى وقد تيمّتها      قد عرفناه. وهل يخفى القمر؟

والحوار ها هنا بين ثلاث فتيات، حددهن عمر بالكبرى والوسطى والصغرى، ويمكن تنظيم الحوار على النحو الآتى:

الكبرى: ترى من ذا الفتى؟

الوسطى: هذا عمر.

الصغرى: قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

وقد بدأ الحوار بسؤال للكبرى، وكانت إجابته عند الوسطى، وجاءت الصغرى لتؤكد على الإجابة. وورد مثل هذا الحوار في أبيات لأبي نواس وهى قوله:

قال لى يوماً سليمانُ وبعض القولِ أشنعُ  
قال : صفنى وعليّا، أينما أبقى وأنفعُ  
قلت : إنى إن أقل ما فيكما بالحق تجزعُ  
قال : كلا، قلت : مهلاً، قال : قل، قلتُ فاسمع  
قال : صفهُ، قلت : يعطى، قال : صفنى، قلت : تَمَنّعُ

ويمكن تنظيم ما فى تلك الأبيات من حوار على النحو الآتى:

سليمان: صفنى وعليّا؛ أينما أبقى وأنفع؟

أبو نواس: إنى إن أقل ما فيكما بالحق تجزع

سليمان: كلا

أبو نواس: مهلاً.

سليمان: قل.

أبو نواس: فاسمع

سليمان: صفه

أبو نواس: يعطى

سليمان: صفنى

أبو نواس: تمنع.

وهذا الاهتمام من قبل البلاغيين العرب بالحديث عن «المراجعة» أو «السؤال والجواب» له رواج خاص فى الدراسات اللغوية؛ إذ إن هناك مبحثاً يطلقون عليه اسم «تحليل الخطاب» discourse analysis، ومن بين اهتماماته تتبع اللغة الخاصة بـ «المحادثة» conversation، والسياق الاجتماعى الذى يؤثر فيها والعوامل التى تؤدى إلى نجاحها أو فشلها؛ وذلك كأن يحتاج المشاركون فيها إلى الإحساس بأنهم يساهمون بشئ فيها، ويجدون شيئاً خارجاً عنها فى الوقت نفسه. وأصبحت عبارة Conversation Analysis لها استخدام يفيد الدلالة على تحليل التركيب النحوى للمحادثة.

وما يتصل باللغة المنطوقة وجود بعض المصطلحات البلاغية المتصلة بالأداء الصوتى، وهناك الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك، ومن بينها حديث العلماء عن «السجع» وهو اتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير. والفاصلة هى الكلمة الأخيرة من كل فقرة، وذلك كقول الثعالبي: «الحقد صدأ القلوب، واللحاج سبب الحروب». والسجع فى الشعر اتفاق الفواصل فى القافية فى البيت من الشعر؛ وذلك كقول أبى تمام:

تجلى به رشدى وأثرتْ به يدى      وفاضَ به نمدى وأورى به زندى

ويتصل بالسجع ما أطلقوا عليه اسم «السجع المرصع» الذى تتساوى الفقرتان أو أكثر ما فيهما فى الوزن والتقفية، كقول امرئ القيس:



الماء منهمرّ والشدّ منحدر والقصب مضطمر والمتن ملحوب  
 فلفظ «ملحوب» مختلف عن منهمر ومنحدر ومضطمر، في الوزن والتقفية،  
 غير أن أكثرها في فقر البيت وقال الحريري: «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه،  
 ويقرع الأسماع بزواجر وعظه». ويمكن بيان الكلمات المتساوية والعبارات المتفقة  
 كما يأتي:

يطبع ويقرع —————، يفعل  
 الأسجاع والاسماع —————، الأفعال  
 جواهر وزواجر —————، فواعل  
 لفظ ووعظ —————، فعل

وتحدثوا عن «السجع المطرف» وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان في الوزن كقوله  
 تعالى: (المكلم لآترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً)<sup>(١١٠)</sup> فإن «وقاراً» و«أطواراً»  
 مختلفتان وزناً كما يأتي:

وقار —————، فَعَال  
 أطوار —————، أَفْعَال

ولكنهما متفقتان في الانتهاء بصوت الراء.

ومن المصطلحات البلاغية المتصلة بالأداء الصوتي «التطريز»<sup>(١١١)</sup> الذي عرفوه  
 بأن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن قال أبو تمام:

أعوام وصلّ كاد ينسى طولها      ذكر النوى فكأنها أيام  
 ثم انبرت أيام حجر أردفت      نجوى أسى فكأنها أعوام  
 ثم انقضت تلك السنون وأهلها      فكأنها وكأنهم أحلام  
 والكلمات: أيام وأعوام وأحلام وزنها الصرفى واحد هو «أفعال».

(١١٠) : نوح / ١٤.

(١١١) الطراز: ١٥٣/٢.

ويتصل حديث البلاغيين عن «السجع» و«التطريز» بما فى الدرس الصوتى من عرض لما يتصل بمصطلح Harmony ، والمقصود به التناغم والتألف فى الأصوات حين النطق، ويكون هذا فى الكلمة المفردة والعبارة، مما يؤدى إلى حسن الوقع فى السمع.

واهتم علماء البلاغة باللفظ والمعنى، يدلنا على ذلك تلك المصطلحات الخاصة بهما؛ فقد أشاروا إلى «المساواة»، ويقصد بها حين الأداء اللغوى أن يكون مساوياً للمعنى حتى لايزيد عليه ولاينقص عنه، وهذه هى البلاغة التى وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه؛ أى هى مساوية لها لايفضل أحدهما على الآخر. وهناك عدة شواهد لها كقوله تعالى: (ولايحق المكر السى إلا بأهله)<sup>(١١٢)</sup> وقوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره)<sup>(١١٣)</sup>.

وقال النابغة:

فإنك كالليل الذى هو مُدركى وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقال زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خَلِقة وإن خالها تخفى على الناس تعلّم

ويتصل بتلك المساواة حديثهم عن، «الاقتصاد» فى التعبير، ومعناه أن يكون المدرج تحت العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه مساوياً له من غير زيادة فيكون إفراطاً ولاقتصاداً فيكون تفریطاً<sup>(١١٤)</sup>.

ويرتبط هذا الحديث عن المساواة والاقتصاد بمصطلح له دلالة مغايرة فى الدرس اللغوى وهو redundancy إذ إنه يشير إلى أن «الموقف الكلامى» يتضمن أحياناً الكثير من الألفاظ والعبارات والمعلومات التى يمكن الاستغناء عنها، مع

(١١٢) فاطر / ٤٣

(١١٣) الأنعام/ ٦٨.

(١١٤) الطراز: ٧٣/٣.

وضوح الدلالة في الوقت نفسه، ويعود هذا الاستخدام للحشو إلى مقدرتنا على تكوين إسنادات أكثر من طبيعة الكلام، معتمدين في ذلك على خبرتنا اللغوية الواضحة في التعبير ومعرفتنا بالمتكلم ومادة الموضوع.

وإذا كان البلاغيون قد تحدثوا عن المساواة والاقتصاد في التعبير؛ فإن هناك ما أطلقوا عليه مصطلح «الاحتباس» ومفهومه أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه فيه دخل؛ أى شبهة، فيفطن لذلك حال العمل فيأتي بما يخلصه من ذلك. ومن أمثله قوله تعالى: (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)<sup>(١١٥)</sup> فقوله تعالى: «من غير سوء» احتباس من البرص وغيره. ومن أمثله في الشعر العربي قول الخنساء في أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكيين حولي      على إخوانهم لقتلت نفسي  
وما يكون مثل أخى ولكن      أعزى النفس عنه بالتأسي

فالخنساء تخيلت أن هناك من يظن مساواة أخيها لغيره من الهالكين، فلجأت إلى هذا الاحتباس الدلالي خلال تركيبيين «وما يكون مثل أخى» و «أعزى النفس عنه بالتأسي».

وقد اهتم البلاغيون بدراسة الزيادة التي بها يتم المعنى، والمقصود بالزيادة هنا إضافة بعض المفردات أو التراكيب النحوية التي تؤدي إلى إزالة اللبس أو الغموض الذي يصيب الدلالة، ومن أمثله التركيب «غير مفسدها» في بيت طرفة بن العبد:

فسقى ديارك غير مفسدها      صوب الربيع وديمة تهمل  
ولعله من المفيد الإشارة إلى اهتمام الدرس اللغوي الدرس اللغوي بالحديث عن «اللبس» ambiguity الذي ينشأ عن احتمال المفردات أو التراكيب النحوية لمعان متعددة؛ فهو يتصل بالنحو والدلالة.

والذي بلغت النظر تعمد بعض الشعراء للإبهام في شعرهم؛ بل إن هناك مصطلحاً بلاغياً هو «الإبهام»، وقد عرفه ابن أبي الإصبع بأن يقول المتكلم كلاماً

يحتمل معنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك؛ بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً، ومن أمثلته قول محمد بن حازم:

بارك الله للحن      ولبوران فلى الختن  
يا إمام الهدى ظفرت      ولكن ببنت من<sup>(١١٦)</sup>

والتركيب النحوي «بنت من» يحتمل نوعين من الدلالة كل واحدة منهما عكس الأخرى تماماً، وهما المدح والذم.

وإذا كان ابن أبي الإصيص قد تحدث عن «الإبهام» حسب؛ فإن يحيى العلوى تحدث عن «الإبهام» والتفسير<sup>(١١٧)</sup> وقد شرحها بقوله: «إن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهماً فإنه يفيد بلاغة ويكسبه إعجاباً وفخامة؛ وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب، ومصدق هذه المقالة قوله تعالى: (وقضينا إليه ذلك الأمر)<sup>(١١٨)</sup> ثم فسر بقوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين)، وهكذا في قوله تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما)<sup>(١١٩)</sup> فأبهمه أولاً، ثم فسر بقوله: (بعوضة فما فوقها).

ومن المصطلحات البلاغية المتصلة بالأداء اللغوي «النزاهة» ويقصدون بها نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفحش حتى يكون الهجاء كما قال أبو عمرو بن العلاء: «تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح عليها». والذي دفع أبا عمرو إلى هذا أن بعض الشعراء يستعمل أحياناً ألفاظاً تؤدي إلى الفحش في القول، ولكن يمكن ذبوع هذا الهجاء وانتشاره، ويمكن أيضاً أن تنشده العذراء في خدرها إذا كانت ألفاظه بعيدة عن هذا الفحش منزهة عنه.

---

(١١٦) تحرير النحير: ٣٠٥.

(١١٧) الطراز: ٢، ٧٨.

(١١٨) الحجر: ٦٦.

(١١٩) البقرة: ٢٦.

وهذا الذى نصح به البلاغيون الشعراء بالابتعاد عنه حين الهجاء يمكن ربطه بما فى الدرس اللغوى من حديث عن ألفاظ «اللامساس» taboo وهى مجموعة من المحظورات اللغوية الخاصة ببعض الصيغ والكلمات المرفوضة من المجتمع لما لها من إيحاءات غير محبوبة، ولاتقبلها النفس الإنسانية.

ويقول أولمان: «ويطلق (اللامساس) على كل ما هو مقدس أو ما يحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب خفية، سواء أكان ذلك إنساناً أم كلمة أم شيئاً آخر، فإذا ما اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى، وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية فهى معروفة فى كل البيئات، وفى كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة»<sup>(١٢٠)</sup>.

وإذا استعمل الشاعر ألفاظ اللامساس فى هجائه؛ فإن الاستهجان وعدم القبول هو نصيبه من هجائه بالإضافة إلى عدم ذبوعه وانتشاره على الألسنة وقد أثار قدامة ابن جعفر إلى أهمية الابتعاد عن الفحش، والنظر فيما يتصل بالفضائل . قال:

«ومن خبث الهجاء.....

إن يغدروا أو يفجروا أو ييخلوا لا يحلفوا

يفغدا عليك مرجلين كأنهم لن يفعلوا

فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعدد أصداد الفضائل على الحقيقة فيهم؛ لأن الغدر ضد الوفاء، والفجور ضد الصدق، واليخل ضد الجود، ثم أتى - بعد ذلك - بضد جل الفضائل وهو العقل؛ حيث قال:

يفغدا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال الجهل والبهيمية والقحة التى هى من عمى القوة المميزة.....<sup>(١٢١)</sup>.

(١٢٠) دور الكلمة فى اللغة: ١٩٣

(١٢١) نقد الشعر: ٩٣ وما بعدها.

ونختتم هذا العرض الذى نحاول فيه التعرف على الصلة بين بعض المصطلحات البلاغية ومصطلحات علم اللغة بالتوقف أمام «السياق» context .

يؤدى «السياق» دوراً مهماً فى الحكم على العمل الفنى، وهو يسمح للمتكلم بالحرية فى استخدام الألفاظ والتصرف فى معانيها وتركيبها النحوى، وقد تنبه البلاغيون إلى أهميته حين التعريف ببعض المصطلحات. وهناك الكثير من التطبيقات على المصطلحات النظرية التى عرفوا بها وتوضح تلك المصطلحات دور السياق فى الأداء اللغوى وبيان «كفاءة» competence المتكلم؛ فقد تحدث البلاغيون عما أسموه «المجاورة» ويقصدون بها تردد لفظتين فى البيت ووضع كل واحد منهما بجانب الأخرى أو قريباً منها، من غير أن تكون إحداها لغوياً لا يحتاج إليها، كقول أبى تمام:

إنا أتيناكم نصور مآرباً يستصغر الحدث العظيم عظيمها<sup>(١٢٢)</sup>

فقد استخدم لفظة «عظيم» مرتين، ولم يكن هذا الاستخدام سيئاً أو لغوياً على الرغم من وقوع اللفظتين متجاورتين، والذى ساعد على ذلك التركيب النحوى لبيت الشعر؛ فإن أبا تمام استخدم «العظيم» فى المرة الأولى صفة، وفى الأخرى فاعلاً، مع الاختلاف فى تعريفها:

العظيم —————، معرفة بالألف واللام

عظيمها —————، معرفة بالإضافة

ومما يتصل بالسياق حديث علماء البلاغة عما أسموه «التفريق» وهو إظهار التباين بين أمرين من نوع واحد كقول رشيد الدين الوطواط:

ما نوال الغمام وقت ربيع      كنوال الأمير وقت سخاء  
فنوال الأمير بدرة عين      ونوال الغمام قطرة ماء

وحين ننظر فى البيتين نجد الشاعر قد استخدم لفظة «نوال» أربع مرات مضافة إلى «الغمام» و«الأمير» وعلى الرغم من وقوعها ثلاث مرات مبتدأ فإن الشاعر

استطاع خلع بعض الأحكام على نوعي النوال معتمداً على السياق كما يأتي :

نوال الغمام ———، قطرة ماء

نوال الأمير ———، بدرة عين

وحدد وقت النوال كما يأتي

نوال الغمام ———، وقت ربيع

نوال الأمير ———، وقت سخاء

ونلاحظ أن الشاعر لجأ إلى الإضافة مع لفظة «وقت» ؛ فهي مضافة إلى «ربيع» و«سخاء» .

وإذا كان البلاغيون قد اتخذوا عن التفريق، فإن هناك مبحثاً يدور حول «الجمع مع التفريق» ويعرفونه بأنه يشبه شيئين بشئ واحد، ثم يفرق بين وجهي المشابهة بينهما؛ فقد قال الوطواط :

فوجهك كالنارِ في ضوئها      وقلبي كالنارِ في حرها  
فقد شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار، ولكن وجه الشبه في التشبيه الأول الضوء، وفي الثاني الحر<sup>(١٢٣)</sup> .

وعرضوا لـ «الجمع مع التقسيم» والمقصود بذلك وجود متعدد يصدر عليه الشاعر حكماً ثم يلي ذلك ما لكل جزء على حدة، فقد قال المتنبي :

حتى أقام على أرباضٍ خرسنة      تشقى به الرومُ والصلبانُ والبيعُ  
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا      والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

والتقسيم الذي ورد يمكن تنظيمه كما يأتي :

للسبي ———، ما نكحوا

للقتل ———، ما ولدوا

للنهب —————، ماجمعوا

للنار —————، ما زرعوا

والذى اشترك فيه هذا كله الشقاء.

ويؤدى السياق دوراً مهماً فى إضفاء الجمال على الكلمة. قال عبد القاهر: «وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك فى موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر، كلفظ «الأخدع» فى بيت الحماسة:

تلفتُ نحو الحى حتى وجدتنى      وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخذعا  
وبيت البحترى:

وإنى وإنْ بُلغتنى شرفَ الغنى      وأعتقتُ من رِقِّ المطامعِ أهدعى  
فإن لها فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام:

يا دهرُ قومٍ من أهدعيك فقد      أضججتَ هذا الأنام من خرقك  
فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإناس والبهجة<sup>(١٢٤)</sup>.

وقد تطورت الدراسات اللغوية فى السنوات الأخيرة تطوراً مهماً حين ظهر فى حقل تلك الدراسات مصطلح Pragmatics، ونحاول التعريف به لبيان دوره فى السياق الخاص بالنص الأدبى. ولكن قبل الدخول فى هذا التعريف نشير الى أن من بين الترجمات المقترحة له «التداولية»، ولكنها لا تعطى الدلالة الحقيقية لمفهومه لذلك يمكن الاكتفاء بتعريبه «البراجماتية»<sup>(١٢٥)</sup>.

(١٢٤) الدلائل : ٤٦ وما بعدها؛ وانظر ما كتبه حازم القرطاجنى عن القوى العشر التى تؤدى إلى التمكن من «النظم» منهاج البلغاء ١٩٩ وما بعدها.

(١٢٤) انظر:

-The Cambridge Encyclopedia of Language, P.P. 120-121.

- Levinson, Pragmatics, P.1.



أصناف من الألفاظ  
التي لها دلالة اجتماعية

تهتم البراجماتية بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة وتأثير هذا الاختيار في الآخرين؛ إذ إننا من الناحية النظرية نستطيع أن نتكلم بأى شئ نجه، ولكن من الناحية العملية هناك قدر ضخم من القوانين والأعراف الاجتماعية التي تقيد الطريقة التي نتكلم بها؛ فعلى سبيل المثال لا يوجد قانون يحتم على الشخص ألا يقول نكتة أو قفشة أثناء إحدى الجنائز، ولكن هذا لا يحدث على وجه العموم، وهنا يظهر دور القوانين والأعراف الاجتماعية التي تمنع هذا وتقيده. ومن أمثلة ذلك أيضاً وجود معايير للشكليات والأدب نعرفها بالبدية، وتحكم تلك المعايير حديثنا مع من هم أكبر سناً منا، أو مع الجنس الآخر .... وهكذا.

وتؤدى العوامل البراجماتية دوراً مهماً في اختيارنا للأصوات والتراكيب النحوية والمفردات من داخل اللغة نفسها. فاللغات - مثلاً - تختلف فيما بينها حين استعمال الألفاظ والعبارات الخاصة بالشكليات والذوق العام والأدب، وتؤدى بعض الألفاظ إلى مفهومات مغايرة تماماً لمفهومها في لغات أخرى، ويمثلون لذلك ببعض المفردات والعبارات من اللغتين الإنجليزية والفرنسية؛ فإذا قال لك أحد الأشخاص: Would you like some more cake? فإن الإجابة بقولنا Thank you معناها Yes بينما قولنا بالفرنسية merci معناها No.

وللبراجماتية صلتها بعدة موضوعات لغوية؛ لذلك يمكن دراسة تلك الموضوعات في ضوء الصلة فيما بينها، وهي كما يأتي:

موضوعات

- ١ - علم الدلالة Semantics .
- ٢ - علم الأسلوب Stylistics .
- ٣ - علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics .
- ٤ - علم اللغة النفسي Psycholinguistics .
- ٥ - تحليل الخطاب Discourse Analysis .

وبعد هذا العرض الذى حاولنا فيه التعرف على العلاقة بين المصطلحات البلاغية والأداء اللغوى نتوقف بالحديث عن «علم الجمال الصوتى» ، وهو موضوع الفصل التالى .

## الفصل الثالث

### علم الجمال الصوتي



اللغة عبارة عن مجموعة من الأصوات التى تشكل فيما بينها لتكوّن الكلمات، ومن مجموع تلك الكلمات تنتج الجمل التى يجب أن يكون لكل واحدة منها معنى مفيد حتى تصلح لأن نطلق عليها اسم « الجملة ». وقبل الخوض فى الحديث عن « علم الجمال الصوتى » هناك بعض الأمور التى نريد التأكيد عليها وذلك خلال النقاط الآتية:

- ١- الصوت يقابل الحرف عند القدماء من العلماء العرب؛ فالهمزة - مثلاً- صوت، وليست حرفاً، لأن الحرف هو القسم الثالث من أقسام الكلمة، وإن كنا سنجاءى القدماء فى استعمال الحرف للدلالة على الصوت فى بعض الأحيان.
- ٢- كلمة « عين » - مثلاً - يمكن تصنيفها نحوياً على أنها حرف من حروف الجر، وهو مختص بالأسماء حسب، وهو مكون من صوتين: العين والنون.
- ٣- لا يوجد صوت جميل وآخر قبيح؛ لذلك من الخطأ أن نحكم على أى صوت مفرد بالجمال أو القبح؛ فالدال - مثلاً - ليست بأجمل من الجيم، ولا الصاد بأجمل من الطاء... وإنما يرد هذا إلى التركيب النحوى أو بناء الجملة.
- ٤- ليس المقصود بالحديث عن علم الجمال الصوتى دراسة الجمال فى الصوت المفرد، بل هناك بعض الظواهر الصوتية التى تساعد فى الجمال حين الأداء اللغوى، وتلك الظواهر جزء من السياق العام.

واهتم القدماء من علماء النقد والبلاغة بالجمال حين الأداء الصوتى، والدليل على ذلك ما أشاروا إليه من قلة عدد الحروف، وسهولة المخرج والسلامة من التكلف، والطلاقة حين التعبير، وكلها تتصل بالأداء اللغوى فى جانبه المتصل بالأصوات. وقد كان هذا واضحاً عند المعتزلة، ومن أمثلة ذلك ما قاله ثمامة بن أسرس (ت ٢١٣هـ) عن جعفر بن يحيى من أنه كان « أنطق الناس » ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة. وقال مرة : ما رأيت أحداً كان لا يتحس ولا يتلجلج ولا يتنحج ولا

يرتقب لفظاً قد استدعاء من بُعد ولا يلتبس التلخص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى، وتلك الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ثمامة قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمت - كما يقول الجاحظ - أنه كان في زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه. ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك. قال بعض الكتاب معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه كما وصف الخريبي شعر نفسه في مديح أبي دلفٍ حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف<sup>(١)</sup>

ومن هنا فقد مدح النقاد والبلاغيون الأداء الصوتي vocal performance الذى يتسم بالجمال، ونوه بذلك الشاعر فى قوله:

ألا رب صوت رائع من مشوه قبيح المحيا واضع الأب والجيد  
يروعك منه صوته ، ولعله إلى أمية يعزى معاً وإلى عبء

ويؤدى هذا الجمال الصوتي إلى سرعة دخول المعنى للقلب والعقل ؛ لأن الأذن تلذذ وترتاح إليه ؛ لذلك يقول ابن قيم الجوزية ( ت ٧٥١ هـ ) :

« إن التذاد الأذن بالصوت الطيب كالتذاد العين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح الطيبة، والغم بالطعوم الحسنة. ويقول أيضاً: « إن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة المحمولة فيهبون عليه الهداء» ثم يشير ابن القيم إلى أن الصوت الطيب نعمة من العلى القدير على صاحبه، وزيادة في خلقه ؛ لذلك ذم - سبحانه - الصوت الفظيع فقال: ( إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)<sup>(٢)</sup>، ووصف - سبحانه - نعيم أهل الجنة فقال فيه: ( فهم فى روضة

(١) البيان والتبيين: ١٠١/١ وما بعدها.

(٢) الزمزم ١٥١.

ك  
نوا  
مس

يحبرون<sup>(١)</sup>، وهو السماع الطيب في الجنة<sup>(٢)</sup>.

وحين ننظر في اللحن العربي للكلام نجد أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الواسع، والمتوسط، والضيق. والواسع ما نتيجة إثارة أقوى للأوتار الصوتية بواسطة الهواء المندفِع من الرئتين، فيسبب ذلك اهتزازاً أكبر في الأوتار الصوتية ومن ثم يعلو الصوت. ومن أمثلة استعماله الخطابة والتدريس لأعداد كبيرة من الطلاب والصباح الغاضب ونحو ذلك. والمتوسط يستعمل للمحادثات العادية وهو أقل تطبلاً لكمية الهواء وما يصحبها من علو صوت. وأما الضيق فهو المستعمل في العبارات البائسة الحزينة وفي الكلام بين شخصين يحاولان ألا يسمعا ثالث على بُعد قليل منها. فالسعة والتوسط والضيق تتصل باصطلاحات علو الصوت وانخفاضه هنا<sup>(٣)</sup>.

وقد ربط القدماء من العلماء العرب الأداء العربي للكلام الذي يتصل بطبقة الصوت من حيث العلو والانخفاض بالحالة التي عليها المتكلم من حيث الغضب أو الخوف أو الحزن أو غير ذلك، ويأتى على رأس أولئك فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) الذي قال: «إننا نشاهد الإنسان حال استيلاء الغضب عليه يصير صوته صوتاً غليظاً جهيراً، وعند استيلاء الخوف يصير صوته حاداً غليظاً». وقد علل ذلك بأنه عند استيلاء الغضب عليه تخرج الحرارة الغريزية من الباطن إلى الظاهر فيسخن ظاهر البشرة، والحرارة توجب توسيع المنافذ وتفتيح السدد في آلات الصوت، وهذه الأحوال توجب صيرورة الصوت ثقيلاً غليظاً، وأما عند الخوف فإن الأمر يكون بالعكس من ذلك، وذلك يوجب صيرورة الصوت حاداً خفيفاً. وإذا عرفت الكلام في هذين المثالين فاعتبر في سائر الأحوال، فإذا ضبطنا الأحوال النفسانية ثم تأملنا أن الحادث عند حدوث كل نوع منها أى أنواع الأصوات علمنا حينئذ أن بين تلك الحالة النفسية وبين ذلك الصوت المخصوص مناسبة واجبة وملازمة تامة<sup>(٤)</sup>.

(١) لقحان / ١٩.

(٢) مدارج السالكين: ٥٢١/١ وما بعدها.

(٣) الدكتور تمام حسان: اللغة العربية معناها ومينها ٢٢٩.

(٤) كتاب الفراسة: ١١٠

ولعله مما يتصل بالحديث عن حالة المتكلم وعلاقتها بطبيعة الصوت توقف الرازى أيضاً أمام العلاقة بين درجة الصوت أو طيفته والصفة التى عليها الجهاز التنفسى للإنسان، وتوقفه كذلك أمام دلالة الصوت على ما يتمتع به صاحبه من صفات. قال: «الصوت العظيم يدل على قوة الحرارة، فإن الحرارة توجب توسيع قصبه الرئة، وتوسيعها يوجب عظم النفس ( بفتح الفاء )، وتوجب سعة الصدر، وذلك يوجب الشجاعة، فالصوت العظيم الغليظ يدل على الشجاعة. أما الصوت الصغير الرقيق فذلك ربما يكون لضيق الحنجرة، وذلك إنما يحصل عند البرد، وذلك يوجب صغر النفس وضيق الصدر، وذلك من علامات الضعف. أما الصوت الصافى فإنه يدل على اليس، والصوت الذى يكون معه بحة، وكلما تكلم صاحبه جرت معه فضول فى مخرجه، فذلك يدل على رطوبة الرئة. أما الصوت الأملس فقال بعضهم إنه يدل على الاعتدال؛ لأن ملاسة الصوت تابعة للملاسة قصبه الرئة، وملاستها تابعة لاعتدالها، وخشونة الصوت تابعة لخشونة القصبه، وخشونة القصبه تابعة ليبسها، وإنما تصير قصبه الرئة يابسة من قبل يبس الأعضاء البسيطة التى تركبت القصبه منها<sup>(١)</sup>».

وبعد هذا الحديث عن الأداء العربى للكلام وصلته بالحالة التى يكون عليها الإنسان نشير إلى أن «الصوت» هو آلة اللفظ، وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف<sup>(٢)</sup>. وقد اهتمت العرب بالألفاظ التى هى عبارة عن مجموعة من الأصوات المفردة؛ فإنها؛ أى الألفاظ، لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميتها، أصلحوها ورتبوها، وبالغوا فى تخييرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها فى السمع، وأذهب بها فى الدلالة على القصد؛ ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لذ سامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها

(١) السابق: ١٢٠

(٢) البيان والتبيين: ١٠ / ٨٠.



باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله<sup>(١)</sup>.

وقد أدى اهتمام العرب بألفاظها إلى تحقق الوزن في الكثير من الكلام المنشور الذي يتعاملون به في حياتهم اليومية، ولكنه ليس شعراً. وقد لفت إلى هذا الجاحظ في قوله: « اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل: مستفعلن فاعلن كثيراً، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صاح: مَنْ يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن: مستفعلن مفعولان! فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيا في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً... » وسمعت غلاماً لصديق لي، وكان قد سقى بطنه<sup>(٢)</sup> يقول لغلمان مولاه: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد أكتوى. وهذا الكلام يخرج وزنه: فاعلاتن مفاعلن، مرتين. وقد علمت أن الغلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبداً، ومثل هذا كثير لو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته<sup>(٣)</sup>.

وهناك الكثير من الموضوعات التي عرفتها البلاغة ويمكن دراستها في ضوء ما يتصل بالجمال في الأصوات، ونبدأ بالحديث عن:

(١) الخصائص: ٢١٥/١ وما بعدها.

(٢) سقى بطنه: يعنى أصابه مرض بالاستسقاء.

(٣) البيان والتبيين: ٢٣٥/١

(١)

### أوزان الشعر العربي

من الموضوعات المتصلة بعلم الجمال الصوتي « الأوزان » لذلك يقولون عن الوزن إنه أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة؛ بل إنهم عرفوا الشعر بعدة تعريفات من بينها أنه الكلام الموزون المقفى الدال على معنى ويؤدى إلى الجمال الفنى مع تحقيق الموسيقى التى يحسها كل من المتكلم والمستمع، أو المبدع والمتلقى. ومن هنا يقول الدكتور إبراهيم أنيس: « فالشعر جاء منذ القدم موزوناً مقفى، والشعر لا يزال فى جل الأمم موزوناً مقفى، نرى موسيقاه فى أشعار البدائيين وأهل الحضارة، ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء. فليحاول النقاد ما شاءت لهم المحاولة التفتيش عن كل أسرار الشعر، وليصوروا لنا ما شاء لهم التصوير، وليكشفوا لنا عما قد يكون فيه من أخيلة واستعارات وتشبيه ومجاز، وليؤلفوا من مثل هذا علماً أو فناً للناس، غير أنا نطمح منهم أن يضعوا موسيقى الشعر فى محلها الأسمى؛ وألا يقرنوها بشئ آخر قد يعثرون عليه فى بعض الأشعار، أو يتعثرون فى البحث عنه والتنقيب، فليس الشعر فى الحقيقة إلا كلاماً موسيقياً تنفعل لموسيقاه النفوس، وتتأثر بها القلوب»<sup>(١)</sup>

ولقد توقف الدكتور محمد مندور أمام « الشعر الغنائى » والدور الذى تؤديه الموسيقى؛ حتى إن بعض النقاد جعل الشعر موسيقى قبل أى شئ آخر. قال: « إذا كان هذا النوع من الشعر ( الغنائى ) قد تطور فى الشرق والغرب من الغناء إلى الإنشاد، بل إلى القراءة الصامتة؛ فإن العنصر الموسيقى المتمثل فى الوزن والإيقاع والانسجامات الصوتية لا يزال بالغ الأهمية فى هذا الشعر، بل أخذت أهميته تزداد فى أواخر القرن التاسع عشر حتى رأينا الرمزيين يقولون: إن الشعر موسيقى قبل كل شئ، وإن العنصر الموسيقى فيه يبد فى الأهمية المعانى والعواطف والصور الشعرية

ذاتها، باعتبار أن الموسيقى هي أقوى أداة للإيحاء، والشعر عندهم إيحاء أكثر منه تعبيراً لغوياً صريحاً واضحاً<sup>(١)</sup> ومن هنا فقد كان من أقدم تعريفات الشعر عند العرب أنه قول موزون مقفى على نحو ما أشرنا، وقد انتقل ذلك التعريف من أدب عربي إلى آخر حتى عصرنا الحديث؛ فدار حوله صراع عنيف يدل فيما يدل على أنه مازال يحتفظ بسلطانه. ولست أريد أن أبعد في البحث عن تفسير لهذا التعريف، بل أقصد عامداً إلى زمن قريب<sup>(٢)</sup>، فأجد الشاعر العراقي الرصافي يقول: «إن الغناء والرقص غريزتان من غرائز الإنسان، كما أن النطق غريزة فيه. وما الشعر إلا وليد هاتين الغريزتين فإن النطق - وهو أسنى مظهر من مظاهر الشعور - لما اقترن بالغناء تولد الشعر. فالشعر لا يقال إلا لينشد، وبعبارة أخرى ليتغنى به. فلا بد فيه من الوزن والقافية؛ لأن الغناء نغم وإيقاع، وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازنة من الكلام»<sup>(٣)</sup>.

وقد اهتمدى الخليل بن أحمد إلى علم لم يسبق إليه، يختص بأوزان الشعر العربي، وهو «علم العروض» الذي عرّفه الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) بقوله: «اعلم أن العروض ميزان الشعر، بها يعرف صحيحه من مكسوره، وهي مؤنثة، وأصل العروض في اللغة الناحية، من ذلك قولهم: أنت معي في عروضي لا ثلاثيني؛ أي في ناحية. قال الشاعر (عبد الله بن الحجاج):

فإن يُعرض أبو العباس عنى  
ويركبُ بي عروضاً عن عروض

ولهذا سميت الناقاة التي تعترض في سيرها عروضاً؛ لأنها تأخذ في ناحية دون الناحية التي تسلكها، فيحتمل أن يكون سُمي هذا العلم عروضاً؛ لأنه ناحية من علوم الشعر. وقيل: يحتمل أن يكون سُمي عروضاً؛ لأن الشعر معروض عليه، فما

(١) فن الشعر: ٢٢.

(٢) الدكتور حسين نصار: القافية في العروض والأدب: ٣٣.

(٣) الدكتور أحمد مطلوب: النقد الأدبي الحديث في العراق ٢٣٠

وافقه كان صحيحاً، وما خالفه كان فاسداً<sup>(١)</sup>. ومن هنا فإن علم العروض في اصطلاح المشتغلين به هو ميزان الشعر العربي الذي يعرف به صحيح الأوزان وفاسدها والمنكسر منها، وما يدخل تلك الأوزان من الزخافات والعلل.

وقد حصر الخليل بحور الشعر العربي في خمسة عشر بحراً هي: الطويل، المديد، البسيط، الوافر، الكامل، الهزج، الرجز، الرمل، السريع، المنسرح، الخفيف، المضارع، المقتضب، المجتث، المتقارب. وهناك بحر زاده الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة) وهو «المتدارك» الذي يطلق عليه أيضاً اسم المحدث والمخترع، وبذلك تصبح بحور الشعر العربي ستة عشر. وقد سُمي كل وزن من تلك الأوزان بحراً تشبيهاً له بالبحر الحقيقي الذي لا يتناهى مهما أخذ من مائه، كذلك بحر الشعر يوزن به ما لا يتناهى من الشعر.

والشعر كله مركب من «سبب» و«تد» و«فاصلة». أما السبب فمعناه اللغوي: الحبل الذي تربط به الخيمة ومعناه العروضي: كل مقطع يتكون من حرفين، وهو قسمان:

(١) السبب الثقيل: وهو عبارة عن حرفين متحركين، نحو: ثَلْكَ، بَلْكَ، لَمْ، مَعَ.

(٢) السبب الخفيف: وهو عبارة عن حرفين، أولهما متحرك والآخر ساكن، نحو: قَدْ، لَنْ، بَلْ، عَنَّ.

والوَدَّ معناه اللغوي: الخشية التي تُشَدُّ بها الأسباب، ومعناه العروضي: كل مقطع يتكون من ثلاثة أحرف، وهو قسمان:

(١) الودد المجموع: وهو عبارة عن حرفين متحركين، بعدهما حرف ساكن، نحو: قَضَى، دَعَا، لَدَى، نَعَمْ.

(٢) الوند المفروق: وهو عبارة عن حرفين متحركين، بعدهما حرف ساكن، نحو: كَيْفَ، قَبْلَ، بَعْدَ.

والفاصلة معناها اللغوى: الحاجز، أو الفاصل فى الخيمة، ومعناها العروضى: ثلاثة أو أربعة متحركات يليها ساكن، وهى قسمان:

(١) الفاصلة الصغرى: وهى ثلاثة أحرف متحركة، بعدها حرف ساكن، نحو: عَلِمًا، ضَرَبًا، فَرِحَتْ.

(٢) الفاصلة الكبرى: وهى أربعة أحرف متحركة، بعدها حرف ساكن، نحو: ضَرَبَتْ، عَلِمَتْ.

وهناك جملة مشهورة فى علم العروض تجمع الأسباب والأوتاد والفواصل، وهى قولهم: لَمْ أَرْ عَلَى ظَهْرِ جَبَلٍ سَمَكَةً، وتوضيحها كما يأتى:

- لم: سبب خفيف -

- أر: سبب ثقيل --

- على: وند مجموع -- -

- ظهر: وند مفروق - - -

- جبل: فاصلة صغرى - - - - ؛ لأنها تكتب عروضياً: جَبَلٍ.

- سمكة: فاصلة كبرى - - - - - ؛ لأنها تكتب عروضياً: سَمَكَتْنِ.

والأمثلة التى يُقطع بها الشعر ثمانية، يُطلق على كل واحدة منها اسم التفعيلة، وهى فاعولن، فاعلن، مفاعيلن، فاعلاتن، مستفعلن، مفاعلن، متفاعلن، مفعولات. وما جاء بعد هذا فهو زحاف له أو فرع عليه. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الأسماء التى أُطلقت على بحور الشعر احتوت على بعض التعليقات الصوتية التى جعلتنا نطلق على بحر اسماً دون آخر كما يأتى:

١ - سُمى الطويل لمعينين، أحدهما أنه أطول الشعر؛ لأنه ليس فى الشعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفاً غيره، والثانى أن الطويل يقع فى أوائل أبياته الأوتاد، والأسباب بعد ذلك، والوند أطول من السبب، فسمى لذلك طويلاً.

٢- سُمِّيَ المديد مديداً لأن الأسباب امتدت في أجزائه السباعية، فصار أحدهما في أول الجزء والآخر في آخره، فلما امتدت الأسباب في أجزائه سُمِّيَ مديداً.

٣- سُمِّيَ البسيط بسيطاً لأن الأسباب انبسطت في أجزائه السباعية فحصل في أول كل جزء من أجزائه السباعية سيبان، فسُمِّيَ لذلك بسيطاً، وقيل سُمِّيَ بسيطاً لانبساط الحركات في عروضه وضربه.

٤- سُمِّيَ الوافر وافرأ لتوفر حركاته؛ لأنه ليس في الأجزاء أكثر حركات من «مفاعلتن»، وما يفك منه وهو «متفاعلن».

٥- سُمِّيَ الكامل كاملاً لتكامل حركاته وهي ثلاثون حركة، ليس في الشعر شيء له ثلاثون حركة غيره، والحركات وإن كانت في أصل الوافر مثل مافي الكامل فإن في الكامل زيادة ليست في الوافر؛ وذلك أنه توفرت حركاته وجاء على أصله، فهو أكمل من الوافر فسُمِّيَ لذلك كاملاً.

٦- سُمِّيَ الهزج هزجاً لتردد الصوت فيه، والتهزج تردد الصوت. يقال هذا يهزج في نفسى؛ فلما كان الصوت يتردد في هذا النوع من الشعر سُمِّيَ هزجاً، أو يقول لما كان التهزج تردد الصوت وكان كل جزء منه يتردد في آخره سيبان سُمِّيَ هزجاً.

٧- سُمِّيَ الرجز رجزاً لأنه يقع فيه ما يكون على ثلاثة أجزاء. وأصله مأخوذ من البعير إذا شدت إحدى يديه فبقي على ثلاث قوائم. وأجود منه أن يقال: مأخوذ من قولهم: ناقة رجزاء، إذا ارتعشت عند قيامها لضعف يلحقها أو داء، فلما كان هذا الوزن فيه اضطراب سُمِّيَ رجزاً تشبيهاً بذلك.

٨- سُمِّيَ الرَّمْلُ رَمَلاً لأن الرمل نوع من الغناء يخرج من هذا الوزن فيسمى بذلك، وقيل: سُمِّيَ رَمَلاً لدخول الأوتاد بين الأسباب، وانتظامه كرملة الحصير الذي نسج. يقال رَمَلَ الحصير إذا نسجه، والمرمول منه رَمَلٌ كأنه يقال للطرائق التي فيه رَمَلٌ.

٩- سُمي السريع سريعاً لسرعته في التذوق والتقطيع؛ لأنه يحصل في كل ثلاثة أجزاء منه ما هو على لفظ سبعة أسباب؛ لأن الوند المفروق أول لفظه سبب، والسبب أسرع في اللفظ من الوند، فلهذا المعنى سمي سريعاً.

١٠- سُمي المنسرح منسرحاً لانسراحه مما يلزم أضراجه واجتنامه؛ وذلك أنه مستفعلن؛ متى وقعت ضرباً فلا مانع من مجيئها على أصلها، ومتى وقعت « مستفعلن » في ضربه لم تجئ على أصلها، لكنها جاءت مطوية، فلا انسراح مما يكون في أشكال سمي منسرحاً.

١١- سُمي الخفيف ضعيفاً لأن الوند المفروق اتصلت حركته الأخيرة بحركات الأسباب فحُفَّتْ، وقيل: سمي خفيفاً لخفته في الذوق والتقطيع؛ لأنه يتوالى فيه ثلاثة أسباب، والأسباب أخف من الأوتاد.

١٢- سُمي المضارع مضارعاً لأنه ضارع الهز بتريعه وتقديم أوتاده، ولم يسمع المضارع من العرب، ولم يجيء فيه شعر معروف.

١٣- سُمي المقتضب مقتضباً لأن الاقتضاب في اللغة هو الاقتطاع، ومنه سُمي القضيبي قضيباً، وليس في دائرة من الدوائر بحر يفك من بحرفي حصل في البحر الثاني الأجزاء التي في البحر الأول بلفظها وعينها إلا في دائرة المجلتب<sup>(١)</sup>، فلما كان يقع في هذه الأجزاء الدائرة المنسرح وهو: مستفعلن مفعولات مستفعلن مرتين، وهذه الأجزاء بعينها على لفظها تقع في المقتضب، وإنما تختلف من جهة الترتيب فقط، فكأنه في المعنى قد اقتضب من المنسرح؛ إذ طُرِحَ « مستفعلن » من أوله و« مستفعلن » من آخره، وبقي: مفعولات مستفعلن؛ فسمي لذلك مقتضباً.

١٤- سُمي المجتث مجتثاً لأن الاجتثاث في اللغة الاقتطاع كالاقتضاب، ويقع في « دائرة المشتبه » الخفيف وهو: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، ويقع المجث وهو: مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن، فلفظ أجزائه يوافق لفظ أجزاء الخفيف بعينها، وإنما يختلف من جهة الترتيب فكأنه قد اجتث من الخفيف.

١- هناك خمس دوائر تجمع خمسة عشر بحراً، وتلك الدوائر هي: المختلف، المؤلف، المشتبه، المجلتب، المتفق.

١٥- سُمي المتقارب متقارباً لتقارب أوتاده بعضها من بعض؛ لأنه يصل بين كل وتدين سبب واحد فتتقارب الأوتاد، فسمى لذلك متقارباً.

وهناك اتصال بين الأوزان وأغراض الشعر. قال حازم القرطاجني: « ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجذ والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها يقصده البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تخاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس. فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضوع قصداً هزلياً أو استخفافاً وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل مقصد. وكانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزناً يليق به ولا تتعداه فيه إلى غيره<sup>(١)</sup>. وتوقف حازم أمام بحور الشعر وأطلق عليها بعض الأحكام المتصلة بالأداء اللغوي خلال جانبهِ الصوتي. قال:

« ومن تتبع كلام الشعراء في جميع الأعراب وجد الكلام الواقع فيها تختلف أنماطه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان، ووجد الافتتان في بعضها أعم من بعضها. فأعلاها درجة في ذلك الطويل والبسيط، ويتلوهمسا الوافر والكمال، ومجال الشاعر في الكامل أفسح منه في غيره، ويتلو الوافر والكمال عند بعض الناس الخفيف. فأما المديد والرملة ففيهما لين وضعف، وقلما وقع كلام فيها قوى إلا للعرب وكلامهم مع ذلك في غيرهما أقوى، وقد نبه على هذا في المديد أبو الفضل ابن العميد. فأما المنسرح ففي اطراد الكلام عليه بعض اضطراب وتقلقل، وإن كان الكلام فيه جزلاً. فأما السريع والرجز ففيهما كزازة. فأما المتقارب فالكلام فيه حسن الاطراد إلا أنه من الأعراب الساذجة المتكررة الأجزاء، وإنما تستحلى الأعراب بوقوع التركيب المتلائم فيها. فأما الهزج ففيه مع سذاجته حدة زائدة. فأما المجتث والمقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما. فأما المضارع ففيه كل قبيحة، ولا ينبغي أن يعد من أوزان العرب، وإنما وضع قياساً، وهو قياس

(١) منهاج البلغاء: وقد قال ابن سينا: « واليونانيون كانت لهم أغراض محددة فيما يقولون الشعر، وكانوا يخصون كل غرض بوزن على حدة، وكانوا يسمون كل وزن باسم على حدة كتاب المجموع: ٣٠. »



فاسد؛ لأنه من الوضع المتنافر».

ونلاحظ من هذا النص أن حازماً وضع بحور الشعر في درجات حسب الافتنان في بعضها دون بعضها الآخر، وجعل الطويل والبسيط أعلاها، ويليها الوافر والكمال. وأطلق على بعض البحور أحكاماً من حيث الأداء اللغوي المتصل بها؛ ففي الرمل والمديد لين وضعف، وفي السريع والرجز كزازة، وفي الهزج سذاجة وحدة زائدة... ولحازم القدرة على تذوق بحور الشعر؛ لذلك المضارع فيه كل قبيحة، ولا يعد من أوزان العرب، ولكن القياس هو الذي قاد إليه. ويواصل حازم إطلاقه لتلك الأحكام حتى نصل إلى قوله: «فالمعروض الطويل تجدد فيه أبداً بهاء وقوة، وتجدد للبسيط سبابة وطلاوة، وتجدد للكمال جزالة وحسن اطراد، وللخفيف جزالة ورشاقة، وللمتقارب سبابة وسهولة، وللمديد رقة وليناً مع رشاقة، وللمرمل ليناً وسهولة. ولما في المديد والرمل من اللين كانا أليق بالرائء وما جرى مجراه منها بغير ذلك من أغراض الشعر. والذي يلفت النظر أن حازماً عقد صلة بين الأوزان والأداء اللغوي عند بعض الشعراء. قال:

« إن الشاعر القوى المتين الكلام إذا صنع شعراً على الوافر اعتدل كلامه وزال عنه ما يوجد فيه مع غيره من الأعاريض القوية من قوة العارضة وصلابة النبع. واعتبر ذلك بأبي العلاء المعري فإنه إذا سلك الطويل توغر في كثير من نظمه حتى يتبغض، وإذا سلك الوافر اعتدل كلامه وزال عنه التوغر. وما شئت أن تجد شاعراً إذا قال في المديد والرمل ضعف كلامه وانحط عن طبقته في الوافر كانتحاطها في الوافر عن الطويل إلا وجدت. فهذا يدل على صحة ما ذكرته. فأما الضعفاء فكلامهم في الوافر وما أشبهه من الأعاريض المتوسطة أقل قبحاً. فأما الأعاريض الطويلة التي تفضل عن المعاني فيعتبرون فيها بركاكة الحشو وقبح التذييل وتخاذل بعض أجزاء الكلام عن بعض لطوله. وأما الأعاريض القصيرة التي تفضل المعاني عنها فيضطرون فيها إلى التكلف والحذف المخل، فلذلك كان حالهم في نظم الشعر مضاداً لحال الأقوياء من الشعراء<sup>(١)</sup> ».

(١) منهاج البلاغة: ٢٦٨ وما بعدها.

وقد اهتم علماء النقد والبلاغة بما أطلقوا عليه « نعت الوزن »، ويقصدون بذلك أن يكون سهل العروض من أشعار يوجد فيها ذلك، وإن خلت من أكثر نعوت الشعر كما يقول قدامة بن جعفر الذى قدم عدة نماذج لحسان بن ثابت، وطرفة بن العبد، والمنخل بن عبيد الشكرى، وكعب بن الأشرف اليهودى، وهذا هو النموذج الخاص بحسان:

وما هاج حسانَ رسومُ المقامِ	ومظعنُ الحى ومبنى الخيامِ
والنوى قد هدمَ أعضاده	تقادم العهدِ بوادِ تهامِ
قد أدرك الواثون ما أملوا	والجبلُ من شعاعِ رث الرمامِ
كأن فاهاً نغبَ بارد	فى رصفٍ تحت ظلال الغمام <sup>(١)</sup>

واهتموا كذلك بهذا الشعر الذى يحمل الكثير من المعانى الحسنة، ولكن الزحاف المستكره أدى إلى فقدان المعنى للكثير من حسنه، ومثلوا لذلك بقول امرئ القيس:

وتعرفُ فيه من أبيه شمائلًا	ومن خاله ومن يزيدَ ومن حجرُ
سماحةً ذا، وبرذاً، ووفاء ذا	ونائلَ ذا، إذا صحاً وإذا سكر

الذى علق عليه ابن رشيق بقوله: « فهذا أجمع العلماء بالشعر أنه ما عمل فى مثله، إلا أنه على ما تراه من الزحاف المستكره... »<sup>(٢)</sup> وهناك موضوع نال اهتمام النقاد والبلاغيين أيضاً، وعدوه من نعوت الأوزان، ودرسوه بالتفصيل، وهو:

(١) نقد الشعر : ٣٥ وما بعدها. والرسوم : آثار الديار، والمظعن : مصدر ظمن : أى سار ورحل، ومبنى الخيام : مكان بنائها وإقامتها، والنوى : حفر تخترق حول الخباء لئلا يدخله ماء المطر، وأعضاده : نواحيه وجنباته، والغلب : العدير فى ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه، والرصف : الحجارة المترصفة المتدانية.

الترصيع فى الشعر: قبل الدخول فى تعريف «الترصيع» عند علماء البلاغة نتوقف أمام مفهوم الجذر المعجمى (ر ص ع) فى اللغة. رَصَعَ الشيء: عقده عقداً مثلثاً متداخلاً، وإذا أخذت سيراً فقدت فيه عقداً مثلثة فذلك الترصيع.

والترصيع: التركيب، يقال: تاج مرصع بالجواهر، وسيف مرصع؛ أى محلى بالرصائع، وهى حلق يحلى بها الواحدة رصيعة. ورصع العقد بالجواهر: نظمته فيه وضمّ بعضه إلى بعض<sup>(١)</sup>. ويرى بعض العلماء أن «الترصيع» مأخوذ من رصيعة اللجام، وهى المقدة التى تكون على صدغ الفرس من الجانبين، ولا يجوز أن تكون إحدى المقدتين معقودة والأخرى محلولة، ولا أن تكون إحدهما حالية والأخرى عاطلة<sup>(٢)</sup>.

أما الترصيع عند علماء البلاغة فهو «أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به أو جنس واحد فى التصريف»<sup>(٣)</sup>، كما يقول قدامة الذى عرفه تعريفاً آخر بقوله: فالترصيع أن تكون الألفاظ متساوية البناء، متفقة، وسليمة الانتهاء من عيب الاشتباه، وشين التعسف والاستكراه، يتوخى فى كل جزئين منها متواليين أن يكون لهما جزءان متقابلان يوافقانها فى الوزن، ويتفكان فى مقاطع السجع من غير استكراه ولا تعسف<sup>(٤)</sup> وهناك تعريفات أخرى للترصيع منها ما قاله أبو هلال العسكري: «هو أن يكون حشوا البيت مسجوعاً»<sup>(٥)</sup> وما قاله ابن سنان الخفاجى: «وهو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت المنظوم، أو الفصل من الكلام المنشور مسجوعة، وكأن ذلك شبه بترصيع الجواهر فى الحلى. وأشار الباقلانى إلى ضرب من الترصيع يسمى «المضاربة» كقول الخنساء:

(١) اللسان (ر ص ع).

(٢) ابن شيت القرشى: معالم الكتابة ٧١.

(٣) نقد الشعر: ٤٠.

(٤) جواهر الألفاظ: ٣٠.

(٥) سر الفصاحة: ٢٢٣.

حامى الحقيقة محمود الخليفة مه      سدى الطريقة، نفاع وضرار  
جواب قاصية جزاز ناصية      عقاد ألوية للخليل جزار<sup>(١)</sup>

ومن الأبيات التي ذكرها علماء البلاغة على أنها شاهد لترصيع فى الشعر  
قول أبى صخر الهذلى:

وتلك هيكلة خُود مبتلة      صفراء رعبلة فى منصب سيم  
عذب مقبلها جدل مخلخلها      كالدعص أسفلها مخصوبة القدم  
سود ذوائها بيض ترائبها      محض ضرائبها صيغت على الكرم  
سمخ خلأثفها درم مرافقها      بروى معانقها من بارد شيم  
كأن معتقة فى الدن مغلفة      صفرا مصفقة من راسىء ردم  
شيت بموهبة من رأس مرقبة      جرداء مهيبة فى حالك شيم<sup>(٢)</sup>

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن ابن الأثير قد توقف أمام الترصيع وعرفه بقوله:  
«هو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ  
الفصل الثانى فى الوزن والقافية»<sup>(٣)</sup>، ولكنه نفى أن يكون الترصيع فى الكتاب  
الكريم لما فيه من زيادة فى التكلف، وقال إنه قليل فى الشعر، وإذا جىء به فيه لم  
يكن عليه محض الطلاوة التى تكون إذا جىء به فى الكلام المنشور، ومن ذلك قوله  
بعضهم:

(١) إعجاز القرآن : ١٤٦ .

(٢) خود: حسنة الخلق شابة، مبتلة: حسنة الخلق تامة، رعبلة: ذات خلجان، والمخلخل: موضع  
الخلخال، والدعص: كتيب الرمل المجتمع، مخصوبة: مصبوعة بالخضاب، والترايب: الصدور، أو  
ما تحت العنق، ومحض ضرائبها: خالصة الأخلاق، ودرم مرافقها: مستوية مرافقها، ومهيبة: بهاب  
فيها، والشيم: البعد.

(٣) المثل السائر : ٢٦٤/١ .

فمكارم أوليتها متبرعا وجرائم ألغيتها متورعا  
 فـ « مكارم » بإزاء « جرائم » ، و « أوليتها » بإزاء « ألغيتها » ، و « متبرعا » بإزاء « متورعا » .  
 ولكن بعض علماء البلاغة أشار بوقوع التصريع فى القرآن الكريم ، واستشهدوا  
 على ذلك بقوله تعالى : ( إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ )<sup>(١)</sup> ، ومن أولك  
 ابن منقذ والرازى والسكاكى<sup>(٢)</sup> . وبعد هذا الحديث عن التصريع نتوقف أمام :

**اتلاف اللفظ مع الوزن :** قال قدامة : « وهو أن تكون الأسماء والأفعال فى  
 الشعر تامة مستقيمة كما بنيت ، لم يضطر الأمر فى الوزن إلى نقصها عن البنية  
 بالزيادة عليها والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المولفة منها ،  
 وهى الأقوال ، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا  
 إلى تقديم ما يجب تأخيره منها ، ولا اضطر أيضا إلى إضافة لفظة أخرى يلتبس  
 المعنى بها ، بل يكون الموصوف مقدا والصفة مقولة عليها ... ومن هذا الباب أيضا  
 ألا يكون الوزن قد اضطر إلى إدخال معنى ليس الغرض فى الشعر محتاجا إليه ، حتى  
 إنه إذا حذف لم تنقص الدلالة لحذفه ، أو إسقاط معنى لا يتم الغرض المقصود إلا  
 به ، حتى إن فقد قد أثر فى الشعر تأثيراً بان موقعه »<sup>(٣)</sup> . ولم يأت قدامة بأمثلة  
 لاتلاف اللفظ مع الوزن ؛ لأن كل شعر سليم يعد مثالا لذلك .

**اتلاف المعنى والوزن :** قال قدامة : « أن تكون المعانى تامة مستوفاة ، لم يضطر  
 الوزن إلى نقصها عن الواجب ، ولا إلى الزيادة فيها عليه ، وأن تكون المعانى أيضا  
 مواجهة للغرض لم تمتنع من ذلك ولم تعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب  
 لصحته » .

ولم يأت قدامة بأمثلة لاتلاف المعنى والوزن أيضا ؛ لأن كل شعر سليم يعد  
 مثالا لذلك .

(١) الفاشية : ٢٥ و ٢٦ .

(٢) انظر الطراز : ٣٧٢/٢ .

(٣) نقد الشعر : ١٦٦ وما بعدها .

## (٢)

## القافية فى الشعر العربى

القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية، والقوافى هى التى فصلت بين الكلام والشعر؛ لأنه قد يقع الوزن فى الكلام ولا يسمى شعراً حتى يقفئ. وتعد القافية العلم الذى يضبط الموسيقى الظاهرة فى الشعر، ولا بد من معرفتها والإلمام بها حتى يمكن أن تتوصل إلى النسق الذى يسير عليه الشعر العربى. وكلمة « القافية » من كلمات المألوفة فى ديوان العرب؛ لذلك وردت على ألسنة الشعراء منذ أقدم العصور، وعلى رأسهم عبيد بن الأبرص الذى قال:

سَلِّ الشعراءَ هل سِبحوا كسبحى بحورَ الشعرِ أو غاصوا مغاصى  
لسانى بالنشير وبالقوافى وبالأسجاع أمهرُ فى الغياصِ

وكلمة «قافية» وزنها الصرفى «فاعلة» مأخوذة من قولهم: قفايقفو إذا تبع، فهى تابعة؛ أى إن اسم الفاعل على أصله، وربما يكون المقصود به اسم المفعول، فتكون القافية بمعنى « مفقوة »؛ أى متبوعة.

وقال صاحب ( المصباح المنير ): « قفوتُ أثره قفواً: من باب قال: تبعته، وقَفَيْتُ على أثره بفلان: أتبعته إياه، والقفا مقصور: مؤخر العنق، وفى الحديث: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد، فإذا قام من الليل فتوضأ انحلت عقدة... » يعنى بالقافية: القفا.

وقال صاحب ( مختار الصحاح ): « قفا أثره: تبعه، وبأبه عدا وسما، وقَفَى على أثره بفلان؛ أى أتبعه إياه، ومنه قوله تعالى: ( ثم قفينا على آثارهم برسلنا )<sup>(١)</sup> وقد كان لكلمة القافية وصيغة الجمع « القوافى » عدة معانٍ؛ وذلك قبل أن يضع العرب علمى « العروض والقوافى » وبعد وضعهما؛ فبعض العلماء يقول: القافية هى القصيدة والدليل على ذلك قول الخنساء:

وقافيةٌ مثلِ حدِّ السَّنانِ      تبقى ويذهبُ منَ قالِها

وقال بعضهم: القافية البيت، واحتج بقول سحيم عبد بنى الحساس:  
 أشارت بمدارها وقالت ليربها      أعبد بنى الحساس يزجي القوافيا  
 ويقول حسان:  
 فنحكم بالقوافي من هجانا      ونضرب حين تختلف الدماء  
 وقال قوم: القافية الكلمة الأخيرة وشيء قبلها، واحتج بأن أعرابياً سئل عن  
 القافية في قوله:

بنات وطاء على خد الليل

فقال: «خد الليل». وقال سعيد بن مسعدة: القافية الكلمة الأخيرة، واحتج  
 بأن قائلاً لو قال لك: اجمع لى قوافى تصلح مع «كتاب» لأنيت له بـ «شباب  
 ورياب».

وقال أبو موسى الحامض: القافية ما يلزم الشاعر تكريره في كل بيت من  
 الحروف والحركات.

وقال قطرب: القافية حرف الروى، وأدخلت الهاء عليه كما أدخلت على  
 «علامة ونسابة»، ولأن القائل يقول: قافية هذه القصيدة دال أو ميم<sup>(١)</sup>.

أما التعريف الذى أجمع العلماء على قبوله فهو الذى وضعه الخليل بن  
 أحمد؛ إذ قال عن القافية: إنها من آخر حرف فى البيت إلى أول ساكن يليه من  
 قبله مع المتحرك الذى قبل الساكن<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا التعريف الذى قال الخليل تكون  
 القافية بعض كلمة، أو كلمة، أو كلمتين أيضاً.

فحين يقول المتنبى:

شمس ضحاها، هلال ليلتها      در تقاصيرها، زبرجدها

نجد القافية «زبرجدها». وقال الشاعر:

تزود إلى يوم الممات فإنه      ولو كرهته النفس آخر موعِد

(١) التنوخى: كتاب القوافى ٥٨ وما بعدها.

(٢) الأخفش: كتاب القوافى ٦.

نجد القافية كلمة « موعده » بتمامها. وقال الشاعر:

لكل ما يؤذى وإن قلَّ ألمٌ      ما أطولَ الليلَ على من لم ينم  
نجد القافية كلمتي « لم ينم » معاً.

وقد ربط القدماء من علماء النقد والبلاغة الإبداع في النص بالقافية؛ لذلك نجد أبا هلال العسكري يقول: « إذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها ف فكر، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً يتأتى فيه لإيرادها، وقافية يحتملها. فمن المعاني ما يمكن من نظمها في قافية، ولا يمكن منه في أخرى. أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك. ولأن تعلق الكلام فتأخذه من فوق فيجىء سلساً سهلاً ذا طلاوة ورواق، خير من أن يعلوك فيجىء كزاً فجاً ومتجعداً جلفاً ».

وقد ضرب أبو هلال لهذا الارتباط بين الإبداع الشعري والقافية مثلاً بأبيات للناطقة. قال: « وينبغي أن تأخذ في طريق تسهل عليك حكايته فيها، وتركب قافية تطيعك في استيفائك له، كما فعل الناطقة في قوله:

واحكم كحكم فتاة الحي إذا نظرت      إلى حمام سراع وارد الثمد  
يخفه جانباً رنيق وتبعه      مثل الرجاجة لم تكحل من الرمـد  
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا      إلى حمامتنا أو نصفه فقد  
فكملت مئة فيها حمامتها      وأسرت حسبة في ذلك العدـد  
فحسبوه فالفوه كما حسبت      تسماً وتسعين لم تنقص ولم نزد<sup>(١)</sup>  
فهذا أجود ما يذكر في هذا الباب وأصعب ما رامه شاعر منه؛ لأنه عمد إلى حساب دقيق، فأورده مشروحاً ملخصاً وحكاة حكاية صادقة. ولما احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والثمد، بنى الكلام على قافية فاصلة الدال، فسهل عليه طريقه، واطرد سبيله<sup>(٢)</sup> ».

(١) أحكم بحكم فتاة الحي: أصب كإصابتها، والثمد جمع ثمد وهو الماء القليل في أرض رخوة أو حجر، والنيق: الجبل، وفقد: حسب.

(٢) كتاب الصناعتين: ١٣٩ و ١٤٧.



واهتم اللغويون بالقافية أيضاً؛ فإن التوزي (عبد الله بن محمد بن هارون ت ٢٣٠هـ) سأل الأصمعي (عبد الله بن قريب ت ٢١٠هـ) عن أشعر الناس؛ فقال: «من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيماً أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. وقد طلب التوزي من الأصمعي أن يقدم له بعض الأمثلة؛ فقال: نحو ذى الرمة، حيث يقول:

قِفِ العِيسَ في أَطْلالِ مِيةَ فاسألُ رسوماً كأخلاقِ الثيابِ المُسلِسلِ  
فتم كلامه قبل «المسلسل» ثم قال «المسلسل» فزاد شيئاً. واستشهد الأصمعي على ذلك أيضاً بقول الأعشى:

كناطح صخرة يوما ليغلقها فلم يضرها وأوهى قرنه السَّوْعُلُ  
فتم مثله إلى قوله «قرنه» فلما احتاج إلى القافية قال «الوعل» فزاد معنى. وقد سأله التوزي: فكيف صار الوعل (وهو تيس الجبل) مفضلاً على كل ما ينطع؟ فأجاب الأصمعي بقوله: لأنه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضره.

نعود إلى موقف النقاد والبلاغيين من القافية فنجد قدامة بن جعفر يتوقف أمام ما أسماه «نعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، قائلاً: «أن تكون القافية معلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملاحمة لما مر فيه».

ومن أنواع الائتلاف ما أطلق عليه قدامة اسم «التوشيح» الذي عرفه بقوله: «وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته، ومعناها متعلقاً به، حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته، مثال ذلك قول الراعي:

وإن وُزِنَ الحصى فوزنت قومي وجلتُ حصىَ ضريبتهم رزينا<sup>(١)</sup>

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت، وقد تقدمت عنده قافية القصيدة، استخرج لفظه قافيته؛ لأنه يعلم أن قوله: «وُزِنَ الحصى» سيأتي بعده: رزين، لعلتين: إحداهما أن قافية القصيدة توجهه، والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه؛ ولأن الذي يفاخر

(١) الحصى: جمع حصاة، العقل والرأى، والفرضية: الطيبة والسجية، الرزين: أصيل الرأي.

برجاجة الحصى يلزمه أن يقول في حصاه إنه رزين. وقول العباس بن مرداس:

هُمْ سَوْدُوا هُجْنًا وَكُلَّ قَبِيلَةٍ      يبين عن أصحابها من يسوده<sup>(١)</sup>  
فمن تأمل هذا البيت وجد أوله يشهد بقافيته. وقول نصيب:  
وَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ سَتَبِينَ لَيْلَى      وَخَجَبٌ عَنْكَ إِنْ نَفَعَ الْيَقِينُ<sup>(٢)</sup>

ومما يتصل بالئتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ما أطلق عليه قدامة اسم «الإيغال» الذى عرفه بقوله: «وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صُنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها، فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره فى البيت، كما قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا      وَأَرْحَلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ  
فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل القافية، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف ووكده، وهو قوله: الذى لم يثقب، فإن عيون الوحش غير مثقبة، وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه. وقال زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْمُعْهَنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ      نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمْ  
فالمعنه: هو الصوف الأحمر، والفناء: حب تنبت الأرض أحمر، فقد أتى على الوصف قبل القافية، لكن حب الفناء إذا كسر كان مكسره غير أحمر فاستظهر فى القافية لما أن جاء بها، بأن قال: لم يحطم، فكأنه وكد التشبيه بإيغاله فى المعنى. وقال امرؤ القيس:

إِذَا مَا جَرَى شَاوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ      تَقُومُ هَزْبُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثَابِ  
فقد تم الوصف والتشبيه قبل القافية؛ لأنه يكفى أن يكفى أن يشبه حفيف جرى القرس بالريح، فلما أتى بالقافية أوغل إيغالاً زاده فى المعنى، وذلك أن الأثاب شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف شديد<sup>(٣)</sup>

(١) الهجن: جمع هجين، اللقيم، أو الذى أبوه عربى وأمه أمة غير محصنة

(٢) نقد الشعر: ١٦٨ وما بعدها.

وهناك أسماء تطلق على القوافي فى ضوء ما تضمه من الحروف واختلافها ما بين الساكن والمتحرك، وتلك الأسماء خمسة، وهى على النحو الآتى:

١ - المتكاوس : وهى القافية التى يقع بين ساكنيها أربع حركات، وهناك شاهدها متداول فى كتب العروض والقافية والنقد والبلاغة وهو قول العجاج من مشطور الرجز:

قَدَّ جَبَرَّ الدِّينَ الإِلَهُ فَجَبَرَّ

فالقافية «لاه فجبر» وبين ساكنيها أربع تحركات خاصة بالهاء والفاء والجيم والباء. وهناك عدة تعليقات لإطلاق « المتكاوس » على تلك القافية؛ فقول إن اشتقاق الاسم من « تكاوس الإبل » أى اجتماعها وازدحامها على الماء، وينتج عن هذا كثرة حركات الإبل، ولما كانت الحركات تكثر فى تلك القافية فقد أطلقوا عليها هذا الاسم. وقيل إنه مشتق من « كاس البعير » : إذا فقد إحدى قوائمه فحبها على ثلاث، ولما كانت تلك القافية قد خالفت المعتاد بوقوع أربع حركات شبهت بالبعير الذى خالف المعتاد فى المشى.

وقيل إن الاسم ( أى المتكاوس ) مأخوذ من قولنا « تكاوس البيت » ؛ أى ميل بعضه على بعض، ولما كانت الحركات فى تلك القافية ينضم بعضها إلى بعض ويميل إليه أطلق عليها هذا الاسم.

٢ - المتراكب: وهى القافية بين ساكنيها ثلاثة أحرف متحركة، وإنما سُميت بهذا الاسم لأن الحركات توالى فركب بعضها بعضاً ومن أمثلتها قول الشاعر من البحر البسيط:

وما نزلتُ من المكروه منزلةً إلا رقتُ بأنْ ألقى لها فرجاً  
الذى وردت فيه كلمة «فرجا» بين الألف الساكنة فى «لها» والمد الأخير.  
وقال الشاعر:

ياليـتـنـى فـيـهـا جـذَعُ أـخـبُ فـيـهـا وأـضـعُ

فالقافية هي «ها وأضع» والأحرف الثلاثة المتحركة هي الواو والهمزة والضاد.

٣- المتدارك: وهي القافية التي يقع بين ساكنيها حرفان متحركان، وإنما سُميت بهذا الاسم لتوالي حرفين متحركين، ولم يقع بينهما ساكن يؤدي إلى إعاقتهما عن ذلك. والتدارك دون التراكب؛ لأن الخيل وغيرها إذا جاءت متداركة كان أحسن من أن يركب بعضها بعضاً. ومن أمثلتها قول زهير بن أبي سلمى:

ومن بكُ ذا فضلٍ فيخلُ بفضلِهِ على قومِهِ يستَغْنِ عنه ويُدَمِّمُ  
الذي وردت فيه الميمان بين الدال الساكنة والمدة الأخير. وقال عنترة:

يدعون عنتر والرماحُ كأنها أشطانُ بِمِسرٍ فى لَبانِ الأدهم  
وقافيتها «أدهمى» على أساس إشباع كسرة الميم، والحرفان المتحركان هما الهاء والميم.

٤- التواتر: وهي القافية التي يقع بين ساكنيها حرف متحرك واحد، وإنما سُميت بهذا الاسم؛ لأن الساكن الثاني جاء بعد الساكن الأول بتراخٍ بينهما بسبب توسط المتحرك، فأشبه تواتر الإبل؛ أى مجئ شئ منها ثم شئ آخر مع انقطاع بينهما. ومن أمثلتها قول الشاعر:

القلبُ منها مستريحُ سالمٍ والقلبُ منى جاهدُ مجهودُ  
الذي وردت فيه الدال المتحركة منفردة بين الواو الساكنة والسكون الناتج عن إشباع ضمة الدال. وقال الشاعر:

حمدتُ إلهى بعد عروّةٍ إذْ نجما خِراشٌ وبعضُ الشرِّ أهونُ منْ بعضِ  
الذي وردت فيه الضاد المتحركة منفردة بين العين الساكنة والسكون الناتج عن إشباع كسرة الضاد.

٥- المترادف: وهي القافية التي يجتمع فى آخرها الساكنان، وإنما سُميت بهذا الاسم لترادف الساكتين؛ أى اتصالهما وتتابعهما. ويختص المترادف بما هو مقيد من القوافي؛ أى الساكنة، ويندرج تحته نوعان:

أ- ما اتصل بحرف من أحرف اللين، وهى الألف، والواو المسبوقة بضمة،  
 والياء المسبوقة بكسرة، ومن شواهد قول الشاعر:  
 مَنْ عَالِدَى اللَّيْلَةِ أَمْ مَنْ يَصِيحُ بَتْ بِهِمْ فَفَوَادَى قَرِيحٍ  
 ب - ما لم يتصل بحرف لين؛ ولذلك يسمى «المُصَنَّم»، ومن أمثلته ما  
 سَمِعَ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ يَوْمَ فَتَحِ مَكَّةَ:

رَفَعْنَ أَذْيَالَ الْخُفْيِّ وَارْبَعْنَ  
 مَشْيَ حَيَّاتٍ كَأَنَّ لَمْ يَفْزَعْنَ  
 إِنْ يُمْنَعِ الْيَوْمَ نِسَاءً تَمْنَعْنَ

وبعد هذا العرض لألقاب القافية الخمسة نشير إلى أنه يمكن اجتماع لقبين  
 أو أكثر فى القصيدة الواحدة، وإن كان ابن رشيق قد قال: «ولا يجتمع نوعان من  
 هذه الأنواع فى قصيدة إلا فى جنس من السريع؛ فإن المتواتر يجتمع فيه مع  
 المتراكب، إذا كان الشعر مقيداً، كقول المرقش فى بيت:  
 النشـرمـسك، والوجـوه دنا نـيـر، وأطراف الأـكف عـنـم  
 وفى بيت آخر:

قد قلت فيه غير ما تعلم<sup>(١)</sup>

وذكر غيره أن المتدارك والمتراكب يجتمعان فى القصيدة من السريع، وأنهما  
 يجتمعان مع المتكاوس فى الأرجوزة<sup>(٢)</sup>. والحق أن الحكمين قاصران؛ فقد ذكر  
 غيره أن المتدارك والمتراكب يجتمعان فى القصيدة من البسيط والرجز والكمال  
 والرملى والخفيف والخبب (المتدارك)، وأنهما مع المتكاوس تجتمع فى البسيط  
 والرجز، وأن المتواتر والمتدارك والمتراكب والمتكاوس اجتمعت فى ألفية ابن مالك،  
 وأن الأضراب الخمسة اجتمعت فى سلم الأخضرى فى المنطق. وسمى أبو العلاء

(١) العمدة: ١/١١٤.

(٢) الأب الفوسطوى: الجدول الصافى فى علم العروض والقوافى ٧٨.

المسرى الأرجوزة التي يجتمع فيها المتدارك والمترابك والمتكاوس<sup>(١)</sup> المثغاة باسم المرأة المثغاة التي تزوجت ثلاثة رجال. ومثالها قول الراجز:

املاً ركابى فضة وذهباً  
فقد قتل الملك المحجياً  
ومن يصل القبليتين فى الصبأ  
وخيرهم إذ يذكرون نسباً  
قتلت خير الناس أمماً وأباً

فقافية البيت الأول والرابع متكوسة، والثانى والثالث متدراكة، والخامس متراكبة<sup>(٢)</sup>

ولكن ما الجمال الصوتى الذى تخلعه القافية على القصيدة؟ يرى بعض المحدثين أن القافية إيقاع، ويعرف هذا الإيقاع بأنه تنظيم الأصوات المكونة لأى لحن إلى وحدات زمنية متساوية، ولا مانع أن تنقسم هذه الوحدات أيضاً إلى أجزاء متساوية أو مختلفة النسب من حيث الطول والقصر، فإذا صح أن القافية إيقاع انطبق عليها التعريف، وإنه لمنطوق، فما هو إلا صورة موسيقية للصورة الأدبية التى وضعها الدكتور إبراهيم أنيس فى قوله: «ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر فى أواخر الأَشْطَر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهى بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع تردها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذى يطرق الأذان فى فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن»<sup>(٣)</sup>.

وليس هذا بدعاً من القول؛ فأكثر الذين يتحدثون عن أولية عامة الشعر لا يفرقون بينه وبين الموسيقى؛ لأنهم يتصورونه غناءً خالصاً أحياناً، ومصحوباً بالآلات أحياناً، ويجتمعان والرقص فى أحيان ثالثة، ومن يتحدثون عن الشعر

(١) انظر القافية فى العروض والأدب للدكتور حسين نصار. ٣.

(٢) موسيقى الشعر: ٢٤٦.

العربي خاصة يفعلون ذلك أحياناً، ويتصورون القافية أحد الآثار المتخلفة عن هذه المرحلة<sup>(١)</sup>. ويقول الدكتور شوقي ضيف: «نظم شعراء الجاهلية شعرهم في جو غنائي، فقد كان الشاعر يغني شعره، وقد يوقع هذا الغناء على بعض الآلات الموسيقية، وقد يقوم له بالغناء في شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتغزف في أثنائه. ويظهر أن الشعر أخذ في أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ... ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً صينياً، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها؛ فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف»<sup>(٢)</sup>.

وقد توقف هنري لانز Henry Lanz أمام القافية محاولاً تحليلها صوتياً وموسيقياً في دراسة عنوانها «الأسس الطبيعية للقافية» The Physical Basis of Rime، وأشار إلى أن وظيفة القافية الإيقاعية تتمثل في الحرف الصائت، وتتجلى في ضبط مقادير الأبيات، وذلك أمر ضروري؛ لأن تحديد عدد المقاطع في البيت جزء من الشكل الشعري، فالشاعر - في الشعر النبري - قلماً يتبع نظاماً صوتياً صارماً، ولذلك يحتاج إلى أداة تعيد الإيقاع الأصلي للوزن؛ ذلك الإيقاع الذي يعد جزءاً ثابتاً من الشكل الشعري، وليست تلك الأداة إلا القافية.

ولما كان الشعر العربي كمياً، يقوم على تساوي عدد المقاطع التي تحتوى عليها أبيات القصيدة الواحدة، خرج الدكتور شكرى عباد بأن القافية ليست ضرورية له. ولكن البيت العربي طويل بل شديد الطول؛ فأطول الأوزان الأوربية قديماً وحديثاً هو السداسي الذي لا يتجاوز اثني عشر مقطعاً، على حين يضم بحر الكامل ثلاثين مقطعاً، والطويل ثمانية وعشرين، والرمل أربعة وعشرين ... إلخ، فاستلزم هذا الطول وجود قافية موحدة تضبط البيت. وعندما اجتزأ الشاعر العربي البحور الطويلة حافظ على القافية لا لحاجته إليها؛ وإنما لأنها تسربت إليه من البحور الطويلة، ولأنه تصورهما ركناً لا يستغنى عنه في الشعر.

(١) القافية في العروض والأدب: ٣٥.

(٢) العصر الجاهلي: ١٩٣.

وأضاف هنرى لا تنس إلى الوظيفة الإيقاعية للقافية وظيفة أخرى ربما لم تتضح فى كتابات القدماء، فالأصوات الموسيقية تعتمد على عدد من السلالم الموسيقية التى تضم كل واحد منها سلسلة من النغمات المتعاقبة المتقاربة فيما تحتوى عليه من الذبذبات. ويعتمد التأليف الموسيقى على استخدام عدد من نغمات أحد هذه السلالم؛ فإن كانت النغمات ذات طبيعة تلذ السمع، وروعى فى إيرادها التعاقب الزمنى كان التأليف هارمونياً. ويتخذ الموسيقى فى هذه المصنفات إحدى النغمات أساساً لمصنعه يفتتحه بها، ويعددها العمود الفقى له، وتسمى مفتاح اللحن. وذهب لانتس إلى أن القافية تؤدى فى الشعر ما يؤدى مفتاح اللحن فى الموسيقى، وسمى ذلك الوظيفة الهارمونية للقافية، وتتمثل فيما تحتوى عليه من حروف اللين، وهى بذلك تعطى القصيدة جوها الانفعالى<sup>(١)</sup>.

ولما كانت القافية أساس الموسيقى فى الشعر العربى اشتدت العناية بها؛ لأن القدماء نظروا إلى الدور الذى وضع الشعر من أجله وهو الغناء والحداء والترنم، وأكثر ما يقع ترنمهم فى آخر البيت؛ لذلك عرف النحر نوعاً من التنوين يطلق عليه اسم «تنوين الترغم» وهو الذى يلحق القوافى المطلقة بحرف علة، ومن شواهد قول جرير :

أَقْلَى اللّوَمَ - عاذِلَ - والعَتَابَينَ      وقولى - إن أَصَبْتُ - لقد أَصَابَنُ

وتؤدى أصوات المد واللين دوراً مهماً فى الغناء لما فيها من مدّ الصوت، وأنه يمكن فيها ذلك ما لا يمكن فى غيرها. وشاركت الهاء تلك الأصوات فى الوصل لخفائها، ولأنها تبين بها الحركة كما تبين بالألف. ومن هنا فقد وضع القدماء قاعدة تقول : «إذا نُطق بالشعر على سبيل الحداء والغناء والترنم، فقد أجمع على إلحاق الألف والواو والياء؛ لأن الترغم يمدّ فيه الصوت أكثر من مده فى الشئيد، والمقصود به وبالغناء والحداء المد فيقولون :

قَفَانَبِكِ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلَى      بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْلَى

(١) للتعرف على ما كتبه لا تنس انظر : (موسيقى الشعر العربى) للدكتور شكرى محمد عباد

(القافية فى العروض والأدب) للدكتور حسين نصار.



وقال النمر بن تولب :

يسرُ الفتى طولُ السلامة والغنى فكيف ترى طولَ السلامةِ تفعلُ<sup>(١)</sup>  
 بإشباع ضمة اللام في «تفعل»، ويؤدى هذا إلى إنتاج الواو.

وهناك عدة ظواهر صوتية تطيع أداء الشعر عند المنشدين؛ فمنهم من يقف على الروى بالسكون، فينشد قول جرير :

أقلَى اللومِ عاذلُ والعتابُ وقولى إن أصبتُ لقد أصابُ  
 ويفعل ذلك فيما هو مضموم ومجرور. فإذا أتى فى القصيدة المنصوبة ما هو منون من مصدر أو غيره وقفوا بالألف كقول جرير :

ووجد قد طويتُ يكاد منه ضميرُ القلب يلتهبُ التهابا  
 فإن «التهابا» مفعول مطلق، وهو منون، ولكن تم الوقف بالألف. ويختارون الوقوف بالألف فى الوزن القصير كقوله :

أعطى عطاءَ حسناً ورزقا

وأشار العلماء أيضاً إلى الأداء الصوتى عند بعض العرب؛ فأهل الحجاز ينشدون القصيدة من أولها إلى آخرها ولا ينونون شيئاً. ومنهم من يعطى كل قافية قسطها فينون المنون ويجرى ما ليس منوناً على صلاته فينشد :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخولِ محمولين  
 وينشد :

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوبٍ وشمالين  
 وينشد :

إذا التفتت نحوى تَضَوَّعَ ريحها نسيم الصبا جاءتُ برياً القرفلن  
 ومنهم من يخذف واو الجماعة، فينشد :

لا يبعدُ اللهُ جيراناً لنا ظعنوا لم أدرِ بعد غدداً البين ما صنعُ  
يريد «ما صنعوا»، وينشد أيضاً قوله :

جزيتُ ابنَ أوفى بالمدينة قرضه وقلتُ لشُفَاعِ المدينة أَوْجِفُ  
يريد «أوجفوا». ومنهم من يحذف الياء على الرغم من أنها أصل، فينشد :

ولأنتَ تَفَرِّي ما خلقت وبعـ ضُ القوم يخلق ثم لا يَفِرُ  
يحذف الياء من «يفرى». ومنهم من يحذف ياء الضمير، فينشد :

وهم وردوا الجِفَارَ على نعيم وهم أصحابُ يومِ عكاظِ إنْ  
يريد «إني». ومن العرب من ينون ما يجوز فيه التثنية وما لا يجوز، فينشد :

أناطم مهلاً بعضَ هذا التدلُّن وإن كنتَ قد أزمعتَ صرعى فأجملنْ  
ويحكى أن رؤبة أنشد قصيدته التي أولها :

وقائمِ الأعماقِ خاوى المخترقِ

فنون جميع قوافيها<sup>(١)</sup>.

**حروف القافية :** وهى عبارة عن مجموعة من الأصوات التى تعطى الشعر رنينه وإيقاعه حتى يتحقق الجمال حين الأداء الصوتى له؛ لأن الشاعر يختم بها أبيات قصيدته، ملتزماً بعضها بعينه، وملتزماً بعضها الآخر بنظيره، وهى ستة حروف أعطى العلماء لكل منها اسماً خاصاً به، وهى حسب تتابعها فى القافية : التأسيس، والدخيل، والرَّدْف، والرُّوى، والوصل، والخروج؛ لذلك حين يقول الشاعر :

مَنْ لا يَمْتُ عِبْطَةً يَمْتُ هَرَمًا للموتِ كأسُ فالمرءُ ذائقها  
فالقافية «ذائقها»، والألف تأسيس، والهمزة دخيل، والقاف روى، والهاء وصل، والألف خروج، ولم يرد فى تلك القافية الردف؛ لأنه لا يجتمع مع

(١) السابق : ١١٣ وما بعدها.

الدخيل . وتتفاوت قيمة هذه الحروف تبعاً لتفاوت قيمها الصوتية، ووجوب التمسك بها؛ فأهمها دون منازع الروى، ثم الوصل والخروج، وأخيراً التأسيس والدخيل والردف<sup>(١)</sup>. وقد عبّر ابن جني عن ذلك تعبيراً واضحاً فى قوله : «آخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها، والعناية بها أَمْسُ، والحشد عليها أو فى وأهم، وكذلك كلما تطرف الحرف فى القافية ازدادوا عناية به، ومحافظة على حكمه»<sup>(٢)</sup>. ولذلك عدلوا فى تناولهم إياها عن ترتيبها على حسب مواضعها إلى ترتيبها بحسب أهميتها.

١- الروى : هو الحرف الذى بُنى عليه القصيدة وإليه تنسب، فيقال : قصيدة دالية أو رأية أو ميمية أو نونية ... لذلك حين يقول الشنفرى :  
أَقِيمُوا بَنَى أُمَى صَدُورَ مَطِيكُم فِلَانِي إِلَى قُومِ سَوَاكُم لِأَمِيلُ  
نقول «لامية الشنفرى» وحين يقول ابن زيدون :

أُضْحَى التَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيَا  
نقول «نونية ابن زيدون». وحين يقول شوقي :

وَلَدُ الْهَدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمُ وَثْنَاءُ

نقول «همزية شوقي». وقد قال علماء القافية عن الروى : «وفى الروى من التمكن ما ليس فى غيره من الحروف اللازمة؛ لأننا قد نجد تارة شعراً خالياً من التأسيس، وتارة شعراً خالياً من الردف، ويوجد ما هو خالٍ من الصلة والخروج، ولا يوجد شعر يخلو من الروى؛ فلهذا المعنى، والله أعلم، خص بالاسم المشتق من الرواية، ووقع به التمييز فقليل : لامية امرئ القيس، ودالية النابغة، وميمية زهير»<sup>(٣)</sup>.

(١) القافية فى العروض والأدب : ٤٠ .

(٢) الخصائص : ١ / ٨٤ .

(٣) كتاب القوافى : ٧٥ .

وقد كانت هناك عدة تعليقات لتسمية هذا الحرف بالروى؛ فيقال سُمِّيَ رويًّا أخذًا له من الروية، وهى الفكرة؛ لأن الشاعر يرويه؛ فهو (أى الروى) وزنه الصرفى «فعل» بمعنى «مفعول». ويقال: هو مأخوذ من الرواء، وهو الحبل يضم شيئاً إلى شئ؛ فكان الروى شد أجزاء البيت ووصل بعضها ببعض، أو كأنه ربط أبيات القصيدة بعضها ببعض ربطاً شكلياً متمثلاً فى الموسيقى الظاهرة. ويقال: الروى من قولهم: للرجل رواء؛ أى منظر حسن فسمى رويًّا؛ لأن به عصمة الأبيات وتماسكها، ولولا مكانه لفرقت عصباً ولم يتصل شعراً واحداً.

٢- الوصل: وهو الحرف الذى يجرى بعد الروى المتحرك، وقد سُمِّيَ بذلك لأنه وصل حركة حرف الروى؛ أى أشبعها، أو لأنه موصول به. وهناك أربعة أحرف تصلح لأن تكون وصلاً هى أحرف المد الثلاثة: الألف، والواو، والياء، ومعها الهاء. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن «الوصل» حرف ليس ضرورياً فى البيت، ولكنه إذا وجد لزم فى القصيدة كلها.

وحين تقع الألف وصلاً تجدها مختلفة من حيث علاقتها ببنية الكلمة أو تركيب الجملة، وهذا الاختلاف يؤدى إلى تكون الأداء الصوتى لبית الشعر؛ فتكون الألف للإطلاق، وتسمى ألف الترم أو الإشباع أيضاً، فى قول جرير:

أقلَى اللومَ عاذلَ والعنابا      وقولى إن أصبتُ لقد أصابا  
وتكون الألف من أصل بنية الكلمة فى قول الشاعر:

بما بجفنيكٍ من سِجَرٍ صِلَى دِنْفَا      يَهْوَى الحِياةَ وإما إنْ صددتِ فَلَا  
وقول الشاعر:

فَقَالَتْ صَدَقْتَ وَلَكِنِّى      أريدُ أَعْرِفْهُــا مَنْ أَنَا

فالألف فى «أنا» لبيان حركة بناء الكلمة. وتكون الألف مبدلة من تنوين المنصوب عند الوقف فى قول شوقي:

قُمْ للمعلمِ وَهْ التبجيلا      كاد المعلمُ أنْ يكونَ رسولا  
فالألف فى «رسولا» وصل. وتكون مبدلة من نون التوكيد الخفيفة عند الوقف

أيضاً فى قول الأعشى:

ولِيَاكَ وَالْمِيسَاتِ لَا تَقْرَبَنَّهَا      وَلَا تَعْبِدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبِدَا  
فَالْأَلْفُ فِي «فَاعْبِدَا» وَصَلْ، وَأَصْلُهَا نُونُ التَّوَكُّيدِ الْخَفِيفَةِ: «فَاعْبِدَنَّ» وَقَدْ تَمَّ  
إِبْدَالُهَا أَلْفًا حِينَ الْوَقْفِ.

وَحِينَ تَقَعُ الْوَاوُ وَصَلًا تَجِدُهَا مُخْتَلِفَةً أَيْضًا مِنْ حَيْثُ عِلَاقَتُهَا بِبَنِيهِ الْكَلِمَةِ أَوْ  
تَرْكِيبِ الْجُمْلَةِ؛ فَتَكُونُ الْوَاوُ مِنْ أَصْلِ بَنِيهِ الْكَلِمَةِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

نَصَحْتُكَ عِلْمًا بِالْهَوَى وَالَّذِى أَرَى      مَخَالَفَتِى فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ مَا يَحِلُّو  
وَتَكُونُ الْوَاوُ لِلْإِطْلَاقِ، وَتُسَمَّى وَاوُ التَّرْمِمْ أَوْ الْإِشْبَاعِ، فِي قَوْلِ الْقَطَامِ:

قَدْ يَدْرُكُ الْمَتَانِى بَعْضَ حَاجَتِهِ      وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجَلِ الزَّلْزُلُ  
فَضْمَةُ اللَّامِ فِي «الزَّلْزُلِ» يُوْدِى إِشْبَاعَهَا إِلَى إِنْتَاجِ الْوَاوِ: «الزَّلْزُلُو» وَمِنْ أَمْثَلِهَا  
كَذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرٍ:

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذَى طُلُوحٍ      سَقَيْتِ الْغَيْثَ أَيْتَهَا الْخِيَامُ  
أَيُّ «الْخِيَامُو». وَتَكُونُ الْوَاوُ وَاوُ جَمَاعَةٍ مَضْمُومًا مَاقْبَلُهَا؛ لِذَلِكَ تَكُونُ وَصَلًا  
كَمَا فِي قَوْلِ الْقَطَامِ

فَلَاهُمْ صَالِحُوا مَنْ يَبْتَغِى عَتَى      وَلَاهُمْ كَدُّوا الْخَيْرَ الَّذِى فَعَلُوا  
وَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

تَمَسَّكَ بِأَذْيَالِ الْهَوَى وَاطْلَعَ الْحَيَا      وَخَلَّ سَبِيلَ النَّاسِكِينَ وَإِنْ جَلُّوا  
وَتَكُونُ وَاوُ الْوَصْلِ لَاحِقَةً لِلضَّمِيرِ كَمَا فِي الشَّاعِرِ:

تَجَنُّوا كَأَنَّ لَأَوْدَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ      قَدِيمًا وَحَتَّى مَا كَانَتْهُمْ هُمُو  
فَالْوَاوُ فِي «هَمُو» وَصَلَتْ. نَأْتِى إِلَى الْبَاءِ وَهِيَ الْحَرْفُ الثَّالِثُ مِنْ أَحْرَفِ الْمَدِّ  
وَاللَّيْنِ؛ فَتَكُونُ مِنْ أَصْلِ بَنِيهِ الْكَلِمَةِ فِي قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ:

أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُلُ الْبَالِى      وَهَلْ يَنْعَمَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِى

وهي أصلية كذلك في قول الشاعر:

أسيلة مجرى الدمع أما وشاحها      فيجري وأما الحجل منها فما يجري  
وأما الباء التي للترنم فكقول امرئ القيس:

ولو أننى أسعى لأدنى معيشة      كفانى - ولم أطلب - قليل من المال  
فكسرة اللام في «المال» يؤدى إشباعها إلى إنتاج الباء: «المالى». وتكون الباء  
ضمير المتكلم كما في قول امرئ القيس:

ففاضت دموع العين منى صباة      على النحر حتى بل دمعى محملى  
وقول حافظ إبراهيم:

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي      وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي  
رموني بعقم في الشباب وليتنى      عَقمتُ فلم أجزعُ لقول عِدائي  
أنا البحر في أحشائه الدرّ كامن      فهل ساءلوا الغواصَ عن صدفاتي

فالقصيد تائية والباء وصل. نأتى إلى الباء المخففة من الهمزة فنجد العلماء  
يشيرون إلى وقوعها وصلًا كما في قول المتنبي:

كلما رمت لونه منع الناظر      موج كأنه منك هازى  
فأصل «هازى» هو «هازى»، وقد أنكر ذلك ابن جنى، ولكن أبا العلاء  
المعرى أبطل إنكاره<sup>(١)</sup>.

وآخر الحروف التي تقع وصلًا «الهاء»، ولها عدة استعمالات؛ فحين يقول  
الشاعر:

بالفاضلين أولى النهى      فى كل أمرِك فاقتده  
الهاء في «اقتده» هي هاء السكت. وحين يقول زهير بن أبى سلمى:

صحّ القلب عن سلمى وأقتصرَ باطله      وعَرى أفراسُ الصبّا ورواحله

أهقر

الهاء في «رواحله» وصل، وهي ضمير محرك ماقبله. وحين يقول الشاعر:  
ثلاثة ليس لها رابع الماء والحسناء والخضرة

الهاء في «الخضرة» وصل، وأصلها ناء التأنيث المتحركة. وقال الإمام الشافعي:  
أحب الصالحين ولست منهم لعلني أنال بهم شفاعة  
الهاء في «شفاعة» وصل.

٣- الخروج: وهو حرف المد المتولد من إشباع هاء الوصل المتحركة، وقد  
سمى خروجاً لخروجه وتجاوزه الوصل التابع للروى. ووضع العلماء للخروج قانوناً  
إجبارياً يقول إنه لازم لا يجوز تغييره، فيجب تسليمه في جميع القصيدة على ما  
ابتدأه الشاعر في البيت الأول كما قال لبيد:

عفت الديار مغلها فمقامها بمنى تأبذ غولها فرجامها  
فسلمها على الفتحة إلى آخرها. ومن هنا فإن الهاء إذا كانت مفتوحة كان  
خروجها ألفاً كقول الشاعر:

يوشك من قر من منيته في بعض غرائه يوافقها  
فالقاف روى، والهاء وصل، والألف خروج. وإذا كانت الهاء مكسورة كان  
خروجها ياءً كقول الشاعر:

وإن باب أمر عليك التوى فشاوّر لبيباً ولانصيه  
فإن «نصيه» حين إشباع كسرة الهاء تصبح حين كتابتها عروضياً «نصيهي»؛  
فالقاصد روى، والهاء وصل، والياء خروج. وإذا كانت الهاء مضمومة كان خروجها  
واوً كقول الشاعر:

مولاي وروحي في يده قد ضيّمها سلّمت يده  
فإن «يده» حين إشباع ضمة الهاء تصبح حين كتابتها عروضياً «يدهُو»؛  
فالدال روى، والهاء وصل، والواو خروج.

٤- الرِّدْفُ: وهو الألف والواو والياء التي قبل الروى دون حاجز بينهما، وإنما سُمِّيَ رِدْفًا لأنه ملحق فى التزامه، وتحمل مراعاته بالروى، فجرى مجرى الردف للراكب؛ أى يليه لأنه ملحق به. ومن القواعد المتصلة بالردف أنه إذا كان ألفاً وجب الالتزام به فى أبيات القصيدة كلها؛ لأنها أوضح حروف المدّ صوتاً. قال جرير:

إذا غضبتُ عليك بنو تميم      وجدتَ الناسَ كلهم غضابا  
وقال حافظ:

الأم مدرسة إذا أعددتها      أعددت شعباً طيب الأعراق  
أما إذا كان الردف واواً أو ياءً صحَّ أن يتبادلا كما فى قول شوقي:

قم للمعلم وفه التبجيلا      كاد المعلم أن يكون رسولا  
أرأيت أعظمَ أو أجلَ من الذى      يبنى وينشئ أنفساً وعقولا  
أخرجتَ هذا العقلَ من ظلماته      وهديته النورَ المبينَ سبيلا  
فالبيتان الأول والثانى الردف فيهما واو، والبيت الثالث الردف فيه ياء.

ويأتى الردف واواً قبلها ضمة كقول الفرزدق:

فلستُ لإنسى ولكن للملأكِ      تحددَ من جو السماء يصوب  
وقول الشاعر:

لو حبا لله خلقه بالتساوى      لرأينا الثمارَ فى كل عُود  
ويكون واواً قبلها فتحة كقول رويشد بن كثير الطائى:

يا أيها الراكب المزجى مطيته      سائلُ بنى أسدٍ ماهذه الصوتُ

وقول الشاعر:

لئن كنتَ ماتدرى متى أنت ميتٌ      فإنك تدرى أن عاتيك الموتُ



ويأتى الردف ياءً قبلها كسرة كقول الشاعر:

وكائن رأينا من غنى مذممٌ وصعلوكٍ قوم مات وهو حميدٌ  
وقول عبيد بن الأبرص:

من يسأل الناسَ يحرموه وسائلُ الله لا يخبُّ  
ويكون ياءً قبلها فتحة:

يمنعها شيخ بخديه الشيبُ لا يحذرُ الربَّ إذا خيف الربُّ  
وهناك ردف بالواو والياء ما قبلهما كقول بشار بن برد فى جاريته:

ربابة ربنة البيت تصبُّ الخلُّ فى الزيت  
لها عشرٌ دجاجاتٍ وديكٌ حسنُ الصوتِ

ويأتى الردف منفصلاً عن الروى كما فى قول أبى العتاهية:

أنته الخلافَةُ منقادةٌ إليه تجرُّ أذيالها  
فلم تكُ تصلحُ إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها

وقول ابن المعتز:

غُبروا عارضهَ بالمسكِ فى خد أسيلٍ  
تحت صدغين يشيران إلى وجه جميلٍ  
عندى الشوقُ إليه والتناهى عنده لى

أبو

بقى أن نشير إلى تساؤل لابن منظور حول الدرف وترتيبه فى القافية وعلاقته  
بما اشتق منه.. قال «فإن قلت: فإن الردف يتلو الراكب، والردف فى القافية إنما هو  
قبل حرف الروى لابعده، فكيف جاز لك أن تشبهه به. والأمر فى القضية بضد  
ماقدمته؟ فالجواب أن الردف وإن سبق فى اللفظ الروى فإنه لا يخرج مما ذكرته؛  
ذلك أن القافية كما كانت وهى آخر البيت وجهاً له وحلية لصنعه فكذلك أيضاً  
آخر القافية زينة لها ووجه لصنعها، فعلى هذا ما يجب أن يقع الاعتداد بالقافية

والاعتناء بآخرها أكثر منه بأولها، وإذا كان كذلك فالروى أقرب إلى آخر القافية من الردف فيه وقع الابتداء فى الاعتداد، ثم تلاه الاعتداد بالردف، فقد صار الردف كما ترون وإن سبق الروى لفظاً، تبعاً له تقديرأ ومعنى، فلذلك جاز أن يشبه الردف قبل الروى بالردف بعد الراكب<sup>(١)</sup>.

٥- التأسيس: ألف المد التى بينها وبين الروى حرف متحرك، ولا بد من الالتزام بها فى سائر أبيات القصيدة، وقد سميت بذلك لتقدمها على جميع حروف القافية فأشبهت أس البناء. قال الشاعر:

ألا ياديار الحى بالأخضر اسلمى      وليس على الأيام والدهر سالم  
فألف «سالم» تأسيس واللام دخيل<sup>(٢)</sup>، والميم روى. وقال النابغة:

كلينى لهم يا أميمة ناصب      وليلي أفايسه بطيء الكواكب  
ألف «ناصب» تأسيس والصاد دخيل، وكذلك ألف «الكواكب» تأسيس، والكاف دخيل، والباء روى. فإن كان بين هذه الألف وبين الروى حرفان أو أكثر فليست تأسيساً مثل «عقاييل» و «حيازيم» و «قناديل».

ويجب الالتزام بألف التأسيس إذا كانت فى الكلمة التى فيها الروى، ومن ذلك قول النابغة:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل      وكيف تصابى المرء والشيب شامل  
ويجب الالتزام بها أيضاً إذا كانت كلمة الروى مشتملة على ضمير مجرور بالإضافة كما فى «غلامك»؛ فالألف تأسيس ويجب الالتزام بها؛ لأن الكاف، وهى حرف الروى، لاتنفصل من الغلام. ومن شواهد ذلك قول طرفه بن العبد:

قفى قبل وشك البين يابنة مالك      وعوجى علينا من صدور جمالك  
فالألف فى «جمالك» تأسيس. فإن كان الضمير متصلاً بحرف جر كقول

١- اللسان: ردف.

٢- سيئى التعريف بالدخيل فى موضعه.

سحيم عبد بنى الحساس :

ألا نادٍ فى آثارهن الفوانيس      سقن سماماً سالهن وماليا  
فهي تأسيس أيضاً، وقد قيل إنها ليست بتأسيس. ويرى بعض العلماء وجوب  
الالتزام بالألف فى تلك الحال، كما فى قول زهير:

ألا ليت شعري: هل يرى الناس ما أرى      من الدهر أو يبدو لهم ما بدا ليا  
بدا لى أنى لست مدرك ماضى      ولما سبقاً شيئاً إذا كان جائيا

فالترنم الألف. وهذه صور مختلفة لألف التأسيس خلال قول الشاعر:

يقولون: ليلى بالعراق مريضة      فياليتنى كنت الطبيب المداويا  
فيارب إذ صيرت ليلى هى المتى      فزنى بعينها كما زنتها ليا  
فشاب بنو ليلى وشاب بنوابنها      وحرقة ليلى فى الفؤاد كما هيا

ويمكن إيضاح تلك الصور كما يأتى:

أ- فى البيت الأول اجتمعت ألف التأسيس وحرف الروى فى كلمة واحدة هى  
«المداويا» فوجب التزامها.

ب- وفى البيت الثانى جاءت ألف التأسيس فى كلمة غير كلمة الروى هى كلمة  
«زنتها» ولكن الروى جاء ضميراً وهو ياء المتكلم التى قويت بتحريكها بالفتح فى  
قوله «ليا» فوجب التزام ألف التأسيس.

ج- وفى البيت الثالث نرى ألف التأسيس فى كلمة غير كلمة الروى هى  
كلمة «كما» ولكن الروى جاء جزءاً من الضمير، وهو الياء من ضمير الغائبة  
«هى»؛ إذ مجموع الحرفين: الهاء والياء هما الضمير؛ لذا وجب التزام ألف  
التأسيس<sup>(١)</sup>.

٦- الدخيل: هو الحرف المتحرك الذى يقع بين التأسيس والروى، وقد

١ - الدكتور أمين على السيد: فى علمى العروض والقافية: ١٩٣.

سُمي بذلك لأنه يقع بين حرفين يخضعان لبعض الشروط، في حين أنه لا يخضع لشروط مشابهة، فشابته الدخيل في القوم. والدخيل ليس من الحروف الضرورية في القافية، ولكنه إذا ورد فيها وجب الالتزام به، دون أن يكون بذاته، وإنما بنظيره من الحروف الأخرى، ومن أمثلته قول بشار:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتباً      صديقك لم تلقَ السدى لانعابه  
فعمشٌ واحدٌ أوصلَ أخاكَ فلإنه      مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبةُ  
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى      ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وقد اختلف الدخيل في تلك الأبيات الثلاثة فهو الناء، والنون، والراء على التوالي. والباء روى، وهى موصولة بالهاء الساكنة فلاخروج بعدها. ومن أمثلته أيضاً قول جميل بثينة:

وقالت: تفرق فى مقالة ناصح      عسى الدهر يوماً بعد نأى يساعفُ  
فإن تدن منّا يرجع السود راجع      وإلا فقد بان الحبيب الملائف  
فوليت محزوناً وقلت لصاحبي      هو الموت إن بان الحبيب المؤلف

وقد اختلف الدخيل؛ فهو العين في البيت الأول، والطاء في الثاني، واللام في الثالث، والألف تأسيس، والفاء روى.

وبعد هذا العرض لحروف القافية نشير إلى أننا نلاحظ غلبة حروف اللين عليها؛ فهى تأتى تأسيساً وخروجاً دائماً، ووصلاً وردفاً فى أكثر الأحيان، وروياً فى بعض الأحيان. فلا ينفرد الحرف الصحيح إلا بالدخيل. ويؤكد لنا ذلك ما تبينه (لانتس) لهذه الحروف من قيم موسيقية خاصة تحدث تأثيراً نفسياً شبيهاً بالتأثير الذى يحدثه اللحن الموسيقى، وما تبينه الدكتور شكرى عباد من التزام صوتين لينين فى أكثر القوافى العربية التى اعتمدت على التكرار أو التقابل تعويضاً لها عما فقدته من تنوع. ومثل للتكرار بقول أحمد شوقى:

أنادى الرسم لو ملكَ الجوابا      وأجزيه بدمعى لو أنابا

وللتقابل بقوله أيضاً:

وُلد الهدى فالكائناتُ ضياءٌ      وفم الزمان تبسُّمٌ وثناء<sup>(١)</sup>

تحدد حرف الروى: الروى هو الحرف الذى يتكرر فى أبيات القصيدة كلها وإليه تنسب. وهناك بعض الحروف لاتصلح لأن تكون رويًا؛ بالإضافة إلى أن بعضها الآخر وقع رويًا أكثر من غيره. وتصلح كل حروف المعجم لأن تقع رويًا ماعدا بعضاً منها تقدمه على النحو الأتى:

الألف: ليست الألف غير صالحة على الإطلاق لأن تقع رويًا؛ إذ إنها تكون كذلك فى موضعين:

١- أن تكون الألف من أصل بنية الكلمة كما فى قول الراجز:

ذكرتُ والأهواء تدعو للهوى

والعيسُ بالركب يجاذبنَ البرى

فالألف فى «الهوى» و «البرى»<sup>(٢)</sup> أصلية؛ لذلك تكون رويًا. ومن ذلك مقصورة ابن دريد التى يقول فيها:

مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تَحَاشَوْا ظُلْمَهُ      وَعَزَّ فِيهِمْ جَانِبُهُ وَاحْتَمَى  
وَهُمْ لِمَنْ لَانَ لَهُمْ جَانِبُهُ      أَظْلَمَ مِنْ حَيَاتِ أَنْبَاءِ السَّفَا  
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ إِنْ بَحِثْتَ عَنْهُمْ      جَمِيعَ أَقْطَارِ الْبِلَادِ وَالْقُرَى  
عَبِيدُ ذِي الْمَالِ وَإِنْ لَمْ يَطْعَمُوا      مِنْ غَمْرِهِ فِى جَرَّةٍ تَشْفَى الصَّدَا

٢- أن تكون الألف زائدة للتأنيث مثل «لىلى» و «حلىلى»، أو للإلحاق مثل «أرطى» و «علقى».

أما الألف التى لاتصلح لأن تكون رويًا فيمكن تقديمها خلال النقاط الآتية:

١- الألف التى تسمى ألف الإطلاق أو الإشباع أو الترخيم، ومن شواهدا قول

١- القافية فى العروض والأدب: ٧٣ وما بعدها، وموسيقى الشعر العربى: ١١٣.

٢- البرى: جمع برء، وهى الحلقة التى تعلق فى أنف الجمل

الشاعر:

أَقْلَى اللّومِ عاذِلَ والعِتابِ      وقولِي إنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

وقول الشاعر:

لَأَرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْئٌ      نَقَصَ المَوْتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرَا

٢- الألف التي تبين حركة بناء الكلمة كالألف التي في «أنا» من قول الشاعر:

فَقَالَتْ: صَدَقْتُ، وَلَكِنِّي      أُرِيدُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَنَا

وقول عمرو بن معدى كرب:

قَدْ عَلِمْتُ سَلْمَى وَجَارَاتِهَا      مَا قَطَرَ الفَارِسَ إِلَّا أَنَا <sup>(١)</sup>

٣- الألف المبدلة من تنوين المنصوب حين الوقف. قال شوقي:

قَمِ لِلْمَعْلَمِ وَفَهُ التَّبْجِيلَا      كَادَ المَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا

٤- الألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة عند الوقف، ومن شواهدا قول الأعشى:

وَلِيَاكَ وَالْمِيتَاتِ لَا تَقْرُبْنَهَا      وَلَا تَعْبِدِ الشَّيْطَانَ وَاللّهَ فَاعْبِدَا

أراد «فاعبدن». وقال المتنبي:

بَادِ هَوَاكَ، صَبِرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا      وَيَكَافُكُ إِنْ لَمْ يَجِدْ مَعَكَ أَوْ جَرَى

أراد «تصبرن».

٥- ألف الاثنين كما في «ذهبا» لانكون رويًا، وإنما هي وصل والحرف

السابق عليها هو الروي.

الياء: وليست الياء على إطلاقها غير صالحة لأن تكون رويًا؛ إذ إنها تكون

كذلك في المواضع الآتية:

١- تكون ياء النسب المشددة رويًا كما في قول سديف محرضاً السفاح على

١- قطر الفارس: صرعه.

الأمويين:

فضع السيفَ وارفع السوطَ حتى لا ترى فوقَ ظهرها أمويًا  
وهناك ياءٌ مشددة ليست للنسب، ولكنها تكون رويًا كما في قول الشاعر:

تأَنَّ في الشيء إذا رمته فتدرك الرشدَ من الغيِّ

٢- الياء المتحركة على أن تكون مسبوقة بحرف متحرك كما في قول الشاعر:

يقولون: ليلى بالعراق مريضة فياليتنى كنتُ الطبيبَ المداويا  
فشاب بنو ليلى وشاب بنو ابنها وحرقة ليلى فى الفؤاد كماهيا

٣- تكون الياء متحركة أو ساكنة فتقع رويًا على أن تكون مسبوقة بحرف ساكن  
كما في قول الشاعر:

أجلُ الناسِ - إن فخرُوا - نصابا وأكرمهم - إذا اختبرُوا - سجايا<sup>(١)</sup>

٤- الياء الساكنة الواقعة بعد ساكن كما في «عصاي» و«هواي».

٥- ياء المخاطبة المفتوح ما قبلها مثل «اخشى».

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن هناك ياءٌ تصلح لأن تكون رويًا أو وصلًا؛  
وذلك في المواضع الآتية:

١- حين تخفيف ياء النسب يجوز أن تكون رويًا أو وصلًا. قال الشاعر:

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبير كسر الغداة ومسر العشي

٢- الياء الأصلية أو المنقلبة عن أصل، والأحسن أن تكون وصلًا لا رويًا. قال  
الشاعر:

نروح ونغدو لحاجائنا وحاجة من عاش لاتنقضى  
تصوت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة مابقى

٣- هناك كلمات وزنها الصرفي «فعليل»، وتصلح الياء الأولى لأن تكون رويًا أو  
وصلًا كما في قول الراجز:

ألم تكن حلفت بالله العليُّ  
أنَّ مطاياك من خير المطيِّ

أما الباء التي تمتنع أن تكون رويًا فأشهرها الباء التي تأتي للإطلاق أو الترميم أو الإشباع. قال شوقي:

ريمٌ على القاع بين البان والعلمِ      أحلُّ سفك دمي في الأشهر الحرمِ  
فالميم روى، والياء للإشباع؛ لأنَّ «الحرم» حين كتابتها عروضيًّا تصبح  
«الحرمي». والدليل على أن الميم روى قول شوقي في القصيدة نفسها:  
لما رأنا حدثتني النفسُ قائلة:      يا ويحَ جنبك بالسهم المصيبِ رُمي  
وكذلك إذا كانت الباء ضمير المتكلم امتنعت أن تكون رويًا، وهي وصل كما  
في قول حافظ:

رجعتُ لنفسى فاتهمتُ حصاتي      وناديت قومي فاحتسبتُ حياتي  
الواو: تصلح الواو لأن تكون رويًا في المواضع الآتية:

١- الواو المتحركة، ومن أمثلتها قول الشاعر:

إذا ماترعرع فينا الغلامُ      فما إن يقال له: مَنْ هُوَ؟

٢- تكون الواو من أصل بنية الكلمة كما في «صفو» و «حلو» و «بهو» ... وفي  
تلك الحال تكون رويًا بشرط أن يكون الحرف السابق عليها ساكنًا كما في قول  
الراجز:

إني إذا ماخذلتني دلوى  
سقيتُ من حوضي غزير الصَّفْوِ  
مالم يكن في طرفٍ من شكو

٣- أن تكون واو الجماعة الساكنة المفتوح ماقبلها كما في قول الراجز:  
حدَّثنا الراوون فيما روَّوا



أن شرار الناس قوم عَصُوا

٤ - الواو المشددة كقولہ:

وإن من شرائط العلوِّ

العطف في البؤس على العدوِّ

وقبل أن نترك الحديث عن الواو التي تقع رويًا نشير إلى أن واو الجماعة المضموم ما قبلها منع العلماء وقوعها رويًا، ولكن وردت أبيات لمروان بن الحكم جعلها كذلك، وهي قوله

هل نحن إلا مثل من كان قبلنا  
ونقص منا كل يوم وليلة  
نؤمل أن نبقى، وكيف بقاؤنا؟  
فمنا وهم يرجون مثل رجائنا  
لنا ولهم يوم القيامة موعد  
ويحبس منا من مضى لاجتماعنا  
فمنهم سعيد سعيد ليس بعدها  
عموا عن هدى قصد السبيل عمى الذى  
قال أبو العلاء المعرى: «وإذا كانت للإضممار فى مثل: فعلوا وقتلوا، وكان ما قبلها مضموماً ولم تكن مثل: عَصُوا ورمُوا؛ فإنها تكون وصلاً لا غير. فإن جاء غير ذلك حسب من عيوب الشعر التي تسمى الإكفاء والإجازة ونحو ذلك. وقد وجدت في أشعار قريش شعراً منسوباً إلى مروان بن الحكم قد جعل الواو فيه رويًا، في مثل: دَعُوا وَلَقُوا، فإن صحَّ ذلك فليس بأبعد مما بنى على الألف، وذلك قليل نادر. والواو المضموم ما قبلها في مثل: فعلوا، لا تكون إلا وصلاً، وليس على الشذوذ تعويل. ولا أعرف لأحد من أهل الفصاحة مثل أبيات مروان»<sup>(١)</sup>. فالواو المضموم ما قبلها لا تكون إلا وصلاً عند أبي العلاء، وهذا الشعر الذى ورد عن مروان بن

الحكم قليل مثاله، نادر وجود في ديوان العرب؛ لذلك لا يُعول عليه، وقد انتهى أبو العلاء إلى أن «مابنى على الواو قليل جداً؛ لأن العرب إنما كانت تتبع أشرف الكلم في السمع»<sup>(١)</sup>.

نأتى، بعد ذلك، إلى الواو التى لاتصلح لأن تكون رويًا، ويأتى على رأسها الواو التى للإطلاق أو الإشباع أو الترمم والتى ماقبلها مضموم، ومن أمثلتها قول شوقي:

من أى عهدٍ فى القصرى تشدقُ وبأى كف فى المدائن تُدقُ

فالواو ناتجة من إشباع ضمة القاف وهى وصل، وليست رويًا. وقد توقف الأخفش أمام تلك الواو؛ بالإضافة إلى الألف والياء موضعاً العلة فى عدم صلاحيتها لتكون رويًا قائلاً: «وإنما منعهم أن يكن رويًا أنهم ليس لهم أصول فى الكلام؛ وإنما هن مزيدات على ماقبلهن لتمام الشعر، وإنما زادوهن من بين الحروف؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم، وأكثر ما يكون ذلك فى آخر البيت، فزادوا حروفاً يجرى فيها الصوت؛ وذلك أن الصوت لا يجرى إلا فى حروف المد واللين، وهن الياء والواو الساكتتان والألف»<sup>(٢)</sup>. وتنتمى إلى هذا النوع الواو اللاحقة بالفعل المعتل المحزوم بحذف حرف علته مثل «لم يغزو» والواو اللاحقة للضمير مثل «ضربتموه» و«غلامه»<sup>(٣)</sup>.

ولاتصلح الواو لأن تكون رويًا إذا كانت ضمير جمع (واو الجماعة) وماقبلها مضموم، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوهم أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا  
فواو الجماعة فى «نفعوا» ليست رويًا؛ بل هى وصل، والروى العين. ويندرج تحت الواو التى لاتصلح لأن تكون رويًا تلك التى تلحق الضمير، ومن أمثلتها قول الشاعر:

١ - السابق: ٧٣/١. وقد قال التنوخى: «وأما الواو التى تكون للجميع مثل واو «فعلوا فلا تكون رويًا. وقد وردت أبيات شاذة رويها الواو فى نحو «شقوا وحربوا». كتاب القوافى: ٧٩.

٢ - القوافى: ٧٨.

٤ - الدكتور حسين نصار: الغافية ٥٠.

تَجَنُّوا كَأَنَّ لَادَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قديماً وحتى ماكانهم هُمُ  
فالواو في «همو» وصل، وليست رويًا.

النون: تصلح النون لأن تكون رويًا، ولكن هناك حالتين يمتنع فيهما ذلك  
هما:

١- من المعروف أن «التنوين» عبارة عن نون ساكنة تلتحق آخر الكلمة نطقاً  
لاكتابة، ولا تصلح نون التنوين تلك لأن تكون رويًا.

٢- لا تكون نون التوكيد الخفيفة رويًا؛ لذلك حين يقول الشاعر:  
ولياك والميستات لا تقربنَّها ولا تعبدِ الشيطانَ والله فاعبدنَّ  
فالنون في «اعبدن» ليست رويًا، بل الروى هو الدال. ويرى أبو العلاء المعري  
أن السبب في عدم صلاحية تلك لأن تكون رويًا قلبها ألفاً حين الوقف. قال: «فأما  
النون الخفيفة فلا يجوز أن تجعل رويًا؛ لأن القافية موضع وقف، وهذه النون تصير  
في الوقف ألفاً. فإن أريد بها الثقلية، إلا أنها خففت للقافية كما تخفف لام  
(أضلّ) و دال (أشدّ)، فلا بأس أن تجعل رويًا؛ لأنها في نية المثقلة»<sup>(١)</sup>.

الهاء: هناك ثلاثة أحوال لا يجوز فيها أن تكون الهاء رويًا، وتلك الأحوال هي:  
١- هاء السكت وهي التي يُوقف عليها لتبين حركة الحرف السابق عليها، ومن  
أمثلتها قول الشاعر:

بالفـاضـلـين أـولى النـهى فى كل أمرـك فـاقتـده  
فالهاء في «فاقتده» هي هاء السكت، وتكون وصلًا، أما الدال فهي حرف  
الروى. ومن أمثلتها أيضاً قول بعض جوارى العرب:  
يا أبتى ويا أبه  
حنيت إلا الرقبه  
فزيتها يا أبه  
كيما يجىء الخطبه  
يا بلى مقربه  
للفحل فيها قبقبه<sup>(٢)</sup>

فالهاء في الأبيات الثلاثة الأولى للسكت، وفي الثلاثة الأخيرة للتأنيث.

٢ - الهاء المنقلبة عن تاء التأنيث المتحركة، ومن أمثلتها قول الإمام الشافعي:  
أحبُّ الصالحين ولستُ منهم      لعلِّي أنالَ بهم شفاعة  
فالهاء في «شفاعة» أصلها تاء «شفاعة»، وهي في البيت وصل، والعين روى.

وقال الشاعر:

ثلاثةٌ ليسَ لهما رابعُ      الماءُ والحسناءُ والخُضرةُ  
فالهاء في «الخضرة» وصل، والراء الروى.

٣ - أن تكون هاء الضمير سواء أكان ساكناً أم متحركاً، ومن أمثلتها قول زهير بن  
أبي سلمى:

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطله      وعُرِيَ أفراسُ الصِّبا ورواحلهُ  
فالهاء الساكنة في «رواحله» وصل، واللام السابقة عليها روى. ومثل ذلك  
قول الشاعر:

أخَ ماجدٍ لم يَخْزِنِي يومَ مشهدٍ      كما سيفُ عمروٍ لم تَخْنُهْ مضاربُه  
فالهاء الساكنة في «مضاربه» وصل، والباء السابقة عليها روى. وقال الشماخ:

حمامة بطينِ الواديينِ ترنمى      سقاكِ من الغرِّ الغوادى مطيرُها  
فالهاء المتحركة وصل والراء روى.

وبعد هذا الحديث عن تحديد حرف الروى نشير إلى أنَّ القدماء عرضوا لهذا  
الحرف في بعض القصائد مع ربطه بالإبداع في العمل الفنى، وعرضوا أيضاً لما  
أسموه بالتطوع بما لا يلزم، ومن أولئك ابن جني الذى قال عن هذا التطوع أن:  
«هذا أمر قد جاء فى الشعر القديم والمؤلَّد جميعاً مجيئاً واسعاً. وهو أن يلتزم الشاعر  
مما لا يجب عليه؛ ليدل بذلك على غزوه وسعة ماعنده. فمن ذلك ما أنشده  
الأصمعي لبعض الرجاز:

وحسبُ أو شئتُ من حِظاظِها  
على أحاسى الغيظِ واكتِظاظِها

وبعد أن يورد ابنه جنى بعض الأبيات يعلق عليها قائلاً: «فالتزم في جميعها ما تراه من الظاء الأولى مع كون الروى ظاءً، على عزة ذلك مفرداً من الظاء الأولى، فكيف به إذا انضم إليه ظاء قبله. وقلما رأيت في قوة الشاعر مثل هذا»<sup>(١)</sup>.

ويوسع ابن جنى دائرة حديثه عن الروى وذلك حين توقف أمام بعض القصائد التي التزم الشاعر فيها تصغير قوافيها قائلاً: «وأنشد الأصمعي أيضاً من مشطور السريع رائية طويلة التزم قائلها تصغير قوافيها في أكثر الأمر إلا القليل النزر. وأولها: عزز على ليلى بذى سدير سوء مبيتى ليلة الغمير

وبعد أن يورد عدة أبيات من القصيدة يعلق عليها بقوله: «أفلا ترى إلى قلة المصغر في قوافيها. وهذا أفخر ما فيها، وأدله على قوة قائلها، وأنه إنما لزم التصغير في أكثرها سباطة وطبعاً، لانكلفاً وكرهاً؛ ألا ترى أنه لو كان ذلك منه تجشماً وصيغة لتحامى غير المصغر ل يتم له غرضه، ولا ينتقض عليه ما اعتمده»<sup>(٢)</sup>.

واهتم أبو العلاء المعري بالروى من حيث النظر في دواوين بعض الشعراء والتعرف على ما استعمله رويًا من حروف المعجم. قال: «فأما المتقدمون فقلما ينتظمون بالروى حروف المعجم، لأن ما روي من شعر امرئ القيس لانعلم فيه شيئاً على الطاء والظاء، ولا الشين ولا الخاء، ونحو ذلك من حروف المعجم. وكذلك ديوان النابغة ليس فيه روى على الصاد ولا الضاد ولا الطاء، ولا كثير من نظائره. وهذا شيء وليس يخفى ... وهذا أبو عبادة (البحترى) وله شعر جم، ولا أعلم فيما روى له - شيئاً على الخاء ولا الغين ولا الثاء، إلا أن يكون شاذاً لم يثبت في أكثر النسخ. وإذا اتفق لهم أن يجيئوا بالحرف فقلما يستوعبون جميعه على كل الحركات. وإن استعملوه في حال الحركة جاز أن يلغوه من حال الإسكان. مثال ذلك أن أبا الطيب (المتنبي) استعمل الهمزة المضمومة والمكسورة، ولم يستعمل المفتوحة ولا الساكنة، واستعمل السين المكسورة دون المفتوحة والمضمومة

١ - الخصائص: ٢٣٤/٢ وما بعدها.

٢ - السابق: ٢٣٨/٢ وما بعدها.

والساكنة، وكذلك جرى أمر الشعراء المتقدمين والمحدثين<sup>(١)</sup>.

وإذا كان اهتمام المعرى بالقوافي أعظم من اهتمام غيره بها بسبب ما التزمه فيها خرج من تجاربه فيها بتصنيف يقسم الروى ثلاثة أنواع:

١ - القوافي الدُّلَل: وهى التى كثر دورانها على الألسن قديماً وحديثاً.

٢ - القوافي النُّفَر: وهى التى قل استعمالها عن سابقتها، كالجيم والزاي.

٣ - القوافي الحوش: وهى المهجورة التى تكاد لا تستعمل.

والأمر الذى يؤسف له أن أبا العلاء لم يفرق حروف الهجاء على هذه الأقسام الثلاثة التى أنبى بها، ولكن ما فاته قام به الدكتور عبد الله الطيب فى العصر الحديث؛ فقد تمسك بتصنيف المعرى، ثم وزع عليه الحروف على النحو الآتى:

١ - القوافي الدُّلَل: ء ب ت ج د ر س ع ف ق ك ل م ن يا.

٢ - القوافي النُّفَر: ز ص ض ط هـ و.

٣ - القوافي الحوش: ث خ ذ ش ظ غ.

وقسم الدكتور إبراهيم أنيس الحروف فى مجيئها رويًا أربعة أقسام:

١ - الكثيرة الشيوخ، وإن اختلفت نسبة شيوعها فى أشعار الشعراء، وهى:

ر ل م ن ب د.

٢ - المتوسطة، وهى: ت س ق ك ء ع ح ف ي ج.

٣ - القليلة، وهى: ض ط هـ.

٤ - النادرة، وهى: ذ ث غ خ ش ص ز ظ و.

ووفق كثيراً حين حاول أن يعلل هذه الظاهرة فقال: «ولأن تعزى كثرة الشيوخ أو قلتها إلى نقل فى الأصوات أو خفة بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها فى أواخر كلمات اللغة، فالدال - مثلاً - نجى فى أواخر كلمات اللغة العربية بكثرة، ولكن

١ - شرح لزوم مالا يلزم: ٣٩/١. ونشير إلى أن ديوان امرئ القيس فيه أبيات ظالمة، وديوان البحري فيه

شيوعها في اللغة عامة ليس بالكثير، بل ربما قل عن العين والفاء، ومع هذا فمجمع الدال رويًا يزيد كثيراً على مجمع كل من العين والفاء. وليست تتطلب الزاى جهداً عضلياً يبرز ندرة ورودها رويًا<sup>(١)</sup>.

ويكمل هذا الحديث عن الروى التوقف أمام مواضعه وطريقة تعيينها، وقد أحسن التعبير عن ذلك السيد محمد الدمنهورى في كتابه (الإرشاد الشافى على متن الكافى)؛ إذ قال: «إذا جاءك بيت فانظر إلى آخر حرف منه، فإن كان واحداً مما لا يجوز أن يكون رويًا فتجاوز به إلى الذى قبله، فإن لم يكن واحداً منها فاجعله رويًا. وإن كان واحداً منها فتجاوز به إلى ما قبله، فإنه لا بد أن يكون رويًا؛ لأنه لا يمكن أن يلحق بعد حرف الروى أكثر من حرفين: الأول الوصل، والثانى الخروج. مثلاً: بيت رؤية وهو:

وقاتم الأعماقِ خاوى المخرقِ

آخره القاف، وليست واحداً من الحروف المستثناة فهى حرف الروى، والقصيدة لذلك قافية، وبيت زهير بن أبى سلمى وهو:

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله وعزى أفراسُ الصبَا ورواحله

آخره الهاء، إلا أنها من الحروف المستثناة، لأنراها هاءً إضمار متحرّكاً ما قبلها، فلا تكون رويًا بل وصلاً، فقد اضطرت إلى اعتبار ما قبلها وهو اللام، وليست من الحروف المستثناة، فهى الروى، والقصيدة لذلك لامية. وبيت الأعشى وهو:

قطعتُ إذا خَبَ رِبعانُها بعرفاء تنهضُ فى آدها<sup>(٢)</sup>

آخره الألف، ولأنكون رويًا بل خروج، لأنها تابعة لهاء الإضمار، فقد اضطرت إلى اعتبار ما قبل الهاء وهو الدال، وليست من الحروف المستثناة، فهى

١ - انظر القافية للدكتور حسين نصار ١٥٥ والمرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد الله الطيب ٤٤/١ وما بعدها؛ وموسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ٢٤٧ وما بعدها.

٢ - ريمان جمع رباع، يقال: فرس رباع؛ أى ألقى رباعيته؛ أى بعد سبع سنين، والناقة العرفاء التى تشبه الجمال، وقيل لها عرفاء لطول عرفها، والآد مخففة من الآء: الأمر العظيم.

إذن الروى، والقصيدة لذلك دالية، وقس.

ثم ما يجوز أن يكون رويًا ووصلاً... قد يتعين أن يكون وصلاً، إذا كان فى الأبيات ما لا يصلح أن يكون رويًا، مثل : قفلت كارها، ومررت بدارها، فإن هاء (كارها) وإن جاز كونها رويًا لكن لما جاء بعدها فى آخر بيت ما لا يصلح أن يكون رويًا، وهو هاء (دارها) تعينت هى للوصل.

وقد يتعين أن يكون رويًا إذا لم يلتزم الحرف الذى قبله فى آخر كل بيت من أبياته كما فى : ثُلثى، ولتّى، وليلتى، فإن تاء التأنيث وإن جاز كونها وصلاً لكن لما لم يلتزم الحرف الذى قبلها تعينت هى للروى هنا، وقس على ذلك.  
أما ما عدا هذه الأحرف .... فلا يكون إلا رويًا.

\* \* \*

### أنواع القافية

يرتبط الحديث عن أنواع القافية بحركة الروى، وقد صنف العلماء تلك الأنواع إلى ما يأتى:

القوافى المقيدة : وهى ثلاثة أنواع:

١ - المجردة من التأسيس والردف، كقول حسان بن ثابت:

إذا قتلتم ما جددًا ذا مرة واضح السنة معروف النسب

وقول الشاعر:

النسر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عَنَّم

وقول لبيد:

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريشى وعجل



٢ - المردوفة كقول الشاعر:

لَا يَغْنُ امراً عَيْشَةٌ      كُلُّ عَيْشٍ صَائِرٌ لِلزَّوَالِ  
وقول القاسم بن معن:

أَنْ تَهْبِطِينَ بِلَادَ قَوْمِ      مِ يَرْتَمُونَ مِنَ الطَّلَاحِ  
وقول طرفة:

مَنْ عَائِدَى اللَّيْلَةِ أَمْ مِنْ يَصِيحُ؟      بَتْ بِهِمْ فَنفَوَادَى قَرِيحُ  
٣ - المؤسسة كقول الشاعر:

نَهْنَهْ دَمْعُوكَ إِنَّ مَنْ      يَبْكِي مِنَ الْحَدَثَانِ عَاجِزُ  
وقول عبيد:

وَإِذَا تَبَاشَرُكَ الْهَمُومُ      فَإِنَّهَا كَالِ وَنَاجِزُ  
وقول الشاعر:

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ      لَابَنٌ فِي الصَّيْفِ تَامِرُ  
وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن هذا النوع من القوافي قليل الشيوع في الشعر العربي لا يكاد يجاوز ١٠ ٪، وهو في شعر الجاهليين أقل منه في شعر العباسيين؛ لأن الغناء في العصر العباسي انسجم مع هذا النوع وتناسب كثيراً<sup>(١)</sup>.  
القوافي المطلقة:

القافية المطلقة هي التي يكون فيها حرف الروى متحركاً؛ أي إن الصوت أطلق به، وتلك القافية ستة أنواع هي:

١ - مجردة من التأسيس والردف موصولة باللين كقول حاتم الطائي:

يَرَى الْبَحِيلَ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً      إِنْ الْكَرِيمِ يَرَى فِي مَالِهِ سَبِيلًا

اللام روى، والألف وصل. وقال الشاعر:

حمدتُ إلهي بعد عروة إذ نجى خراشٌ وبعض الشر أهونُ من بعضٍ  
الصاد روى، والياء وصل لأن الكتابة العروضية لـ «بعض» هي «بعضي».  
وقال الشاعر:

تهونُ علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يُغلها المهرُ  
الراء روى، والواو وصل لأن الكتابة العروضية لـ «المهر» هي «المهرو».  
٢ - مجردة من التأسيس والردف موصولة بالهاء كقول طرفة:

للفتى عقلٌ يعيشُ به حيثُ تهدي ساقه قدمه  
الميم روى، والهاء وصل. وقال الراجز:  
ألا فتى لاقى العلا بهممه ليس أبوه بابنِ عمِّ أمه  
الميم روى والهاء وصل.

٣ - المردوفة الموصولة باللين كقول الشاعر:

ألا قالتُ بثنيةُ إذ رأيتني وقد لاتعدمُ الحسناءُ ذاماً  
الميم روى، والألف وصل، وقال أبو فراس الحمداني:  
أيما جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا تعالى أقاسمكُ الهمومَ تعالى  
اللام روى، والياء وصل.

٤ - المردوفة الموصولة بالهاء كقول طرفة:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلأ فأرسلُ حكيماً ولا توصيه  
الصاد روى، والهاء وصل، والواو ردف. وقال أبو العلاء:  
علموهن الغزلَ والنسجَ والردَّ ن، وخلوا كتاباً وقراءه  
الهمزة روى، والهاء وصل، والألف ردف.

٥ - مؤسسة موصولة باللين كقول الشاعر:

كثيرُ حياةِ المرءِ مثلُ قليلِها يزولُ وباقى عيشه مثلُ ذاهِبِ  
الألف تأسيس، والباء روى، والياء وصل؛ لأن «ذاهب» كتابتها العروضية  
«ذاهبي». وقال النابغة:

كليتى لهم يا أميمةُ ناصِبٍ وليلي أفا سيه بطيِّءِ الكواكبِ  
الألف تأسيس، والياء روى، والياء وصل «الكواكب = الكواكبى».  
وقال لبيد:

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رمادا بعد إذ هو ساطعُ  
الألف تأسيس والعين روى، والواو وصل «ساطع = ساطعو».

٦ - مؤسسة موصولة بالهاء كقول الشاعر:

همُ قتلوه كى يكونوا مكانه كما نذرتُ يوماً بكسرى مزاربه  
الألف تأسيس، والياء روى، والهاء وصل. وقال حسان:

المطعمون إذا سنون المحلِ تصبحُ راکدَه  
الألف تأسيس، والدال روى، والهاء وصل.

وبعد هذا العرض لأنواع القافية نتوقف بالدراسة التفصيلية أمام موضوع آخر هو:

### حركات القافية

هناك ستة مصطلحات أطلقها العروضيون على حركات القافية، يمكن إيضاحها خلال النقاط الآتية :

#### ١- الرُّسُ :

وهو الفتحة قبل ألف التأسيس، نحو فتحة واو «الرواحل» ونون «المنازل»، وقال الشاعر :

يعقد في الجيدِ عليه الرُّقى من خيفة الأنفسِ والحاسد  
ففتحة الحاد في «الحاسد» رس. وقال النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل  
ففتحة الشين في «شامل» رس، وهى قبل ألف التأسيس. وقد توقف العلماء أمام تحليل التسمية، فقالوا إن الرُّس مأخوذ من «رَسَ الحُمى» أى أولها، وسميت هذه الفتحة رَساً لأنه اجتمع فيها الخفاء والتقدم. أما التقدم فلتراضيا عن حرف الروى وبعدها عنه، وأما الخفاء فلأنها بعض حرف وهو الألف. وقالوا أيضاً : الرُّسُ القلة والخفاء، ومنه رسيس الهوى، فكان حركة ما قبل الألف (حركة الرس؛ أى الفتحة) حسن خفى. قال الشاعر :

رس كرس أخى الحمى إذا غَبَرْتُ يوماً تأوبه منها عقابيل  
ويرى أبو عمر الجرمى أنه لا حاجة إلى ذكر الرس، لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحاً أبداً سواء أكان تأسيساً أم غير تأسيس.  
٢- الحَلْدُو :

وهو حركة ما قبل الرفع واو أو ألفا أو ياء. فإن كان الرفع واواً فالحذو ضمة، وإن كان الرفع ألفاً فالحذو فتحة، وإن كان ياءً فالحذو كسرة. وقد يجيء قبل الواو والياء فتحة، فالذى حذوه فتحة وردفه ألف مثل قول امرئ القيس :

ألا انعم صباحاً أيها الطللُ البالى وهل ينعمن من كان فى العَصْرِ الخالى

فتحة الخاء حذو، والألف ردف، واللام روى وحركتها مجرى، والياء وصل.  
وما كان حذوه ضمة فقول زهير :

متى تَكُ في صديق أو عدو      تخبرك الوجوه عن القلوب  
وما كان حذوه كسرة فقوله :

فإن تسألوني بالنساء فإنني      خبير بأدواء النساء طبيب  
وإما ما كان ردفه واواً مفتوحاً ما قبلها فمثل قوله :

يا أيها الراكب المزجي مطيته      سائل بني أسد ما هذه الصوت  
وما كان ردفه ياء مفتوحاً ما قبلها فكقوله :

ذكرتُ أهلَ دُجَيْلٍ      وأين منى دُجَيْلُ ؟  
وكقول الراجز :

مالي إلى جاذبها صليبٌ      أكبر قد غالني أم بيبُ  
وسمى الحذو حذواً من قولك : حذوتُ فلاناً إذا جلست بحذائه، فكانه محاذ  
للردف.

### ٣- الإشباع :

حركة الدخيل أية حركة كانت، مثل كسرة الهاء في قول زهير :  
وإذ أنت لم تُقَصِّرْ عن الجهلِ والغنى      أصبتَ حليماً أو أصابك جاهلُ  
وكضمة الباء في قول النابغة :

سجوداً له غسانٌ يرجون فضله      وترك ورهط الأعجمين وكابلُ  
وكفتحة اللام في قول الشاعر :

إذا كنتَ ذا ثروة من غنى      فأنت المسود في العالم  
وهذه الحركات تتعاقب، إلا أن الكسرة مع الضمة أخف كراهة من الفتحة مع  
إحداهما. وإذا اختلفت حركات الإشباع سُمي ذلك سناداً.

والإشباع مأخوذ من قولنا : أشبعت صبيغ الثوب إذا أحكمته وقوّيته . ولا يمتنع أن يكون مأخوذاً من أن هذه الحركة لا يمكن فيها من الحذف ما يمكن في حركة الروى وهاء الوصل اللتين بعدها ، لأنهما قد تحذفان تارة وتثبتان أخرى . ولا يمكن في حركة الدخيل الحذف ، بل يأتي أبداً مشبعاً بالحركة .

#### ٤ - التوجيه :

وهو حركة ما قبل الروى المقيد ، وذلك نحو حركة القاف من كلمة «قَط» في قول الشاعر :

حتّى إذا جنّ الظلامُ واحتلّط      جاءوا بمذقي هل رأيت الذئب قَطْ  
وحركة الراء من كلمة «الكرم» في قول طرفة :

حين يحمى الناسُ نحى سربناً      واضحى الأوجهِ معروفى الكرمِ  
وقد تجتمع حركتان في التوجيه قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنةَ العامرى      لا يدعى القُومُ أنى أفرّ  
نميمٌ بنُ مرٍّ وأشباعها      وكندةٌ حولي جميعاً صبرّ  
إذا ركبوا الخيلَ واستلأموا      تحرّقتِ الأرضُ واليومُ قرّ

ولم يذكر أصحاب القوافي المتقدمون من أى شيء أخذ التوجيه ، وذكر بعض المتأخرين أنه مأخوذ من توجيه القرس ، وهو دون الصدف الذى هو تباعد ما بين الفخذين فى تدان من العرقوبين فى ميل من الرسفين ، فيكون أصل ذلك الاختلاف . ويرى ابن السراج أن التوجيه سُمي بذلك ، لأنه كأنه واجه الروى المقيد واستقبله . ولكن الرأى الذى عليه أصحاب القوافي أنه مأخوذ من جعل الشيء ذا وجهين ، قيل : «سُميت بذلك لما تقرر فى هذا الفن من أن الحركة قبل الساكن كالحركة عليه ، فكان الروى موجه بها ، أى مُصيرٌ ذا وجهين : سكون وتحرك ،

كالثوب الذى له وجهان، فمن حيث سكونه الحقيقى هو ساكن، ومن حيث تحريكه المجازى بالاعتبار المذكور هو متحرك.

بقى أن نشير إلى أن بعض العلماء يرى أن التوجيه فى الروى المطلق، وذلك كحركة اللام فى قول زهير :

بان الخليط ولم يأورا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أبةً سلّكوا  
ففتحة اللام فى «سلّكوا» توجيه.

#### ٥- المجرى :

وهو بفتح الميم مصدر من «جرى» ويضمها مصدر من «أجرى»، وهو حركة الروى المطلق، ويكون المجرى ضمة أو فتحة أو كسرة فتلتزم فى القصيدة كلها. وتأتى بعده واو إن كان متحركاً بالضمّة كقول الشاعر :

قد يدركُ المتأنى بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزَّلُّ  
وتأتى بعده ألف إن كان متحركاً بالفتحة كقول الشاعر :

إذا بلغ الرضيعُ لنا فطاماً تخِرُ له الجبائرُ ساجدينَا  
وتأتى بعده ياء إن كان متحركاً بالكسرة كقول الشاعر :

قفانك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقطِ اللوى بين الدخولِ فحولِ  
وقد سُمى بذلك لأن الصوت يبتدئ بالجريان فى حروف الوصل منه، ألا ترى أنك إذا قلت :

قتيلانٍ لم يعلمِ الناسُ مصرعاً

فالفتحة فى العين هى ابتداء جريان الصوت فى الألف. وكذلك قولك :

يا دارَ ميةٍ بالعلياءِ فالسند

نجد كسرة الدال هى ابتداء جريان الصوت فى الياء. وكذا قوله :

هريرةً ودّعها وإن لامٍ لائمٍ

تجد ضمة الميم منها ابتداء جريان الصوت فى الياء.

## ٦- النفاذ :

وهو حركة هاء الوصل بالضم والفتح والكسر، لأن الهاء كانت فى الأصل ساكنة فنفذت فيها الحركة. فالنفاذ بالضم كقوله.

وبلدٍ عاميةٍ أَعْمَاؤُهُ

وقوله :

فتى جميلٌ حَسَنٌ شِبابُهُ

والنفاذ بالفتح كقول بشر بن أبى خازم :

وغيرها ما غير الناس قبلها فباتت وحاجاتُ الفؤاد تصيبها  
والنفاذ بالكسر كقوله :

إن الشراكَ قد من أديمه

الميم روى، وحركة الدال حذو، والياء ردف، وحركة الميم مجرى، والهاء وصل، وحركتها نفاذ.

والنفاذ سُميت بذلك لأن المتكلم نفذ بحركة هاء الوصل إلى الخروج، وهو الألف - مثلاً - التى بعدها.

وقيل : النفاذ بالمهمله، ومعناه الانقضاء والتمام لأن هذه الحركة هى تمام الحركات، فيها وقع نفاذها، أى انقضاؤها وتمامها.

\* \* \*

بقى أن نشير إلى أن بعض النقاد المحدثين لاحظ أن الفتحة وأختها الألف أكثر أصوات اللين شيوعاً فى اللغة العربية، وتأتى بعدهما الكسرة فالضمة: ولكن الشعر يخالف لغة الكلام، فتتفوق فيه الكسرة والضمة على الفتحة، لأن الألف صوت لا لون له، على حين يهتم الشاعر اهتماماً شديداً، وخاصة فى قوافيه، بالقيمة الجمالية لكل صوت يستعمله، تلك القيمة التى تتحدد بأشياء كثيرة، منها النغمة



المميزة لكل صوت، وغنى الصوت بالنغمات الثانوية Timbre والإحساس الحركي المصاحب للنطق به<sup>(١)</sup>.

وتوقف الدكتور إبراهيم أنيس أمام القافية وتقسيمها حسب ما فيها من كمالات موسيقى إلى مراتب، فقال إن هناك مراتب تصاعدية :

١- تبدأ بالقافية المقيدة التي يسبق رويها بحركة قصيرة، ولا تلتزم هذه الحركة في أبياتها، وتلك هي أقصر صور القافية.

٢- يليها تلك القافية المقيدة التي تلتزم في أبياتها الحركة القصيرة قبل الروى، وربما كانت القافية المطلقة التي لا تلتزم فيها هذه الحركة في مستوى واحد معها من الناحية الموسيقية.

٣- يليها القافية المطلقة التي تراعى فيها الحركة القصيرة قبل الروى ومثلها في مستوى واحد تلك التي يسبق رويها بواو المد وباء المد مع التناوب بينهما.

٤- يليها تلك القافية التي يسبق رويها بحرف مد معين يلتزم في كل أبيات القصيدة<sup>(٢)</sup>.

\*

(٣)

### السجع في النثر العربي

السجع هو الفن المعروف في النثر العربي، وقد اهتم به علماء البلاغة لأصالته في التعبير في اللغة العربية منذ العصر الجاهلي، وأطلق عليه بعضهم مصطلح «التسجيع» أيضاً، ومن بينهم قدامة بن جعفر وابن الزمكاني وابن الإصبع ويحيى ابن حمزة العلوي. وكلا المصطلحين، أى السجع والتسجيع جذره المعجمي واحد هو (س ج ع)، لذلك نحاول التعرف على مفهومه اللغوي قبل بيان دلالاته في قاموس البلاغة.

١- الدكتور شكرى عياد : موسيقى الشعر ١١٢.

٢- موسيقى الشعر : ٢٦٨

يقال : سَجَّعَ سَجْجَةً : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً. ويجمع السجع على أسجاع وأساجيع، واشتقاقه من قولهم : سَجَّعت الناقة إذا مدت حنيتها على جهة واحدة، وسجعت الحمامة رددت صوتها، أو موالاة صوتها على طريق واحد. قال الشاعر :

طربت فأبكتك الحمامُ السَّواجِعُ      تميل بها ضَحْواً غصونٌ نواعٍ<sup>(١)</sup>  
وسجع الحمام : هدَلَّ على جهة واحدة. وهناك عدة تعريفات للسجع عند علماء البلاغة، فإذا قيل : سَجَّعَ الرجلُ معناه : نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن. وقالوا إن السجع نواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد، أو اتفاق الفواصل في الكلام المنشور في الحرف أو في الوزن أو في مجموعهما.

والسجع في النثر كالقافية في الشعر، ولكن الفارق بينهما أن القافية غير مستغنى عنها لأن الشعر لا يستقيم بدونها، في حين أن السجع مستغنى عنه، أى يستقيم النثر بدونه لأنه ليس من أسسه، لذلك قال أحد البلاغيين : «فأما أن يلزمه (أى السجع) الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله. وعي من قائله»<sup>(٢)</sup>.

وهناك بعض القضايا المتصلة بالسجع، نحاول التعرف عليها، ثم نتوقف - بعد ذلك - أمام الجمال الذى يحققه فى النثر العربى.

ونبدأ الحديث عن تلك القضايا بالتوقف أمام التطور التاريخى لاستعمال السجع فى النثر، فنجده الأسلوب الذى اختارته العرب فى الجاهلية، وتمسك به بعضهم، وبلغ درجة من الشيوع حتى قيل بأسبقية وجوده على الشعر، ومعرفة العرب به قبل أن يصطنعوا تلك البحور المقيسة، لذلك كان رجالا من العرب وقضائهم فى الجاهلية يحكمون وينفرون بالأسجاع و من أولئك ضمرة بن ضمرة، وهرم بن

١ - النواع : الموائل، من قولهم : جائع ناع، أى متمايل ضعفاً.

٢ - البرهان فى وجوه البيان : ٢٠٩.

قُطبة، والأقرع بن حابس، ونُفيل بن عبد العزى وربيعة بن حُذار وسواهم من الذين أشار إليهم الجاحظ الذي أضاف : «فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية، وليقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم. وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلم ينهوا منهم أحداً»<sup>(١)</sup>.

ومع التطور الهائل الذى شمل كل مظاهر الحياة فى العصر العباسى أصبح السجع واحداً من الظواهر الصوتية التى تطبع الأداء اللغوى عند كتاب الرسائل، وفى الخطب، وحاول الكثيرون الالتزام به، ولكن دون تكلف. وقد أشار ابن سنان الخفاجى (ت ٤٤٦ هـ) إلى بعض الكتاب المحدثين الذين اهتموا به قائلاً : ومن الكتاب المحدثين من كان يستعمل السجع كثيراً ولا يكاد يخلُ به، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى، وأبو الفرج المعروف بالبيغاء، ومنهم من كان يتركه ويتجنبه وهو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد، وطريقته غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير أو الإكراه والتكلف، فأما عبد الحميد بن يحيى، وعبد الله بن المقفع، وأبو الربيع محمد بن الليث، وجعفر بن يحيى بن خالد، وإبراهيم بن العباس، وسعيد بن حميد، وأبو عثمان الجاحظ، وأبو على البصير، وأحمد بن يوسف، وإسماعيل بن صبيح، ومحمد بن غلاب، ومحمد بن عبد الله الأصفهاني، وابن ثوابه، وأبو الحسين أحمد بن مسعود، وأبو مسلم محمد بن بحر وأشباههم، فإن السجع فيما وقفت عليه من كلامهم قليل، لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى اليسير من المواضع»<sup>(٢)</sup>.

وقد أتى ابن سنان ببعض النماذج من السجع وعلق عليها بقوله : «وهذا كله سجع يتبع المعانى غير متكلف ولا مستكره، وأمثاله أكثر من أن تحصى»<sup>(٣)</sup>.

١ - البيان والتبيين : ١ / ٢٣٦ .

٢ - سر الفصاحة : ١٧٤ وما بعدها .

٣ - السابق : ١٧٨ .

ولكن الذى يلفت النظر أن بعض الكتاب بالغ فى استعمال السجع، ومن بينهم إسماعيل بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) الذى وصفه أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ هـ) بقوله : « وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول، عند الجد والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد، قلت لأبن المسيبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجة تنحل بموقعها عروة الملك وبضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها الى غرم ثقل وكلفه صعبة وتجشم أمور وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويلبها ، بل يأتى بها ويستعملها، ولا يعأ بجميع ما وصفت من عاقبتها»<sup>(١)</sup>.

وقد أشار أبو حيان إلى أن محاولة إسماعيل بن عباد الالتزام بالسجع والكلف به والحرص عليه أدى الى عزل قاضى مدينة «قم»، فقد قال يوماً : أيها القاضى بقم ... ثم حاول أن يكمل فأعنته ذلك فقال : قد عزلناك فقم. وروى عن معاصر محمد بن الحسين بن العميد (ت ٣٦٠ هـ) قوله : « خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين .... فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لالشيء إلا ليكتب إلينا : « كتابى هذا من النوبهار، يوم السبت فى نصف النهار»<sup>(٢)</sup>.

وأدى الإفراط فى طلب السجع والحرص عليه بابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) إلى مهاجمة أولئك الذين جعلوه هدفاً لهم فى كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم. قال : « وقد رأيت جماعة من متخلفى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصوراً على الألفاظ التى لا حاصل وراءها، ولا كبير معنى تحتها، وإذا أتى بعضهم بلفظ مسجوع على أى وجه، كان من الغشاة والبرودة يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم، ولا يشك فى أنه صار كاتباً مفلحاً. وإذا نظر الى كتاب زماننا وجدوا كذلك، فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدي الجهال الأغمار، ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمارة»<sup>(٣)</sup>.

١- معجم الأدباء : ٦ / ٢٠٧.

٢- السابق : ٦ / ٢٢٠.

٣- المثل السائر : ٢ / ٦٣.

وبعد هذا العرض لاستعمال السجع فى النشر نحاول التعرف على أقسامه التى حدها علماء البلاغة فى أعمالهم العملية.

توقف ابن الأثير أمام السجع أو التسجيع، وقسمه إلى ثلاثة أقسام هى :

#### الأول :

أن يكون الفصلان متساويين، لا يزيد أحدهما على الآخر، كقوله تعالى :  
(فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر)<sup>(١)</sup>.

#### الثانى :

أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول كقوله تعالى : (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً. وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا)<sup>(٢)</sup>.

#### الثالث :

أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول وقد عابه ابن الأثير، وذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله، ثم يجرى الفصل الثانى قصيراً عن الأول، فيكون كالشئء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها.

ثم قسم ابن الأثير السجع بأنواعه المختلفة، وضروره المتنوعة إلى ضربين أو نوعين أساسيين هما :

#### الأول : السجع القصير

وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة .. وأحسنه ما كان مؤلفاً من لفظتين كقوله تعالى : (ياأيها المدثر. قم فأندر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر)<sup>(٣)</sup>.

١- الضحى : ٩ / ١٠ .

٢- الفرقان : ١١ - ١٣ .

٣- المدثر : ١ - ٥ .

## الثانى : السجع الطويل:

وهو ما تكون الأجزاء فيه مؤلفة من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة ... إلى العشرة كقوله تعالى : (والنجم إذا هوى. ما ضلُّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى)<sup>(١)</sup>

وأضاف الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـ) إلى هذين النوعين نوعاً ثالثاً سماه «السجع المتوسط»<sup>(٢)</sup> واستشهد عليه بقوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)<sup>(٣)</sup>.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن القزوينى استخدم ثلاثة من المصطلحات تحدث فى إطارها عما أسماه «أضرب السجع» وهى : مطوّف، ومتواز، وترصيع. ثم يقول معرفاً بها : «لأن الفاصلتين إن اختلفتا فهو السجع المطوّف كقوله تعالى : (ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً)<sup>(٤)</sup> وإلا ، فإن كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ، أو أكثر ما فيها، مثل ما يقابلة من الأخرى فى الوزن والتقفية فهو الترصيع كقول الحريرى : «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه»، وكقول أبى الفضل الهمذانى : «إن بعد الكدر صفواً، وبعد المطر صحواً» وقول أبو الفتح البستى: «ليكن إقدامك توكللاً، وإحجامك تأمللاً». وإلا فهو السجع المتوازى كقوله تعالى: (فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة)<sup>(٥)</sup> وفى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم: «اللهم إنى أدربك فى نحوهم، وأعوذ بك من شرورهم»<sup>(٦)</sup>.

ونختم هذا الحديث عن السجع وأنواعه أو أضربه بتقديم المصطلحات الخاصة

(١) النجم / ١ - ٤ .

(٢) الإيضاح فى علوم البلاغة : ٥٤٧ .

(٣) القمر / ١ - ٢ .

(٤) نوح / ١٣ .

(٥) الغاشية / ١٣-١٤ .

(٦) الإيضاح: ٥٤٧ .

به، مع الإشارة إلى بعض المصطلحات السابقة حتى يكون العرض أوضح.

١- **التسجيع الحالى**: وهو كل كلمتين جاءتا فى الكلام المنشور على زنة واحدة تصلح أن تكون إحداهما قافية أمام صاحبها كقولك: «فلان لاندرك فى المجد غايته، ولا تنسخ من الفضل آيته». ويكفى فى ذلك كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعويد الحسن والحسين عليهما السلام: «أعيزكما من الهامة والسامة وكل عين لامة»؛ وكذلك قوله: «يرجمن مأزورات غير مأجورات». وبمقدار ماتوازن اللفظتان ويلزم فيهما من تكرار الحروف يكون التبريز فى ذلك<sup>(١)</sup>. وسُمى هذا النوع الحالى؛ لأنه حُلّى بحسن العبارة ولطف الإشارة وبدائع التمثيل والاستعارة، وجاء من الأسجاع والفواصل مالم يأت فى التسجيع العاطل، وهو النوع التالى.

٢- **التسجيع العاطل**: وهو أن تقابل اللفظة أختها ولا تجمع بينهما القافية، وكثير من الكتاب البلغاء يقصده لخلوه من التكلف وجريانه على سجية الكلام دون التصنع، وهو إذا كان من القادر حسن، وإذا كان من العاجز قصور، وهو كقوله: «قلْ أهل الدين والأمانة فإلى من يسكن وعلى من يعول» فقال «يعول» فى قبالة «يسكن» فلو شاء قال «يظهر ويطن» أو «فيما يسر ويعلن». فإذا كان الكاتب متمكناً من البلاغة عدّ ذلك منه تنزلاً وطلباً للاختصار واعتناء بحصول المعنى إلى المخاطب بالألفاظ النقية من غير التفات إلى تصنيع السجع<sup>(٢)</sup>. وسُمى هذا النوع العاطل لقلة تخلّيته بالأسجاع والفواصل، وهذا النوع هو الأصل، والتجمل بكثرة السجع فرع طارئ عليه<sup>(٣)</sup>.

٣- **التسجيع المتماثل**: وقد عرّفه السيوطى بقوله: «أن يتساوى فى الوزن دون التقفية، ويكون أفراد الأولى مقابلة لما فى الثانية، فهو إلى المرصّع كالماتوازن بالنسبة

١- معالم الكتابة: ٦٩.

٢- معالم الكتابة: ٧٠.

٣- إحكام صناعة الكلام: ٩٦.

إلى المتوازي<sup>(١)</sup>. ومنه قوله تعالى: «وَاتَيْنَاهُمَا الكتابَ المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم»<sup>(٢)</sup> فـ «الكتاب» و «الصراط» متوازنان، وكذلك «المستبين» و «المستقيم» واختلفا في الحرف الأخير.

٤- التسجيع المتوازن: هو أن يتفقا في عدد الحروف ولا يتفقا في الحرف الأخير، ومنه قوله تعالى: (ونمارق مصفوفة. وزرابى مبشوة)<sup>(٣)</sup>. ويرى بعض المتأخرين من علماء البلاغة كالقزويني أن هذا النوع يسمى «الموازنة» وأدرجوه ضمن المحسنات اللفظية، وقد قال عنه: «وهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية»<sup>(٤)</sup>.

٥- التسجيع المتوازي: وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة مع نظيرتها في الوزن والروى، كقوله تعالى: (فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة)<sup>(٥)</sup>.

٦- التسجيع المرصع: وسماه بعضهم الترصيع، وهو مقابلة كل لفظة بلفظة على وزنها ورويها، كقوله تعالى: (إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم)<sup>(٦)</sup>.

٧- التسجيع المشطر: وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الأخير، كقول أبي تمام:

تدير معتصم بالله منتقم      لله مرغب في الله مرتقب

٨- التسجيع المطرف: وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روى الأسجاع روى القافية. ولابن القيم مصطلح آخر هو «المتطرف» وقال عنه: «هو أن

١- معترك الأقران: ٥٠/١.

٢- الصافات / ١١٧-١١٨.

٣- الغاشية / ١٥-١٦.

٤- الإيضاح: ٣٩٨.

٥- الغاشية / ١٣-١٤.

٦- الانفطار / ١٣-١٤.



تتفق الكلمتان الأخيرتان في الحرف الأخير دون الوزن<sup>(١)</sup>. ومن هذا الضرب قوله تعالى: (مالكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً)<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا الحديث عن أنواع السجع والمصطلحات التي أطلقها المتأخرون على بعض تلك الأنواع نحاول التعرف على الجمال الذي يخلمه حين الأداء اللغوي.

إن السجع ظاهرة أسلوبية تدل على عناية العرب بالفاظها؛ لأنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميتها أصلحها ورتبها، وبالفوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد، ويرى ابن جني أن السجع يؤدي إلى سرعة الحفظ للمثل لوجود الرنين الموسيقي فيه. قال: «ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لُدَّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ماوضع له، وحيء به من أجله»<sup>(٣)</sup>.

والأصل في السجع الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع. وشرط السجع الحسن أن يصفى من الغثاء، وأن يكون اللفظ تابعاً للمعنى<sup>(٤)</sup>، وهو كما قال عبد القاهر: «ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولاً وآخرأ، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيته، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ. فإنها إذا تركت وماتريد ما لم تكتسب إلا مايليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا مايزينها، فإما أن تضع في نفسك أنه لايد من أن يجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم». وقال أيضاً: «لا تجد تجنيساً مقبولاً ولاسجماً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق

١- الفوائد: ٢٢٦.

٢- نوح ١٣-١٤.

٣- الخصائص: ٢١٦/١.

٤- الدكتور أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية ١٤٨/٢.

نحوه، وحتى تجده لاتتبنى به بدلاً، ولاتجد عنه حوله<sup>(١)</sup>. واهتم ابن سنان الخفاجى أيضاً بالتركيز على خلو السجع من التكلف، وعبر عن ذلك بقوله: «والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه»<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان عبد القاهر وابن سنان قد ركزا على أهمية ابتعاد السجع عن التكلف، وأن تكون المعانى مرسلة على سجيتهما فإن ابن الأثير توقف أمام الحديث عن سر خاص بالسجع، قال عنه: «واعلم أن للسجع سرّاً هو خلاصته المطلوبة، فإن عرى منه فلا يمتد به أصلاً، وهذا شيء ولم ينبه عليه أحد غيرى...» والذى أقول فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليها بدونها، وإذا وردت سجعتان يدلان على معنى واحد كانت إحداهما كافية فى الدلالة عليه. وجلّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه<sup>(٣)</sup>.

وهناك شروط وضعها علماء البلاغة تؤدى إلى جمال السجع وحسنه، وتبعده عن التكلف، وقد جمع تلك الشروط يحيى العلوى، وقدم لها بقوله: «إن المقصود بالتسجيع فى الكلام إنما هو اعتدال مقاطعه وجريه على أسلوب متفق؛ لأن الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء، يميل إليه الطبع، وتتشوق إليه النفس، لكنه لا يحسن كل الحسن، ولا يصفو مشربه إلا باجتماع شرائط أربعة». ويمكن تقديم تلك الشرائط على النحو الآتى:

١- ويرجع الشرط الأول إلى المفردات، وهى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق رطبة طنانة، صافية على السماع حلوة طيبة رنانة، تشتاق إلى سماعه

١- أسرار البلاغة: ١٠.

٢- سر الفصاحة: ١٧١.

٣- المثل السائر: ١٩٨/١.

الأنفس، ويلد سماعها على الأذان، مجنبه عن الغثاثة والرداءة، ونعني بالغثاثة والرداءة أن الساجع يصرف نظره إلى مؤاخاة الأسجاع وتطابق الألفاظ، ويهمل رعاية حلاة اللفظ، وجودة التركيب وحسنه، فعند هذا تمسه الرداءة، وتفارقه الحلاوة.

٢- ويرجع الشرط الثاني إلى التركيب، وهي أن تكون الألفاظ المسجوعة في تركيبها تابعة لمعناها، ولا يكون المعنى فيها تابعاً للألفاظ، فتكون ظاهرة التحويه وباطنة التشويه، والمقصود بذلك أنك إذا أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك، ولا سمحت قريحتك به إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه من غير حاجة إلى ذلك النقصان وتلك الزيادة، وإنما تأتي بالزيادة والنقصان من أجل تسوية السجع وإظهار جوهره لا من أجل المعنى، فما هذا حاله هو الذي يذم من التسجيع ويقبح، لما فيه من إصلاح اللفظ دون المعنى، ولما فيه من التكلف والتعسف المستغنى عنه، فأما إذا كان من غير تكلف فإنه يأتي في غاية الحسن.

٣- أن تكون المعاني الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة ولا ركيكة مستبشرة؛ لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع وكانت غير قابلة لها، وإذا كانت ركيكة مجتهدا الأسماع، فكل واحدة من السجعتين دال على معنى حسن بانفراده، لكن انضمام إحدهما إلى الأخرى هو الذي يتأفر من أجل التركيب.

٤- أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذي دلت عليه الأخرى؛ لأنه إذا يكون من باب التكرير فيكون على هذا لا فائدة فيه<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالجمال الذي يحققه السجع حين استعماله، نقدم بعض الأمثلة المتداولة في كتب البلاغة للسجع، وهي على النحو الآتي:

١- قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً».

٢- وقال: «ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور».

٣- وقال: «وقدر أَيْم الليل والنهار كيف ييليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتیان بكل موعود».

٤- قال الإمام على - كرم الله وجهه - : «الحمد لله الذى علّا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل كربهة وأزل، أحمدته على عواطف كرمه، وسوايغ نعمه، وأومن به أولاً بادياً، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً...».

٥- قال أعرابي ذهب بابنه السيل: «اللهم إن كنت قد أبليت، فإنك طالما عافيت».

٦- وقال أعرابي لرجل سأل لثيماً: «نزلت بوادٍ غير مطور، وفناء غير معمور، ورجل غير ميسور، فأقم بندم، أو ارحل بعدم».

٧- وقال أعرابي: «باكرنا وسمى، ثم خلفه ولى، فالأرض كأنها وشى منشور، عليه لؤلؤ منشور، ثم أتتنا غيوم جراد، بمناجل حصاد، فجردت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوى الأكل، بالضعيف المأكول»<sup>(١)</sup>.

٨- قال بديع الزمان الهمذاني فى كتاب له إلى صديقه: «كتابى والبحر وإن لم أراه؛ فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقه، تصورت خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، قد لقيني صيته، ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره».

١- الوسمى: مطر الربيع الأول؛ لأنه يسم الأرض بالنبات، والولى: المطر الثانى، والمناجل: جمع منجل وهو ما يحصد به، وجردت البلاد: جعلتها قاحلة سوداء.

٩- يرى بعد علماء البلاغة أن السجع ليس وقفاً على النثر؛ بل يكون في النظم،  
كقول أبي تمام يمدح أبا العباس نصر بن بسام:  
تَجَلَّى به رُشدى، وأثرتْ به يدي      وقاض به تَمْدِي، وأروى به زَنْدِي<sup>(١)</sup>

وقول الخنساء:

حامى الحقيقة محمود الخليفة      مهدي الطريقة نفّاع وضار  
جواب قاصية جزار ناصية      عقاد ألوية للخليل جزار

وقول الشاعر:

ومكّارم أوليتها متبرعا      وجرائم ألفتها متورعا

ونختم هذا العرض بقضية نالت اهتمام القدماء والمحدثين من المشتغلين  
بالدراسات النقدية والبلاغية وهي:

**السجع في القرآن الكريم:** ذمّ بعض العلماء السجع وحاول نفيه من  
القرآن الكريم، في حين أن بعضهم الآخر لم يرد ذلك وقال بوجوده في الكتاب  
العزیز مع استعمال مصطلح «الفاصلة» بدلاً من «السجع». وتتعرف على آراء كلا  
الفرقتين، معتمدين على الباقلائي وغيره

عقد الباقلائي (أبي بكر محمد بن الطيب ٣٣٨-٤٠٣هـ) في كتابه (إعجاز  
القرآن) فصلاً يدور حول «نفي السجع من القرآن» بدأه بقوله: «ذهب أصحابنا  
(يقصد الأشاعرة) كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره الشيخ أبو الحسن  
الأشعري - رضي الله عنه - في غير موضع من كتبه». ثم يشير الباقلائي إلى  
أولئك الذين قالوا بوجود السجع في القرآن الكريم قائلاً: «ذهب كثير من

١- تجلّی: تكشف وظهر، ورشدي: هداي، وأثرت: كثر مالها، والتمد: الماء القليل يتجمع شتاءً  
ويتغيب صيفاً، وأروى زندي: أخرج ناره، والبزند: عود تستخرج النار بحكه في عود آخر أسفله  
يسمى الزندة.

بخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان والفصاحة، كالتجنيس والالتفات، وما أشبه ذلك من الوجوه التي تُعرف بها الفصاحة. وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، ولمكان السجع قيل في موضع: (موسى وهارون) <sup>(١)</sup>. ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون، قيل: في موضع: (هارون وموسى) <sup>(٢)</sup> ويستمر الباقلائي في عرض آراء من قالوا بوجود السجع في الكتاب العزيز، ويرد عليهم بما يأتي:

١- لو كان القرآن الكريم سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلًا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولوجاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز أن يقال: شعر معجز.

٢- كان السجع مما يألّفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن الكريم أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوة، وليس كذلك الشعر.

٣- ذم النبي صلى الله عليه وسلم السجع، وقد رُوِيَ أنه قال للذين جاءوه وكلموه في شأن الجنين: كيف ندى من لاشرب ولا أكل، ولاصاح فاستهل، أليس دمه قد يطل؟.

فقال: «أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟» وفي بعضها: «أسجعاً كسجع الكهان؟» وهذا دليل على قبح السجع في الكلام والكرامية له من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤- وماقدروه على أنه سجع وهم في الحقيقة؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً؛ لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع. وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن الكريم؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى.

٥- إذا كانت هناك مواضع يمكن التسليم بأنها من السجع في القرآن الكريم وتؤدي إلى الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها؛ فإن تلك المواضع عبارة عن اعتراض في الخطاب، ولاتعد سجعاً.

٦- لو كان الذي في القرآن الكريم على مائقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه، كان قبيحاً من الكلام. وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أحل به المتكلم وقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة. كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن الملهود كان مخطئاً، وكان شعره مردولاً، وربما أخرجه عن كونه شعراً.

٧- لو كان في القرآن الكريم سجع لما تحير العرب فيه، ولكانت الطبائع تدعو إلى المعارضة؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة، وهو غير خارج عنها ولا متميز منها؟ وقد عبر الباقلائي عن ذلك تعبيراً آخر قائلاً: «ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحراً، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه إليه ويتوهمونه فيه. وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم».

٨- مذكروه من تقديم موسى على هارون - عليهما السلام - في موضع، وتأخيرته عنه في موضع لمكان السجع وتساوى مقاطع الكلام، ليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه. وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب، الذي تظهر به الفصاحة، وتبين به البلاغة. وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً<sup>١١</sup>.

١- الباقلائي: إعجاز القرآن ٥٧ وبعابدها.

وبعد هذا العرض لآراء الباقلاني التي نفى بها وجود السجع من القرآن الكريم نشير إلى أن هناك الكثيرين من علماء اللغة العربية على اختلاف اهتماماتهم العلمية كانوا يرون الرأي نفسه، ومع ذلك فهناك بعض علماء البلاغة الذين قالوا بوجود السجع في الكتاب العزيز، وتقدم آراءهم في هذا المجال.

يرى أبو هلال العسكري أن السجع يؤدي إلى الجمال في النثر إذا كان مزدوجاً، وأشار إلى وجوده في الكتاب العزيز بقوله: «جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق».

وتوقف العسكري أمام السجع في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأقواله موضحاً أن حديث «أسجماً كسجع الكهان» الذي أشرنا إليه من قبل المقصود به النهي عن هذا النوع من السجع الذي يشبه سجع الكهان في تكلفه وتعسفه، وانتهى أبو هلال العسكري إلى قوله: «إذا سلم (السجع) من التكلف وبريء من التعسف، لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه»<sup>(١)</sup>.

وتوقف ابن سنان الخفاجي أمام السجع، ولم ينكر وجوده في القرآن الكريم، وهو عنده من الظواهر البلاغية المحمودة في النصوص على وجه العموم، ولكن لماذا لم يأت القرآن الكريم كله مسجوعاً؟ يقول ابن سنان مجيباً عن هذا السؤال: «إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم، وكان الفصحح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً، لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، لاسيما فيما يطول من الكلام، فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم، ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام... فلم يجز أن يكون عالياً في الفصاحة وقد أخل فيه بشروط من شروطها، فهذا هو السبب في ورود القرآن مسجوعاً وغير مسجوع»<sup>(٢)</sup>. ومن هنا فإن المذهب الصحيح - عند ابن

١ - كتاب الصناعتين: ٢٨٥ وما بعدها.

٢ - سر الفصاحة: ١٧٤.



سنان - أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أن لم يُقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه.

وتوقف ابن الأثير أيضاً أمام السجع ومن ذمه وأنكر وجوده في القرآن الكريم قائلاً: «وقد ذمه (يقصد السجع) بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولأرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم فإنه أتى منه الكثير، حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعاً مسجوعةً كسورة الرحمن، وسورة القمر وغيرهما. وبالجمله فلم تخل منه سورة من السور». ويرى ابن الأثير أن حديث «أسجعا كسجع الكهان» لا يتضمن النهى عن السجع على إطلاقه، أو النهى عن السجع نفسه، وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع، وينتهى ابن الأثير إلى أن السجع يخلع الفصاحة والبلاغة عن الأداء اللغوى «إذا كان محمولاً على الطبع، غير متكلف، فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا نهياً للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة، فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم، يستعيد كرائمها، ويستولد عقائمهافي وفي ذلك فليتنافس»<sup>(٢)</sup>.

ودافع حازم القرطاجنى (ت ٦٨٤هـ) عن السجع في كلام العرب، والفواصل في القرآن الكريم قائلاً: «وكيف يُعاب السجع على الإطلاق! وإنما نزل القرآن على أساليب الفصح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع في كلام العرب، وإنما لم يجيء على أسلوب واحد؛ لأنه لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه. ولأن الاقتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، فلهذا روت بعض آى القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل»<sup>(٣)</sup>.

١- المثل السائر: ٢١٠/١ وما بعدها.

٢- منهاج البلاغة: ٣٣٨ وما بعدها.

واهتم يحيى العلوى (ت ٧٤٩هـ) بالعرض للجدل الذى ثار بين علماء البلاغة حول السجع فى الذكر الحكيم؛ وذلك فيما كتبه تحت عنوان «ذكر حكمه فى الاستعمال»، مشيراً إلى أن هناك مذهبيين:

**المذهب الأول:** جوازه وحسنه، وهذا هو الذى عول عليه علماء أهل البيان، والحجة على ذلك هى أن كتاب الله تعالى، والسنة النبوية، وكلام أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) مملوء منه، وكلام البلغاء أيضاً .. فلو كان مستكرهاً لما ورد فى هذا الكلام البالغ فى الفصاحة كل مبلغ، ولأجل كثرته فى ألسنة الفصحاء لا يكاد بليغ من البلغاء يربخل خطبة ولا يحرق موعظة إلا ويكون أكثره مبنياً على التسجيع فى أكثره، وفى هذا دلالة قاطعة على كونه مقولاً مستعملاً فى ألسنة الفصحاء فى المقامات المشهورة، والمحافل المعهودة.

**المذهب الثانى:** استكراهه (يقصد السجع)، وهذا شئ حكاه ابن الأثير، ولم أعرف قائله، ولا وجدته فيما طالعت من كتب البلاغة.

ويتوقف العلوى أمام حديث «أسجعاً كسجع الكهان» ويبين رأيه فيه قائلاً: «إنه لم ينكر السجع مطلقاً، وإنما أنكر سجعاً مخصوصاً وهو سجع الكهان؛ لأن أكثر أخبارهم عن الأمور الكونية، والأوهام الظنية، على جهة السجع ونطاق أعجاز الألفاظ..» وينتهى العلوى فى حديث عن السجع إلى قوله: «والخيار قبوله، ولو لم يكن جائزاً فى البلاغة لما أتى عليه أفصح الكلام وهو التنزيل، ولما جاء فى كلام سيد البشر، وكلام أمير المؤمنين؛ لأن هذه هى أعظم الكلام بلاغةً، وأدخلها فى الفصاحة، فلأيمكن ترك هذا الأسلوب من الكلام لقصة عارضة من جهة الرسول، يمكن حملها على وجه لائق كما أشرنا إليه»<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض للجدل الذى ثار بين العلماء حول وجود السجع فى القرآن الكريم من عدمه، نشير إلى أننا نتوسط فنقول بوجوده فى الكتاب العزيز على أن نطلق عليه مصطلح «الفاصلة» أو توافق رؤس الآيات؛ لأن أصل السجع من سجع

الطير، فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس، ولأن القرآن من صفات الله عز وجل؛ فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى، ثم فرقوا بينهما فقالوا: السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحيل المعنى عليه، والفواصل التى تتبع المعانى، ولا تكون مقصودة فى نفسها<sup>(١)</sup>.

والفاصلة (وجمعها فواصل) من المصطلحات الأصلية فى الدراسات اللغوية، فقد أشار الخليل بن أحمد إلى الفواصل مع ربطها بالسجع فى قوله: «سجع الرجل: إذا نطق بكلام له فواصل كقوافى الشعر من غير وزن»<sup>(٢)</sup>. وعرفها سيبويه أيضاً وقد قرنها بالقوافى<sup>(٣)</sup>. وعرف الفراء الفواصل، وأضاف إليها مصطلحاً آخر له الدلالة نفسها وهو «رؤس الآيات» ومن أمثلة ذلك توقفه أمام قوله تعالى: (والليل إذا يسر)<sup>(٤)</sup> وماورد بإثبات الياء «يسرى» فى إحدى القراءات قائلاً: «وقد قرأ القراء (يسرى) بإثبات الياء، و(يسر) بحذفها، وحذفها أحب إلى لمشاكلتها رؤس الآيات، ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفى بكسر ما قبلها منها، أنشدنى بعضهم:

كفأك كف مائليق درهماً  
جوداً، وأخرى تعط بالسيف الدما  
وأنشدنى آخر:

ليس تخفى يسارتى قدر يوم  
ولقد تخف شيمتى إعسارى<sup>(٥)</sup>

وقال تعالى: (ما ودعك ربك وما قلى)<sup>(٦)</sup> (وما قلى) يريد: وما قلاك، فألغيت الكاف كما تقول: قد أعطيتك وأحسنت، ومعناه: أحسنت إليك، فتكتفى بالكاف الأولى من إعادة الأخرى؛ ولأن رؤس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه<sup>(٧)</sup>.

١- الزركشى: البرهان فى علوم القرآن ٥٤١/١.

٢- العين: ٢١٤/١.

٣- الكتاب: ١٨٤/٤ وما بعدها.

٤- الفجر: ٤.

٥- معانى القرآن: ٢٦٠/٣.

٦- الضحى: ٣.

٧- معانى القرآن: ٢٧٤/٣.

واهتم العلماء فى العصور المتأخرة بالفواصل وتعريفها ودورها الصوتى فى الكلام، وكيف تؤدى إلى تحسينه. يقول الزركشى (ت١٧٩٤هـ): «وتقع الفاصلة عند الاستراحة فى الخطاب لتحسين الكلام بها، وهى الطريقة التى يبين القرآن بها سائر الكلام. وتسمى فواصل؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان؛ وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، ولم يسموها أسجاءاً»<sup>(١)</sup>. ومن هنا فالفواصل فى القرآن الكريم كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهم المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها، وهى على وجهين:

أحدهما: على الحروف المتجانسة كقوله تعالى: (طه). ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكره لمن يخشى<sup>(٢)</sup>... الآيات؛ وكقوله: (والطور) وكتاب مسطور).....<sup>(٣)</sup> الآيات

الآخر: على الحروف المتقاربة كالميم مع النون فى قوله تعالى: (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)<sup>(٤)</sup>، والدال مع الباء نحو: (ق. والقرآن المجيد) ثم قال: (هذا شيء عجيب)<sup>(٥)</sup>. وإنما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة؛ لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع، لمافيه من البلاغة وحسن العبارة<sup>(٦)</sup>.

\* \* \*

وبعد فهذه محاولة للتعرف على السجع فى النثر العربى، والجدل الذى ثار بين العلماء حول وجوده فى الكتاب العزيز من عدمه، وبيان مايقصدونه بمصطلح الفاصلة ورؤس الآيات.

ونتقل الآن إلى الحديث عن «علم الجمال التركيبى» وهو موضوع الفصل التالى.

١ - البرهان: ١ / ٥٤.

٢ - طه / ١ - ٣.

٣ - الطور / ١ - ٢.

٤ - الفاتحة / ٣ - ٤.

٥ - ق / ١ - ٢.

٦ - الرمانى: التكت فى إعجاز القرآن ٩٨.

## الفصل الرابع

### علم الجمال التركيبي



## السياق ودوره في جمال النص

يعد «السياق context أساس علم الجمال التركيبي، ونعني به هاهنا الأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية التي تلتحم فيما بينها لتكون سياقاً لغوياً، نستطيع أن نحكم عليه بال جودة أو الرداءة حسب معايير نقدية معينة؛ لذلك يقولون: «إن الغرض الذي يرمى إليه فن الأدب هو التعبير والتصوير والتوصيل، وليس الغرض من تأليف الأدب وإنشائه أن يكون جميلاً، وإنما نقضى له بالجمال إذا نجح في الغرض الذي يرمى إليه»<sup>(١)</sup>. ونحاول التعرف على مفهوم السياق أو النظم عند القدماء من العلماء العرب.

ورد في القرآن الكريم تحدى العرب ببلاغته وفصاحته. قال تعالى: (قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: (قل فأتوا بعشر سور مثله)<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: (بسورة من مثله)<sup>(٤)</sup>، ولم يكن التحدى علي مستوى اللفظة المفردة؛ لأنه ليست هناك كلمة جميلة وأخرى قبيحة، وإنما يراد هذا كله إلى السياق أو «التركيب النحوي». قال عبد القاهر: «وإذا كان كذلك؛ فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون اللفظة المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدثت في مذاقة حروفها وأصداؤها أوصاف لم تكن، لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزود القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن»<sup>(٥)</sup>.

وعبر عبد القاهر عن أهمية السياق في إضفاء الجمال على الكلمة في قوله:

(١) قواعد النقد الأدبي: ٤٦.

(٢) الإسراء / ٨٨.

(٣) هود / ١٣.

(٤) البقرة / ٢٣.

(٥) الدلائل: ٣٨٦.

«وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ «الأخدع» في بيت الحماسة:

تلفتُ نحو الحيِّ حتى وجدتني      وجِعتُ من الإصغاء لبيتِ وأُخدعاً<sup>(١)</sup>  
وبيت البحري:

وإني وإنْ بلغتني شرفَ الغنى      وأعتقتَ من رِقِّ المطامع أخدعي  
فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يادهرُ قومٌ من أخدعيك، فقد      أضججتَ هذا الأنامَ من خرقِ<sup>(٢)</sup>  
فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة.

«ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء» فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع. وإن أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ومن مالي عينية من شيءٍ غيره      إذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدمي  
وقول أبي حية:

إذا ما تقاضى المرءَ يومَ وليلةٍ      تقاضاه شيءٌ لا يملُ التقاضيا  
فإنك تعرف حسنهما ومكانهما من القبول، ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لَوِ الْفَلَكُ الدُّوَارُ أَبْغَضْتَ سَعِيَهُ      لَمَسْوَقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدُّورَانِ<sup>(٣)</sup>

(١) البيت للصمة بن عبد الله القشيري. والليت: صفحة العنق، والأخدع: أحد عرقين في جاني العنق، وهما الأخدعان.

(٢) الخرق: الجهل والحمق، ويجوز ضم الراء وتسكينها.

(٣) تشير إلي أن البيت من قصيدة مطلّوها:

عدوك مذموم بكل لسان      ولو كان من أعدائك القمران

وقد خالف بعض النقاد وشارحي ديوان المتنبي عبد القاهر في حكمه على البيت. انظر شرح ديوان المتنبي: ٢٤٧ / ٤.



فإنك تراها تقل وتضؤل، بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك كلمة «الجسر» التي وردت في ثلاثة أبيات من الشعر، ولكنها تتفاوت حسب السياق الذي ترد فيه. قال عبد القاهر: «إنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحظة لا تجدها في الباقي. مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة «الجسر» في قول أبي تمام:

لا يطمعُ المرءُ أن يجابَ لُجَّتَه      بالقولِ ما لم يكن جسرًا له العملُ<sup>(٢)</sup>

وقوله:

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْعِظْمَى فَلَمْ تَرَهَا      تُنَالُ إِلَّا عَلَى جَسَرٍ مِنَ التَّعَبِ  
فترى لها في الثاني حسناً لانهاء في الأول، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرُّمَى:

قولِي نَعَمْ، وَنَعَمْ إِنْ قُلْتَ وَاجِبَةً      قَالَتْ: عَسَى، وَعَسَى جَسْرٌ إِلَى نَعَمْ  
فترى لها لطفًا وخلاصة وحسنًا ليس الفضل فيه بقليل<sup>(٣)</sup>.

ويركز هذا الدرس التطبيقى الذي قدمه عبد القاهر لدور السياق في الحكم على بلاغة كل بيت من تلك الأبيات، على اللغة التي استعملها الشعراء في التعبير عن الدلالة التي يريدون توصيلها إلى السامع؛ لذلك فاللغة عنده ليست مجموعة من الألفاظ؛ بل مجموعة من العلاقات التي تنشأ فيما بين تلك الألفاظ التي «لأنفيع حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب»<sup>(٤)</sup>. ولعله مما يؤكد على أهمية السياق عند عبد القاهر هذا التحليل اللغوى الذى ركز فيه على «معانى النحو» لبعض الآيات الكريمة وأبيات الشعر، ومن أمثلة ذلك توقفه أمام قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين)<sup>(٥)</sup>

(١) الدلائل: ٤٦ - ٤٨.

(٢) يجتاب: يقطع، ولجة الأمر: معظمه.

(٣) الدلائل: ٧٨ و ٧٩.

(٤) أسرار البلاغة: ٢.

(٥) هود / ٤٤.

بالتحليل الذى ركز فيه على النواحي الآتية:

- أن نوديت الأرض (يا أرض) ثم أمرت (ابلى).
- أن كان النداء بـ (يا) دون «أى» نحو «يا أيتها الأرض».
- إضافة الماء إلى الكاف (ماءك) دون أن يقال: «ابلى الماء».
- أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها.
- التعبير باستخدام الفعل المبني للمجهول. قال عبد القاهر: «ثم أن قيل: (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة «فعل» الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر أمر وقدرة قادر».
- التأكيد والتقرير بقوله تعالى: (وقضى الأمر).
- ذكر ما هو فائدة هذا الأمر، وهو (استوت على الجودى).
- إضمار السفينة قبل الذكر.
- مقابلة (قيل) فى الخاتمة بـ (قيل) فى الفاتحة<sup>(١)</sup>.

وقد اهتم حازم القرطاجنى بـ «النظم» وصناعته، وحدد بعض النواحي اللغوية التى تساعد على التمكن فيه. قال: «النظم صناعة ألّتها الطبع. والطبع هو استكمال للنفس فى فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التى من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علماً قويت على صوغ الكلام بحسبه عملاً، وكان النفوذ فى مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف فى مذاهبه وأنحائه إنما يكونان بقوى فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء». وحدد حازم عشر قوى تساعد على التمكن من النظم وصناعته، وهى على النحو الآتى:

(١) الدلائل: ٤٦. ونشير إلى أننا قد عرضنا لهذا التحليل حين حديثنا عن الكشف عن الإعجاز القرآنى ونشأة علم الجمال اللغوى، وأعدناه هاهنا حتى يكون عرض عبد القاهر للنظم ودوره فى جمال النص واضحاً.

- ١- القوة على التشبيه فيما لايجرى على السجية ولايصدر عن قريحة بما يجرى على السجية ويصدر عن قريحة.
- ٢- القوة على تصور كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعاني الواقعة فى تلك المقاصد ليتوصل بهذا إلى اختيار ما يجب لها من القوافى ولبناء فصول القصائد على ما يجب.
- ٣- القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعاني والأبيات والفصول من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمته إن كانت محتاجة إلى شئ معين فى ذلك.
- ٤- القوة على تخيل المعانى بالشعور بها واجتلابها من جميع جهاتها.
- ٥- القوة على ملاحظة الوجوه التى بها يقع التناسب بين المعانى وإيقاع تلك النسب بينها.
- ٦- القوة على التهدى إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعانى.
- ٧- القوة على التحيل فى تسيير تلك العبارات منزنة وبناء مبادئها على نهاياتها ونهاياتها على مبادئها.
- ٨- القوة على الالتفات من حيز إلى حيز والخروج منه إليه والتوصل به إليه.
- ٩- القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض والأبيات بعضها ببعض والإصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التى لا تجدد النفوس عنها نبوة.
- ١٠- القوة الماتزة حسن الكلام من قبيحه بالنظر إلى نفس الكلام والنسبة إلى الموضع الموقَّع فيه الكلام. فقد يتفق للشاعر أن ينظم بيتين قافيتهما واحدة فيكون أحدهما أحسن فى نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلى المحل الذى يوقعه فيه من جهة لفظ أو معنى أو نظام أو أسلوب. ففى مثل هذا الموضع يصير المرجوح راجحاً والمفضول فاضلاً. وكثير ممن ليست له هذه القوة يسقط

أحسن مما يثبت بالنسبة إلى المهمل<sup>(١)</sup>.

وقد أفاد بعض علماء البلاغة الذين أتوا بأخرة مما كتبه عبد القاهر عن النظم ودوره في جمال النص، ومن أولئك ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) الذي أشار إلى أن الخطيب والشاعر يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

١ - اختيار الألفاظ المفردة.

٢ - نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجي الكلام قلقاً نافرأ عن موضعه.

٣ - الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه.

ويعلق ابن الأثير على تلك الأشياء بقوله: «فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر؛ فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثالثة بجملتها هي المراد بالبلاغة».

ويرى ابن الأثير أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه؛ بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره. ويمثل ابن الأثير لذلك بلفظتي (الجوف) و (البطن) في قوله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)<sup>(٢)</sup> وقوله: (رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً)<sup>(٣)</sup>؛ فاستعمل (الجوف) في الأول والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضاً، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل؟.

(١) منهاج البلاغة: ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) الأحراب / ٤١.

(٣) آل عمران / ٣٥.

ويوضح ابن الأثير الدور الذى يؤديه التركيب النحوى فى خلع الجمال على المفردات التى هى جزء من السياق اللغوى، ويشير إلى أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشق، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب. ويستشهد ابن الأثير على التركيب ودوره بالآية الكريمة التى عرض لها عبد القاهر، وهى قوله تعالى: (وقل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء وأقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين)<sup>(١)</sup> وقد علق عليها ابن الأثير بقوله: «إنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها. فإن ارتب فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية»<sup>(٢)</sup>.

ويعرض لما عرض له عبد القاهر من مقارنة الألفاظ المتشابهة داخل السياقات المختلفة؛ فيقول: «إنك ترى اللفظة تروك فى كلام، ثم تراها فى كلام آخر فنكرها، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ فى تركيبها وانفرادها». ويمثل ابن الأثير لذلك بلفظة وردت فى آية من القرآن الكريم، وبيت من شعر المتنبى، فجاءت فى الكتاب العزيز جزلة متينة، وفى الشعر ركيكة ضعيفة، فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين؛ أما الآية فهى قوله تعالى: (فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق)<sup>(٣)</sup>، وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى من قصيدة له يمدح فيها الغيث بن على العجلي:

(١) هود / ٤٤.

(٢) المثل السائر: ١ / ١٥٢.

(٣) الأحزاب / ٥٣.

تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تَوْذِي وَمِنْ يَعْشَقُ يَلْدُ لَهُ الْغَرَامُ  
وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلا أن لفظة «تؤذى» قد جاءت فيه وفي الآية  
من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، وحسن موقعها في تركيب الآية  
الكريمة.

وعلى الرغم من محاولة ابن الأثير خلع الجمال على السياق أو التركيب فإنه  
عرض لما يتصل بفصاحة اللفظة المفردة، وأشار إلى أن بعض الألفاظ يحتمل  
الجمال في نفسه، لذلك نجده يقول: «إن الألفاظ تجرى من السمع مجرى  
الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة  
ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج،  
ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموها (لبسو اللأمة  
وهي الدرع المحكمة الملتزمة) سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحترى  
كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات بأصناف الحلى»<sup>(١)</sup>.

وقد طرق علماء البلاغة موضوعات كثيرة تؤدي إلى الجمال في النص، وهي  
تتصل بالتركيب النحوي اتصالاً مباشراً. ونحاول في الصفحات التالية التعرف على  
تلك الموضوعات بالتفصيل خلال الجمع بين الجانبين النظرى والتطبيقي.

## ظاهرة الحذف

الحذف deletion من «الظواهر العالمية» universals فى اللغات؛ إذ إنه ليس وفقاً على لغة دون أخرى. وهو يصيبها فى أصواتها وتراكيبها للوصول إلى دلالة بعينها. وقد نال الحذف اهتمام القدماء من العلماء العرب؛ لأنه ورد فى بعض آيات القرآن الكريم، وأشار إليه سيبويه فى مواضع مختلفة من كتابه؛ لذلك نستطيع أن نقول إنه ظاهرة أصيلة فى العربية من حيث الوجود والدراسة، وهو يصيب الجملتين الاسمية والفعلية؛ بالإضافة إلى الكلمة word والأبنية الصرفية morphological forms<sup>(١)</sup>.

ويعرفه المحدثون من المشتغلين بالدراسات اللغوية بقولهم: Omitting an element of sentence structure أى إنه حذف أحد العناصر من بناء الجملة، ويمثلون له بإسقاط that من قولهم: I said he was ready<sup>(٢)</sup>.

ولانريد الخوض فى أسباب الحذف، وإنما نريد التركيز على علاقته بالجمال فى التركيب النحوى، ومن الذين أشاروا إلى تلك العلاقة عبد القاهر فى قوله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنه ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين»<sup>(٣)</sup>.

وهناك مجموعة من العوامل اللغوية وغير اللغوية التى تخلع جمالاً على الحذف، يأتى على رأسها ما يتصل بـ «سياق الحال» context of situation<sup>(٤)</sup> الذى يتفرع عنه المناسبة التى قيلت فيها الأبيات؛ إذ إنها تساعد فى الوصول إلى

(١) حاولنا دراسة الحذف عند القدماء فى كتابنا: قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين: ٢٠٩ - ٢٥٣.

(2) The Cambridge Encyclopedia of Language, P. 418.

(٣) الدلائل: ١٤٦.

(٤) للتعرف على نظرية سياق الحال بين القدماء والحديث، انظر كتابنا: فقه اللغة وعلم اللغة: نصوص ودراسات ٢٣٥ - ٢٤٤.

المعنى الذى أرادَه الشاعر، ومن ذلك قول الأقيشر فى ابن عم له موسر، سأله فمنعه، وقال: كم أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لاينيك؟ والله لا أعطيتك. فتركه حتى اجتمع القوم فى ناديبهم وهو فيهم، فشكاه إلى القوم وذمه، فوثب إليه ابن عمه فلطمه فأنشأ يقول:

سريعٌ إليّ ابن العمِ يُلطمُ وجههَ      وليس إلى داعى الندى بسريع  
حريصٌ على الدنيا مضيقٌ لدينه      وليس لما فى بيته بمضيق<sup>(١)</sup>  
وبصور البيتان المناسبة التى قيلتا فيها أصدق تصوير؛ وذلك من حيث استعمال بعض التراكيب النحوية ونفيها:

سريع ... ← ليس بسريع

مضيق ... ← ليس بمضيق

والتعبير عما حدث من لطم الوجه وعدم الإعطاء. ويأتى، بعد ذلك، الحذف للمبتدأ «هو» والذى أباح ذلك «المقام» نفسه؛ فهو دال على هذا الحذف.

ومما يتصل بالمناسبة التى جعلت الحذف يقع موقعاً حسناً قولُ عبد الله بن الزبير؛ يذكر غريماً له، قد ألح عليه:

عرضتُ على زيدٍ ليأخذَ بعضَ ما      يحاوله قبل اعتراضِ الشواغلِ  
فدبَّ ديبُ البغلِ يَألَمُ ظهره      وقال: تَعَلَّمْ، إننى غيرُ فاعِلِ  
تشاءب حتى قلت: داسعُ نَفْسِه      وأخرج أنياباً له كالمعاولِ<sup>(١)</sup>

قال عبد القاهر معلقاً: «الأصل: حتى قلت هو داسع نفسه؛ أى حسبته من شدة التأوُّب، ومما به من الجهد، يقذف نفسه من جوفه، ويخرجها من صدره، كما يدسُّ البعير جِرتَه. ثم إنك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتباعد عنه وهمك، وتجتهد أن لا يدور فى خللك، ولا يعرض لخطارك، وترك

(١) الإيضاح: ١١٠ و ١١١.

(٢) دسح البعير دسماً ودسوعاً: دفعها حتى أخرجها من جوفه إلى فيه دفعة واحدة. والجرة: اللقمة.



كأنك تتوقاه توقى الشيء تكره مكانه، والثقل تخشى هجومه<sup>(١)</sup>.

وربط عبد القاهر الحذف في بعض آيات القرآن الكريم بالحال نفسه. قال تعالى: (وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقَى حَتَّى يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)<sup>(٢)</sup>. أما عن الحذف فهو يتصل بالمفعول به الذى حُذِفَ فى أربعة مواضع:

- (وجد عليه أمة من الناس يسقون) أغنامهم أو مواشيهم.

- و (امرأتين تذودان) غنهما.

- و (قالتا لانسقى) غنمنا.

- (فسقى لهما) غنهما<sup>(٣)</sup>.

وعن ربط الحذف بالحال قال عبد القاهر: «ثم إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره (يقصد المفعول به) ويؤتى بالفعل مطلقاً، وماذا لك إلا أن الغرض فى أن يُعْلَمَ أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى. فأما ما كان المسقى؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافة. وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: مالك تمنع أخاك؟ كنت منكراً بالمنع، لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن فى حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه<sup>(٤)</sup>».

(١) الدلائل: ١٥١.

(٢) القصص: ٢٣ و ٢٤.

(٣) انظر الطراز: ٢ / ١٠٤.

(٤) الدلائل: ١٦١ و ١٦٢.

وقد لقي حذف المفعول اهتمام عبد القاهر بصفة عامة، مع ربط الحذف بالمعنى، ومن ذلك دراسته لقول البحرى:

إِذَا بَعَدَتْ أَبَلْتُ، وَإِنْ قُرِبَتْ شَفْتُ فَهَجَرْتُهَا يُبْلَى، وَلُقِيَانُهَا يَشْفَى  
قال: «قد علم أن المعنى: إذا بعدت عنى أبلتى، وإن قربت منى شفتى، إلا أنك تجد الشعر يأبى ذكر ذلك، ويوجب أطراحه. وذلك لأنه أراد أن يجعل البلى كأنه واجب فى بعادها أن يوجبهِ ويجلبهِ، وكأنه كالطبيعة فيه، وكذلك حال الشفاء مع القرب، حتى كأنه قال: أتدري ما بعادها؟ هو الداء المضنى، وما قريبها؟ هو الشفاء والبرء من كل داء. ولا سبيل لك إلى هذه اللطيفة وهذه التكنة، إلا بحذف المفعول البتة»<sup>(١)</sup>.

واهتم عبد القاهر بحذف المفعول حين استعمال الفعل «شاء»، مع الربط بالجمال حين الأداء اللغوى، وقد طبق ذلك على قول البحرى:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرمًا، ولم تهْدِم مآثر خالد  
فالأصل المقدر the underlying structure هو: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، وهذا التركيب المحذوف «أن لا تفسد» يشكل مصدرًا فى محل نصب وهو مفعول للفعل «شاء»، ولكن البحرى حذف هذا التركيب، والذى أباح ذلك الاستغناء بدلالته فى الثانى عليه. وقد ربط عبد القاهر الحذف بالجمال قائلاً: «ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغربة، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب فى حكم البلاغة أن لا يُنطَقَ بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ. فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها صرت إلى كلام غث، وإلى شئ يَمُجُّ السمع، وتعافه النفس. وذلك أن فى البيان إذا ورد بعد الإيهام وبعد التحريك له، أبداً لطفًا ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك». وبعد هذا الشرح للحذف مع ربطه بالأداء اللغوى الذى يكتسب قدرًا كبيرًا من البلاغة؛ أى الجمال، يتوسع عبد القاهر فى دراسة الحذف

مع «لو» و «شاء» خلال التطبيق في القرآن الكريم. قال: «وأنت إذا قلت: لو شئت، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشئ، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئاً تقتضى مشيئته له أن يكون أو لا يكون. فإذا قلت: لم تفسد سماحة حاتم، عرّف ذلك الشئ. ومجيئ المشيئة بعد «لو» وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معدة إلى شئ، كثير شائع؛ كقوله تعالى: (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى)<sup>(١)</sup> و (ولو شاء لهداكم أجمعين)<sup>(٢)</sup>، والتقدير في ذلك كله على ما ذكرت. فالأصل: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم، إلا أن البلاغة في أن يُجاء به كذلك محذوفة<sup>(٣)</sup>.

ويدل هذا النص على أن الذي أباح حذف المفعول علم السامع؛ إذ إنك حين تقول «لو شئت»؛ فإنه يدرك من فوره نطقك بشئ توقع عليه المشيئة، ولكن البحري حذف المفعول وجاء ما في البيت من قوله «لم تفسد سماحة حاتم» دليلاً عليه. وقد أشار عبد القاهر إلى أنه مما يطبع التركيب النحوي للجملة العربية استعمال الفعل «شاء» لازماً؛ أى ألا يتعدى إلى المفعول به، وهذا يؤدي إلى البلاغة في الأداء اللغوي.

ولكن عبد القاهر، بحسب اللغوي والجمالي، لم ينس أن يتوقف أمام بعض الأبيات التي ورد فيها ذكر المفعول مع الفعل «شاء» وهل يؤدي هذا الذكر إلى البلاغة أو لا؟ فقد قال الخريّمى في رثاء أحد قواد الرشيد:

ولو شئتُ أن أبكى دماً ليكيتهُ عليه، ولكن ساحة الصبرِ أوسعُ

«فقياس هذا لو كان على حد (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أن يقول: لو شئتُ بكيتهُ دماً، ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه؛ لأنها أحسن في هذا الكلام خصوصاً. وسبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً. فلما كان كذلك، كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس

(١) الأنعام / ٣٥.

(٢) النحل / ٩.

(٣) الدلائل: ١٦٤.

السامع ويؤنس به».

وقد وضع عبد القاهر قاعدة بلاغية تُردُّ إلى الدلالة لذكر المفعول أو حذفه مع الفعل «شاء» المسبوق بـ «لو». قال: «وإذا استقرت وجدت الأمر كذلك أبداً متى كان مفعول المشيئة أمراً عظيماً، أو بديعاً غريباً، كان الأحسن أن يذكر ولا يُضمر. يقول الرجل يخبر عن عِزَّة: لو شئت أن أردَّ على الأمير رددت، ولو شئت أن ألقى الخليفة كلَّ يوم لقيت. فإذا لم يكن مما يكبره السامع، فالحذف كقولك: لو شئت خرجت، ولو شئت قمت، ولو شئت أنصفت، ولو شئت لقلت، وفي التنزيل: (لو نشاء لقلنا مثل هذا)<sup>(١)</sup>، وكذا تقول: لو شئت كنت كزبد، قال:

لو شئت كنت ككُرْزٍ في عبادته أو كابن طارق حول البيت والحرم<sup>(٢)</sup>

ومن هنا فإن الذكر وعدمه مع المشيئة يرتبط بالدلالة كما يأتي:

مفعول المشيئة أمر عظيم ← الذكر

مفعول المشيئة ليس مما يكبره السامع ← الحذف

ومما يخلع على الحذف جمالاً في الأداء اللغوي أن يكون الشعر على هيئة حوار متضمناً أفعالاً تتولد من «الجذر المعجمي» lexical root (ق و ل)، وذلك كقول الشاعر:

قال لى: كيف أنت، قلت: عليلٌ سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويل

ويمكن إعادة تشكيل البيت على هيئة حوار، وإن كانت تلك الإعادة متسلسلة جماله، وهو كما يأتي:

قال: كيف أنت؟

قلتُ: أنا عليل، حالي سهر دائم وحزن طويل.

وقد تم إعادة المبتدأ المحذوف. ويتصل بذلك قول الشاعر، يخاطب امرأته وقد لامته على الجود:

(١) الأنفال / ٣١.

(٢) البيت لعبد الله بن شبرمة القاضي الفقيه بقوله لابن هبيرة، ويذكر فيه كرز بن وبرة الحارثي الجرجاني العابد، ومحمد بن طارق. الدلائل: ١٦٥ والهامش.

قالت سُمَيَّةُ: قد غويتَ، بأن رأيتُ  
غَيَّ لعمرك لأزال أعوده  
حقاً تنابوَبَ مألنا ووفودُ  
مادام مالٌ عندنا موجودُ  
والتقدير: قلت لها: ذاك غي، لا أزال أعود إليه. وورد الحذف في أبيات  
لجميل بثينة. وبها حوار. قال:

إني عشيّة رُحْتُ وهي حزينة  
وتقول: بتٌ عندي، فديتك، ليلةُ  
تُشكو إلى صبايةٍ لصبورُ  
أشكو إليك، فإن ذاك يسيرُ  
عَرَاءُ مِسَامٍ، كأنَّ حديثها  
دُرٌّ تُحْدِرُ نَظْمُهُ منشورُ  
محلوطةُ المتنين، مضمرُ الحشا  
رِيا الروادف، خلقها مَمَكُورُ<sup>(١)</sup>

وهناك ظاهرة نحوية تخلع على الحذف جمالاً هي «القطع والاستئناف». فمن عادة الشعراء البدء بذكر الرجل، مع تقديم بعض ما يتصل به ثم يدعون ذلك، أي يقطعونه ويستأنفون كلاماً آخر، تركيبه النحوي عبارة عن جملة اسمية محذوفة المبتدأ. ومن ذلك قول جميل بثينة:

وهل بثينة، يالأناس، قاضيتي  
ترنو بعيني مهابة أقصدت بهما  
دينى؟ وفاغلة خيراً فأجزبها  
قلبي عشيّة ترميني وأرميها  
هيفاءً مقبلةً، عجزاء مدبرة  
رِيا العظام، بلا عيبٍ يرى فيها  
من الأوائس مكمّال، مُبْتَلَّةُ  
خود، غَذَاها بلين العيش غاذيها<sup>(٢)</sup>

والحذف في البيت الثالث، والتقدير «هي هيفاء ...» وقد أورد عبد القاهر شواهد أخرى لهذا الحذف، من بينها أبيات جميل، وعلق عليها جميعاً بقوله:  
«فأتمال الآن هذه الأبيات كلّها، واستقرها واحداً واحداً، وانظر إلى موقعها في

(١) محلوطة المتنين: ليس في جاني ظهرها ارتفاع، بل هو محتلى مستو مطمئن ممدود. «مَمَكُور: مدمج غير مسترخ. انظر الدلائل: ١٥٠ - ١٥٢. والهامش.

(٢) هيفاء: دقيقة الخصر ضامرة البطن، والبتّل: بعد ما بين المنكبين، والخود: الشابة الناعمة الحسنة الحلق.

نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فليت<sup>(١)</sup> النفس عما تجد، وألطفْتَ النظر فيما تحس به. ثم تكلف أن تردّ ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك؛ فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجريد<sup>(٢)</sup>.

---

(١) فليت : أمال التأمل والنظر.

(٢) الدلائل : ١٥١ .

## الإيجاز

قبل الدخول في تقديم دراسة تطبيقية للإيجاز في النصوص المختلفة نحاول التعرف على حده عند القدماء من العلماء العرب:

- يرى أبو الحسن علي بن عيسى الرُّماني (٢٩٦ - ٣٨٤هـ) أنَّ البلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمنين، والمبالغة، وحسن البيان.

ثم قال الرماني عن الإيجاز : «تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يُعبر عنه بألفاظ كثيرة فالألفاظ القليلة إيجاز. والإيجاز على وجهين : حذف وقصر؛ فالحذف: إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام؛ والقصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف»<sup>(١)</sup>.

- وتأثر أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (-٤٠٣هـ) بالرماني؛ إذ إنه أشار إلى أقسام البلاغة العشرة، ثم قال عن الإيجاز : «فأما الإيجاز فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمر كثيرة».

«وذلك ينقسم إلى حذف وقصر»<sup>(٢)</sup>. ثم يمثل الباقلائي للنوعين كليهما.

- وتأثر ابن رشيقي بالرماني أيضاً في حديثه عن الإيجاز، ولكن الذي يذكّر له إضافته لبعض المصطلحات مع توضيح المقصود بها، ومن ذلك «المساواة» وهي أن يكون اللفظ مطابقاً لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص عنه<sup>(٣)</sup>، وذلك كقول الشاعر:

الحمدُ له إني فنى جوارِ فنى      حامسى الحقيقة نفاع وضارِ  
لا يرفع الطرف إلا عند مكروية      من الحياء ولا يفضى على عارِ

فهذا من الشعر الذي لا يزيد لفظه على معناه ولا معناه على لفظه شيئاً.

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٧٦. وهو منشور ضمن «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن».

(٢) إعجاز القرآن: ٢٦٢.

(٣) المساواة هي «إيجاز القصر».

ومن مصطلحات ابن رشيقي الداخلة في باب الإيجاز «الاكتفاء»، وهو داخل في باب المجاز، وفي الشعر القديم والمحدث منه كثير، يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقي عليه<sup>(١)</sup>، ومن ذلك قول الله عز وجل: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّمٌ بِهِ الْمَوْتَى»<sup>(٢)</sup>. كأنه قال: «لكان هذا القرآن». ويستمر ابن رشيقي في عرضه التطبيقي للإيجاز<sup>(٣)</sup>.

وبعد هذا العرض نقول إن الإيجاز عند علماء البلاغة ينقسم إلى قسمين، نقدمها على النحو الآتي:

### - القسم الأول:

«إيجاز القصص» ويعرف بأنه ما ليس بحذف؛ أي إن النص حين يكون فيه إيجاز من هذا القسم لا يجند حذفاً في مكوناته النحوية. ومن الشواهد المهمة قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»<sup>(٤)</sup> الذي تعرض له معظم المشتغلين بالدراسات النقدية والبلاغية، ونقدم - فيما يلي - نصين يدوران حوله؛ أولهما للزمخشري يوضح فيه المعنى، والآخر للقزويني يقارن فيه بين الآية الكريمة وقول العرب: «القتل أنفى للقتل».

- قال الزمخشري: «كلام فصيح لما فيه من الغرابة وهو أن القصص قتل وتفويت الحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصص وتنكير الحياة، لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر؛ فلما جاء الإسلام بشرع القصص كانت فيه حياة

(١) الاكتفاء هو «إيجاز الحذف».

(٢) الرعد/ ٣١.

(٣) الممعة: ١٦٧/١ - ١٦٩.

(٤) البقرة / ١٧٩.



أى حياة ونوع من الحياة، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاعتصاف من القتل؛ لأنه إذا همَّ بالقتل فعلم أنه يُقتَصُّ منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القَوْدِ، فكان القصاص سبب حياة نفسين<sup>(١)</sup>.

- قال القزوينى: «وفضله (يقصد الآية الكريمة) على ما كان عندهم (يقصد العرب) أوجز كلام فى هذا المعنى، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل» من وجوه: أحدهما: أن عدة حروف ما يناظره منه وهو (فى القصاص حياة) عشرة فى التلفظ، وعدة حروفه أربعة عشر.

وثانيهما: ما فيه من التصريح بالمطلوب الذى هو الحياة بالنص عليها؛ فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاعتصاف.

وثالثهما: ما يفيد تنكير (حياة) من التعظيم أو النوعية ...

ورابعهما: اطراد، بخلاف قولهم؛ فإن القتل الذى ينفى القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره.

وخامسها: سلامته من التكرار الذى هو من عيوب الكلام بخلاف قولهم.

وسادسها: استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم؛ فإن تقديره: القتل أنفى للقتل من تركه.

وسابعها: أن القصاص ضد الحياة؛ فالجمع بينهما طباق.

وثامنها: جعل القصاص كالمنبج والمعدن للحياة بإدخال (فى) عليه<sup>(٢)</sup>.

وهناك شواهد أخرى لإيجاز القصر. قال تعالى: «هدى للمتقين»<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: «فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره»<sup>(٤)</sup>، وقال

(١) الكشاف: ١ / ٣٣٣.

(٢) الإيضاح: ٢٨٧ و ٢٨٨.

(٣) البقرة / ٢ .

(٤) الزلزلة / ٧ - ٨.

تعالى : «من يعمل سوءاً يُجْزَ به»<sup>(١)</sup> ؛ فهذا كلام مختصر وجيز دالٌّ على معناه بحيث لا يُدرك إيجازه ولا يُنال كنهه<sup>(٢)</sup> . ومن شواهد الشعرية قول امرئ القيس :  
على لاجِبٍ لا يَهْتَدَى بمَنارِهِ      إذا سافَهَ العودُ النباطيُّ جرجراً<sup>(٣)</sup>  
وقال أوس بن حجر :

لا يَفِرُّعُ الأرنَبَ أهوالُها      ولا ترى الضَّبُّ بها ينحجر<sup>(٤)</sup>  
وقال أسماء بن خارجة الغزاري :

خَذَى المَقْوَمَني تستدبمي مودَّتِي      ولا تنطقني في سورتي حين أغضب<sup>(٥)</sup>  
وقال الشريف الرضي :  
مالوا إلى شُعَبِ الرِّحالِ وأسندوا      أيدى الطَّعانِ إلى قلوبٍ تخفق<sup>(٦)</sup>  
- القسم الثاني :

من أقسام الإيجاز هو «إيجاز الحذف» ، ويتضح من التسمية وجود حذف في التركيب اللغوي ، ويأتي على عدة وجوه :

١ - حذف أحد الأصوات المفردة من بنية الكلمة بقصد التخفيف وذلك كما في قوله تعالى : «ولم أك بغياً»<sup>(٧)</sup> ؛ فقد تم حذف النون الساكنة :  
«لم أك» ————— «لم أكن»

تخفيفاً ، وهي مقدرة لذلك حين الإعراب نقول إن الفعل مجزوم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف .

(١) النساء / ١٢٣ .

(٢) الطراز : ٣ / ٣١٧ .

(٣) لاجِب : طريق واضح ، والمنار : العلامة ، وسافَه : شمَّه ، والعود النباطي : الجمل المسن الضخم ، وجرجر : ضجَّ ورعًا .

(٤) أهوالها : الضمير يعود على الصحراء ، وينحجر الضب : يدخل جحره .

(٥) السورة : شدة الغضب .

(٦) شعب الرحال : خشبها المتخذ من فروع الشجر ، والطعان : التصارب في القتال .

(٧) مريم / ٢٠ .

٢ - حذف حرف من الحروف التي تؤدي وظيفة «نحوية دلالية» مع وجود دليل في النص أو السياق على هذا الحرف المحذوف، ومن ذلك «لا» الذي حُذِفَ في قوله تعالى: ﴿قال تالله تفتأ تذكر يوسف﴾<sup>(١)</sup>. وقال امرؤ القيس:

فقلتُ يمين الله أبرحُ قاعداً      ولو قطعوا رأسي لديدك وأوصالي

والحذف في الآية الكريمة وبيت امرئ القيس يمكن الاستدلال عليه في ضوء القاعدة المتصلة باستعمال الفعلين الناسخين «فتئ» و«برح» في الجملة العربية؛ إذ لا بد أن يكونا مسبوقين بالنفي أو شبه النفي كالدعاء مثلاً؛ لذلك فالتقدير:

تفتأ ← لا تفتأ

أبرح ← لا أبرح

وهناك حذف للحرف نفسه «لا» مع الاستدلال عليه من المناسبة التي قيلت فيها الأبيات؛ فقد قال أبو محجن الثقفي لما نهاه سعد بن أبي وقاص عن شرب الخمر وهو إذ ذاك في قتال الفرس بموقعة القادسية:

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها      مناقبُ تهلك الرجلَ الحليماً

فلا والله أشربُها حياتي      ولا أسقى بها أبداً نديماً

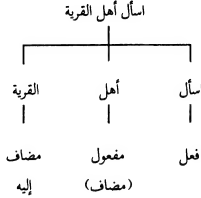
والتقدير: «لا أشربها».

٣ - مما يطبع التركيب النحوي للجملة العربية حذفُ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وذلك كما في قوله تعالى: (واسأل القرية التي كنّافيهما والغير التي أقبلنا فيها)<sup>(٢)</sup>.

(١) يوسف / ٨٥.

(٢) يوسف / ٨٢.

ويقول المفسرون إن التقدير:



وتم حذف المضاف «أهل» وإقامة المضاف إليه «القرية» مقامه؛ لذلك أصبحت كلمة «القرية» في الآية الكريمة مفعولاً به.

وهناك شواهد أخرى لهذا الحذف في القرآن الكريم. قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ<sup>(١)</sup>؛ أَى «تناول الميتة» لتعلق الحكم الشرعى بالأفعال دون الأجرام. وقال تعالى: «حُرِّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ»<sup>(٢)</sup>؛ أَى تناول طيبات أُحِلَّ لَهُمْ تناولها، وتقدير «التناول» أولى من تقدير «الأكل» ليدخل فيه شرب ألبان الإبل، فإنها من جملة ما حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ. وقال تعالى: «وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا»<sup>(٣)</sup>؛ أَى منافع ظهورها، وتقدير «المنافع» أولى من تقدير «الركوب» لأنهم حرّموا ركوبها وتحملها. وقال تعالى: «لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ»<sup>(٤)</sup>؛ أَى رحمة الله. وقال تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ)<sup>(٥)</sup>؛ أَى عذاب ربهم<sup>(٦)</sup>؛ وقد ظهر هذان المضافان فى قوله: «يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ»<sup>(٧)</sup>.

(١) المائدة / ٣.

(٢) النساء / ١٦.

(٣) الأنعام / ١٣٨.

(٤) الأحزاب / ٢١؛ والممتحنة/ ٦.

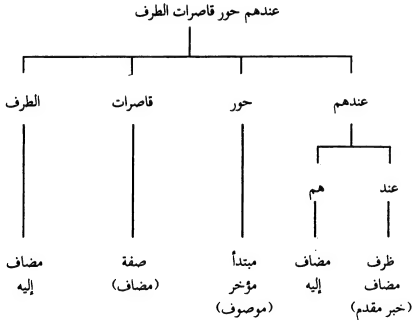
(٥) النمل / ٥٠.

(٦) الإيضاح: ٢٩١.

(٧) الإسراء / ٥٧.

٤ - ومن «إيجاز الحذف» أن يكون المضاف إليه محذوفاً. قال تعالى: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة)<sup>(١)</sup>؛ أى «بعشر ليالٍ». وقال تعالى: «لله الأمر من قبل ومن بعد»<sup>(٢)</sup>؛ أى من قبل ذلك ومن بعده، وقد بنى الظرفان (قبل) و(بعد) على الضم لانقطاعهما عن الإضافة من الناحية اللفظية لا الدلالية، فالمضاف إليه مقدر فى المعنى ولكن لم يتم التصريح بلفظه.

٥ - من أنواع الحذف فى الجملة العربية الذى اهتم به علماء البلاغة حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها وذلك كما فى قوله تعالى «وعندهم قاصرات الطرف أتراب»<sup>(٣)</sup> والتقدير: «وعندهم حور قاصرات الطرف»:



(١) الأعراف / ١٤٢.

(٢) الروم / ٤.

(٣) ص / ٥٢.



فإن (صالحاً) نائب عن المفعول المطلق، والتقدير: «عمل عملاً صالحاً».

ويكثر الحذف كذلك في باب النداء. قال تعالى: «وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهدَ عندك إنا لمهتدون»<sup>(١)</sup>؛ أى «ياأيها الرجل الساحر»؛ وقال تعالى: «ياأيها الذين آمنوا»؛ أى «ياأيها القوم الذين آمنوا».

٦ - ومن إيجاز الحذف ما يكون المحذوف صفةً. قال تعالى: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا»<sup>(٢)</sup>؛ أى «كل سفينة صالحة» وتم حذف الصفة «صالحة»، وقد استدل العلماء على تلك الصفة المحذوفة بما ورد في بعض القراءات من إثبات لها.

ونشير إلى أن هناك حذفاً للصفة يمكن الاستدلال عليه من شئ خارج المنطوق اللفظي نفسه؛ فقد قال المصطفى ﷺ: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»؛ فإنه قد علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث؛ فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال؛ أى لا صلاة أفضل أو أكمل لجار المسجد إلا في المسجد، وهذا شئ لم يعلم من اللفظ نفسه، وإنما علم من شئ خارج عنه.

٧ - هناك بعض المكونات النحوية التي تعدُّ أساس «أسلوب الشرط» وإذا حذف عنصر منها وجب تقديره، وذلك مثل «جواب الشرط» كما في قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون»<sup>(٣)</sup> وجواب (إذا) محذوف والتقدير: «أعرضوا»، ويمكن الاستدلال عليه من الآية الكريمة التالية لها: «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»<sup>(٤)</sup>؛ لذلك علل البلاغيون هذا الحذف بأمرين:

(١) الزخرف / ٤٩.

(٢) الكهف / ٧٩.

(٣) يس / ٤٥.

(٤) يس / ٤٦.

- الاختصار.

- وجود القرينة وهي (معرضين).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا نَاسِكُكُمْ وَإِسْتَكْبَارُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>، والجواب محذوف والتقدير: «أستم ظالمين»، وتم الاستدلال عليه من آخر الآية الكريمة (الظالمين).

وهناك حذف للجواب للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، حتى تذهب النفس فيه كل مذهب ممكن، فلا يتصور مطلوباً أو مكروهاً إلا يجوز أن يكون الأمر أعظم منه، ولو عين شيء اقتصر عليه، وربما خف أمره عنده. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. ولهذا المعنى حذفت الصلة من قول العرب: «بعد اللّتيّ والّتي»<sup>(٣)</sup>.

٨ - الحذف في «أسلوب القسم»؛ فهناك حذف للقسم نحو: لأفعلن الخير، والتقدير: والله لأفعلن الخير. وهناك حذف لجواب القسم. قال تعالى: (ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيء عجب)<sup>(٤)</sup> والتقدير: «لتبعثن» والدليل على هذا التقدير ماورد في الآية الكريمة التالية: ﴿إِذَا مَتَّأَ وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾<sup>(٥)</sup> ومن هذا الحذف للجواب أيضاً قوله تعالى: (والفجر. وليالٍ عشر. والشفع والوتر. واللّيل إذا يسر)<sup>(٦)</sup> والتقدير: «لتعذبن ياكفار مكة».

(١) الأحقاف / ١٠.

(٢) الزمر/ ٧٣.

(٣) يجوز في «اللتيا» فتح اللام وضمها، وقد قال السكاكي عن المعنى: «هي الحنة والشدايد، بلغت من شدتها وفظاعة شأنها مبلغاً يهت الواصف معها حتى لا يحير ببنت شفة». المفتاح: ٢٨٠.

(٤) ق/ ١- ٢.

(٥) ق/ ٣.

(٦) الحديد/ ١٠.



٩ - ما يكون المحذوف معطوفاً. قال تعالى ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراثُ السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾<sup>(١)</sup> والتقدير: «ومن أنفق من بعده وقاتل»، والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية الكريمة نفسها: ﴿أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾؛ فهذا يدل على أن الذي لا يساوي الإنفاق قبل الفتح هو الإنفاق بعده.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالحذف والإيجاز، نحاول دراسة بعض ما يتصل بـ «الحذف عند النحاة» خلال التطبيق في النصوص، معتمدين في ذلك على ما كتبه ابن هشام في (المغنى)<sup>(٢)</sup>، مع الحرص على عدم تكرار ما سبق العرض له في الصفحات السابقة. ونبدأ تلك الدراسة بالتعرف على شروط الحذف.

لابد من وجود دليل «حالي» يعني عن النطق بما هو محذوف، ويؤدي في الوقت نفسه إلى الاستدلال عليه. ويناسب هذا الدليل الحالي الحياة تماماً؛ لأننا ننطق بالكثير من التراكيب النحوية التي أصابها الحذف معتمدين في ذلك على الحال، ويمكن توضيح ذلك خلال الموقف الآتي:

تخيّل أن هناك شخصاً يجلس في أحد المقاهي ويحتسى الشاي أو القهوة وفي تلك الحال مرّ عليه أحد أصدقائه؛ فما الذي يحدث؟ إن هذا الشخص يقول لصديقه فور رؤيته إياه «قهوة»، وهو يقصد «تفضل قهوة».

وتظهر «القرينة الحالية» في الجلوس في المقهى ومرور الصديق على صديقه الذي يحتسى الشاي أو القهوة فيقول له «قهوة». وتم حذف الفعل والفاعل لأنّ الجالس في تلك الحال يريد أن يصل إلى هدفه بسرعة، وخلال تلك القرينة نصل إلى الأصل المقدر للمنطوق اللفظي<sup>(٣)</sup>.

(١) الحديد / ١٠.

(٢) المغنى: ٧٨٦ - ٨٥٣. ولن نلجأ إلى نقل ما كتبه ابن هشام، وإنما نعتمد عليه في معرفة الشواهد القرآنية والشعرية وسواها.

(٣) انظر كتابنا: قضايا التقدير النحوي بين القدماء والحديثين: ٢١٦.

وقد استشهد ابن هشام على هذا الدليل الحالى بقوله تعالى : «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلاماً»<sup>(١)</sup> ؛ أى : سلّمنا سلاماً.

وربط ابن يعيش بين قرائن الأحوال وحذف العامل قائلاً: «إن قرائن الأحوال قد تغنى عن اللفظ وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى ، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتاج إلى اللفظ المطابق ، فإن أتى باللفظ المطابق جاز وكان كالتأكيد ، وإن لم يؤت به فلاستغناء عنه فلذلك يجوز حذف العامل»<sup>(٢)</sup>.

ومما يبيح الحذف حين استعمال اللغة بواسطة المتكلم السامع المثالى وجود دليل «مقالى» يساعد فى التعرف على ماتم حذفه، وهذا الدليل يتصل - فى الأغلب الأعم - باللغة المنطوقة خاصة حين يكون الكلام استفهاماً؛ إذ إن إنساناً لوسأل آخر لايعرف اسمه : ما اسمك؟ فإنه سيقول له: محمد، دون أن يقول اسمى محمد أو : محمد اسمى؛ لأنه يمكن الاستدلال على ذلك من السؤال نفسه. والذى يلفت النظر أن هذا الدليل «عالمى» universal، فلو قال شخص إنجليزي لآخر: What is your name؟ فيقول: David، دون أن يقول: My name is David. لذلك قلنا إنه عالمى فى تعليل الحذف؛ أى إنه طريقة من طرق الأداء اللغوى بواسطة «ابن اللغة» الذى ينطق من فوره دون تكلف أو تصنع.

ومن شواهد الحذف لوجود دليل مقالى ما فى قوله تعالى: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون»<sup>(٣)</sup>، ويمكن التمثيل للحذف كما يأتى:

سلام ————— سلام عليكم (تقدير الخبر المحذوف)

قوم ————— أنتم قوم (تقدير المبتدأ المحذوف)

ومن المفيد الإشارة إلى أن الحذف فى الجملة العربية ليس مباحاً على الدوام؛

(١) هود / ٦٩.

(٢) شرح المفصل: ١٢٥/١.

(٣) الذاريات/ ٢٤-٢٥.

خاصة إذا كان حذف العناصر النحوية يؤدي إلى «اللبس» حين محاولة التوصل إلى الدلالة. ولتوضيح ذلك فإننا نعلم جواز حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه كما في قوله تعالى: (وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ)<sup>(١)</sup>؛ فكلمة (سَابِغَات) مفعول به، وكانت في الأصل صفة لموصوف محذوف والتقدير: «أَنْ أَعْمَلْ دروعاً سَابِغَات» ولكن تم حذف الموصوف «دروعاً» والذي أباح ذلك تقدم ذكر (الحديد) في الآية الكريمة. ولكن هذا الحذف ليس مباحاً؛ فإذا قلت: «رَأَيْتُ رجلاً أبيض» من غير الصحيح نحويّاً أن تقول:

\* رَأَيْتُ أبيض

لأن التركيب يحتمل عدة أنواع من التقدير لما هو محذوف نحو:

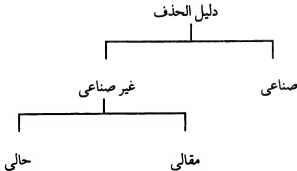
رَأَيْتُ زهراً أبيض

رَأَيْتُ ثوباً أبيض

رَأَيْتُ حصاناً أبيض

وسواها من التراكيب؛ لذلك لا يجوز حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في «رَأَيْتُ رجلاً أبيض»، ويجوز أن تقول: رَأَيْتُ كاتباً، وركبتُ صاهلاً<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالدليلين الحالي والمقالى نشير إلى أن دليل الحذف - بصفة عامة - نوعان، يمكن إيضاحهما كما يأتي:



(١) سيأ / ١٠ - ١.

(٢) انظر كتابنا: منهج ابن هشام في شرح «بانت سعاد» ٥٦ - ٥٨.

وقد عرضنا لما يندرج تحت الدليل «غير الصناعي»، ونعرف بـ «الصناعي». يرى العلماء أن النحو صناعة تحتاج إلى بعض الأدوات التي تساعد على التحكم منه والإتقان لما يندرج تحته من ظواهر لغوية، دون الوقوع في الخطأ خاصة حين التأويل والتقدير ومعرفة المكونات الأساسية للتركيب، وقد جاء قولهم بالدليل الصناعي من جهة أنه يختص بمعرفة النحويين، لأنه إنما عُرِفَ من جهة الصناعة. وهناك الكثير من الشواهد القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وأبيات الشعر، والأمثال والأقوال المأثورة التي تحتاج إلى دراية واسعة بالنحو وصناعته حتى يمكن التعرف على ما بها من حذف أو زيادة أو اتساع أو تقديم وتأخير أو غير ذلك، ونقدم بعض الأمثلة التوضيحية لدور النحو في التأويل والتقدير:

— هناك قراءة قرآنية للآية الأولى من «سورة القيامة» بإسقاط الألف من (لا) وهي قراءة ابن كثير: «لَأُقَسِّمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>. ويرى ابن هشام أن التقدير: «لأنا أقسم»، وذلك لأن فعل الحال لا يُقَسَّمُ عليه.

— قال الأعشى ميمون بن قيس:  
 إِنَّ مَنْ لَامَ فِي بَنَى بِنْتٍ حَسَا      نَ أَلَهُ وَأَعَصِيهِ فِي الْخُطُوبِ<sup>(٢)</sup>  
 «إن» حرف تأكيد ونصب واسمها ضمير شأن محذوف والتقدير «إنه» والذي دفعنا إلى هذا التقدير أن «من» اسم شرط ولا يصح أن يعمل فيه ما قبله ومثل بيت الأعشى قول المتنبي:

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعَشْقُ قَلْبَهُ      وَلَكِنْ مَنْ يَبْصُرُ جَفْوَنَكَ يَعْشِقُ  
 وبعد هذا العرض لما يتصل بكل من الدليل الصناعي والدليل غير الصناعي تنتقل إلى الحديث عن شرط ثانٍ من شروط الحذف.

هناك بعض العناصر النحوية التي ترد محذوفة لغرض دلالي بلاغي، ولكن لا بد من تقديرها حتى نستطيع التوصل إلى المعنى، فحين يقول الشاعر:

(١) حجة القراءات: ٧٣٥؛ وانظر مشكل إعراب القرآن: ٧٧٦/٢، والمعنى: ٧٨٩.  
 (٢) حسان: أحد تابعة اليمن القدماء، ويتصل نسب بمدح الأعشى في هذا البيت ببنته، وهو قيس ابن معد بكرب

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفَى لِرَبِيبَةٍ      ولا حملتني نحو فاحشة رجلِي  
يجب تقدير الخبر المحذوف؛ أى «لعمرك قسمي» حتى يكتمل ركن الجملة الاسمية. وحين نقرأ قوله تعالى: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله) (١)؛ فلفظ الجلالة فاعل فعله محذوف يستدل عليه من السياق؛ أى «خلقنا الله». وقد أشار ابن هشام إلى حذف الفعل مع فاعله، ولكن السياق يدل على ما هو محذوف أيضاً. قال تعالى: (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) (٢)؛ أى «أنزل ربنا خيراً».

ويتحدث ابن هشام - بعد ذلك - عن بعض شروط الحذف الأخرى، ولكن دون الدخول فى تفاصيل كثيرة كما فعل من قبل، ومن تلك الشروط ما يأتى:

- ألاَّ يؤدي الحذف إلى اختصار المختصر؛ فلا يحذف اسم الفعل دون معموله؛ لأنه اختصار للفعل. وتوقف ابن هشام أمام بيت الشعر:

يا أيُّهَا المائِجُ دُلُوْى دُونِكا      إني رأيتُ الناسَ يَحْمَدونِكا<sup>(٣)</sup>

مشيراً إلى أنه ورد عن سيبويه أن التقدير «دونك دلوى»، وهو يريد بذلك تفسير المعنى لا الإعراب، وإنما التقدير «خذ دلوى». ويجوز فى «دلوى» أن يكون مبتدأ و«دونك» خبره.

- لا يجوز حذف الضعيف من العوامل النحوية وذلك كحروف الجر وجوزم المضارع ونواصبه، إلا فى مواضع قويت فيها الدلالة وكثر فيها استعمال تلك العوامل، ولا يجوز القياس عليها.

وبعد هذا العرض لشروط الحذف، يتوقف ابن هشام أمام بعض خصائص التركيب النحوى للجملة العربية حين يرد فيها الحذف، مع بيان «القوانين» Rules

(١) الزخرف / ٨٧. ٩

(٢) النحل / ٣٠.

(٣) المائِج: الذى ينزل إلى البئر ليملاً منها بيده حين يقل ماؤها.

المتصلة به، ويمكن بيان حديثه خلال النقاط الآتية:

١ - هناك بعض الشواهد التي أصاب الحذف بعض عناصرها النحوية، وحدث خلاف بين النحاة حول تقدير ما هو محذوف، ويرى ابن هشام أنه يجب تقليل كمية التقدير على قدر المستطاع، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ)<sup>(١)</sup> وتقديره «حُبُّ عِبَادَةِ الْعِجْلِ»، ولكن ابن هشام يرى الاكتفاء بـ «حُب الْعِجْلِ» حسب.

وقوله تعالى: (وَاللَّائِي يُمْسِنُ مِنَ الْخَيْضِ مَنْ نَسَأَكُمْ إِنْ اِرْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)<sup>(٢)</sup> تقديره: «واللائى لم يحضن كذلك» اكتفاء بما هو مذكور في الآية الكريمة.

٢ - إذا كان التركيب النحوي يستدعي عدة عناصر محذوفة فلا بد أن يُقدَّر هذا الحذف على التدرج لادفعة واحدة؛ فبقوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)<sup>(٣)</sup> تقديره: «كدوران عين الذى يغشى عليه»، وها هنا حذف لـ «دوران» و«عين» وهما مضافان، وحذفها على التدرج. وقال امرؤ القيس:

إِذَا قَامَتَا تَضَوُّعَ الْمِسْكِ مِنْهَا      نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَبِّ الْقَرْنُفَلِ  
تقديره: «تضوُّع .. تضوُّعاً مثل تضوُّع نسيم الصبا»، وهو هنا حذف لموصوف وصفة مضافة.

وقال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا)<sup>(٤)</sup> تقديره: «لا تجزى فيه»، وها هنا حذف لجار ومجرور مضممر عائد على ما يحتاج إلى الرباط.

وقد درس ابن هشام تلك الشواهد الثلاثة فيما كتبه عن «بيان كيفية التقدير»

(١) البقرة/٩٣.

(٢) الطلاق/٤.

(٣) الأحزاب/١٩.

(٤) البقرة/٤٨.

ومهد لتلك الدراسة بقوله: «إذا استدعى الكلام تقدير أسماء متضايقة، أو موصوف وصفة مضافة، أو جار ومجرور مضممر عائد على ما يحتاج إلى الرابط، فلا يُقدَّر أن ذلك حذف دفعة واحدة، بل على التدريج».

٣ - حدث خلاف بين العلماء حول سؤال يقول: إذا دار الأمر بين كون المحذوف مبتدأ وكونه خبراً فأيهما أولى؟

قال الواسطي (أبو محمد القاسم بن القاسم ت ٦٢٦هـ): الأولى كون المحذوف المبتدأ؛ لأن الخبر محط الفائدة. وقال العبدى (أبو طالب أحمد بن بكر ت ٤٠٦هـ): الأولى كونه الخبر؛ لأن التجوز أواخر الجملة أسهل.

ومن الشواهد المتصلة بهذا الحذف قوله تعالى: (قال بل سؤلكم أنفسكم أمراً فصبر جميل)<sup>(١)</sup> الذى يحتمل تقديرين هما: «شأنى صبر جميل» أو «صبر جميل أمثل من غيره».

وقد توقف ابن هشام أمام موضوع تعليمى يدور حول «ذكر أماكن من الحذف يتمرن بها العرب»، ومن أمثلتها حذف الاسم المضاف، والموصول الاسمى، والصلة ... وسواها.

## الفصل والوصل

حين طرح الجاحظ سؤاله المشهور: ما البلاغة؟ جمع له عدة إجابات، من بينها إجابة الفارسي الذي عرفها بأنها «معرفة الفصل من الوصل»<sup>(١)</sup>، ويعلق عبد القاهر على تلك الإجابة بقوله: «ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة»<sup>(٢)</sup>. ولكن ما الذي يقصده البلاغيون بهذين المصطلحين؟ قال يحيى العلوي مجيباً عن السؤال: «أما الفصل فهو في لسان علماء البيان عبارة عن ترك الواو العاطفة بين الجملتين ... وأما الوصل فهو عطف الجملة على الجملة، والمفرد على مثله»<sup>(٣)</sup>. ويؤكد الخطيب القزويني على صعوبة التمييز بينهما بقوله: «وتتميز أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فن منها عظيم الخطر، صعب المسلك، دقيق المأخذ، لا يعرف على وجهه ولا يحيط علماً بكنهه إلا من أوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً، ورزق في إدراك أسرارهِ ذوقاً صحيحاً»<sup>(٤)</sup>.

نأتى، بعد ذلك إلى النظر في التعليقات التي قدمها علماء البلاغة للفصل والوصل في النصوص المختلفة.

يُعلل الفصل في ضوء ما يسمى «مقام المحادثة» كالذى يجىء فى قصة فرعون- عليه اللعنة - وفى ردِّ موسى - عليه السلام عليه كقوله تعالى: «قال فرعون وماربُّ العالمين. قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمنِّ حوله ألا تستمعون. قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون. قال لئن اتخذتِ إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين. قال أو لوجئتُك بشئٍ مبين. قال فأت به إن كنت من الصادقين»<sup>(٥)</sup>. جاء ذلك كله، والله أعلم، على تقدير السؤال

(١) البيان والتبيين: ٨٧/١.

(٢) الدلائل: ٢٢٢.

(٣) الطراز: ٣٠٤/٣ - ٣١٠.

(٤) الإيضاح: ٢٤٦.

(٥) الشعراء / ٢٣ - ٣١.



والجواب كالذي جرت به العادة فيما بين المخلوقين، فما كان السامع متاً إذا سمع الخير عن فرعون بأنه قال: (ومارب العالمين) وقع في نفسه أن يقول: فما قال موسى له؟ أتى قوله: (قال رب السموات والأرض) مأثى الجواب مبتدأ مفصلاً غير معطوف. وهكذا التقدير والتفسير أبداً في كل ما جاء فيه لفظ (قال) هذا المجيء، وقد يكون الأمر في بعض ذلك أشد وضوحاً<sup>(١)</sup>.

ومما يتصل بمقام المحادثة قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث إبراهيم المكرم. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾<sup>(٢)</sup>. ونحاول التعرف على ما تدور حوله الآيات الكريمة، فإن ﴿هل أتاك﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحي، و«الضيف» للواحد والجماعة، وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عشرهم جبريل، وقيل: ثلاثة جبريل وميكائيل وملك معهما وجعلهم ضيفاً؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام، أو لأنهم كانوا في حسبانته كذلك، و«قوم منكرون» أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، أو كان هذا سؤالاً، كأنه قال: «أنتم قوم منكرون» فغرفوني من أنتم، «فراغ إلى أهله» فذهب إليهم في خفية من ضيوفه، والهمزة في «ألا تأكلون» للإنكار، أنكر عليهم ترك الأكل أو حشهم عليه<sup>(٣)</sup>.

نأتي إلى ما يتصل بالفصل، فقد جاءت الآيات الكريمة على ما يقع في أنفس المخلوقين إذا قيل لهم: دخل قوم على فلان فقالوا كذا، أن يقولوا: فما قال هو؟ ويقول: قال كذا، أخرج الكلام ذلك المخرج، لأن الناس خاطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه. وكذلك قوله: ﴿قال ألا

(١) الدلائل: ٢٤١؛ وانظر الطراز: ٣٠٦/٣؛ والكشاف: ١٠٩/١.

(٢) الذاريات/ ٢٤ - ٢٨.

(٣) الكشاف: ١٧/٤ و ١٨.

تأكلون» وذلك أن قوله: «فجاء بعجل سمين. ففر به إليهم» يقتضى أن يتبع هذا الفعل بقول، فكانه قيل - والله أعلم - : فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم؟ فأبى قوله: «قال ألا تأكلون» جواباً عن ذلك. وكذا قوله: «قالوا لا تخف» لأن قوله: «فأوجس منهم خيفة» يقتضى أن يكون من الملائكة كلام فى تأنيسه وتسكينه مما خامره، فكانه قيل: فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة؟ فقول: «قالوا لا تخف»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إن تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب آليم. قالوا طائركم معكم أنن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون. وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون»<sup>(٢)</sup>. قال يحيى العلوى: «فالاتباع الثانى «اتبعوا من لا يسألكم» وأرد على جهة الإيضاح، وهكذا القول فى كل جملة أتت عقب أخرى على الإبدال منها؛ فإنها تأتى من غير واو».

والحقيقة أن للبدل دوراً مهماً فى باب الفصل والوصل. قال تعالى: (بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظماً أننا لبعوثون)<sup>(٣)</sup>؛ فصل «قالوا أنذا متنا» عن «بل قالوا» لقصد البدل؛ فالقول الأول هو الثانى، أورد على جهة الشرح

(١) الدلائل: ٢٤٠. وقد قال ابن هشام: «يخص البيانيون الاستئناف بما كان جواباً لسؤال مقدر نحو قوله تعالى: (هل أتاك حديث إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون). فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدر تقديره: فماذا قال لهم؟ ولها فصلت عن الأولى فلم تنطف عليها. المعنى: ٥٠٠ وما بعدها.

(٢) يس/١٣-٢١.

(٣) الطراز: ٣٠٧/٣؛ وانظر الكشف: ٣٤١/٣ وما بعدها.

والبيان لما دلَّ عليه الأول. وقال تعالى: (واتقوا الذى أمدكم بما تعملون. أمدكم بأنعام ونبين. وجناتٍ وعيون)<sup>(١)</sup>؛ فالإمداد الثانى شرح للأول وإيضاح له وتقوية لأمره<sup>(٢)</sup>.

وما خرَّج على البذل قول الشاعر:

أقولُ له ارحلْ لانتقيمنُ عندنا وإلا فكن فى السرِّ والجهر مسلماً

فقد فصل «لانتقيمن» عن «ارحل» لقصد البذل، وهو يرتبط بالدلالة؛ لأن المقصود من كلامه هذا إظهار الكراهية لإقامته بسبب خلاف سرِّه العلن، وقوله «لانتقيمن عندنا» أو فى بتأدية هذا المقصود من قوله «ارحل» لدلالة ذاك عليه بالتضمن مع التجرد عن التأكيد، ودلالة هذا عليه بالمطابقة مع التأكيد<sup>(٣)</sup>. وقد لجأ الشاعر فى هذا البيت إلى التنوع فى التعبير عن طلب الرحيل بواسطة العناصر النحوية، فبدأ بفعل الأمر «ارحل»، وهذا طريقة من طرق الأداء اللفوى، وعبرَ عن المعنى نفسه بواسطة التركيب النحوى «لانتقيمن» ومكوناته الأساسية immediate constituents «لا» الناهية والفعل المضارع وتون التوكيد، وتلك المكونات فى إطار سياق البيت أكثر تأكيداً فى طلب الرحيل؛ لأن قوله «لانتقيمن» تساوى «ارحل».

ومما جاء على الفصل دون الوصل أن يكون الكلام عبارة عن إجابة لسؤال مقدر دون أن يكون هناك القول، ويخرَّج على القطع والاستثناف. ومن ذلك قول الشاعر:

زعمَ العواذل أننى فى غمرة صدقوا، ولكن غمرتى لاتنجلى

لم يعطف «صدقوا» على «زعم العواذل»؛ لأنه حين أبدى الشكاية بقوله «زعم العواذل أننى فى غمرة» كان ذلك مما يحرك السامع عادة ليسأل: هل صدقوا فى ذلك أم كذبوا؟ فصار هذا السؤال مقتضى الحال، فبنى عليه تاركاً للعطف على ما

(١) الشعراء/ ١٣٢ - ١٣٤.

(٢) الطراز: ٣/ ٣٠.

(٣) الفتاح: ٢٦٦؛ وانظر المعنى: ٥٥٧.

هي عليه إيراد الجواب عقيب السؤال. ولو قال: زَعَمَ العواذلُ أنني في عمره  
وصدقوا، لكان يكون لم يضع في نفسه أنه مشغول وأن كلامه كلامٌ مجيبٌ.  
وقال الشاعر جندب بن عمار:

زَعَمَ العواذلُ أن ناقةَ جندبٍ      بجنوبٍ خبتٍ عُرِيتُ وأَجَمْتُ  
كَذَبَ العواذلُ لو رأيَنا مَنَّاخَنَا      بالقادسيةَ قُلْنَ: لَجَّ وَذَكَّتُ<sup>(١)</sup>  
وقد زاد هذا أمرَ القطع والاستئناف وتقديرَ الجواب، تأكيداً بأن وضع الظاهر  
موضع المضمَر، فقال «كذب العواذل» ولم يقل «كذبن» وذلك أنه لما أعاد ذكر  
«العواذل» ظاهراً، كان ذلك أبين وأقوى؛ لكونه كلاماً مستأنفاً من حيث وَضَعَهُ  
وضِعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام.

وقال أبو العلاء المعري:

وقد غَرَضْتُ من الدنيا فهل زمني      معطٍ حياتي لغر بعدما غَرَضَا  
جربتُ دهرى وأهليه فما تركتُ      لي التجاربُ في ودٍّ امرئٍ غَرَضَا

أى: لَمْ تقول هذا ويَحْك؟! وما الذى اقتضاك أن تطوى عن الحياة إلى هذا  
الحد كسحك. وقال الوليد بن يزيد:

عرفتُ المنزلَ الخالى      عفا من بعد أحوالِ  
عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ      عَسَوْفِ الوَبْلِ هَطَالِ<sup>(٢)</sup>

فإنه لما قال «عفا» وكان العفاء مما لا يحصل للمنزل بنفسه؛ كان مظنة أن  
يسأل عن الفاعل؛ لذلك قَدَّرَ كأنه قيل له: فمَاعَفَاه؟ فقال «عفاه كُلُّ حَنَّانٍ».

(١) جندب: هو الشاعر أحد الذين شهدوا واقعة القادسية في بلاد الفرس، وخبت: ماء لکلب،  
وعريت: الناقة من رحلها، وأجمت: تركت للراحة من الركوب والسير. ولج: أى لج جندب في  
السير والتباعد، وذلت: الناقة من طول السفر.

(٢) عفا: درس وأمضى، والحان: الرعد المصاحب للمطر، وعسوف: مطره شديد العسف، الوبل: المطر  
الشديد، والهطال: متتابع الودق.

ومثل هذين البيتين قول المتنبي:

وما عَصَفَتِ الرِّيحُ لَهُ مَحَلًّا      عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمْ وَسَاقَا  
لما نفى أن يكون الذى يرى به من الدروس والعفاء من الرياح، وأن تكون التى فعلت ذلك، وكان فى العادة إذا نفى الفعل الموجود الحاصل عن واحد فقيل «لم يفعله فلان» أن يقال: «فمن فعله؟» قَدَّرَ كَأَن قَائِلًا قَالَ: «قد زعمت أن الرياح لم تَعَفْ لَهُ مَحَلًّا، فما عفاه إذن؟» فقال مجيباً له: «عفاه من حَدَا بِهِمْ وَسَاقَا».

ومن اللطيف فى الاستئناف على معنى جعل الكلام جواباً فى التقدير قول اليزيدى (أبى محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى):

مَلَكْتُهُ حَبْلَى      وَلَكِنَّهُ  
أَلْقَاهُ مِنْ زُهْدٍ عَلَى غَارِبِى  
وَقَالَ إِنِّى فِى الْهَوَى كَاذِبٌ      ائْتَقِمِ اللَّهَ مِنَ الْكَاذِبِ

استأنف قوله: «ائتقم الله من الكاذب» لأنه جعل نفسه كأنه يجب سائلاً قال له: «فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب؟» فقال أقول: «ائتقم الله من الكاذب».

وقد يُحَدِّثُ الاستئناف كله ويقام ما يدل عليه مقامه كقول مساور بن هند ابن قيس بن زهير بن حذيمة العبيسي يهجو بنى أسد:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قَرِيشٌ      لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا فُ

وذلك أن قوله: «لهم إلف» تكذيب لدعواهم أنهم من قريش، فهو إذن بمنزلة أن يقول: «كذبتم، لهم إلف، وليس لكم ذلك»، ولو قال «زعمتم أن إخوانكم قريش ولهم إلف وليس لكم إلف» لصار بمنزلة أن يقول: «زعمتم أن إخوانكم قريش وكذبتم»، فى أنه كان يُخْرِجُ عن أن يكون موضوعاً على أنه جواب سائل يقول له: «فماذا تقول فى زعمهم ذلك وفى دعواهم؟»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر النصوص والشواهد والأمثلة السابقة فى الدلائل: ٢٣٦ وما بعدها، والمفتاح: ٢٦٣؛

والمصباح: ٢٥٩؛ والطراز: ٤٧/٢.

## الالتفات

يُعد الأصمعي (-٢١٤هـ) أول من أشار إلى «الالتفات»؛ فقد ذكر إسحاق الموصلي أنه قال له: «أتعرف التفات جرير؟ قلت: وما هو؟ فأتشدني: أتُنسى إذ تودَعنا سُلَيْمى بعودٍ بِشامة؟ سَقَى البَشَامُ ثم قال: أما تراه مقبلاً على شعره، إذ التفّت إلى البشام فدعا له»<sup>(١)</sup>.

وقبل الدخول في التعرف على شواهد الالتفات وأمثله في الدرس البلاغي، نقدم مجموعة من التعريفات التي قال بها القدماء له:

- قال عبد الله بن المعتز: «باب الالتفات: وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»<sup>(٢)</sup>.

- قال قدامة بن جعفر: «ومن نعوت المعاني الالتفات، وبعض الناس يسميه الاستدراك، وهو أن يكون الشاعر أخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ما قدمه؛ فإما أن يؤكد أو يذكر سببه أو يحلّ الشك فيه»<sup>(٣)</sup>.

- قال ابن رشيق: «باب الالتفات: وهو الاعتراض عند قوم، وسماء آخرون الاستدراك، حكاة قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر أخذاً في معنى، ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول»<sup>(٤)</sup>.

ويتضح من تلك التعريفات أن الالتفات له مصطلحات آخران عند بعض العلماء هما «الاعتراض» و «الاستدراك»، وأنه يتصل بثلاثة من مستويات التحليل

١ - العمدة: ٣٧/٢ و ٣٨. والبشامة: شجرة طيبة الريح والطعم صغيرة الورق لا تمر لها، وجمعها بَشَامٌ.

٢ - البديع: ٥٨.

٣ - نقد الشعر: ١٤٦ و ١٤٧.

٤ - العمدة: ٣٦/٢.

اللغوى: الصرفى والنحوى والدلالى؛ لأن علماء البلاغة حين عرّفوه أشاروا إلى أنه عبارة عن الانتقال فى الكلام من صيغة Form إلى أخرى؛ أى إنه انتقال خاص بالصرف. وكذلك الانتقال من خطاب إلى غيبة ومن غيبة إلى خطاب وهذا خاص بالضمائر التى هى أحد أبواب النحو. ويرتبط هذا كله بالدلالة؛ لذلك فضل يحيى العلوى حين عرفه أن يقال: «هو العدول من أسلوب فى الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول»<sup>(١)</sup>؛ لأنه يعم سائر الالتفاتات كلها. وللالتفات علاقته بملتقى الخطاب أو اللغة؛ لأنه يكون إيقاظاً للسامع عن الغفلة وتطريفاً له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر؛ فإن السامع ربما ملّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطاً له فى الاستماع واستمالة له فى الإصغاء إلى مايقوله<sup>(٢)</sup>.

وقد أشار علماء البلاغة إلى الكثير من الشواهد والأمثلة الخاصة بباب الالتفات، ويمكن تفسيرها فى ضوء الأداء اللغوى كما يأتى:

١- مما يطبع الأداء اللغوى فى باب الالتفات التحويل حين استعمال الضمائر من الغيبة إلى الخطاب. قال تعالى: (الحمد لله رب العالمين)<sup>(٣)</sup> ثم قال بعد ذلك: (إياك نعبد وإياك نستعين)<sup>(٤)</sup>؛ لأن مائقدم من قوله تعالى: (الحمد لله) إنما هو للغائب، ولو أراد الخطاب لقال تعالى: «الحمد لك لأنك رب العالمين». قال الزمخشري: «إنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخرطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقليل: إياك يامن هذه صفاته، تخص بالعباد والاستعانة لا تعبد غيرك ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به»<sup>(٥)</sup>.

١- الطراز: ١٣٢/٢.

٢- الكشف: ٦٤/١.

٣- الفاعلة ٢/

٤- الفاعلة ٥/

٥- الكشف: ٦٤/١ و ٦٥.

ومن الالتفات الخاص بالرجوع والعدول عن الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمنُ ولدًا. لقد جئتم شيئاً إداً)؛ فقد قيل: (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر بعد قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمنُ ولدًا)<sup>(١)</sup> وهو خطاب للغائب، ولهذا الالتفات فائدته وهي زيادة التسجيل على قائل هذا القول بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا لهم.

ومن هذا الالتفات المتصل بنقل الغيبة إلى الخطاب قول الحارث بن حنظلة:

طرق الخيال لأكليلة مُدَلِّج      سَدَكَا بِأَرْحُلِنَا وَلَمْ يَتَعَرَّجْ  
أنى اهتديت لنا وكنت رجليّة      والقومُ قد قطعوا مِثَانِ السَّجْسَجِ<sup>(٢)</sup>

فقد التفت في البيت الثاني. وقال جرير:

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذَى طُلُوحٍ      سَقَيْتِ الْغَيْثَ أَتَيْهَا الْخِيَامُ  
فالشاعر في الشطر الأول يتحدث عن الخيام، ثم خاطبها في الشطر الثاني داعيًا لها بالسُّقْيَا، وهذا التفت. وقال القاضى الأرجاني:

وَهَلْ هِيَ إِلَّا مُهْجَةٌ يَطْلُبُونَهَا      فَإِنْ أَرْضَتِ الْأَحْبَابَ فَهِيَ لَهُمْ فِدَى  
إِذَا رَمَتُمُو قَتْلَى وَأَنْتُمْ أَحْبَبْتَى      فَمَاذَا الَّذِي أَخَشَى إِذَا كَتَمْتُمُو عَدَى

والالتفات في البيت الثاني الذى لجأ فيه الشاعر إلى الخطاب بواسطة الضمير فى «رمتم» و«كتمت». وقال جرير:

طَرَبَ الْحَمَامُ بِذَى الْأَرَاكِ فَهَاجَنِي      لَازَلْتُ فِى غَلْلِي وَأَيْكٍ نَاضِرٍ<sup>(٣)</sup>  
والالتفات فى قوله «لازلت» الذى يخاطب فيه الحمام.

١- مريم / ٨٨ - ٨٩.

٢- ديوان الحارث: ١٤، والمصباح: ٣٣، والمفتاح: ٢٠٠. والمدلج: السائر بالليل، وسدكا. ملازما، ولم يتعرج: ولم يقم، ورجلية: القوة على المشى، والسجسج: المكان المستوى الصلب.

٣- انظر البديع: ٥٩، والمعمدة: ٣٨/٢، وتحرير النحير: ١٢٤، والمصباح: ٣٣.



٢- وما يتصل بالأداء اللغوى فى باب الالتفات الرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة. قال تعالى: (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)<sup>(١)</sup>. فالخطاب فى (كنتم) والغيبة فى (بهم)، وقد قال ابن الأثير: «فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم. ولو أنه قال: حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها، ساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة»<sup>(٢)</sup>.

ومن الالتفات الخاص بالعدول عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)<sup>(٣)</sup>؛ فقد قال تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله)، ولم يقل: (فآمنوا بالله وبى) بعد قوله: (إني رسول الله إليكم)، وقد علل الزمخشري ذلك قائلاً: «عدل عن المضممر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التى أُجريت عليه، ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيرى، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن النيه:

من سحر عينيك الأمان الأمان      قتل رب السيف والطيلسان  
أسمر كالرمح له مقلة      لو لم تكن كحلاء كانت سنان

١- يونس / ٢٢.

٢- المثل السائر: ١٤٦/١.

٣- الأعراف / ١٥٨.

٤- الكشاف: ١٢٣/٢.

فقد عدل عن الخطاب في البيت الأول إلى الغيبة في البيت الثاني حين قال «أسمر» ؛ أى «هو أسمر» .

٣- هناك نوع من الالتفات أشار إليه البلاغيون يتصل بخطاب النفس أو الحكاية، وله عدة طرق لغوية، من بينها مايتى:

- الالتفات بالرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس. قال تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)<sup>(١)</sup>. فإن قوله تعالى: (استوى) و(قضاهن) و(أوحى) للغيبة، و(زينا) لخطاب النفس أو الحكاية.

وقال تعالى: (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميث)<sup>(٢)</sup>؛ فإن قوله تعالى: (والله الذى أرسل) للغيبة، و(سقناه) لخطاب النفس أو الحكاية.

- الالتفات بنقل الحكاية إلى الخطاب. قال تعالى: (ومالى لأعبد الذى فطرني وإليه ترجعون)<sup>(٣)</sup>؛ فإن قوله تعالى: (ومالى لا أعبد) حكاية، و(إليه ترجعون) خطاب للجماعة.

- نقل الحكاية إلى الغيبة. قال تعالى (إنا أعطينا الكوثر. فصل لربك وانحر)<sup>(٤)</sup>. ولم يقل - سبحانه وتعالى - «فصل لنا» .

- نقل الخطاب إلى الحكاية. قال ربيعة بن مقروم:

تذكّرتَ والذكرى تهيجك زينبا وأصبح باقى وصلها قد تقضباً<sup>(٥)</sup>  
والشاهد فى قوله: «تهيجك زينبا» فهو خطاب، وحول إلى الغيبة فى

١- فصلت / ١١ و ١٢ .

٢- فاطر / ٩ .

٣- يس / ٢٢ .

٤- الكوثر / ١ و ٢ .

٥- تهيجك: تثيرك، وتقضب: تقطع .

قوله: «وصلها». وقال علقمة بن عبدة:

طحا بك قلب في الحسان طروبُ      بُعيدَ الشبابِ عصرَ حانِ مشيبُ  
يكلّفني ليلى وقد شطّ وليها      وعادتُ عوادٍ بيننا وخطوبُ<sup>(١)</sup>

والشاهد في قوله: «بك» فهو خطاب، وحول إلى الغيبة في قوله: «يكلّفني»<sup>(٢)</sup>.

٤- هناك التفات خاص بالانتقال من صيغة فعلية إلى صيغة أخرى كما يأتي:

- الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر. قال تعالى: (قالوا يا هودُ ماجئتَنا بينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين. إن نقولُ إلا اعتراض بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهدُ الله وأشهدوا أنى برئ مما تشركون)<sup>(٣)</sup>. فالفعل (أشهد) مضارع و(أشهدوا) أمر، ولو أراد - سبحانه - المساواة بين الفعلين لقال: «أشهدُ الله وأشهدكم». وقد تحدث الزمخشري عن بلاغة الالتفات في الآية الكريمة قائلاً: «فإن قلت: هلاً قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده. وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، ففعل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يس الثرى بينه وبينه: اشهد على أنى لا أحبك، تهكماً واستهانة بحاله»<sup>(٤)</sup>.

- الرجوع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر. قال تعالى: (قل أمر ربي بالقسط

١- طحا بك: ذهب بك كل مذهب، وطروب: كثير الطرب وهو استغفاف القلب من فرح أو حزن، وشط وليها: بعد قرنها، وعواد: جمع عادية، وعوادى الدهر نوازل.

٢- الشواهد في عدة مصادر منها المصباح: ٣١ و ٣٢، والإيضاح: ١٥٧-١٥٩.

٣- هود / ٥٣ و ٥٤.

٤- الكشف: ٢٧٦/٢.

وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم  
تعودون<sup>(١)</sup>. فالفعل (أمر) ماضي وأقيموا أمر، ولوجاء على أسلوب واحد لقال -  
سبحانه وتعالى - : أمر ربي بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم.

- الرجوع عن الفعل الماضي إلى المضارع. قال تعالى: (والله الذي أرسل الرياح  
فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها كذلك النشور)<sup>(٢)</sup>.  
فوسط قوله تعالى: (فتثير سحاباً) وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين  
فعلين ماضيين وهما (أرسل) و(سقناه).

وقال تعالى: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى  
به الريح في مكان سحيق)<sup>(٣)</sup>. فالفعل (خر) ماضي و(تخطفه) و(تهوى) مضارع.

وقال تعالى: (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي  
جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب  
أليم)<sup>(٤)</sup>. فالفعل (كفروا) ماضي و(يصدون) مضارع ويفيد التعبير به الاستمرار في  
الصد.

وقال تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله  
لطيف خبير)<sup>(٥)</sup>. فالفعل (أنزل) ماضي و(تصبح) مضارع. قال الزمخشري: «هلاً  
قيل: فأصبحت، ولم صرف إلى لفظ المضارع. قلت: لكتبة فيه وهي إفادة بقاء أثر  
المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم على فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرًا له،  
ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموضع»<sup>(٦)</sup>.

- الرجوع عن المضارع إلى الماضي. قال تعالى: (ويوم ينفخ في الصور ففزع

١ - الأعراف / ٢٩

٢ - يس / ٢٢

٣ - الحج / ٣١

٤ - الحج / ٢٥

٥ - الحج / ٦٣

٦ - نحو / ٢٠

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ<sup>(١)</sup>. فالفعل (ينفخ) مضارع و(افزع) ماضي، وعطل الزمخشري ذلك بقوله: «لَمْ يَكُنْ قِيلَ (شَفَعُ) دُونَ فَيَفْزَعُ؟ قُلْتُ: لِنَكْتَةِ هِيَ الْإِشْعَارُ بِتَحَقُّقِ الْفَرْعِ وَبُيُوتِهِ وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَامِحَالَةٌ وَقَعَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمَاضِيَ يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الْفِعْلِ وَكَوْنِهِ مَقْطُوعاً بِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)<sup>(٣)</sup>. فالفعْلان (نسير) و(ترى) مضارعان و(حشرناهم) ماضٍ.

٥- يختلف هذا النوع من الالتفات عن الأربعة السابقة التي كانت تتصل بالضمائر وصيغ الأفعال والتحويل فيها؛ إذ إنه يتصل بالمعنى. فقد يكون الشاعر - مثلاً - يتغزل ويصف نفسه بالإفراط في الرقة والصبابة، فيتوقع أن يظن ظان أن ذلك لضعف نفسي منه، فيلتفت إلى مايدراً عنه ذلك الظن ويشير إلى مايدل على ذلك بلفظ مختصر يلحقه في تضاعيف كلامه أوعقبه؛ وذلك مثل قول الشريف:

مَالُوا عَلَى شَعْبِ الرِّجَالِ وَأَسْنَدُوا  
أَيْدِي الطَّعَانِ إِلَى قُلُوبِ تَخَفِقِ  
فأشار إلى الشجاعة أثناء الوصف بالركة بأوجز لفظ وهو قوله «أيدى الطعان»<sup>(٤)</sup>.

وقد أحسن قدامة بن جعفر حين ربط بين الالتفات والمعاني<sup>(٥)</sup>، وعده من نعوت تلك المعاني، وقد أوردنا من قبل تعريفه للالتفات ولا بأس من إيراد مرة أخرى مع التعرف على ما أورد من شواهد للالتفات. قال «وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ماقدمه؛ فإما أن يؤكد أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه. مثال ذلك قول المَعَطَّل، أحد بني رَهْمٍ مِنْ هَذِيلٍ:

١- النمل / ٨٧.

٢- الكشف: ١٦١/٣.

٣- الكهف / ٤٧.

٤- منهاج البلاغة: ٣٥٥ و ٣٥٦.

النمر ١٤٦-١٤٩

تَبَيَّنُ صَلَاةُ الْحَرْبِ مِنَّا وَمِنْهُمْ إِذَا مَا التَّقِينَا وَالْمَسَالِمُ بَادُنُ  
 فقوله: «والمسالمة بادن» رجوع على المعنى الذى قدمه حين بين أن علامة  
 صلاة الحرب من غيرهم أن المسالم يكون بادناً والمحارب ضامراً. وقال ابن ميادة  
 (الرماح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني المضرى):  
 فلا صرْمُهُ يَبْدُو، وَفِي الْيَأْسِ رَاحَةٌ وَلَا وَصْلُهُ يَصْفُو لَنَا فَنَكَارُمُهُ  
 وقد استدرك الشاعر ها هنا حين قال: «وفي اليأس راحة»؛ إذ إنه تخيل أن  
 معارضاً يقول له: وماتصنع بصرمه؟ فقال: لأن اليأس راحة.

\* \* \*

## الإطناب

تحدث الرُّمَّانِي عن «الإطناب» موضحاً أنه يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به، في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل، ثم قارن بينه وبين «التطويل» فأشار إلى أن الإطناب من مواطن الجمال حين الأداء اللغوي، في حين أن التطويل عيب وعي؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب. وأما الإطناب فليس كذلك لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحمل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالفرض المطلوب<sup>(١)</sup>.

وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة التي أتى بها البلاغيون للإطناب، وهي مأخوذة من القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم والشعر، ونقدم بعضها حتى يمكن التعرف على المقصود بالإطناب في البلاغة العربية. ونبدأ بكتاب الله سبحانه وتعالى وبعض ماورد فيه من «صفة الجنة»<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾<sup>(٣)</sup>. وتقدم الآية الكريمة (مثل الجنة)؛ أي صفاتها، وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - أربعة أنهار:

- (فيها أنهار من ماء غير آسن)؛ أي غير متغير، غير آجن.
- (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) لم يخرج من ضروع الإبل ولا الغنم

(١) الرُّمَّانِي: النكت في إعجاز القرآن، منشور ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٧٨ و ٧٩ ويقول الجاحظ: «وقد بقيت - أبقاك الله تعالى - أبواب توجب الإطالة، ونحجج إلى الإطناب، وليس بإطالة مالم يجاوز مقلو الحاجة، ووقف عند منتهى البنية، وإنما الألفاظ على مقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلاً لقليلاً، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها». الحيوان: ٧/٦.

(٢) انظر الطراز: ٢٤٨/٢ وما بعدها.

(٣) محمد / ١٥٠.

برغوته، أو لا يتغير كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود قارصاً ولا حاذراً ولا مايكره من الطعوم.

- (وأنهار من خمر لذة للشاربين). قال الزمخشري: «ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهابٌ عقلي ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر».

- (وأنهار من عسل مصفى) لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لا يرونها فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانية عليهم ظلالها وُدُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً. قوارير من فضة قدروها تقديراً. ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عينا فيها تسمى سلسبيلاً. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيتَ ثم رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً. عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً»<sup>(٢)</sup>.

ومن الإطناب الذى وقع موقعاً حسناً قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يكملُ إيمانُ العبد بالله حتى يكون فيه خمسُ خصال: التوكل على الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والصبر على بلاء الله. إنه من أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنعَ له فقد استكمل الإيمان». قال يحيى العلوى معلقاً على الحديث الشريف: «فانظر إلى ذكره تلك الخصال الخمس التى جعلها أصلاً فى كمال الإيمان كيف أردفها بما هو كالثمرة لها، والمصدق لأمرها بقوله: إنه من أحب لله؛ لأن كل من كملت فيه تلك الخصال فلا شك فى كون أعماله تكون لله من حب أو بغض أو إعطاء أو منع»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر معاني القرآن: ٦٠/٣، والكشاف: ٥٣٤/٣.

(٢) الإنسان / ١٢ - ٢١.

(٣) الطراز: ٢٤٩/٢.



ويأتى الإطناب على أنواع مختلفة، نقدمها فيما يلى مع بعض الشواهد والأمثلة التى توضحها:

#### ١ - الإيضاح بعد الإبهام:

ويؤدى هذا النوع من الإطناب إلى إظهار المعنى فى صورتين مختلفتين، مما يساعد على تمكين المعنى فى النفس؛ فإن المعنى إذا أُلْقِيَ على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا أُلْقِيَ كذلك تمكن فيها فضلَ تمكُّنٍ، وكان شعورها به أتم. ومن أمثله ذلك قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>. فقد تم تفسير (الأمر) بـ (أن دابر هؤلاء مقطوع)، وهو يؤدى إلى إيضاح ما فى لفظة (الأمر) من الإبهام وذلك لزيادة تقرير المعنى فى ذهن السامع بذكره مرتين، أولهما عن طريق الإجمال والإبهام، والأخرى عن طريق الإيضاح والتفصيل<sup>(٢)</sup>.

وما يدخل تحت الإيضاح بعد الإبهام «التوشيع»، واشتقاقه من توشيع الشجرة وهو تفريع أصلها، وهو فى مصطلح علماء البيان: «عبارة عن أن يأتى المتكلم بمتنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه، وذلك من أجل أن التثنية أصلها العطف، فيوسع الاسم المتنى بما يدل على معناه ويرشد إليه على جهة العطف»<sup>(٣)</sup>. ومن أمثلة التوشيع قول الرسول ﷺ: «يشيب ابن آدم، ويشيب معه خصلتان: الحرص، وطول الأمل»؛ فإن التثنية فى «خصلتان» والتفسير بـ «الحرص» و«طول الأمل». وهذه بعض النماذج الشعرية للتوشيع.

قال عبد الله بن المعتز:

(١) الحجر/ ٦٦.

(٢) قال الرمخشرى: «وَفَسَّرَ (ذلك الأمر) بقوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع)، وفى إبهامه وتفسيره نفخيم للأمر وتنظيم له». الكشف/ ٣٩٥/٢.

(٣) الطراز/ ٨٩/٣.

(٤) شبهة خدعها: هى الخمر.

سَقَتْنِي فِي لَيْلِي شَبِيهِ بِشَعْرِهَا .  
فَمَازَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ: شَعْرٍ وَظَلْمَةٍ  
وقال البحرى:

لَمَّا مَشَيْتُ بِذَى الْأَرَاكِ تَشَابَهْتُ  
فِي حُلَّتْنِي حَبِيرَ وَرُوضٍ فَالْتَقَى  
وَسَفَرَنَ فَاِمْتَلَأَتْ عَيُونُ رَاقِهَا  
أَعْطَافُ قَضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ  
وَشْيَانٍ: وَشْيُ رَبِي وَوَشْيُ بَرُودِ  
وَرَدَانٍ: وَرْدُ جَنِّي وَوَرْدُ خُدُودِ<sup>(١)</sup>

وقال ابن الرومي يمدح عبد الله بن سليمان بن وهب:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ لَنَا يَدُهُ  
وَأَنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ  
وَأَنْ نَضَا حَدَّهُ أَوْسَلَ عَزَمَتُهُ  
مَنْ لَمْ يَتَّ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ سَطْوَتِهِ  
يَنَالُ بِالظَّنِّ مَا يَمِيزُ الْعِيَانُ بِهِ  
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ الدَّهْرِ فِي يَدِهِ  
لَمْ يُحْمَدِ الْأَجُودَانُ: الْبَحْرُ وَالْمَطَرُ  
تَضَاعَلُ النِّيرَانُ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
تَأَخَّرَ الْمَاضِيَانِ: السِّيفُ وَالْقَدَرُ  
لَمْ يَدْرِ مَا الْمَرْعَجَانُ: الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ  
وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْأَنْفُ  
يَذَرِي عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذُرُ

وقال بعض المتأخرين:

يَا مَنْ لَهُ الْأَطْيَاسَانُ: الْمَجْدُ وَالْكَرَمُ  
وَمَنْ خَلَّاقُهُ كَالرُّوْضِ ضَاحِكَةٌ  
أَنْتَ الْجَوَادُ وَأَنْتَ الْبَدْرُ لَا كَذِبُ  
هَذَاكَ رَبُّكَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ نَعَمٍ  
وَعَادَاكَ الشَّهْرُ أَعْوَامًا مَكْرَرَةً  
وَمَنْ لَهُ الْمَاضِيَانِ: السِّيفُ وَالْقَلَمُ  
فَطَبِيعُهُ الْأَحْسَنَانُ: الْجُودُ وَالشُّيْمُ  
يُمَجِّحِي بِكَ الْأَسْوَدَانُ: الظُّلْمُ وَالظُّلْمُ  
لَا مَسَّكَ الْمُؤْذِيَانِ السُّقْمُ وَالْأَلَمُ  
مَاعَظَمُ الْأَشْرَفَانِ: الْبَيْتُ وَالْحَرَمُ

(١) الْأَرَاكُ: شَجَرٌ، وَذُو الْأَرَاكِ: مَوْضِعٌ يَوْجِدُ فِيهِ، وَأَعْطَافُ: جَمْعُ عَطَفَ، أَيْ جَانِبٍ، وَقَضْبَانُ: جَمْعُ قَضْبٍ وَهِيَ الْأَغْصَانُ، وَالْحَبِيرُ: جَمْعُ حَبِيرَةٍ؛ ضَرْبٌ مِنَ الْبُرُودِ الْيَمِينِيَّةِ، وَوَشْيُ: نَقَشٌ، وَرَبِي: جَمْعُ رَبْوَةٍ وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ.

قال يحيى العلوى معلقاً على تلك الآيات: «فهذه الآيات من أعجب ما يأتي فى أمثلة التوشيع، وهى من أرق الشعر وأمدحه، وأدخله فى حسن الانتظام وأفصح»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - ذكر الخاص بعد العام:

وهو نوع من أنواع الإطناب يفيد الدلالة على فضل «الخاص» حتى كأنه ليس من جنس «العام» مما يؤدى إلى زيادة التنويه بشأنه. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: «من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين»<sup>(٢)</sup>، ويمكن توضيح العام والخاص كما يأتى:

العام ← ملائكته

الخاص ← جبريل وميكال

وقال تعالى: «حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين»<sup>(٣)</sup>.

والعام والخاص كما يأتى:

العام ← الصلاة

الخاص ← الصلاة الوسطى

## ٣ - ذكر العام بعد الخاص:

وهذا النوع من الإطناب عكس السابق عليه تماماً، ومن أمثلته قوله تعالى: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارَهاً»<sup>(٤)</sup>. فإن:

(لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) ← عام

يدخل تحته:

(١) الطراز: ٩١/٣.

(٢) البقرة/٩٨.

(٣) البقرة/٢٣٨.

(٤) نوح/٢٨. و(تبارك)، أى ملاًكاً.

(لى ولوالدى) ————— ◀ خاص

#### ٤ - التكرير:

والمقصود به تكرار بعض التراكيب النحوية، وهذا التكرار له عدة دواع ترتبط بالدلالة، وهى التى تؤدى إلى استعماله، ومن تلك الدواعى ما يأتى:

- تأكيد الإنذار. قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>. (ثم) دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشدُّ كما تقول للمتنصوح: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل! والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عايتم ماقدامكم من هول لقاء الله، وأن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم<sup>(٢)</sup>.

- زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾<sup>(٣)</sup>. والتكرار فى الآية الكريمة لأسلوب النداء (يا قوم). - التحسر:

ومن ذلك قول الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة:

فيا قبر معنٍ أنست أولُ حفرة      من الأرض خُطَّتْ للسماحة موضعا  
وياقبر معن كيف وارت جوده      وقد كان منه البر والبحر مترعا

فقد كرر الشاعر النداء «ياقبر معن» لغرض دلالى هو إظهار التحسر والأسى على معن.

- طول الكلام:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنْ رِبْكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلَّذِينَ

(١) التكاثر / ٣ و ٤.

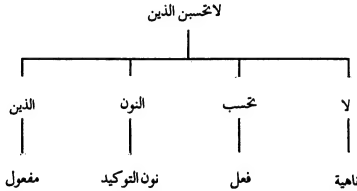
(٢) الكشاف: ٢٨١/٤.

(٣) غافر/ ٣٨ و ٣٩.

(٤) النحل / ١١٩.

هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم<sup>(١)</sup>.  
والتكرار لـ (إن) واسمها المضاف إلى الضمير (إن ربك)؛ لأن الخبر (لغفور رحيم).

ويندرج تحت التكرار لطول الكلام «طول الفصل» قال تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمُقَازَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»<sup>(٢)</sup> والتكرار للتركيب النحوي «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ» ومكوناته الأساسية المباشرة هي:



والتركيب نفسه مكرر، ولكن تم إحلال الضمير محل الاسم الموصول: (لَا تَحْسَبْنَهُمْ)؛ لأنه يعود على هذا الاسم، ويعود السبب في هذا التكرار إلى أن «بمقازة من العذاب» متعلق بـ (لَا تَحْسَبَنَّ)، وجاء التكرار (فلا تحسبنهم) خشية أن يكون الذهن قد غفل عنه.

وقال الشاعر:

لقد علم الحيُّ اليمانون أنني      إذا قلتُ: أمّا بعدُ، أنى خطيبيها

وقال الحماسي:

وإنّ امرأً دامتْ مواليقُ عهده      على مثلي هذا إنه لكريمٌ

(١) النحل/ ١١٠.

(٢) آل عمران / ١٨٨.

- هناك تكرار لتعدد المتعلق كما كرر الله تعالى من قوله: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»<sup>(١)</sup>؛ لأنه تعالى ذكر نعمةً بعد نعمة، وعَقَّبَ كُلَّ نعمة بهذا القول ومعلوم أن الغرض من ذكره عَقَّبَ نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى.

فإن قيل: قد عَقَّبَ بهذا القول مالم يلى نعمة كما فى قوله: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابُ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ»<sup>(٢)</sup>؛ وقوله: «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ»<sup>(٣)</sup>. قلنا: العذاب وجهنم - وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى - فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصى، والترغيب فى الطاعات من آلائه تعالى.<sup>(٤)</sup> وسوف نقدم دراسة تفصيلية للتكرار.

## ٥ - الإيغال:

الإيغال فى أصل اللغة هو سرعة السير، ويستعمل فى المبالغة فى الشئ؛ يقال: فلان يؤغل فى نظره وفى قراءته؛ أى يبالغ فيهما. وهو فى مصطلح علماء البيان: عبارة عن الإتيان فى مقطع البيت وعجزه أو فى الفقرة الواحدة بنعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة فيه.<sup>(٥)</sup> ومن هنا فإن المعنى يتم دون اللجوء إلى الإيغال؛ ومع ذلك فهو يؤدى إلى الجمال حين الأداء اللغوى، ومن أمثلة ذلك قول الخنساء:

وإن صخرأ لتأتم الهدأة به كأنه علم فى رأسه نار<sup>(٦)</sup>

فقولها: «فى رأسه نار» من الإيغال الحسن؛ لأنها لم تكتف بكونه جبلاً عالياً مشهوراً؛ بل زادت لكثرة إيغالها فى مدحه وشهرته بقولها «فى رأسه نار» لما فيه من

(١) الرحمن / عدة آيات.

(٢) الرحمن / ٣٥، وشواظ) لهيب لادخان فيه.

(٣) الرحمن / ٤٣ و ٤٤.

(٤) الإيضاح: ٣٠٤ و ٣٠٥.

(٥) الطراز: ٣ / ١٣١.

(٦) صخر بن عمرو بن الشريد السلمى أخو الخنساء، وتأتم: تقتدى، والهدأة: جمع هادٍ، وهو من يرشد غيره.

زيادة الظهور والانكشاف؛ لأن الجبل ظاهر فكيف به إذا كان فى رأسه نار، والنار ظاهرة فكيف حالها إذا كانت فى رأس جبل<sup>(١)</sup>.

وقال امرؤ القيس:

كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِثِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزَعُ لَمْ يَشْقُبْ<sup>(٢)</sup>  
فإنه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية واحتاج إليها، جاء بزيادة حسنة فى قوله: «لم يُشَقَّبْ»؛ لأن «الجزع» إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون.  
وقال امرؤ القيس أيضاً:

حَمَلْتُ رَدِينِيَّ كَأَنَّ سَنَاهَ سَنَالِهِي لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ  
ويشبه الشاعر نصل رمحه وحديثه المركبة فى عامله بضوء النار غير المتصل بالدخان، وجاء بالتركيب النحوى «لم يتصل بدخان» بعد أن تم التشبيه إيفالاً.  
وقال زهير:

كَأَنَّ فُتَاتِ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنَزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْغِنَا لَمْ يَحْطَمْ  
فإن حب الغنا (عنب الثعلب) أحمر الظاهر أبيض الباطن؛ فهو لا يشبه الصوف الأحمر (فتات العهن) إلا ما لم يحطم. وقال ذو الرمة:

قَفَّ الْعَيْسُ فِي إِطْلَالِ مَيَّةٍ، وَاسْأَلِ رَسُومًا كَأَخْلَاقِ الرَّدَاءِ الْمُسْلَسِلِ  
أَظُنُّ الَّذِي يَجْدِي عَلَيْكَ سَوَالُهَا دُمُوعًا كَتَبْدِيرِ الْجُمَانِ الْمُفْصَلِ<sup>(٣)</sup>

ويشبه ذو الرمة فى البيت الأول الرسوم (وهى ما لصق بالأرض من آثار الديار) بأخلاق الشيايب (وهى البالى من تلك الشيايب)، وبعد أن تم التشبيه جاء بكلمة «المسلسل» (وهو ما كان فيه ونشئ مخطط من الشيايب) إيفالاً، وقد وقع وصف الرداء بالمسلسل موقعاً حسناً؛ لأن الشاعر يشبه الرسوم بالتركيب «أخلاق الرداء المتسلسل» كله. ١

(١) الطراز: ١٣١/٣.

(٢) الجزع: الخيز فيه سواد وبياض.

(٣) تبدير: تفرق، والجمان: اللؤلؤ، والمفصل: المفصول.

## ٦ - الاعتراض:

ويطلق عليه بعض البلاغيين اسم «الحشو»، وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب. ويعرفه يحيى العلوى بقوله: «أما الاعتراض فهو كلام أُدخل فى غيره أجنبى؛ بحيث لو أُسقط لم تختل فائدة الكلام»<sup>(١)</sup>. ومن أغراض الإطناب بالاعتراض البلاغية ما يأتى:

- التنزيه:

وذلك نحو التعبير بالمفعول المطلق (سبحانه) فى قوله تعالى: «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون»<sup>(٢)</sup>. قال يحيى العلوى معلقاً: «فقلوه (سبحانه) كلمة تنزيه أوردتها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة فى التنزيه عما نسبوه إليه من اتخاذ البنات ومبالغة فى الإنكار عليهم فى هذه المقالة، فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة؛ أعنى قوله (سبحانه) من حسن الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض، وما تضمنته من الفوائد الشريفة والأسرار الخفية، من الإنكار والرد والتهمك، وإظهار التعجب من حالهم وغير ذلك من اللطائف، فسبحان الله لقد أنشأت هذه الآية للمعارفين استطرافاً وعجباً، وحركت فى قلوبهم أشواقاً وطرباً، لما اشتملت عليه من عجائب الفصاحة التى لا ينطق بها لسان، ومن غرائب البلاغة ما لا يطلع على فحها إنسان»<sup>(٣)</sup>.

- الدعاء: ومن ذلك قول المتنبي:

وَحْتَقَرُ الدُّنْيَا احْتِقَارَ مُجْرِبٍ يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا - وَحَاشَاكَ - فَاِنِ  
وَالدَّعَاءُ فِي قَوْلِهِ «وَحَاشَاكَ». وقول عوف بن مُحَلِّم الشيباني:

إِنَّ الشَّمَانِينَ - وَبُلَغَتْهَا - قَدْ أَحْوَجْتُ سَمْعِي إِلَى تَرْجَمَانٍ

(١) الطراز: ١٦٧/٢.

(٢) النحل/٥٧.

(٣) الطراز: ١٧٠/٢.



وقال العباس بن الأحنف:

. إن تمّ ذا الهجر - ولاتم - فمالى فى العيش من أرب

- التنبيه:

ومن ذلك قول الشاعر:

واعلم - فعلم المرء ينفعه - أن سوف يأتى كل ما قدرا

وقول أبى خراش الهذلى:

نقول: أراه بعد عروة لاهياً  
فلا تخشى أنى تناسيت عهدَه  
وذلك أمر - لو علمت - جليل  
ولكن صبرى - يا أميم - جميل

وقول كثير عزة:

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك لعلّموا الناس المطالاً  
فقوله: «وأنت منهم» اعتراض بين «لو» وجوابها، وفائدته التصريح بما هو  
المقصود من ذمه وتأكيد انصرف الذم إليه.

- التعظيم:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم﴾<sup>(١)</sup>. قال يحيى العلوى: «ففى هذه الآية اعتراضان؛ أحدهما بجمله اسمية ابتدائية، وهى قوله: (وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم) فأتى بها اعتراضاً بين القسم وجوابه، وإنما أتى به على قصد المبالغة للمقسّم به واهتماماً بذكر حاله قبل جواب القسم، وفيه الإعظام له والتفخيم لشأنه، وذلك يكون أوقع فى النفوس وأدخل فى البلاغة. وثانيهما بجمله فعلية بين الصفة والموصوف تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره، كأنه قال: وإنه لقسّم لو علمتم حاله أو تحققت أمره، لعرفتم عظمه وفخامة شأنه؛ فهذان الاعتراضان قد اختصاً بمزيد البلاغة وموقع الفخامة مبالغاً لا ينال<sup>(٢)</sup>.

(١) الواقعة / ٧٥-٧٧.

(٢) الطراز: ١٦٩/٢، و ١٧٠.

ونختم هذا العرص للاعتراض بتقديم بعض أمثله غير ما ذكرناه، إكمالاً  
للفائدة:

- قال تعالى : ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَاذَارُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ قَتَلْنَاكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. فإن جملة (اللَّهُ مَخْرُجٌ) اعتراضية، وهي مكونة من المبتدأ والخبر، وهناك بعض العلاقات السياقية في الآية الكريمة المتصلة بالتركيب النحوي، فإن (ما) اسم موصول مفعول به لاسم الفاعل (مخرج)، وهذا الاسم الموصول يتطلب جملة تكون صلة له، وتلك الجملة مكونة من (كان) واسمها وخبرها (كنتم تكتمون)؛ لذلك كان (والله مخرج ما كنتم تكتمون) جملة اعتراضية؛ «وفائدتها التقرير في نفوس السامعين بأن تدافع بنى إسرائيل في قتل النفس ليس نافعا لهم في إخفائه وكنمائه؛ لأن الله تعالى مظهره وتعريف بأنه تعالى مطلع على كل خافية»<sup>(٢)</sup>.

- قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ. نَسْأَلُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup>. فإن ﴿نَسْأَلُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ تفسير لـ ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾ من حيث أمركم الله؛ أي إن المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحَرْث، ودلالة على أن الغرض الأصلي في الإتيان طلب النسل لا محض الشهوة،<sup>(٤)</sup> والاعتراض بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وهو تركيب نحوي به عدة علاقات سياقية أدت إلى تعدد مكوناته الأساسية المباشرة، وهي (إن) واسمها (الله) وخبرها الجملة الفعلية (يحب) والمفعول به (التوابين)، وتم عطف جملة (ويحب المتطهرين) على تلك الجملة الفعلية، وهذا كله أدى إلى تعدد تلك المكونات وهي أساس الجملة الاعتراضية.

(١) البقرة: ٧٢.

(٢) انظر الكشف: ٢٨٩/١؛ والطراز: ١٧/٢.

(٣) البقرة: ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) المعنى: ٥١٤.

- قال تعالى: ﴿فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنثى وإنّى سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾<sup>(١)</sup>. فإنّ ﴿والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنثى﴾ ليس من قول أم مريم. قال الزمخشري مفسراً: «قال الله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشئ الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لاتعلم منه شيئاً؛ فلذلك تحسرت»<sup>(٢)</sup>.

- قال تعالى: ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾<sup>(٣)</sup>. فإنّ (لقد علمتم) اعتراض بين القسم (تالله) وجوابه (ما جئنا)، وإنما قالوا (لقد علمتم) فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحهم مكعومة لثلاثتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم<sup>(٤)</sup>.

- قال تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفتِرٌ﴾<sup>(٥)</sup>. والاعتراض بالجملة الاسمية (والله أعلم) وبعدها جار ومجرور متعلق بالخبر وهو (بما)، و(ما) موصولة تحتاج لجملة الصلة وهي (ينزل)؛ لذلك الجملة الاعتراضية هي: (والله أعلم بما ينزل) ووقعت بين (إذا) وجوابها (قالوا)، وفائدة هذا الاعتراض تقرير لمصلحة التبديل، وتعرض بجهلهم بمعرفة ذلك، وإعلام لهم بأن الله تعالى هو المتولى لذلك؛ فهذه الجملة الابتدائية الواردة اعتراضاً قد قامت مقام ما ذكرناه من هذه الأسرار<sup>(٦)</sup>.

(١) آل عمران/٣٦.

(٢) الكشف/١: ٤٢٥.

(٣) يوسف / ٧٣.

(٤) الكشف/٢: ٣٣٤.

(٥) النحل / ١٠١.

(٦) الطراز: ١٧١/٢ و ١٧.

- قال تعالى: «ووصينا الإنسان بوالديه حسناً حملته أمه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي»<sup>(١)</sup>. فإن (حملته أمه) إلى (عامين) وارد على جهة الاعتراض بين الفعل ومتعلقه، وسرُّ ذلك هو أنه لما ذكر توصية الوالدين عقبه بما يؤكد أمر الوصية، ويؤذن باستحقاقها من أجل ما تكابده الأم من المشاق في حمل الولد وفصاله، وما في أثناء ذلك من مشقة التربية والمزاولة لمصالحه، والحنو والتعطف عليه، وخصَّ الأم بالذكر، تنبيهاً على اختصاصها بمزيد المشقة وتعاطي المباشرة له في كل أحواله، فتوسط هذا الاعتراض بما ذكرناه، قد اشتمل على الإشارة إلى ما قررناه مع احتوائه على حسن الوصف وجودة السياق كما ترى<sup>(٢)</sup>.

- قال امرؤ القيس:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة      كفاني - ولم أطلب - قليل من المال  
وقوله «ولم أطلب» جملة اعتراضية بين الفعل «كفاني» وفاعله «قليل»؛ لأن هدف الشاعر ليس الأمر السهل، ولا أمر المعيشة، وإنما هدفه المجد المؤثل الذي صرح به في قوله:

ولكنما أسعى لمجد مؤثل      وقد يدرك المجد المؤثل أمشالي  
- قال أبو تمام:

رددت رونق وجهي في صحيفته      رد الصقال بهاء الصارم الخدم  
وما أبالي - وخير القول أصدقه -      حقنت لى ماء وجهي أم حقنت دمي  
فإن «وخير القول أصدقه» اعتراض يحقق به الشاعر الماثلة بين صيانة الوجه وحقن الدم.

٧ - الاحتراس:

قبل الدخول في تقديم تعريف البلاغيين نقدم مثلاً له يوضح المقصود به. قال  
طرفة بن العبد:

(١) لقمان/١٤.

(٢) الطراز: ١٧١/٢؛ وانظر المعنى: ٥١٤.

فسقى ديارك غيرَ مفسدها صوبُ الربيع وديعة تهي  
افترض جدلاً أن الشاعر لم يأت في بيته بالتركيب النحوى «غير مفسدها»،  
فيؤدى هذا إلى احتمال الإفساد من قبل المطر الدائم فى سكون ولايشيه عن  
السيلان شئ، ولكن هذا التركيب أزال هذا الاحتمال، وهو الذى أدى إلى وجود  
«الاحتراس» فى البيت الذى يطلق عليه أيضاً اسم «التكميل» ويعرفونه بأن يؤتى به  
فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه.

وليس للاحتراس أو التكميل موقع نحوى محدد؛ إذ إن طريقة أتى به فى وسط  
الكلام، وفعل الشئ نفسه كثير عزة فى قوله:  
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى فى الحسنى عند موقى لقضى لها  
فإن «عند موقى» احتراس وأصله المقدر «عند حاكم موقى»؛ وابن المعتز فى  
قوله:

صببنا عليهم ظالمين سيأتنا فطارت به أيدٍ سراع وأرجل  
والاحتراس فى قوله «ظالمين».

ويقع الاحتراس فى آخر الكلام كقوله تعالى: «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم  
ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين»<sup>(١)</sup>؛ فإنه لو اقتصر على وصفهم  
بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل: (أعزة على الكافرين)  
علم أنها منهم تواضع لهم، ولذا عدى بـ (على) لتضمينه معنى العطف، كأنه  
قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع. ويجوز أن تكون التعدية بـ  
(على)؛ لأن المعنى: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين  
خافضون لهم أجنحتهم»<sup>(٢)</sup>. ونقدم بعض الأمثلة للاحتراس:

— قال كعب بن سعد الغنوى:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب

(١) المائدة / ٥٤.

(٢) الإيضاح: ٣١٠ و ٣١١.

فإن «إذا ما الحلم زين أهله» احتراشٌ يوضح أن حلمه ليس عن عجز أو ضعف منه.

- قال الحماسي:

وما مات منا سيّد في فراشه ولا طُلّ منا حيثُ كان قتيلٌ<sup>(١)</sup>  
فإنه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل لياهم لأوهم أن ذلك لضعفهم  
وقلتهم فأزال هذا الوهم بوصفهم بالانتصار من قاتلهم.

- قال المتنبي:

أشدُّ من الرياح الهُوج بطشاً وأسرعُ في الندى منها هبوباً  
فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطن لأوهم ذلك أنه عنف كله ولألطف  
عنده، فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة ولم يتجاوز في ذلك كلّ صفة الريح التي  
شبهه بها<sup>(٢)</sup>.

البطن

٨ - التذييل:

ووزنه الصرفي «تفعيل»؛ ويقال: «ذبل كلامه»: إذا عقبه بكلام بعد كمال  
غرضه منه.

ويعرفه علماء البلاغة بأنه تعقيب الجملة بأخرى تشتمل على معناها، أو  
الإنيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام لإفادة التوكيد وتقرير لحقيقة الكلام<sup>(٣)</sup>.  
وقد قال عنه أبو هلال العسكري: «وللتذييل في الكلام موقع جليل ومكان شريف  
خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد انضاحاً. والتذييل هو إعادة الألفاظ  
المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لا يفهمه ويتوكد عند من فهمه ...  
وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع  
البطى الفهم والبعيد الذهن والثاقب القرينة والجيد خاطر، فإذا تكررت الألفاظ

(١) طُلّ: يقال طُلّ الرجل؛ أى أهدر دمه.

(٢) الإيضاح: ٣١١.

(٣) الطراز: ٣ / ١١١.

على المعنى الواحد تؤكد عند الذهن اللحن وصحُّ للكليل البليد<sup>(١)</sup>.

والتذييل قسمان، يمكن العرض لهما على النحو الآتي:

أ - تذييل جارٍ مجرى المثل:

ويمكن التعرف عليه إن استقل معناه عما قبله، أو بأن يُقصد بالجملة الثانية حكمٌ كلي منفصل عما قبله؛ أي لا يتوقف فهمه عليه. قال تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾<sup>(٢)</sup>؛ فإن قوله تعالى: ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ إطناب بالتذييل يجرى مجرى المثل، وهو متصل بما قبله من النص الكريم لاشتماله على معناه تأكيداً له وتقريراً، ويعد - في الوقت نفسه - جملة مستقلة بمعناها لا يتوقف فهمها على فهم ما قبلها؛ لذلك يستطيع الإنسان أن يتخذها وحدها حكماً للتدبر والفهم. ومثله قوله تعالى: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾<sup>(٣)</sup> فإن قوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ إطناب بالتذييل يجرى مجرى المثل أيضاً.

ومن أمثلة هذا الإطناب بالتذييل من الشعر قول الحطيئة:

نَزَرُ فَتًى يُعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ      وَمَنْ يُعْطِ أَيْمَانَ الْمَكَارِمِ يُحْمَدُ

فالشرط الثاني من البيت مستقل بمعناه عن الشرط الأول؛ فهو يجرى مجرى المثل. وإن كان يحى العلوى قد ربط بين شرطي البيت قائلاً: «فمفهوم قوله: يعطى على الحمد ماله، أنه لا يعطى ماله إلا لأجل أن يحمد، وقوله بعد ذلك: ومن يعط أيمان المكارم يحمد، محقق له ومؤكد لفائدته؛ فلأجل هذا كان ما هذا حاله تذييلاً»<sup>(٤)</sup>.

(١) كتاب الصناعتين: ٣٧٣.

(٢) الإسراء / ٨١.

(٣) يوسف / ٥٣.

(٤) الطراز: ١٧٤/٣.

وقال النابغة الذبياني:

- ولست بمُستَبِقٍ أحمأً لآئِلَمُهُ      على شَعَثٍ، أئى الرجالِ المهذَّبِ<sup>(١)</sup>

فقوله: «ولست بمُستَبِقٍ أحمأً لآئِلَمُهُ» دال من جهة مفهومه على نفى الكامل من الرجال، ثم أكد هذا المفهوم بقوله: «أئى الرجال الهذَّب»؛ لأن معناه: أنا أستفهمك عنه فأبني لا أكاد أجده، والإطناب في قوله «أئى الرجال المهذَّب» وهو جار مجرى المثل. وقال الشاعر:

فإن أك مقتولاً فكن أنت قاتلي      فبعضُ منايا القومِ أكرمُ من بعضِ

والإطناب بالتذييل فى الشطر الثانى من البيت. وقال إبراهيم بن المهدي يرنى ابنه:

تبدل داراً غير دارى وجيرة      سوى، وأحداثُ الزمانِ تنوبُ

والإطناب فى قوله «أحداثُ الزمانِ تنوب» وهو يجرى مجرى المثل. وقال أبو

نواس:

عَرَمَ الزمانُ على الذين عهدتهم      بك قاطنين وللزمانِ عَرامُ<sup>(٢)</sup>  
و الإطناب فى قوله «للزمانِ عَرام».

ب - تذييل غير جار مجرى المثل:

وهو الذى لا يستقل بإفادة المراد، ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله قال تعالى: «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور»<sup>(٣)</sup>؛ لأن حاصل قوله تعالى: «ذلك جزيناهم بما كفروا» ظاهره وصريحه يدلان على أن الوجه فى استحقاقهم لما استحقوه من نزول العذاب إنما كان من أجل كفرهم؛ لأن قوله: (بما كفروا) تعليل للجزاء من أجل الكفر، فقوله بعده: (وهل يجازى إلا الكفور) تقرير وتأكيد لما سبق من الجملة الأولى وتحقيق لها؛ لأنه دالٌ عليها ومحقق لفاعلتها<sup>(٤)</sup>.

(١) لآئِلَمُهُ: لآئِظمه إليك، وشعث: تلبد الشعر واغبراره، واستعاره الشاعر للمعنى المنعوبة والخلقية.

(٢) العَرام: الشدائد.

(٣) سبأ/ ١٧.

(٤) الطراز: ٣ / ١١١ و ١١٢.



ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿وهل يجازى إلا الكفور﴾ إطناب بالتذييل، ولكنه ليس جاريةً مجرى المثل، ومعناه: وهل تجازى ذلك الجزء الذى ذكرناه إلا الكفور، وهذا المعنى لا يفهم إلا بمعمونة ما قبله من الآية الكريمة، بالإضافة إلى عدم استقلاله دلاليًا.

وقال تعالى: ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلدَ أفإن مِت فهم الخالدون﴾<sup>(١)</sup>. وقوله تعالى: ﴿أفإن مِت فهم الخالدون﴾ استفهام وارد على جهة الإنكار عليهم فى زعمهم الخلود، وأراد أنه لا تتصور أن تكون ميتاً وهم خالدون بعدك، فإذا كان لا خلود مع ما اختصصت به من المكانة والزلفة عند الله تعالى فهم أحق بالانقطاع والزوال لامحالة. وهو إطناب بالتذييل غير جارٍ مجرى المثل لعدم استقلاله عما قبله. ومن أمثلة الإطناب بالتذييل غير الجارى مجرى المثل فى الشعر قول ابن نُباته السعدي:

لم يبقَ جودكُ لى شيئاً أوْملُهُ      تركتني أصحابُ الدنيا بلا أملٍ  
والشطر الثانى غير مستقل بنفسه، لأنه يتصل بالشطر الأول ويؤكد. وقال الحماسي:

فدعوا نزالَ فكنْتُ أولَ نازلٍ      وعلامَ أركبُهُ إذا لم أنزل<sup>(٢)</sup>  
والإطناب فى الشطر الثانى أيضاً، وكذلك فى قول المتنبي:

تُسمى الأمانى صرعى دون ميلغِه      فما يقول لشئٍ: ليت ذلك لى<sup>(٣)</sup>

(١) الأنبياء / ٣٤.

(٢) نزال: اسم فعل أمر بمعنى «النزل»، والمقصود به المنازلة فى الحروب، والضمير فى أركبه يعود على الفرس.

(٣) انظر الإيضاح: ٣٠٨؛ والطراز: ٣ / ١١٣.

## النكرة والمعرفة

اهتم القدماء من النحاة العرب بالعرض للقضايا اللغوية المتصلة بالنكرة والمعرفة ولعل من أشهر تلك القضايا حديثهم عما يسمى بـ«الأصل والفرع»، وقد انتهوا إلى أن:

النكرة ————— أصل

المعرفة ————— فرع

مقدمين بعض الأدلة اللغوية وغير اللغوية التي تؤيد هذا الذى انتهوا إليه<sup>(١)</sup>. واهتم علماء البلاغة بهما فى ضوء النظر فى الأداء اللغوى مع الربط بالجمال داخل النص نفسه؛ لأن التعبير بالنكرة قد يكون أبلغ من التعبير بالمعرفة، أو العكس، وهذا مانحاول الكشف عنه خلال التطبيق فى النصوص.

أشار البلاغيون إلى التعبير بالنكرة وكيف يؤدى إلى الجمال فى النص والوضوح فى الدلالة، ونبدأ بتذكير كلمة (حياة) فى قوله تعالى: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)<sup>(٢)</sup> الذى أوضحه عبد القاهر قائلًا: «إذا أنت راجعت نفسك وأذكت حسك، وجدت لهذا التنكير وأن قيل (على حياة) ولم يقل «على الحياة» حسنًا وروعة ولطف موقع لا يقدر قدره، وتجذك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما. والسبب فى ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها، وذلك أنه لا يحرص عليه إلا الحي، فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها. وإذا كان كذلك، صار كأنه قيل: ولتجدنهم أحرص الناس ولو عاشوا معاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم فى ماضى الوقت وراهنه حياة فى الذى يستقبل؛ فكما أنك لا تقول ههنا: أن يزدادوا إلى حياتهم الحياة، بالتعريف، وإنما تقول «حياة» إذ كان التعريف

١- انظر ما كتبه عن «الأصلية والفرعية» فى كتابنا: قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين:

٢٥٥-٢٧٦.

٢- البقرة / ٩٦.

يصلح حيث تُراد الحياة على الإطلاق؛ كقولنا: كل أحد يحب الحياة ويكره الموت، كذلك الحكم في الآية. والذي ينبغي أن يُراعى: أن المعنى الذي يوصف الإنسان بالحرص عليه، إذا كان موجوداً حال وصفك له بالحرص عليه، لم يتصور أن يجعله حريصاً عليه من أصله. كيف؟ ولا يُحرص على الراهن ولا الماضي، وإنما يكون الحرص على ما لم يوجد بعده<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النص الذي يحل فيه عبد القاهر التعبير بالنكرة (حياة) تلتقى عدة مستويات لغوية لتحقيق البلاغة في الأداء اللغوي؛ فالحرص في الآية الكريمة ليس على أصل الحياة المعهودة، وإنما هو على الازدياد من الحياة في الأزمنة المستقبلية، فلهيهم الحرص على أن يزدادوا حياة إلى حياتهم مهما عاشوا؛ لأنه من غير المقبول وصف الإنسان بالحرص على ما هو موجود معه حين تصفه، وهذه الدلالة لا يمكن التوصل إليها إلا باستخدام النكرة. وقد وردت هذه النكرة متونة؛ لذلك يؤدي التنوين إلى معنى «حياة أى حياة». وهاهنا تلتقى الأصوات (التنوين) والنحو (التنكير) والدلالة لتحقيق البلاغة؛ إذ إنه يجب عدم دراسة هذا التنكير لكلمة (حياة) خارج إطار السياق أو النص الكريم.

ووردت كلمة (حياة) نكرة أيضاً في قوله تعالى: (ولكم في القصص حياة)<sup>(٢)</sup>. وقال عبد القاهر معلقاً على التنكير: «وذلك أن السبب في حسن التنكير، وأن لم يحسن التعريف أن ليس المعنى على الحياة نفسها، ولكن على أنه لما كان الإنسان إذا علم أنه إذا قُتل قُتل، ارتدع بذلك عن القتل، فسلم صاحبه، صار حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت، مستفادةً بالقصاص، وصار كأنه قد حيي في باقي عمره به. وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته، وجب التنكير وامتنع التعريف، من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها، وإن يكون القصاص قد كان سبباً في كونها في كافة الأوقات. وذلك.

١ - الدلائل: ٢٨٨-٢٨٩.

٢ - البقرة / ١٧٩.

خلاف المعنى وغير ماهو المقصود».

«ومين ذلك أنك تقول: «لك في هذا غنى» فتتكر إذا أردت أن تجعل ذلك من بعض ما يستغنى به، فإن قلت: «لك فيه الغنى»، كان الظاهر أنك جعلت كل غناه به».

«وأمر آخر، وهو أنه لا يكون ارتداع حتى يكون هم وإرادة، وليس بواجب أن لا يكون إنسان في الدنيا إلا وله عدو يهيم بقتله ثم يردعه خوف القصاص، فليس هو ممن حتى بالقصاص. وإذا دخل الخصوص، فقد وجب أن يقال (حياة) ولا يقال «الحياة»، كما وجب أن يقال (شفاء) ولا يقال «الشفاء» في قوله تعالى: (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)<sup>(١)</sup>؛ حيث لم يكن شفاء للجميع».

«واعلم أنه لا يتصور أن يكون الذى هم بالقتل فلم يقتل خوف القصاص داخلاً في الجملة، وأن يكون القصاص أفاده حياة كما أفاد المقصود قتله. وذلك أن هذه الحياة إنما هي لمن كان يقتل لولا القصاص، وذلك محال في صفة القاصد للقتل، فإنما يصح في وصفه ماهو كالضد لهذا، وهو أن يقال: إنه كان لأخاف عليه القتل لولا القصاص. وإذا كان هذا كذلك، كان وجهاً ثالثاً في وجوب التنكير»<sup>(٢)</sup>.

ويضع عبد القاهر أيدينا على الكثير من الحقائق المتصلة بتنكير كلمة (حياة)، منها أن الإنسان حين يعلم أنه إذا قتل قتل يرتدع -دون شك- عن القتل، مما يؤدي إلى أن يسلّم هو وصاحبه فتصير حياة كل واحد منها في المستقبل مستفادة من جهة القصاص مضمومة إلى الحياة الأصلية، ولا يمكن التوصل إلى تلك الدلالة إلا عن طريق التعبير بالنكرة. ويلجأ عبد القاهر إلى تقديم بعض التراكيب النحوية التي تختلف دلاليًا بسبب النكرة والمعرفة، ومن ذلك:

١- النحل / ٦٩.

٢- الدلائل: ٢٨٩-٢٩٠.

لك فى هذا غنى

لك فى هذا الغنى

والدلالة كما يأتى:

غنى ← إذا أردت أن تجعل ذلك من بعض ما يستغنى به

الغنى ← إذا جعلت كل غناه به

ويواصل عبد القاهر تحليل التنكير لكلمة (حياة) فيوضح أن الارتداع عن الفعل يشترط فيه وجود النية والهم والإرادة؛ بالإضافة إلى أنه ليس شرطاً وجود كل إنسان فى الدنيا وله عدو يهجم بقتله، ويؤدى القصاص إلى حياته؛ لذلك فإنه ليس حياً بالقصاص. ويتصل بذلك تنكير كلمة (شفاء) فى قوله تعالى: (فيه شفاء للناس)؛ حيث لم يكن شفاءً للجميع، ومن هنا:

حياة ← خصوص

الحياة ← عموم

وقد ربط الزمخشري تنكير (حياة) بتعريف كلمة (القصاص) قائلاً: «... ومن إصابة محزّ البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة؛ وذلك أنهم كانوا يقتلون الواحد بالجماعة... فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة أو نوع من الحياة، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالانقصاص من القتل؛ لأنه إذا همّ بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين»<sup>(١)</sup>.

ولعله من المفيد الإشارة إلى اهتمام الزمخشري بالتنكير والتعبير به فى القرآن الكريم، ونقدم بعض نصوصه:

— قال تعالى: (أولئك على هدى من ربهم)<sup>(٢)</sup>. «نكر (هدى) ليفيد ضرباً

١ - الكشاف: ١ / ٣٣٣.

٢ - البقرة / ٥.

مبهماً لا يُبلغُ كنهه ولا يُقادرُ قدره، كأنه قيل: على أى هدى، كما تقول: لو أبصرتَ فلاناً لأبصرتَ رجلاً. وقال الهذلي:

فلا وأبى الطيرِ المَرَّةِ بالضحي على خالدٍ لقد وقعتَ على لحم<sup>(١)</sup>

- قال تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة<sup>(٢)</sup>). ومعنى التنكير (غشاوة) أن على أبصارهم نوعاً من الأغشية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامى عن آيات الله<sup>(٣)</sup>.

- قال تعالى: (وجاء السحرة فرعونَ قائلوا إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين<sup>(٤)</sup>). والتنكير (لأجرًا) للتعظيم كقول العرب: إن له لإبلاً وإن له لغنماً؛ يقصدون الكثرة<sup>(٥)</sup>.

- قال تعالى: (اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم<sup>(٦)</sup>). وأرضاً أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نصبتْ نصبَ الظروف المبهمة<sup>(٧)</sup>.

- قال تعالى: (وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فأسكنناه فى الأرض وإننا على ذهابٍ به لقادرون<sup>(٨)</sup>). (على ذهابٍ به) من أوقع التكرار وأحزها للمفصل، والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعيا على شيء إذا أراد، وهو أبلغ فى الإيحاء من قوله: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتىكم بماءٍ معين<sup>(٩)</sup>). فعلى العباد أن يستمظمو النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفاذها إذا لم تُشكر<sup>(١٠)</sup>.

١- الكشف: ١٤٤/١ و١٤٥. وخالد: هو خالد بن زهير الذى قُتل وقامت الطير عليه تأكله، وتنكير لحمه للتعظيم.

٢- البقرة / ٧.

٣- الكشف: ١ / ١٦٥.

٤- الأعراف / ١١٣.

٥- الكشف: ١٠٢/٢.

٦- يوسف / ١٢.

٧- الكشف: ٣٠٥/٢.

٨- المؤمنون / ١٨.

٩- الملك / ٣٠.

١٠- الكشف: ٢٨ / ٣.

- قال تعالى: ( هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد<sup>(١)</sup> )؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً علماً في قريش، وكان إنبأؤه بالبعث شائعاً عندهم؛ فما معنى قوله: ( هل ندلكم على رجل ينبئكم ) فنكروهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول ؟ قلت (الزمخشري): كانوا يقصدون بذلك العنن<sup>(٢)</sup> والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجي التي يحتاجى بها للضحك والتلهى متجاهلين به وأمره. أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدر أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة<sup>(٣،٤)</sup>.

- قال تعالى: (إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)<sup>(٥)</sup>. ولم قيل: (أذن واعية) على التوحيد والتنكير؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا عت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين<sup>(٦)</sup>.

وتدل تلك النصوص التي أخذناها عن الزمخشري على اهتمامه بتتبع التعبير بالنكرة في الكتاب العزيز، مع النظر في الشعر العربي وبعض التراكيب النحوية التي وردت عن العرب واحتوت في بنيتها استعمال النكرة. ولم يكن يفصل هذا التعبير عن سواه من الظواهر اللغوية؛ فقد ربط بين النكرة واستعمالها في حالة الإفراء،

١- سبأ / ٧.

٢- العنن: الاستهزاء.

٣- أصحاب الأيكة: قوم شعيب.

٤- الكشاف: ٢٨١/٣.

٥- الحاقة / ١١-١٢.

٦- الكشاف: ١ / ٤.

والمعنى الذى يمكن التوصل إليه من التنكير بصفة عامة.

**تعريف المسند إليه:** اهتم علماء البلاغة بتتبع الجمال فى النصوص حين التعبير بالمعرفة ومن الموضوعات التى عرضوا لها «تعريف المسند إليه»؛ إذ إنهم درسوا شواهد وأمثله وكشفوا عن الجمال فيها مع ربطها بالدلالة. ومن المعلوم أن الأصل فى التركيب النحوى للجملة العربية كونُ المبتدأ معرفة، ولكن يستطيع الشاعر أو الأديب أو الفنان تلوين التعبير حين استعمال نوع معين من أنواع المعارف دون غيره؛ فهناك فرق بين أن يكون المبتدأ ضميراً أو اسماً موصولاً... ونحاول التعرف على الطرق المختلفة التى تتبع لتعريف المسند إليه مع ربطها بالمعنى، وهى على النحو الآتى:

١- يُعرف المسند إليه بالإضمار؛ أى أن يكون المبتدأ ضميراً، ويتصل التعبير بالضمير فى بعض جوانبه بـ«اللغة المنطوقة» Spoken Language، وذلك كما فى «مقام التكلم» وعلامته استعمال الضمير «أنا». قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «أنا النبىُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، وقال بشار:

أنا المرعْتُ لا أخْفَى على أحدٍ ذَرْتُ بى الشمسُ للقاضى وللدانى<sup>(١)</sup>

ويتصل بتلك اللغة «مقام الخطاب» الذى يكون أحياناً على شكل حوار كالذى حدث بين ابن الدُمَيْنة (عبد الله بن عبد الله أو عبيد الله - ١٣٠ هـ) وأمامة الحماسية فقد قال:

وَأَنْتِ الَّتِي كَلَفْتِنِي دَلَجَ السُّرَى      وَجُؤْنَ الْقِطَا بِالْجَلْهَتَيْنِ جَثُومُ  
وَأَنْتِ الَّتِي قَطَعْتَ قَلْبِي حَزَازَةً      وَفَرَّقْتَ قَرَحَ الْقَلْبِ وَهُوَ كَلِيمُ  
وَأَنْتِ الَّتِي أَحْفَظُ قَوْمِي فَكُلْهُمْ      بَعِيدُ الرِّضَى دَانِي الصُّدُودِ كَظِيمُ<sup>(٢)</sup>

١- الرَّعْتُ: القُرْط، والمرعْتُ: لقب أطلق على بشار لرعث كان له فى صفوه، وذرت: طلعت.

٢- الجون: الأسود، والجهلتان: ناحيتا الوادى وطرفان، وجثوم: يقال «جثم الطائر» إذا ألقى بالأرض صدره، والحزازة: شدة الوجد حتى إنه يقطع القلب، وفرَّق: قشر الجرح الذى لم يندمل، وكليم: جريح، وأحفظ: أغضب، وكظيم: ممتلئ، جوفه بالغضب.



وردت عليه أمامة على الوزن والروى نفسه:

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَقْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي      وَأَشْمَعْتُ بَنِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ  
وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتَنِي      لَهُمْ غَرْضًا أَرْمَى وَأَنْتَ سَلِيمٌ  
فَلَوْ أَنَّ قَوْلًا يَكْلِمُ الْجِسْمَ قَدْ بَدَا      بَجِسْمِي مِنْ قَوْلِ الْوَشَاةِ كَلُّومٌ

ونستمر في العرض لما يتصل بالضمير فنجد التعبير بواسطة «ضمير الغائب»، ولكن يشترط فيه تقدم ما يدل عليه. قال تعالى: (واصبر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)<sup>(١)</sup>؛ فالضمير (هو) يعود على لفظ الجلالة (الله). وقال أبو تمام:

يَمِينِ أَبِي إِسْحَاقَ طَالَتْ يَدُ الْعَلَا      وَقَامَتْ قَنَاءُ الدِّينِ وَاشْتَدَّ كَاهِلُهُ  
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَىِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ      فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْبَحْرُ سَاحِلُهُ

فالضمير «هو» يعود على «أبى إسحاق». وقال أبو البرج القاسم بن جبل الشاعر الإسلامي:

مِنْ الْبَيْضِ الْوَجُوهُ بَنَى سَنَانٍ      لَوْ أَنَّكَ تَسْتَضِيءُ بِهِمْ أَضَاءُوا  
هُمْ حَلَّوْا مِنَ الشَّرَفِ الْمَعْلَى      وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

فالضمير «هم» يعود على «بنى سنان». والضمير في الآية الكريمة وشعر أبى تمام وأبى البرج يعود على ما هو مذكور لفظاً؛ أى هناك «دليل لفظي».

وربما يعود الضمير على ما هو مأخوذ من المعنى نفسه. قال تعالى: (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم)<sup>(٢)</sup>؛ فالضمير (هو) يعود على «الرجوع» المستفاد من قوله تعالى: (ارجعوا فارجعوا)، وقال تعالى: (اعدلوا هو أقرب للتقوى)<sup>(٣)</sup>؛ فالضمير (هو) يعود على «العدل» المستفاد من قوله تعالى: (اعدلوا).

وهناك بعض الملاحظات الأسلوبية الخاصة بالأداء اللغوي في باب الضمير،

١- يونس / ١٠٩.

٢- النور / ٢٨.

٣- المائدة / ٨.

منها استعمال ضمير الخطاب على الرغم من أن المخاطب نفسه غير مشاهد وذلك نحو الخطاب في قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)<sup>(١)</sup>، ولكن الذى أباح ذلك استحضر عظمة الله سبحانه وتعالى - علواً كبيراً - فى القلب كأنه نصب العين.

ومن تلك الملاحظات أيضاً خطاب غير المعين، والذي يبيح هذا الخطاب أن ماهو مستعمل يجرى مجرى المثل، ومن ذلك قول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرداً  
وهو فى القرآن الكريم كثير؛ كقوله تعالى: (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم)<sup>(٢)</sup> أخرج فى صورة الخطاب لما أريد العموم؛ للقصد إلى تفضيع حالهم، وأنها تناهت فى الظهور حتى امتنع خفاؤها؛ فلا تختص بها رؤية راء مختص به، بل كل من يتأتى منه رؤية داخل فى هذا الخطاب<sup>(٣)</sup>.

٢- تعريف المسند إليه بالعلمية لتحقيق بعض الأغراض المتصلة بالأداء اللغوى، وقبل الدخول فى بيان تلك الأغراض نشير إلى أن العلم - عند النحاة - هو الاسم الخاص الذى لا أخص منه، ويُرَكَّب على المسمى لتخليصه من الجنس بالاسمية؛ فيفرق بينه وبين مسميات كثيرة بذلك الاسم<sup>(٤)</sup>.

ويحقق تعريف المسند إليه الكثير من الأغراض الدلالية والبلاغية، من بينها مايتأتى:

- إحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداءً باسم مختص حتى يمتاز عما عداه، كقوله تعالى: (قل هو الله أحد)<sup>(٥)</sup>، وقوله تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل)<sup>(٦)</sup>. وقال المتنخل الهذلى:

أبو مالك قاصر فقره على نفسه ومشيغ غناه

١- الفاتحة / ٥.

٢- السجدة / ١٢.

٣- انظر الإيضاح: ١١٤.

٤- شرح المفصل: ٢٧/١.

٥- الإخلاص / ١.

٦- البقرة / ١٢٧.

وقال الحارث بن هشام:

اللهُ يعلم ما تركتُ قتالَهُم حتى علّوا فرسى بأشقر مزِيد  
- هناك أمر مألوف لدى البشر على اختلاف أجناسهم، وهو أن الإنسان يجد  
اللذة والسعادة حين يذكر اسم من يحبه. في حين أنه يتجنب ذكر اسم من يكرهه  
أو يمقته؛ لذلك من العبارات المتداولة على ألسنة العوام قولهم «المَخْفِي» أو «اللي  
مايتسمى». وقد لفت إلى هذا المتنبي في قوله:

أسمياً لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها  
لذلك من أغراض تعريف المسند إليه بالعلمية تحقيق الاستلذاذ بذكره، على  
نحو مايفعل الشعراء حين يذكرون أسماء من يحبون، ومن أمثلة ذلك قول مجنون  
ليلى:

بالله ياظبياتِ القاعِ قلنَ لنا ليلاي منكنَّ أم ليلي من البشر<sup>(١)</sup>  
- تؤدي الكناية دوراً مهماً في توصيل الكثير من المعاني؛ وذلك حين  
استعمالها بدلاً من الاسم، فقولنا «أبو الفضل» يحمل معنى الفضل والكرم  
والجود، وقولنا «أخو الحرب» يحمل معنى الشجاعة والإقدام والقدرة على مواجهة  
الأعداء؛ لذلك قال القلاخ بن حزن بن جناب:  
فإن تك فانتك السماء فأننى بأرفع ماحولى من الأرض أطولا  
أخا الحرب لباساً إليها جلالها وليس بولأج الخوالف أعقلاً

وقد أشار علماء البلاغة إلى أن تعريف المسند إليه بالعلمية يكون لتحقيق  
الكناية، وورد ذلك في غير باب المسند إليه، قال تعالى: (تَبْتَ بدا أبى لهب<sup>(٢)</sup>)،  
والكناية هاهنا معناها «جهنمي». وقد توقف الزمخشري<sup>(٣)</sup> أمام الآية الكريمة ليبين  
السبب في التعبير بالكناية التي هي في أصل وضعها اللغوى تدل على التكرمة،

١- كتاب الصنائع: ٤١٢.

٢- المسد / ١.

٣- الكشف: ٢٩٦/٤.

وانتهى إلى مايتى :

أ- أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم؛ فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجرى الكنية على الاسم، أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أُريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمّة له ذُكر الأشهر من علميه، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: (تبت يدا أبو لهب)<sup>(١)</sup> كما قيل: على بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان؛ لئلا يُغيّر منه شيء فيشكل على السامع.

ب- أنه كان اسمه عبد العزى، فعدل عنه إلى كنيته.

ج- أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب، وافقت حاله كنيته؛ فكان جديراً بأن يُذكرَ بها.

ولقد أضاف علماء البلاغة أغراضاً أخرى لتعريف المسند إليه بالعلمية، وهي مأخوذة من دلالة العلم نفسه وذلك بالنظر في جذره المعجمي، ومن ذلك الدلالة على التفاؤل التي تؤخذ من أعلام كسعد وسعيد، والتشاؤم والتطير ويؤخذ من أعلام كالسفاح والجراح، والتعظيم ويؤخذ من الأعلام التي تدل على المدح مثل صلاح الدين وسيف الدولة، والإهانة وتؤخذ من الأعلام الدالة على الذم نحو: صفوان وصخر.

٣- استعمال المسند إليه معروفاً بالموصولية، ويعود السبب في هذا الاستعمال إلى مايتى:

- يؤدى التعبير بالاسم الموصول دوراً مهماً في مجال المحادثة Conversation إذ إن عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة يوجب التعبير بهذا الاسم، ومن أمثلتهم: الذى كان معنا أمس رجل عالم، ومن دخل هذا الحصن استحق أكبر ألقاب الشرف .... وهكذا. ولعله من المفيد الإشارة إلى مراعاة علم المخاطب أوجهه تشكّل أساساً مهماً من أسس «تحليل الخطاب» Discourse Analysis خلال اللغة المنطوقة التي يعد فيها الحوار الجانب الرئيسى؛ بل هو أهم

١- انظر كتاب: مختصر فى شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه: ١٨٢.

جوانبها على الإطلاق.

- للتعبير بالاسم الموصول دوره في مقام التفخيم؛ إذ إن استخدامه يؤدي إلى أن تذهب النفس في تقديره كلّ مذهب، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)<sup>(١)</sup>؛ فإن (ما) مع جملة الصلة (غشيهم) من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلثها بالمعاني الكثيرة؛ أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه وتعالى<sup>(٢)</sup>. وقال أبو نواس:

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا      وفي الزجاجة باقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي  
وهناك شواهد وأمثلة أخرى للدور الذي يؤديه التعبير بالاسم الموصول في مجال التفخيم، ولكنها لا تندرج تحت باب المسند إليه، ومن ذلك قوله تعالى: (فَغَشَاَهَا مَا غَشَى)<sup>(٣)</sup>، وقال دريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله:

صَبًا مَاصِبًا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ      فلما علاء قال للباطل: أَبْعَدِ  
وقال أبو نواس:

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ      وَأَسْمْتُ سَرَحَ اللَّحْظِ حَيْثُ أَسَامُوا  
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ      فَإِذَا عَصَاةُ كُلِّ ذَاكَ أَتَامُ<sup>(٤)</sup>

- يفيد التعبير بالاسم الموصول في تنبيه المخاطب على الخطأ أو الغلط، ومن ذلك قول عبيد بن الطيب:

إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ      يَشْفِي غَلِيلَ صَدْرِهِمْ أَنْ تُصَرَّعُوا<sup>(٥)</sup>

فالشاعر يخاطب هؤلاء القوم موضحاً لهم الخطأ الذي وقعوا فيه حين ظنوا

١- طه / ٧٨.

٢- الكشاف: ٥٤٧/٢.

٣- النجم / ٥٤.

٤- نهز بالدلو في البئر: ضرب بها في الماء لثمتلىء، والمقصود: شاركت الغواة في غيهم، وأسأم لحظه: أرسله وأطلقه، وسرح اللحظ: انطلقه.

٥- ترونهم: تظنونهم.

أولئك إخوانهم، على الرغم من أنهم يتمنون لهم الدمار والهلاك؛ لذلك فهم مخطئون حين ظنهم إخوانهم.

- يؤدي التعبير بالاسم الموصول إلى زيادة التقرير للغرض الذي سيق لأجله الكلام. قال تعالى (ورأوته التي هو في بيتها)<sup>(١)</sup> فالغرض الذي سيق له الكلام نزاهة يوسف - عليه السلام - وبعده عن مظنة الريبة، وهذا التعبير أوضح في الدلالة على هذا الغرض مما لوقيل «امرأة العزيز» أو «زليخا» أو نحو ذلك؛ لأنه إذا امتنع عن الفحشاء ولم يتخدد مع كونه غلامها وفي بيتها مع كمال قدرتها عليه، كان ذلك غاية النزاهة ونهاية الطهارة<sup>(٢)</sup>.

- يفيد تعريف المسند إليه بالموصولية في الإيماء أو الإشارة إلى الجانب الدلالي الذي بنى عليه الخبر من مدح أو ذم، أو عقاب أو ثواب، أو غير ذلك؛ بحيث إن الفطن يمكنه التوصل إلى خاتمة الكلام في ضوء تدبر فاحته وتفهمها، ويدرك ما توهم إلى المقاصد، ومن ذلك قوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)<sup>(٣)</sup>؛ فإن الاستكبار عن عبادة العلي القدير إشارة إلى أن الخبر المترتب عليه من جنس الإذلال والعقوبة، وهو دخول جهنم صاغرين.

ويرى السكاكي<sup>(٤)</sup> أن الإيماء إلى وجه بناء الخبر تنفرع عنه اعتبارات لطيفة؛ وربما جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم كقولك: «الذي يرافقك يستحق الإجلال والرفع، والذي يفارقك يستحق الإذلال والصفع»، وربما جعل ذريعة إلى تنظيم شأن الخبر كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول  
فهو مع كونه يشير إلى أن الخبر المبني عليه من جنس الرفعة والبناء، يعرض

١- يوسف / ٢٣.

٢- أحمد الراعي: علوم البلاغة ١١٧.

٣- غافر / ٦٠.

٤- مفتاح العلوم: ١٨٢.

بتعظيم بناء بيته؛ لأنه فعل من رفع السماء. وربما جعل ذريعة إلى تحقيق الخبر  
كقول عبدة بن الطبيب:

إن التي ضربت بيتاً مهاجرةً بكوفة الجند غالت ودّها غول<sup>(١)</sup>  
ففى ضربها البيت فى مكان المهاجرة بتحقيق للحكم بزوال ودّها.

٤- يكون المسند إليه اسم إشارة لذلك يكون معرفة؛ وهناك عدة أغراض  
يمكن التوصل إليها حين التعبير باسم الإشارة، ولكن قبل الدخول فى بيانها نقول  
إن التعبير بالإشارة - بصفة عامة - طريقة من طرق الأداء اللغوى، لها وظيفة  
محددة هى توصيل المعنى، وتندرج تحت ما يسمى بـ«اللغة الجانية»- Para Lan  
guage، وقد قال القدماء «ربُّ إشارة أبلغ من عبارة»، وقال الشاعر:

أشارتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خيفةً أهلها إشارةً محزونٍ ولم تتكلم  
فأيقنتُ أن الطرفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم  
نأتى، بعد ذلك، إلى التعبير باسم الإشارة الذى هو أحد أبواب المعارف فى  
النحو العربى فنجد أن هذا التعبير يصح متى أمكن إحضار المسند إليه فى ذهن  
السامع بوساطة الإشارة إليه حساً كقول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى  
وزير الخليفة العباسى المعتمد:

هذا أبو الصقر فرداً فى محاسنه من نسلِ شيبانَ بين الضَّالِّ والسَّلمِ<sup>(٢)</sup>  
وقول الحطيئة:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البناء وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا  
وقال الشاعر:

وإذا تأملَ شخصَ ضيفٍ مقبل مسترهبٍ سربالَ ليلٍ أغبير

١- غالت ودّها: أهلكته.

٢- الضال: واحدته ضالة، والسلم: واحدته سلمة، وهما من أشجار البادية، ويقصد ابن الرومى  
بذكرهما أنهم لم يفسدوا بالحضارة، وأنهم باقون على البداوة.

أومبا إلى الكوماء: هذا طارقُ  
نحرتني الأعداءُ إن لم تنحري<sup>(١)</sup>  
وقال المتلمس (جرير بن عبد المسيح) خال طرفة بن العبد:

ولا يقيم على ضيَمٍ يرادُ به إلا الأذلانَ غيرَ الحسى والسوندُ  
هذا على الخسفِ مربوط برمته وذا يُشجُ فلا يرى له أحدُ<sup>(٢)</sup>

ومن هنا فإن الشواهد السابقة أدّى التعبير فيها بوساطة اسم الإشارة إلى إحضار  
المسند إليه في ذهن السامع حساً.

ومن أغراض استعمال المسند إليه اسم إشارة التعريض بغباوة السامع؛ إذ إن  
الأشياء لا تتميز عنده إلا بالإشارة الحسية، ومن ذلك قول الفرزدق يهجو جريراً  
ويغفر بآبائه:

أولئك آبائي فجشني بمثلهم إذا جمعتنا ياجريرُ المجمع

وهناك بعض العناصر النحوية التي تدخل على اسم الإشارة «ذا»، وهي تفيد  
في تحديد القرب أو البعد أو التوسط بالنسبة للمشار إليه؛ فقولنا «هذا» فيه الدلالة  
على القرب، و«ذلك» فيه الدلالة على البعد، والذي أفاد ذلك اللام فهي حرف  
دال على البعد حين الإعراب؛ لذلك إذا لم ندخل اللام وقلنا «ذاك» دل اسم  
الإشارة على التوسط. وهناك الكثير من الشواهد التي حللها علماء البلاغة في  
ضوء ماورد فيها من أسماء الإشارة، وريطوا هذا التحليل بالمعنى الذي يمكن  
التوصل إليه؛ لذلك قالوا ربما جعل البعد ذريعة إلى التعظيم، كقوله تعالى: (ذلك  
الكتاب لا ريب فيه)<sup>(٣)</sup> ذهاباً إلى بعد درجته، ونحوه: (وتلك الجنة التي  
أورثتموها)<sup>(٤)</sup>، ونحوه: (فذلك الذي لمتني فيه)<sup>(٥)</sup> ولم تقل امرأة العزيز «فهذا»

١- متسرل: لايس السريال وهو القميص، وأوما: أصلها أوما؛ أى أشار، والكوماء: الناقة الضخمة،  
والتارق: النازل ليلاً.

٢- الضيَم: القهر والظلم، والير: الحمار، والخف: الذل والهوان، وشج: بكسر.

٣- البقرة / ٢

٤- الزحرف / ٧٢.

٥- يوسف / ٣٢.



وهو حاضر (أى يوسف عليه السلام) رفعاً لمنزلته فى الحسن، وتمهيداً للعذر فى الافتتان به.

وإذا كان البعد فى الآيات الثلاث دالاً على التعظيم وبعد الدرجة ورفع المنزلة، فإنه يأتى فى بعض الآيات الكريمة دالاً على التحقير، كقوله تعالى: (فذلك الذى يدعُ البيت) <sup>(١)</sup>، ومن أمثلتهم: «ذلك اللعين فعل كذا».

ويأتى اسم الإشارة الدال على القرب للتعظيم كقوله تعالى: (إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم) <sup>(٢)</sup>، وربما جعل القرب ذريعة إلى التحقير، كقوله تعالى: (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى يذكر آلهتكم) <sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى: (وإذا رآك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا) <sup>(٤)</sup>، وقوله تعالى: (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) <sup>(٥)</sup>.

ويؤدى اسم الإشارة دوراً مهماً فى مجال التنبيه، إذا ذُكر قبل المسند إليه مذكور، وعُقب بأوصاف، على أن مايرد بعد اسم الإشارة فالمدكور جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف، ومن شواهد ذلك أنك تقرأ فى أوائل (سورة البقرة): (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناههم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) <sup>(٦)</sup> ويأتى بعد تلك الآيات الكريمة مباشرة قوله تعالى: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) <sup>(٧)</sup> وفى اسم الإشارة (أولئك) إيدان بأن مايرد عقيبها فالمدكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التى عدت لهم <sup>(٨)</sup>.

١- الماعون / ٢.

٢- الإسراء / ٩.

٣- الأنبياء / ٣٦.

٤- الفرقان / ٤١.

٥- العنكبوت / ٦٤.

٦- البقرة / ٢-٤.

٧- البقرة / ٥.

٨- الكشاف: ١٤١/١.

ومن ذلك أيضاً قول حاتم الطائي:

ولله صعلوك يساور همّه	ويمضي على الأحداث والدفر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة	ولاشبعة إن نالها عد متغما
إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت	تيمم كبراهن ثمّت صمما
تري رمحه ونبله ومجنّه	وذا شطب عضب الضريبة مخدما
وأحناء سرج قاتر ولجامه	عناد أخى هيجا وطريقا مسوما
فذللك إن يهلك فحسنى نناؤه	وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما <sup>(١)</sup>

فعدّد له كما ترى خصالاً فاضلة، من المضاء على الأحداث مقدماً، والصبر على ألم الجوع، والأنفة من أن يعدّ الشبعة مغنماً، وتيمم كبرى المكرمات، والتأهب للحرب بأدواتها، ثم عقب بذلك بقوله «فذللك إن يهلك..» فأفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده.

٥- تعريف المسند إليه باللام (أل التعريف): ويتصل هذا النوع من أنواع التعريف بالوظائف الدلالية التي تؤديها «أل» في اللغة العربية؛ لأن علماء البلاغة عقدوا صلة بين تعريف المسند إليه باللام وتلك الوظائف، ويمكن إيضاح ذلك خلال ما يأتي:

- الإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك، كما إذا قال لك قائل: جاءني رجل من بلدة كذا؛ فتقول: ما فعل الرجل؟ ومن شواهد ذلك قوله تعالى: (وليس الذكر كالأنثى)<sup>(٢)</sup>؛ نالذكر، وإن لم يتقدم صريحاً، قد استفيد من (ما) في قولها: (ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً)<sup>(٣)</sup>؛ لأن معنى (محرراً): معتقاً لخدمة بيت

١- لله صعلوك: تركيب يفيد التعظيم والتعجب، ويساور: يغالب ويهلب، والطلبات: ما يطلبه الإنسان، والخمص: الجوع، والترحة: الفقر والشقاء، وتيمم: قصد، والمجنّ: الترس، والشطب: ما في متن السيف من الخطوط والطرائق، والضريبة: حد السيف، والمخندم: القاطع، وسرج قاتر: جيد، والظرف المسوم: الجواد الأصيل الملم لشهرته.

٢- آل عمران / ٣٦.

٣- آل عمران / ٣٦.

المقدس، لا يَدُ لى عليه، ولا أستخذه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاَ عندهم، ولا يكون إلا للذكور.

وإذا كانت «أل» عهدية فهي على ثلاثة أقسام، أولها: أن يكون مصحوبها معهوداً ذكرياً نحو: (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول)<sup>(١)</sup>؛ ونحو: (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري)<sup>(٢)</sup>، وثانيها: أن يكون مصحوبها معهوداً ذهنيّاً نحو (إذ يابعونك تحت الشجرة)<sup>(٣)</sup>؛ ونحو: (إذهما في الغار)<sup>(٤)</sup>؛ أى الشجرة والغار المعهودين لك، وثالثا: أن يكون مصحوبها معهوداً حضورياً نحو: (اليوم أكملت لكم دينكم)<sup>(٥)</sup>. ويمكن تلخيص ذلك كما يأتي:



- تأتى «أل» للإشارة إلى الحقيقة دون الاهتمام بالنظر إلى العموم أو الخصوص، ويطلق عليها «أل» الجنسية، ومن أمثلتها قولك: الرجل خير من المرأة، وأهلك الناس الدينار والدرهم، وقال أبو العلاء المعرى:

والخُلُ كالماءِ يَدَى لى ضمائرهُ مع الصفاءِ، ويخفيها مع الكدَرِ

وعلى ذلك من غير باب المسند إليه قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كُلَّ شيءٍ حي)<sup>(٦)</sup>؛ أى جعلنا مبدأ كل شيء حي هذا الجنس الذى هو الماء. ونشير إلى أن «أل» إذا كانت جنسية فهي على ثلاثة أقسام، أولها: استغراق الأفراد وهى التى

١- المزمل / ١٥-١٦

٢- النور / ٣٥.

٣- الفتح / ١٨.

٤- التوبة / ٩.

٥- المائدة / ٣

٦- الأنبياء / ٣٠

تصلح كلمة «كل» لأن محل محلها نحو: (وخلق الإنسان ضعيفاً)<sup>(١)</sup>؛ أى «كل إنسان»، وثانياً: استفراق خصائص الأفراد وهى التى تخلفها «كل» مجازاً نحو: «على الرجل علماً» أى الكامل فى هذه الصفة، ومنه قوله تعالى: (ذلك الكتاب)<sup>(٢)</sup>، وثالثها: تعريف الماهية وهى التى لاتصلح «كل» أن تخلفها لاحقيقة أو مجازاً كقوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شئ حى)<sup>(٣)</sup>. ويمكن تلخيص ذلك كما يأتى:



٦- تعريف المسند إليه بالإضافة، ويحقق هذا التعريف الكثير من المزايا فى الأداء اللغوى، من بينها ما يأتى:

- أن تكون الإضافة أخصر طريق لإحضار المسند إليه فى ذهن السامع كقول جعفر بن عتبة الحارثى أحد مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية:

هواى مع الركب اليمانيّن مُصْعِدٌ جَنِيبٌ، وجُثمانى بمكة موثِقُ

- أن تغنى إضافة المسند إليه عن التفصيل المتعذر أو المرجوح لجهة، كقولت مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى:

بنو مطرٍ يومَ اللقاءِ كأنهم أسودٌ لها فى غيل خَفَانٍ أشبُلُ

وقول الحارث بن وعلّة الجرمى الجاهلى:

قوسى هم قتلوا أميمٌ أخى فإذا رميتُ يصيبنى سهمى<sup>(٤)</sup>

١- النساء / ٢٨.

٢- البقرة / ٢.

٣- الأنبياء / ٣٠.

٤- أميم: منادى مرنخم أصله «أميمة».

- أن تتضمن الإضافة تعظيم شأن المضاف؛ وذلك نحو قوله تعالى: (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)<sup>(١)</sup>، أو تعظيم شأن المضاف إليه نحو: «رسول السلطان زار فلاناً».

- أن تتضمن الإضافة الاستهزاء كقوله تعالى على لسان فرعون: (إن رسولكم الذى أرسل إليكم مجنون)<sup>(٢)</sup>.

---

١- الحجر / ٤٢ والإسراء / ٦٥ .

٢- الشعراء / ٢٧ .

## أسلوب القصر

هناك عدة معانٍ يدور حولها الجذر المعجمي (ق ص ر) من أهمها أن القَصْرُ: الحَسْبُ، وقد ورد هذا المعنى اللغوي في الكتاب العزيز. قال تعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾<sup>(١)</sup>؛ أي محبوسات فيها. ولأبي زكريا الفراء (ت ٢٠٧ هـ) تفسير لغوي للآية الكريمة يوضح فيه بعض ما يتصل بالقصر، قال فيه: قوله: (حور مقصورات): قُصِرْنَ عن أزواجهن؛ أي حُسِنَ، فلا يُرَدْنَ غيرهم، ولا يطمحن إلى سواهم، والعرب تسمى الحَجَلَةَ<sup>(٢)</sup>: المقصورة والقصورة، ويسمون المقصورة من النساء: قصورة. وقال الشاعر:

لعمري لقد حببتُ كلَّ قَصُورَةٍ      إلى وما تدري بذاك القصائرُ  
عَيَّتْ قصوراتُ الحجالِ ولم أَرُدْ      قصارَ الخطأ، شرَّ النساءِ البحائرُ<sup>(٣)</sup>  
والقصر أيضاً: كَفُكْتُ نَفْسَكَ عن امرٍ، وكفها من أن تطمح به غَرَبَ الطمع<sup>(٤)</sup>.  
أما القصر في اصطلاح علماء البلاغة فهو تخصيصُ شئٍ بشئٍ بطريق مخصوص<sup>(٥)</sup>؛ لذلك نجد أركان «أسلوب القصر» هي:

– المقصور : وهو الشئ المخصَّص .

– المقصور عليه : وهو الشئ المخصَّص به .

– الطريق المخصوص : وهي مجموعة من العناصر النحوية التي لا بد من وجود واحدٍ منها للتوصل إلى تحقيق القصر في الأسلوب، وتلك العناصر ستة: ضمير الفصل، تعريف ركنتي الإسناد، العطف، النفي والاستثناء، إنماء، التقديم.

(١) الرحمن / ٧٢ .

(٢) الحجلة: سائر كالثياب والستور للعروس، أو: ستر يضرب للعروس في جوف البيت .

(٣) معاني القرآن: ٣ / ١٢٠ . والشعر لكثير عزة .

(٤) اللسان: (ق ص ر) .

(٥) السيوطي : معترك الأقران في إعجاز القرآن ١٨١/١

ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾<sup>(١)</sup> عبارة عن أسلوب قصر، وأركانه هي:

– المقصور: محمد ﴿ﷺ﴾.

– المقصور عليه: رسول

– الطريق المخصوص: النفي والاستثناء (ما... إلا...).

وقبل الدخول في العرض للطرق المختلفة الخاصة بأسلوب القصر نتوقف أمام بعض الملاحظات المتصلة بهذا الأسلوب، وهي على النحو الآتي:

أولاً:

يعد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) أو من تحدث عن القصر، ولكنه لم يستعمل المصطلح، وإنما توقف أمام أحد التراكيب النحوية وأجازه؛ لأن فيه معنى القصر، وهو:

شيء ما جاء بك ————— ما جاء بك إلا شيء

وهذا نص سيبويه: «وأما قوله: شيء ما جاء بك، فإنه يحسن وإن لم يكن على فعل مضمر، لأن فيه معنى: ما جاء بك إلا شيء، ومثله مثل للعرب: شر أهر ذا ناب»<sup>(٢)</sup>.

ثانياً:

هناك قاعدة نحوية تصلح للتطبيق على الجملة العربية هي «الإحلال»، والمقصود بها وضع عنصر نحوي مكان آخر، دون أن تتأثر الصحة النحوية الخاصة بالجملة، وقد أشار إلى تلك القاعدة سيبويه في الصفحات الأولى من كتابه؛ إذ توقف أمام الإحلال بين الفعل المضارع واسم الفاعل؛ لذلك فقوله تعالى: ﴿وإن

(١) آل عمران / ١٤٤

(٢) الكتاب: ٣٢٩/١. وأهره: حملة على الهرير، وهو صوت دون النباح، وذو ناب: الكلب هنا.

والثلث يضرب في ظهور أمارات الشرور ومخايله. انظر مجمع الأمثال. ٣٧٠/١

رَبِّكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ<sup>(١)</sup>؛ أى لحاكم<sup>(٢)</sup>. ولكن ما علاقة تلك القاعدة بأسلوب القصر؟ الحقيقة أن هناك بعض الأمثلة للقصر لا يصلح الإحلال فيما بينها، والدليل على ذلك أن القصر الذى فى قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup> بواسطة (ما) مع (إلا) لا يصلح أن نقول معناه: «إنما من إله الله» باستعمال «إنما»، على الرغم من أن علماء البلاغة يرون أن «إنما» أفادت القصر - بصفة عامة - لتضمنها معنى «ما» مع «إلا» كما سيتضح فيما بعد.

### ثالثاً:

يرتبط الأداء اللغوى فى بعض أساليب القصر بالدلالة، ومن أمثلة ذلك استعمال «إنما»؛ فحين نقول لأحد الأشخاص: «إنما محمدٌ صديقك» لا تريد بذلك أن تقدم له خبراً يجهله، أو حقيقة لا يعلمها، وإنما تريد تبصيره بحق الصداقة وما يجب عليه تجاه صديقه محمد. هناك الكثير من الشواهد والأمثلة التى يمكن تفسيرها فى ضوء تلك القاعدة المتصلة بالدلالة، ومن ذلك قول المتنبي:

إنما أنت والدٌ والأبُّ القسا طعُ أحنى من واصلِ الأولاد<sup>(٤)</sup>  
لم يرد أن يُعلم كافوراً أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبنى عليه استدعاء ما يوجه كونه بمنزلة الوالد.

ومثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿إنما يستجيبُ الذين يسمعون﴾<sup>(٥)</sup> وقوله عز وجل  
﴿إنما تنذُرُ من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب﴾<sup>(٦)</sup> وقوله تعالى: ﴿إنما أنت

(١) النحل / ١٢٤.

(٢) الكتاب: ١٥/١.

(٣) آل عمران/ ٦٢.

(٤) أحنى: أرحم وأعطف وأشد حنواً، والبيت من قصيدة يمدح فيها المتنبي كافوراً، ويذكر فيها الصلح بينه وبين مولاة ابن الأخشيذ.

(٥) الأنعام / ٣٦.

(٦) يس / ١١.



منذرٌ مَنْ يَخْشَاهُ<sup>(١)</sup>. كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم؛ ، وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويُدعى إليه، وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب. وكذلك معلوم أن الإنذار إنما يكون إنذاراً ويكون له تأثير، إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة، فأما الكافر الجاهل، فالإنذار وترك الإنذار معه واحد<sup>(٢)</sup>.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه من عادة الشعراء حين المدح خلّع الكثير من الصفات على المدحوحين، وبرزنها صفاتٍ ثابتة معلومة للجميع، ومن أمثلة ذلك قول ابن قيس الرقيات:

إنما مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

ادّعى في كون المدحوح بهذه الصفة، أنه أمر ظاهر معلوم للجميع، على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها المدحوحين أنها ثابتة لهم، وأنهم قد شهرروا بها، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم. الظاهر الذي لا يدفعه أحد، كما قال الحطيفة:

وَتَعَذَّلْنِي أَفْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ      وما قلتُ إلا بالذي علمتُ سعدُ  
وكما قال البحرى:

لا أدعى لأبى العلاء فضيلةً      حتى يسلّمها إليه عداه  
ومثله قولهم: إنما هو أسد، وإنما هو نار، وإنما هو سيف صارم، إذا أدخلوا وإنما جعلوا ذلك في حكم الظاهر المعلوم الذى لا يُنكر ولا يُدفع ولا يخفى<sup>(٣)</sup>.  
رابعاً:

هناك ظاهرة نحوية تطيع بعض أساليب القصر، وتؤدي إلى التأثير في الدلالة،

(١) النزاع / ٤٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣ وما بعدها.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٣١ وما بعدها. وأبو العلاء في بيت البحرى ليس الشاعر المعروف؛ فهو متأخر عن البحرى، وإنما المقصود به من يمدحه الشاعر.

ونعني بها «التقديم والتأخير»، ومن أمثلته ما يتصل بالفاعل والمفعول؛ فإننا حين نقول: ما ضَرَبَ زيداً إلا عمرو، بتقديم المفعول كان الغرض بيان الضارب من هو والإخبار بأنه عمرو خاصة دون غيره. وحين نقول: ما ضَرَبَ عمرو إلا زيداً، بوضع الفاعل بعد الفعل حسب قواعد تركيب الجملة العربية، كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه زيد خاصة دون غيره.

وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(١)</sup> نجد أسلوب قصر، تم فيه تقديم المفعول (لفظ الجلالة: الله) على الفاعل (العلماء)؛ لذلك يعد تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشعون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم. ولو أُوخِرَ ذكر اسم الله وقُدِّمَ (العلماء) فقيل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الْعُلَمَاءُ اللَّهَ﴾ لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان الخشْي من هو، والأخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

وما دنا بصدد الحديث عن التقديم والتأخير في أسلوب القصر، فإننا نتوقف أمام ما يتصل بتأخير الفاعل والمفعول والجار والمجرور وسواها في الجملة، مع بيان الفروق الدلالية. ويمكن تقديم ذلك خلال الأمثلة الآتية:

١ - ما ضَرَبَ إلا عمرو زيداً: الاختصاص في الفاعل «عمرو»، والمعنى: الضارب عمرو لا غيره.

٢ - ما ضَرَبَ إلا زيداً عمرو: الاختصاص في المفعول «زيداً»، والمعنى: المضروب زيداً من سواه.

٣ - لم يَكْسُ إلا زيداً جبة: خَصَّ المتكلم زيداً من بين الناس بكسوة الجبة.

٤ - لم يَكْسُ إلا جبة زيداً: خَصَّ المتكلم الجبة من أصناف الكسوة.

(١) فاطر / ٢٨.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣٨ وما بعدها.

٥ - قال السيد الحميرى:

لو خَيْرُ الْمُنْبِرُ فُرْسَانَهُ ما اختار إلا منكم فارساً<sup>(١)</sup>  
الاختصاص فى الجار والمجرور «منكم» ؛ لذلك لو قيل: «ما اختار إلا فارساً  
منكم» صار الاختصاص فى «فارساً».

نخلص من التراكيب السابقة إلى قاعدة أو قانون يقول إن ما يقع بعد «إلا» هو  
الذى يقع عليه الاختصاص.

ولكن ما وجه الاختصاص فى باب المبتدأ والخبر حين التقديم والتأخير مع  
القصر بـ «إنما» ؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال نقدم بعض الأمثلة، ثم نبين  
القاعدة الخاصة بهذا الباب:

٦ - إنما هذا لك : الاختصاص فى الخبر «لك» بدلالة أنك تقول: إنما هذا لك  
لألغيرك.

٧ - إنما لك هذا : الاختصاص فى المبتدأ «هذا» بدلالة أنك تقول: إنما لك هذا  
لاذاك.

٨ - قال تعالى: «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»<sup>(٢)</sup>: الاختصاص فى المبتدأ  
الذى هو (البلاغ) و(الحساب).

٩ - قال تعالى: «إنما السبيل على الذين يستأذنونك»<sup>(٣)</sup>: الاختصاص فى الخبر  
(على الذين).

نخلص من التراكيب السابقة إلى أنك إذا تركت الخبر فى موضعه فلم تقدمه  
على المبتدأ كان الاختصاص فيه، وإن قدمته على المبتدأ صار الاختصاص الذى  
كان فيه فى المبتدأ.

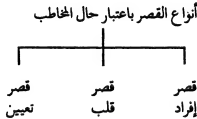
(١) من آيات قالها لأبى العباس السفاح، لما استقر له الأمر، وقام إليه السيد الحميرى حين نزل عن  
المنبر، فأشده أليافاً منها هذا.

(٢) الرعد / ٤٠.

(٣) التوبة / ٩٣.

خامساً:

من الظواهر اللغوية التي تُحسب لعلماء البلاغة ربطهم أسلوب القصر بما أطلقوا عليه «حال المخاطب»؛ لأن هذا الربط يدل على أهمية الصلة بين الأسلوب والمتلقي؛ أي المخاطب، حين الدراسة، دونما عزل لأى منهما عن الآخر؛ إذ إن البلاغة - بصفة عامة - تتصل بالعوامل السياقية في الاتصال الكلامي على نحو ما يعرف بـ «البراغماتية» Pragmatics؛ فهي عبارة عن اتصال بين المتكلم والسماع، والأسلوب المستخدم في هذا الاتصال إنما هو نص يتصل بموقف معين. واللافت للنظر أن علم اللغة يولي اهتماماً خاصاً حين دراسة «المحادثة» لما يسمى بـ «تحليل الخطاب» Discourse analysis، والمقصود بذلك ربط اللغة بحال المخاطب من حيث الظروف النفسية والاجتماعية والثقافية، والجهل والعلم، والطرق اللفظية وغير اللفظية المستخدمة حين المخاطبة وغير ذلك. ولكن ما صلة هذا المدخل النظري بالقصر؟ لقد أشار علماء البلاغة إلى أن للقصر أنواعاً باعتبار حال المخاطب، يمكن تقديمها خلال الشكل الآتي:



أما قصر الأفراد فيستخدم حين يعتقد المخاطب الشركة بين شيئين فأكثر، ومن أمثلته قوله تعالى: «إنما الله إله واحد» الذي خوطب به من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة. والدليل على ذلك النظر في الآية الكريمة كلها. قال تعالى: «يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد»<sup>(١)</sup>.

ولكن كيف عبرَ علماء البلاغة عن قصر الأفراد؟ يقول الخطيب القزويني:  
 «فاخطب بقولنا: مازيدٌ إلا كاتبٌ، مَنْ يعتقد أن زيدا كاتب وشاعر، ويقولنا: ما  
 شاعرٌ إلا زيد، من يعتقد أن زيدا شاعر، لكن يدعى أن عمراً أيضاً شاعر، وهذا  
 يسحق قصر أفراد؛ بقطعه الشركة بين الصفتين في الثبوت للموصوف، أو بين  
 الموصوف وغيره في الاتصاف بالصفة»<sup>(١)</sup>.

بقي أن نشير إلى أن هذا القصر أضيف إلى كلمة «إفراد»؛ لأنه يأتي لقطع  
 «الشركة» التي اعتقدها المخاطب.

نأتي، بعد ذلك، إلى ما أطلق عليه البلاغيون مصطلح «قصر قلب» فنجد  
 يستخدم للرد على المخاطب إذا كان يعتقد حكماً من الأحكام فتقلبه عليه، ومن  
 أمثلة ذلك قولنا: «ما شاعرٌ إلا شوقي» رداً على من يزعم أن غيره أشعر منه.

وقد أضيف هذا القصر إلى كلمة «قلب»، لأنه يأتي لقلب الحكم على  
 المخاطب.

وآخر أنواع القصر المتصلة بحال المخاطب ما يطلق عليه «قصر تعيين»، ويأتي  
 حين يكون المخاطب متردداً في حكمه، كقولنا: «ما شاعرٌ إلا شوقي»<sup>(٢)</sup> للرد على  
 من تردد في إثبات الشعر له وبعض الشعراء الآخرين.

وقد أضيف هذا القصر إلى كلمة «تعيين»؛ لأنه يأتي لتعيين ما هو غير مُعين  
 عند المخاطب.

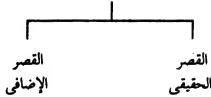
(١) الإيضاح: ٢١٤. ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه ليس المقصود بالصفة، في نص الخطيب، الثمت  
 التحوي المعروف، والأمر نفسه بالنسبة إلى الموصوف؛ لأن جملة «مازيدٌ إلا كاتب» عبارة عن مبتدأ  
 أو خبر. لذلك المقصود الصفة المنوطة لا الثمت.

(٢) لعلنا نلاحظ أن المثال: ما شاعرٌ إلا شوقي، مشترك بين قصر القلب والتعيين، والذي يفرق بين  
 معناه حال المخاطب نفسه، من حيث اعتقاده حكماً من الأحكام، أو تردده في حكمه؛ لذلك قلنا  
 إنه مما يحسب لعلماء البلاغة هذا الربط بين أسلوب القصر وحال المخاطب.

سادساً:

اهتم علماء البلاغة بالنظر في أسلوب القصر خلال ربطه بـ «غرض المتكلم»، وانتهوا خلال هذا الربط إلى أن القصر باعتبار غرض المتكلم قسمان، يمكن إيضاحهما كما يأتي :

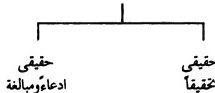
#### القصر باعتبار غرض المتكلم



أما القصر الحقيقي فهو ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع، نحو: «لامعبود بحق إلا الله»؛ إذ لامعبود بحق في الواقع غير الله تعالى؛ ونحو: «ما خاتم الأنبياء والرسل إلا محمد»، فالغرض تخصيص ختمهما بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقصره عليه؛ بحيث لا يتجاوزهُ إلى غيره أصلاً.

والقصر الحقيقي قسمان؛ أولهما: حقيقي تحقيقاً، وهو ما كان التخصيص فيه بالنسبة للحقيقة؛ بحيث لا يتجاوز المقصود المقصور عليه أصلاً، نحو: «إنما الله كامل»؛ إذا لاصفة لله جامعة إلا الكمال في الواقع. وثانيهما: حقيقي بحسب الادعاء والمبالغة، بفرض أن ماعدا المقصور عليه في حكم المعدوم، نحو: «لا سيف إلا ذو الفقار» و«لا فتى إلا علي»، ويمكن إيضاح هذين القسمين كما يأتي :

#### القصر الحقيقي



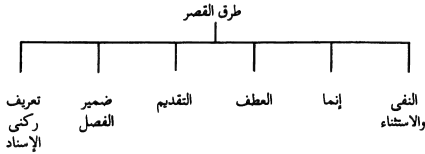
أما القصر الإضافي، وهو القسم الثاني من قسمي القصر بحسب غرض المتكلم، فهو ما كان التخصيص بحسب الإضافة إلى شيء آخر معين بالنسبة إلى

جميع ما عداه، نحو : «ما على إلا شجاع» أى إنه مقصور على صفة الشجاعة لا يتجاوزها إلا الجبن، ولا إلى التهور مثلاً. ونحو : «ماعد الحميد إلا كاتب» فالغرض تخصيص عبد الحميد بالكتابة وقصره عليها؛ بحيث لا يتجاوزها إلى شيء آخر معين هو الشعر؛ أى إن له صفة الكتابة، لصفة الشعر، وهذا لا ينافي أن يتجاوز الكتابة إلى صفات أخرى كالخطابة، أو التجارة، أو غيرهما؛ فالقصر إنما هو بالإضافة إلى الشعر فقط، لهذا سُمي قصرًا إضافيًا<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لتلك الملاحظات المتصلة باستعمال أسلوب القصر، نحاول التعرف على موضوع آخر يتعلق به وهو:

### طرق القصر فى الجملة:

حين ننظر فى الطرق التى أشار إليها القدماء من علماء البلاغة للقصر، نجدها مجموعة من الأنماط النحوية المتصلة بالنفى والاستثناء، وإنما، والتقديم لما يستحق التأخير وغيرها؛ لذلك تعد تلك الطرق بمثابة قوانين Rules للقصر فى الجملة العربية استطاع القدماء التوصل إليها فى ضوء الاستقصاء للشواهد المختلفة. ويمكن تلخيص تلك الطرق كما يأتى:



وقد ركز علماء البلاغة فى حديثهم عن تلك الطرق على الأربع الأولى منها، وهذا عرض لها:

### ١ - النفى والاستثناء:

لابد من اجتماع «النفى» و «الاستثناء» حتى يكون الأسلوب دالاً على لاقصر؛ لأننا إذا قلنا : جاء الطلاب إلا خالداً، لا نجد فى هذا القول أية دلالة على

(١) انظر: علوم البلاغة للمراغى ١٥٥، والمنهاج الواضح لحامد عربى ٦ وما بعدها.

القصر لعدم وجود النفى، وكل ما نستطيع التوصل إليه استثناء أحد الأفراد من الحكم؛ أى استثناء خالد من المجيء، دون أن يكون فيه المعنى المنشود من القصر، وهو الدلالة على التوكيد.

ولكن إذا قلنا: لم يتخلف إلا خالد، تكون لدينا أسلوب قصر لوجود النفى فى صدر الجملة، وهو يفيد الدلالة على تأكيد الإنكار، وهذا يدركه أبناء اللغة بحسهم البلاغى، وذوقهم السليم للأساليب العربية الفصيحة.

ولعلنا نتساءل: كيف يتحقق القصر حين استعمال النفى والاستثناء؟ حين نقول: «ماخالد» نجد عبارة عن عنصرين نحويين هما «ما» النافية، والمسند إليه أو المبتدأ «خالد»، والدلالة التى تتوصل إليها خلال هذا القول توجه النفى إلى وصف «خالد» دون ذاته، وحين لا نزاع فى طوله ولا قصره ولا ما أشبه ذلك، وإنما النزاع فى كونه شاعراً أو كاتباً؛ فقد تناولهما النفى؛ فإذا قيل: «إلا شاعر» جاء القصر؛ أى إن الاستثناء بـ «إلا» الملغاة مع ذكر المسند أو الخبر «شاعر» أدى إلى تحقق القصر فى الأسلوب: «ماخالد إلا شاعر».

وإذا قلت: «ماشاعر» توجه النفى إلى الشعر الذى لا خلاف فى ثبوته، وإنما النزاع فى الموصوف به: هل هو خالد أو محمد؛ فقد شملهما النفى باعتبار اتصافها بالوصف المذكور؛ فإذا قيل: «إلا خالد» تحقق القصر.

وهذه بعض الأمثلة للقصر عن طريق النفى والاستثناء:

— قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾<sup>(١)</sup>؛ أى هو ﴿مكة﴾ مقصور على الرسالة، لا يتجاوز بها إلى البعد عن الهلاك، والقصر هنا قصر أفراد.

— قال تعالى: ﴿وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون﴾<sup>(٢)</sup>؛ أى أنتم مقصرون على الكذب عندنا لا تتجاوزونه إلى احتمال حق، والقصر هنا قصر قلب.

(١) آل عمران/ ١٤٤.

(٢) يس/ ١٥.



- قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبِدُوا اللَّهَ﴾<sup>(١)</sup>؛ لأنه قال في مقام اشتغال على معنى أنك يا عيسى لم تقل للناس ما أمرتك؛ لأن أمرتك أن تدعو الناس إلى أن يعبدوني، ثم إنك دعوتهم إلى أن يعبدوا من هو دوني، والدليل على ذلك ما قبله: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم آتت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله)<sup>(٢)</sup>، والقصر هنا قصر قلب.

- قال الشاعر:

هَلِ الْجُودُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِأَنْفُسِي      عَلَى كُلِّ مَا ضَيَّ الشُّفْرَتَيْنِ صَقِيلِ<sup>(٣)</sup>  
بُنِيَ الْقَصْرُ فِي الْبَيْتِ عَلَى الْإِدْعَاءِ وَالْمِبَالِغَةِ، وَعَلَيْهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقَارِ      رِ، وَلَا نَسْتِي إِلَّا عَلَى<sup>(٤)</sup>  
- قال عمر بن معد يكرب الزبيدي:

قَدْ عَلِمْتُ سَلْمَى وَجَارَاتِهَا      مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا  
قَصْرُ صِفَةِ التَّقْطِيرِ عَلَى نَفْسِهِ؛ أَيْ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي صَرَعَ الْفَارِسَ لَا أَحَدٌ سِوَاهُ؛  
لأن «قطر» معناه: صرعه صرعة شديدة.

٢ - «إنماء»:

وقد لجأ علماء البلاغة إلى التوقف أمام بعض الظواهر التركيبية والدلالية للتوصل إلى إثبات إفادة «إنماء» للقصر؛ فقالوا إنها تتضمن معنى «ماء» و«إلا» في قوله تعالى: «إنما حرم عليكم الميتة والدم»<sup>(٥)</sup>؛ أَيْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيِّتَةَ وَالْدَّمَ.

ويرى القدماء من علماء اللغة والنحو أن «إنماء» تأتي لإثبات ما يُذكر بعدها ونفى ما سواه؛ لذلك يؤدي استعمالها مع بعض التراكيب إلى تحقيق القصر، نحو:

(١) المائدة/ ١١٧.

(٢) المائدة/ ١١٦.

(٣) الشفرتان: منى شفرة، وهى حد السيف، وصقيل: مجلو.

(٤) ذو الفقار: لقب سيف على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

(٥) البقرة / ١٧٣.

«إنما حسنٌ شاعرٌ» لإثبات شاعريته ونفى ما سواها من الخطابة والشجاعة وغيرهما، وعلى ذلك قوله تعالى: «إنما يتذكر أولو الألباب»<sup>(١)</sup> لإثبات التذكر لذوى العقول، ونفى ما سواه من تذكُّر غيرهم.

ومن الأدلة التي قال بها القدماء لإثبات تضمن «إنما» معنى القصر صحة انفصال الضمير معها؛ فتقول: إنما يخلص أنا، كما تقول: ما يخلص إلا أنا، كما قال الفرزدق:

أنا الذائدُ الحامى الذمارَ وإنما يدافعُ عن أحسابهم أنا ومثلى

المعنى: ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلى؛ لذلك يقول عبد القاهر الجرجاني معلقاً البيت: «ذاك لأن غرضه أن يخص المدافع لا المدافع عنه. ولو قال: «إنما أدافع عن أحسابهم» لصار المعنى أنه يخص المدافع عنه، وأنه يزعم أن المدافعة منه تكون عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم، كما يكون إذا قال: «وما أدافع إلا عن أحسابهم»، وليس ذلك معناه، إنما معناه أن يزعم أن المدافع هو لا غيره»<sup>(٢)</sup>.

ومن أمثلة القصر بـ «إنما» قول الشاعر:

وإنما المرءٌ حديثٌ بعده فكأن حديثاً حسناً لمن وعى

الذى يشير فيه إلى أن المرء مصيره الفناء، والاندثار، ويصبح حديثاً يُروى بعد مماته؛ لذلك يجب على كل إنسان أن يترك الذكري الطيبة حتى يحكيها من يأتى بعده. وقال العباس بن الأحنف:

أنا لم أرزقُ محبتها إنما للعبدِ ما رزقاً

الذى يشير إلى أنه لا مطمع له فى وصلها؛ فقد أصابه اليأس منها، وهذا تعريض؛ لذلك يرى البلاغيون أن «الاستقراء» للأساليب الرفعية التى وردت فيها «إنما» يدل على أن أحسن موقع تستعمل فيه هو الدلالة على التعريض بأمر هو مقتضى معنى الكلام بعدها، ومن أمثله ذلك قوله تعالى: «إنما تنذر الذين يخشون

(١) الرعد/١٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٤١ وما بعدها.

رَبِّهِمْ بِالْغَيْبِ»<sup>(١)</sup> المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن  
تسمع، وقلب يعقل؛ فالإنذار معه كلا إنذار. وقال الشاعر:

ما أنتَ بالسببِ الضعيفِ، وإنما نُجِّحُ الأمورَ بقوةِ الأسبابِ  
فاليومَ حاجتنا إليك، وإنما يُدْعَى الطبيبُ لساعةِ الأوصابِ<sup>(٢)</sup>  
يقول في البيت الأول: إنه ينبغي أن أنجح في أمرى حين جعلتك السبب إليه،  
وفي الثاني: إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة،  
وعولنا على فضلك، كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض له من السقم،  
كان قد أصاب في فعله<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - العطف:

ويكون بثلاثة أحرف هي «لا» و«ول» و«ولكن»، وقد قال عنه الخطيب  
الغزويني: «العطف: كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفراداً: زيد شاعر  
لا كاتب، أو: ما زيد كاتباً بل شاعر، وقلباً: زيد قائم لاقاعد، أو: ما زيد قاعداً بل  
قائم. وفي قصر الصفة على الموصوف إفراداً أو قلباً بحسب المقام: زيد قائم  
لا عمرو، أو: ما عمرو قائماً بل زيد»<sup>(٤)</sup>. ومن أمثله:

- قال عمرو بن الورد:

وما شاب رأسي من سنين تتابعتُ عليّ، ولكن شيبتي الوقائعُ

فقد قصر وصف الشيب على الوقائع، لاتعاقب السنين.

- قال الشاعر:

ليس اليتيمُ الذي قد مات والدُه بل اليتيمُ يتيمُ العلمِ والأدبِ

(١) فاطر / ١٨.

(٢) الأسباب: جمع سبب، وهي ما تتوصل بها إلى غايتك، والأوصاب: جمع وصب، وهي الأمراض  
والأوجاع التي لا تروى.

(٣) الإيضاح. ٢٢٢ وما بعدها

(٤) السابق ٢١٥

فقد قصر وصف اليتيم على من فقد العلم والأدب، لا من فقد أباه.

- قال ابن الرومي:

يهتز عطفاً عند الحمد يسمعه      من هزة المجيد لامن هزة الطرب  
فقد قصر اهتزاز العطف على هزة المجيد، لاعلى هزة الطرب.

٤ - تقديم ما حقه التأخير:

هناك نظام معين لترتيب الكلام في الجملة العربية من حيث التقديم والتأخير، ولكن الخروج على هذا النظام لتحقيق بعض الأغراض الدلالية والبلاغية لا يؤدي إلى أن يصبح التركيب غير صحيح نحوياً Ungrammatical إلا إذا خالف القواعد أو القوانين التي وضعها العلماء للتقديم والتأخير، والدليل على ذلك تقديم الخبر على المبتدأ، والمفعول به على فعله وفاعله... وهكذا. وقد ربط علماء النحو تقديم ما حقه التأخير بالمعنى، ومن أمثلة ذلك قولهم: «تمضى أنا» الذي قُدِّم فيه الخبر على المبتدأ؛ لأنه أساس الاهتمام ومعقد الفائدة، قال ابن يعيش: «ألا ترى أن الفائدة المحكوم بها إنما كونه تميمياً لا «أنا» المتكلم»<sup>(١)</sup>. ويتصل بذلك ما أشار إليه النحاة بخصوص تقديم (له) في قوله تعالى: «ولم يكن له كفواً أحد»<sup>(٢)</sup>؛ لأنه معقد الفائدة؛ إذ ليس الغرض نفى الكفو مطلقاً؛ بل نفى الكفو له تعالى؛ فقدم اهتماماً بما هو المقصود معنى<sup>(٣)</sup>.

وبعد التقديم لما حقه التأخير طريقة من طرق القصر في العربية، والمقصور عليه هو المقدم؛ فقولنا «مصرى أنا» كلمة «مصرى» مقصور عليه، ويفيد قصر المتكلم «أنا» على صفة المصرية لا يتعداها إلى جنسية أخرى.

وهناك بعض الأمثلة لتحقيق القصر عن طريق التقديم، وذلك كقول الشاعر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس، إننى      أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب  
الذى قصر فيه الشكوى على الله سبحانه وتعالى؛ فهو المشكوى إليه لا غيره.

(١) شرح المفصل: ٩٢/١.

(٢) الإخلاص: ٤.

(٣) شرح الكافية: ٣٠١/٢.

وقال الشاعر:

بك اجتمع الملوك المبدد شمله وضمت قواصي منه بعد قواصي<sup>(١)</sup>

فالتقديم للجار والمجرور «بك» حقق القصر؛ لأننا لو قلنا: «اجتمع الملك المبدد شمله لك» لانجذ أى قصر فى الجملة. وقال الشاعر:

راحل أنت والليالى نزول ومضر بك البقاء الطويل

وقد تحقق القصر عن طريق تقديم الخبر «راحل» على المبتدأ «أنت».

وقد أشار علماء البلاغة إلى أن دلالة التقديم على القصر يستطيع ابن اللغة التوصل إليه بناءً على القدرة التى يتمتع بها فى ذوق الأساليب الرفيعة؛ لأن القصر عن طريق التقديم يعتمد فى تحصيله على معرفة فحوى الكلام ومفهومه؛ بالإضافة إلى أن القصر بواسطة النفي والاستثناء، وهما، والعطف طرق فى أصل وضعها اللغوى تفيد الدلالة على الحصر والقصر، على عكس التقديم.

(١) القواصي : جمع قاصية، وهى الناحية البعيدة.

### التوكيد باستعمال (إن)

كما يتصل بالجمال في التركيب النحوي للجملة استخدام التوكيد بواسطة «إن» على أساس وجود خبر في الجملة السابقة يتلقاه السامع وهو متحير، ويأتي التوكيد ليزيل ذلك. قال بدر الدين ابن مالك: «وكثيراً ما يخرجون الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فيحلون المحيط بفائدة الخبر محلّ الخالي الذهن عنها لتجهيله. ويقومون من لا يسأل مقام من يسأل، إذا كانوا قد قدموا إليه ما يلوح بالخبر، فيستشرف له استشراف الطالب المتحير، فيخرجون الجملة إليه مؤكدة» ويمكن التطبيق على قول بشار:

بكرًا صاحبيّ قبل الهجير      إنّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ  
فإنه لما خاطب به بكرًا محرضاً صاحبيه على التشمير في شأن السفر تصورها حائمين حول: هل التبكير يثمر النجاح؟ فتلقاهما به «إن». والذي يلفت النظر أن بشاراً كان مدرّكاً لهذا التركيب النحوي الذي لجأ إليه في عجز البيت، والدليل على ذلك تلك الرواية التي وردت عن الأصمعي. قال: «كنت أسدو من أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر، وكان يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا معاذ، ما أحدثت؟ فيخبرها وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له، حتى يأتي وقت الزوال، ثم ينصرفان. وأتياه يوماً فقالا: ماهذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم. قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب. قال: نعم، بلغني أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف. قالوا: فأنشدناها يا أبا معاذ. فأنشدهما:

بكرًا صاحبيّ قبل الهجير      إنّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ  
حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان «إن» ذاك النجاح في التبكير».

### بكرًا فالنجاحُ في التبكير

كان أحسن. فقال بشار: إنما بنيتها أعرابيةً وحشية فقلت: إن ذاك النجاح في

التبكير، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكرا فالنجاح، كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف فقبل بين عينيه<sup>(١)</sup>.

وتؤدى «إن» في هذا البيت وظيفتين:

- التوكيد.

- الربط، وهو الوظيفة نفسها للفاء إذا قال بشار: «بكرا فالنجاح».

وقد قال عبد القاهر: «واعلم أن من شأن «إن» إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلاً، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجبياً. فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف، ومقطوعاً موصولاً معاً. أفلا ترى أنك لو أسقطت «إن» من قوله: إن ذاك النجاح في التبكير، لم تر الكلام يلتئم، ولرايت الجملة الثانية لاتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيل، حتى تجيء بالفاء فتقول: بكرا صاحبي قبل الهجير، فذاك النجاح في التبكير<sup>(٢)</sup>. وترك بيت بشار إلى قول بعض العرب:

فَغَنَّهَا، وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ      إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحُدَاءُ<sup>(٣)</sup>

قال عبد القاهر معلقاً: «فانظر إلى قوله: إن غناء الإبل الحداء، وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبئه به وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه. ثم انظر إذا تركت «إن» فقلت: فغناها وهى لك الفداء، غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يشتم هذا ويعرق ذاك؟ حتى لا تجد حيلة في اتلافها حتى تجتلب لهما الفاء فتقول: فغناها وهى لك الفداء، فغناء الإبل الحداء، ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ماكان، وأن قد ذهبت الأنسة التي كنت تجد، والحسن الذي كنت ترى<sup>(٤)</sup>».

١- الأغاني: ١٩٠/٣، والإيضاح: ٩٥.

٢- الدلائل: ٢٧٣.

٣- حدا الإبل حداء: حها على السير بالحدا.

٤- الدلائل: ٢٧٣ و ٢٧٤.

وربط البلاغيون التوكيد بـ «إن» بالحال نفسه كقول ججل بن نضلة:

جاء شقيق عارضاً رُمَحَهُ      إِنَّ بَنِي عَمَكَ فِيهِمْ رِمَاحُ  
فالشطر الأول من البيت يصور مجيئه هكذا مُدلاً بشجاعته، قد وضع رمحه  
عارضاً دليل على إعجاب شديد منه، واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بنى عمه أحد،  
كانهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح<sup>(١)</sup>. وجاء عجز البيت في أوله «إن»  
وبعدها اسمها «بنى» وخبرها «فيهم رماح» رداً على هذا الشقيق.

وكشف البلاغيون عن هذا الأسلوب الخاص باستخدام التوكيد بواسطة «إن»  
فى الكتاب العزيز. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ  
عَظِيمٌ)<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: (يَا بَنِي إِدْرِسَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ  
عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً  
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى:  
(وَلَا تَخَاطَبُوا فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُقَرَّنُونَ)<sup>(٥)</sup>، وقال تعالى: (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ  
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمٌ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)<sup>(٦)</sup>.

ونختم الحديث عن التوكيد باستعمال «إن» بتلك الرواية التي وردت عن أبي  
بكر الأنباري. قال: «ركب الكندي إلى أبي العباس (ثعلب) وقال له: إني لأجد في  
كلام العرب حشواً فقال له أبو العباس: في أى موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد  
العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله  
لقائم؛ فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة  
لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله

١- الإيضاح: ٩٥.

٢- الحج / ١.

٣- لقمان / ١٧.

٤- التوبة / ١٠٣.

٥- هود / ٣٧، والمؤمنون / ٢٧.

٦- يوسف / ٥٣.



قائم، جواب عن سؤال سائل، وقوله: إنَّ عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني. قال (ابن الأنباري): فما أحرار المتفلسف جواباً.

وإذا افترضنا جدلاً صحة تلك الرواية فإنها تشير إلى إدراك أبى العباس ثعلب لما يُعرف الآن في الدراسات اللغوية بالعوامل السياقية في الاتصال الكلامي على نحو ماهو معروف في «علم اللغة التداولي» Pragmatics؛ إذ إن الإجابة تحتوى على عناصر نحوية معينة تتصل بحالة السائل وسؤاله، ويمكن إيضاح ذلك كما يأتي:

- ١- عبد الله قائم ————— إخبار عن قيامه
- ٢- إن عبد الله قائم ————— جواب عن سؤال سائل
- ٣- إن عبد الله لقائم ————— جواب عن إنكار منكر قيامه

والجملة الأولى مركبة من المبتدأ والخبر، ولها وظيفة دلالية محددة هي الإخبار عن قيام عبد الله؛ لذلك لم يكن المتكلم في حاجة لأية عناصر نحوية للتأكيد على تلك الدلالة والإخبار عنها. أما الجملة الثانية فهي ناتجة عن اتصال كلامي بين سائل ومسؤول؛ أي إنه عبارة عن محادثة لذلك يحتاج السياق إلى التأكيد على الدلالة بواسطة «إن». أما الجملة الثالثة فهي ناتجة عن إضافة عنصر جديد يؤدي إلى زيادة الدلالة تأكيداً وهو اللام، والدافع إلى ذلك الإجابة عن إنكار منكر قيامه.

## ظاهرة الاتساع

يعد «الاتساع» Expansion واحداً من العمليات التحويلية التي تطرأ على العبارات والتراكيب النحوية، ويعرفه المحدثون من المشتغلين بالدراسات اللغوية بأنه عملية نحوية، تأتي عن طريق إضافة بعض العناصر الجديدة إلى المكونات الأساسية دون أن تتأثر تلك المكونات كما في المثال الآتي:

Cars

The Cars

The Big Cars

All The Big Cars

All The Big Cars in The Garage

ويتكون التركيب الأخير من عناصر ثلاثة:

- العنصر السابق لما أصابه التعديل All The Big :

- العنصر الرئيسى الذى أصابه التعديل Cars :

- العنصر التالى لما أصابه التعديل in The Garage :

وبلاحظ أن الاتساع يرتبط بالدلالة؛ لأنه عبارة عن إضافة بعض المفردات إلى التركيب الأساسى مما يؤدي إلى تحديده وبيان المقصود منه ؛ فإذا قلنا:

أطفال

أطفال مصريون

ثلاثة أطفال مصريين

ثلاثة أطفال مصريين معهم كلب

استطعنا تحديد المقصود بهؤلاء الأطفال من حيث البلد الذى ينتمون إليه، وعددهم، بالإضافة إلى وجود علامة مميزة «معهم كلب» تساعد فى هذا

## التحديد.

والانساع من المصطلحات التي ظهرت في المراحل الباكرة عند العرب، وقد ورد عند النحاة والبلاغيين، ولكن المفهوم يختلف عند كل منهما. أما النحاة فقد عقد سيبويه في كتابه<sup>(١)</sup> باباً حول «استعمال الفعل في اللفظ لأفنى المعنى لانساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار»، وقد سوى في هذا الباب بين الانساع والإيجاز والاختصار، ولكنه لم يجمع بين المصطلحات الثلاثة معاً، وإنما يقول: «ومما جاء على انساع الكلام والاختصار» أو «ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز». وحين ننظر في شواهد هذا الباب وتراكيبه النحوية، نجد عبارة عن دراسة تطبيقية لبعض التصرف في الكلام؛ وذلك نحو حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. قال تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها)<sup>(٢)</sup> إنما يريد: أهل القرية، فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان هاهنا. وقد يكون الانساع في الدلالة، والذي أباحه علم المخاطب بالمعنى. قال تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعى بما لا يسمع إلا دعاء ونداء)<sup>(٣)</sup>. قال سيبويه: «فلم يشبهوا بما ينعى، وإنما شبهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى». ويكون الانساع في حذف حرف. قال ساعدة بن جؤبة:

لَدَنَ بِهِمْزُ الْكَفِّ يَعْمَلُ مَتْنَهُ      فِيهِ كَمَا عَمَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ<sup>(٤)</sup>  
يريد: عمل في الطريق.

نأتى، بعد ذلك، إلى مفهوم الانساع عند المشتغلين بالدراسات النقدية والبلاغية؛ فنجد ابن رشيق يعقد له باباً في (العمدة)<sup>(٥)</sup> ويعرفه بقوله: «وذلك أن

١- الكتاب: ٢١١/١-٢١٦.

٢- يوسف / ٨٢.

٣- البقرة / ١٧١.

٤- اللذن: الناعم اللين، والضمير في «فيه» عائذ عليه، والعسلان: سير سريع في اضطراب.

٥- العمدة: ٧٥-٧٧.

يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل، فيأتى كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى. ويستشهد ابن رشيق على ذلك بقول امرئ القيس:

مَكْرٌ مَفْرٌ مَقْبِلِي مَدْبِرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخِرَ حَطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ<sup>(١)</sup>

ويقدم تفسيراً للمعنى بقوله: «فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر، ويحسن مقبلاً ومدبراً، ثم قال «معاً»؛ أى جميع ذلك فيه. وشبهه فى سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطه السيل من أعلى الجبل، فإذا انحط من عالي كان شديد السرعة، فكيف إذا أعانته قوة السيل من ورائه. وذهب قوم إلى أن معنى قوله «كجلمود صخر حطه السيل من عل» إنما هو الصلابة؛ لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والرياح كان أصلب. وقال بعض من فسره من المحدثين: إنما أراد الإفراط فزعم أنه يرى مقبلاً ومدبراً فى حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته، واعترض على نفسه واحتج بما يوجد عياناً فمثله بالجلمود المنحدر من قنة الجبل، فإنك ترى ظهوره فى النسبة على الحال التى يرى فيها بطنه وهو مقبل إليك». ثم يعلق ابن رشيق على تلك التفسيرات بقوله: «ولعل هذا مامراً قط ببال امرئ القيس، ولا خطر فى وهمه، ولا وقع فى خلدّه ولا روعه».

\* \* \*

---

١ - البيت من معلقته:

قَسَابَتِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلٍ  
والكلمات «مكر مفر مقبل مدبر» مجرورات؛ لأنها صفة للفرس الذى تحدث عنه فى البيت السابق،  
وهو قوله

وَقَدْ أَعْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَائِهَا بِمَنْجَرٍ قَبْدِ الْأَوَائِدِ هَيْكَلِي.

والجلمود: الصخرة فى أعلى الجبل. انظر شرح القصائد السبع: ٨٢ و ٨٣.

## أسلوب الإنشاء

تدور المعاني اللغوية للإنشاء حول الابتداء، أو الخلق، أو الابتداء، ويقال: أنشأ الله الخلق؛ أى ابتدأ خلقهم. وقد أشار الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) إلى أن الإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته، وأكثر مايقال ذلك فى الحيوان، قال تعالى: (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار)<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض)<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين)<sup>(٣)</sup>؛ فهذه كلها فى الإيجاد المختص بالله تعالى. وقوله تعالى: (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون)<sup>(٤)</sup> فلتشبيه إيجاد النار المستخرجة بإيجاد الإنسان، وقوله تعالى: (أو من ينشأ فى الحلية)<sup>(٥)</sup>؛ أى يربى تربية كثرية النساء<sup>(٦)</sup>.

وهناك عدة تعريفات للإنشاء فى مصطلح أهل البلاغة منها: الإنشاء كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، والسبب فى ذلك يعود إلى أن مدلول لفظه قبل النطق به ليس له وجود خارجى يطابقه أو لا يطابقه؛ لذلك قال الشريف الجرجاني: «الإنشاء قد يقال على الكلام الذى ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه»<sup>(٧)</sup>. وهو ينقسم إلى قسمين:

١- الإنشاء الطلبى: وهو ما يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، أو هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه، وهو خمسة أنواع:



١- الملك / ٢٣.

٢- النجم / ٣٢.

٣- المؤمنون / ٣١.

٤- الواقعة / ٧٢.

٥- الزخرف / ١٨.

٦- المفردات: ٤٩٤.

٧- التعريفات: ٣٢.

وقد نال هذا القسم عناية العلماء واهتمامهم؛ لأنه يقدم الفرصة للتصرف في التعبير وفنون القول المختلفة، وللتلوين في الأداء اللغوي؛ لخروجه عن الأغراض أو الأنواع السابقة وأداء معاني جديدة؛ لذلك نجد كتب البلاغة تجعل مبحث الإنشاء وقفاً على ما هو طلبى، وسوف نتوقف أمامه بالدراسة التفصيلية للتعرف على ما فيه من جمال في التركيب، بعد أن نعرف بالقسم الثانى.

٢- الإنشاء غير الطلبى: وهو ما لا يستدعى مطلوباً، وله أساليب متعددة، وصيغ كثيرة، يمكن بيانها على النحو الآتى:

أ- استخدام صيغ المدح والذم، ومن بينها الفعلان الماضيان الجامدان «نعم» و «بئس». قال تعالى: (إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَعَمْ أَهِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْثَرُهَا الْفُقَرَاءُ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: (وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَذُوا بِالْأَلْقَابِ بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)<sup>(٣)</sup>. وقال زهير بن أبى سلمى فى مدح هرم بن سنان:

نعم أَمْرًا هَرَمٌ لَمْ تَعَرَّ نَائِبَةٌ      إِلَّا وَكَانَ لِمُرْتَاعٍ لَهَا وَزَرًا  
وتستعمل «حبذا» للمدح و «لاحبذا» للذم. قال جرير:

ياحبذا جبلُ الرِّيانِ من جِبلٍ      وحبذا ساكنُ الرِّيانِ مَنْ كَنا  
وحبذا نفحاتٌ من يمانيةٍ      تأتيك من قِبلِ الرِّيانِ أحياناً

وقال الشاعر:

ألاحبذا عاذرى فى الهوى      ولاحبذا العاذلُ الجاهلُ

ب- يمكن التعبير بالإنشاء غير الطلبى عن طريق التعجب، وله صيغتان

١- البقرة / ٢٧١.

٢- النحل / ٣٠.

٣- الحجرات / ١١.

قياسيتان هما: «مَا أَفَعَلَهُ» و «أَفْعِلْ بِهِ» قال تعالى: (قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)<sup>(١)</sup>، وقال الشاعر:

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الرُّبى      وما أحسن المصطافَ والمُتربعا  
وقال الشاعر:

أولئك قبوسى بارك الله فيهم      على كل حالٍ ما أعفَ وأكرما  
وقال تعالى: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا)<sup>(٢)</sup>.

ج- ويتصل القسم بالإنشاء غير العلى، فهو طريقة من طرقه، ويكون القسم بمجموعة من الحروف التى تم تداولها فى النصوص المختلفة، وتلك الحروف هى: الباء، والتاء، والواو. قال تعالى (وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ)<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى:

(تالله لقد آثرك الله علينا)<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: (والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى)<sup>(٥)</sup>، وقال تعالى: (والضحى والليل إذا سجى)<sup>(٦)</sup>.

ومن صيغ القسم التى تكثر فى الأساليب العربية «لَعَمْرُ» مضافة إلى الاسم الظاهر أو الضمير. قال تعالى: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفى سَكْرَتِهِمْ بِعَمْهُونِ)<sup>(٧)</sup>، وقال ابن أوس:

لعمرك ما أدرى وإنى لأَوْجَلُ      على أَيْنَا تعدو المنيةُ أوْلُ  
وقال أيضاً:

لعمرك ما أهويتُ كفى لريبةٍ      ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلى

١- عبس / ١٧.

٢- مريم / ٣٨.

٣- الأنبياء / ٥٧.

٤- يوسف / ٩١.

٥- الليل / ١-٤.

٦- الضحى / ١ و ٢.

٧- الحجر / ٧٢.

وقال ابن الرومي:

لعمرك ما البدنيا بدارٍ إقامَةٍ      إذا زال عن نفسٍ البصير غطاؤها  
وكيف بقاء العيش فيها وإنما      يُنالُ بأسبابٍ الغنائِ بقاؤها  
ولعله من المفيد الإشارة إلى أن «لعمرك» مكونة من ثلاث كلمات: لام الابتداء، والمبتدأ «عمر»، والمضاف إليه الكاف، وخبرها محذوف، والتقدير: لعمرك قسمي.

د- وما يدل على الإنشاء غير الطلبي الرجاء، وهو طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع، وهناك حرف واحد يدل على الرجاء هو «لعل». قال تعالى: (فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كتابٌ أو جاء معه ملكٌ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل)<sup>(١)</sup>. وقال ذو الرمة:

لعلَّ انحذارَ الدمعِ يعقِبُ راحةً      من الوجِدِ أو يشفى نجى البلبلي  
وهناك ثلاثة أفعال تدل على الرجاء هي: عسى، وحرى، واخْلُقْ. قال تعالى: (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ)<sup>(٢)</sup>، وقال الشاعر:

عسى فرجٌ يأتى به الله إنه      له كلُّ يومٍ فى خليقته أمرٌ

وقال الشاعر:

عسى الكربُ الذى أُمسيت فيه      يكون وراءه فرجٌ قريبٌ

وقال الأعشى:

إنَّ يَقلَّ هنَّ من بنى عبدٍ شمسي      فحرى أن يكون ذاك وكانا  
ه- تدرج صيغ العقود تحت ما يدل على الإنشاء غير الطلبي، وذلك نحو قولك: «بعت» و«اشتريت» و«وهبت».

وننتقل إلى الحديث عن الإنشاء الطلبي بالتفصيل؛ لأن علماء البلاغة قد

١- هود / ١٢.

٢- المائدة / ٥٢.



أولوه عنايتهم، لدوره المهم في التفنن في القول والأداء اللغوي كما أشرنا من قبل.  
 الإنشاء الطلبي: وقد عرفناه من قبل بأنه ما يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت  
 الطلب، وقلنا إنه خمسة أنواع: التمني، الاستفهام، الأمر، النهي، النداء، ونحاول  
 دراسة تلك الأنواع بالتفصيل:

١- التمني: تمنى الشيء: أراده، والتمني: تشهى حصول الأمر المرغوب فيه،  
 أو هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة. وقد فرق علماء البلاغة بين نوعين  
 من التمني:

- طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه مستحيلاً. قال تعالى:  
 (يَا لَيْتَى كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَنْتَزِعُوا فَوْزاً عَظِيماً)<sup>(١)</sup>، وقال الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا      فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ  
 وقال الشاعر:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا      عَقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي  
 وقال المتنبي:

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بِاعْتَى الَّذِي أَخَذْتُ      مَنَى بِحُلْمِي الَّذِي أَعْطْتُ وَتَجَرَّبِي  
 فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حُلْمٍ بِمَا نَعِيَ      قَدْ يَوْجِدُ الْحُلْمُ فِي الشَّبَابِ وَالشَّيْبِ

- طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه ممكناً غير مطموح في  
 نيله. قال تعالى: (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ  
 بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ)<sup>(٣)</sup>. وقال مروان بن أبي حفصة في رثاء معن بن زائدة:

فَلَيْتَ الشَّامَتِينَ بِهِ قَدْرَهُ      وَلَيْتَ الْعَمَرَ مَذْلَهُ فَطَالَا  
 ولعلنا نلاحظ خلال الشواهد والأمثلة السابقة احتواءها على الحرف «لَيْتَ»،

١- النساء / ٧٣.

٢- القصص / ٧٩.

٣- الزخرف / ٣٨.

ويعود السبب في ذلك إلى أنَّ المتكلم حين يريد صياغة تركيب يدل على التمني لابد أن يحتوى على هذا الحرف؛ لأنه في أصل وضعه اللغوى دال على ذلك.

وهناك بعض الألفاظ التي يمكن استعمالها للدلالة على التمني، على الرغم من أنها ليست موضوعاً في اللغة العربية لذلك، ولكن السياق الذى تقع فيه هو الذى يدل على معنى التمني، وتلك الألفاظ ثلاثة: هل، لو، لعل.

ونستعمل «هل» للتمنى على أساس أنها للاستفهام، والمستفهم عنه غير حاصل وغير مطموع فى حصوله؛ لذلك تأخذ «هل» حكم «ليت» من حيث نصب المضارع الواقع بعدها بـ «أن» مضمرة بعد الفاء فى جواب التمني، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا)<sup>(١)</sup>؛ أى ليت لنا شفعاء. ولا يصح حمل المعنى على الاستفهام الحقيقي؛ إذ يقتضى ذلك عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتاً أو نفيّاً، وهم كانوا يعلمون أن لاشفع لهم، فحمل الكلام عليه يؤدى إلى التناقض، وإنما حمل على التمني دون غيره من أنواع الطلب؛ لأن المتحسر على نفي الشيء الذى لايطمع فى حصوله يستلزم أن يكون متمنياً له، وإلا لم يتحزن عليه؛ لهذا كان الكلام تمنياً فى المعنى. وقد كان التعبير بـ «هل» أبلغ من التعبير بـ «ليت» فى الآية الكريمة لإبراز التمني فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه إظهاراً لشدة الرغبة فيه، وهذا المعنى حاصل مع الاستفهام؛ لأن المستفهم عنه ينبغى أن يكون ممكناً، غير مجزوم بانتفائه. ومن استعمال «هل» فى معنى التمني قول الشاعر:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربها      أو من سبيلٍ إلى نصرٍ بن حجاج<sup>(٢)</sup>

وقول الشاعر:

أيا منزلي سلمى سلامٌ عليكما      هل الأزمنُ اللامى مضين راجعٌ

ويرتبط استعمال «لو» للتمنى بالدلالة الموضوعية لها فى اللغة العربية؛ إذ إن

١- الأعراف / ٥٣.

٢- انظر: المنهاج الواضح فى البلاغة ٦٢ وما بعدها.

المتكلم يريد إظهار ما يمتناه في صورة «الممنوع» لعزته وقدرته، ولما كانت «لو» حرف امتناع فهي تناسب المقام الخاص بالرغبة في إظهار التمني في صورة الممنوع، ومن أمثلة ذلك قول تعالى: (لو أن لنا كرة فكنون من المؤمنين)<sup>(١)</sup>، وقال جرير:

ولى الشباب حُميدة أيامه لو كان ذلك يشتري أوبرجع  
وقال مسلم بن الوليد:

واهاً لأيام الصبا وزمانه لو كان أسعف بالمقام قليلاً

نأني، بعد ذلك، إلى استعمال «لعل» للتمنى على الرغم من أنها في أصل وضعها اللغوي تفيد الترجي، ويعود السبب في ذلك الاستعمال الإشعار بأن التمني قريب الحصول، وإظهاره في صورة الممكن المتوقع حصوله لشدة الرغبة فيه، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى)<sup>(٢)</sup>؛ فإن فرعون - عليه اللعنة - يدرك أن ما يأمله بعيد الحصول، ولكن ما هو فيه من عتو وسفه، ورغبته العارمة في الوصول إلى ما يريده، خيلاً إليه أنه قريب الحصول وليس بعيداً؛ لذلك أمر هامان ببناء الصرح. وقال العباس بن الأحنف:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير

\* \* \*

٢- الاستفهام: وهو أحد أنواع الإنشاء الطلبى، وتدرج دلالاته الاصطلاحية حول طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، أو أن استفهام المتكلم عن شيء لم يتقدم له به علم حتى يحصل له به علم. والكلمات التي يتوصل بها للاستفهام في العربية نوعان:

١- الأعراف / ٥٣.

٢- غافر / ٣٦ و ٣٧.

- حرفان: وهما الهمزة و«هل».

- أسماء: ما، مَنْ، أَيْ، كَمْ، كَيْفَ، أَيْنَ، أَنَّى، مَتَى، أَيْان.

ونحاول التعرف على تلك الكلمات، خلال بعض الأمثلة التوضيحية.

تأتى الهمزة لطلب التصديق، وهو إدراك النسبة؛ أى تعيينها نحو: أجاى خالد؟ ويكون الجواب عنها بـ«نعم» أو «لا». وتأتى أيضاً للتصور، وهو إدراك المفرد؛ أى تعيينه نحو: أقام خالد أم قعد؟ ويكون الجواب عنها بتحديد المفرد؛ أى قام أو قعد.

والمشغول عنه بالهمزة هو الذى بعدها؛ فتقول: أكتبَ المحاضرة؟ إذا كان الشك فى الفعل نفسه وأردت الاستفهام أن تعلم وجوده. وتقول: أنت كتبتَ المحاضرة؟ إذا كان الشك فى الفاعل: مَنْ هو. وتقول: المحاضرة كتبت؟ إذا كان الشك فى المفعول: من هو.

وتأتى «هل» لطلب التصديق فحسب نحو: هل جاء محمد؟ والجواب عنها يكون بـ«نعم» أو «لا».

تأتى، بعد هذا التوضيح لاستعمال الهمزة و«هل»، إلى تقديم أمثلة لأسماء الاستفهام لبيان معانيها.

١- مَنْ: للاستفهام عن الجنس، أو تعيين أحد العقلاء، نحو: مَنْ هذا؟ وَمَنْ هزم الصليبيين فى حطين؟

ولكن كيف درس البلاغيون استخدام «من» فى الجملة العربية؟ يقول السكاكى: «وأما (من) فللسؤال عن الجنس من ذوى العلم، تقول: مَنْ جبريل؟ بمعنى: أبشروهم أم ملاك أم جنى؟ وكذا: مَنْ إبليس؟ وَمَنْ فلان؟ ومنه قوله تعالى: (فمن ربكما ياموسى)»<sup>(١)</sup> أراد: من ما لككما ومدير أمركما؟ أم لك جنى أم بشر؟ منكر لأن يكون لهما رب سواه لادعائه الربوبية لنفسه، ذاهباً فى سؤاله هذا إلى معنى: ألكما رب سواى؟ فأجاب موسى بقوله (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى)<sup>(٢)</sup>. كأنه قال: نعم لنا رب سواك، وهو الصانع الذى إذا سلك

١- طه / ٤٩.

٢- طه / ٥٠.

الطريقَ الذى يَبَيِّنُ بإيجاده لما أوجد، وتقديره إياه على ماقدّر، واتبعت فيه الخريت<sup>(١)</sup> الماهر، وهو العقل الهادى عن الضلال؛ لزمك الاعترافُ بكونه رباً، وأن لارب سواه، وأن العبادة له منى ومنك ومن الخلق أجمع حق لمدفع له<sup>(٢)</sup>.

٢- ما: قال الخطيب الفزوينى: «أما (ما) فقليل يُطلب به إما شرح الاسم كقولنا: مالعنقاء؟ وإما ماهية المسمى كقولنا: ما الحركة؟»<sup>(٣)</sup>.

وقال السكاكى: «أما (ما) فللسؤال عن الجنس، تقول: ما عندك؟ بمعنى: أى أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه: إنسان، أو فرس، أو كتاب، أو طعام؛ وكذلك تقول: ما الكلمة؟ وما الاسم؟ وما الفعل؟ وما الحرف؟ وما الكلام؟ وفى التنزيل: (فما خطيبكم)<sup>(٤)</sup> بمعنى: أى أجناس الخطوب خطبكم. وفيه: (ماتعبدون من بعدى)<sup>(٥)</sup> أى: أى من فى الوجود تؤثرونه فى العبادة؟ أو عن الوصف، تقول: ما زيد وما عمرو؟ وجوابه: الكريم، أو الفاضل، وما شاكل ذلك»<sup>(٦)</sup>.

٣- أى: وتأتى للسؤال عما يميز أحد المتشاركين فى أمرٍ يعمهما، نحو: أى البلدين أجمل القاهرة أم الإسكندرية؟ وقال تعالى: (أى الفريقين خير مقاماً)<sup>(٧)</sup> أى: أنحن أم أصحاب محمد؟ وقال تعالى: (أأيكم يأتينى بعرضها)<sup>(٨)</sup> أى: الإنسى أم الجنى؟

و(أى) بحسب ما تضاف إليه، فيُسأل بها عن الزمان نحو: فى أى يوم تسافر؟ والمكان نحو: فى أى بلدٍ تقيم؟ والحال نحو: أى الطالبين أفضل على أم خالد؟ ويُسأل بـ (أى) عن العاقل وغير العاقل، كما هو واضح من الأمثلة السابقة.

١- الخريت: الدليل الحاذق بالدلالة.

٢- مفتاح العلوم: ٣١١ وما بعدها.

٣- الإيضاح: ٢٣٠.

٤- الحجر / ٥٧، الفاريات: ٣١.

٥- البقرة / ١٣٣.

٦- مفتاح العلوم: ٣١٠.

٧- مريم / ٧٣.

٨- النمل / ٣٨.

٤- كم: وهى للسؤال عن العدد نحو: كم كتاباً عندك؟ وقال تعالى: (قال قائل منهم كم لبثتم)<sup>(١)</sup> أى: كم يوماً أو كم ساعة؟ وقال تعالى: (قال كم لبثتم فى الأرض عددَ سنين)<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: (سلْ بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة)<sup>(٣)</sup>، ومنه قول الفرزدق:

كم عمّةً لك يا جريرُ وخالَةٌ  
فَدَعَاءٌ قد حلبتُ على عشارى<sup>(٤)</sup>  
فيمَن روى «عمّة» بالنصب.

٥- كيف: وهى للسؤال عن الحال، ولا بد من تعيينه؛ لذلك إذا قيل: كيف خالد؟ فجوابه: صحيح أو سقيم أو جذلان أو غير ذلك من الأحوال التى يمكن أن تعترى الإنسان.

٦- أين: وهى للسؤال عن المكان، نحو: أين المحاضرة؟ وأين تسافر؟ وأين كنت؟

٧- أنى: وتستعمل تارة بمعنى «كيف» كقوله تعالى: (فأتوا حرثكم أنى شقتم)<sup>(٥)</sup> أى: كيف شقتم، وتارة بمعنى «من أين» كقوله تعالى: (أتى لك هذا)<sup>(٦)</sup> أى: من أين، وتارة بمعنى «متى» نحو: أنى يفيض نهر النيل؟ وأنى تسافر؟ ويمكن التعرف على تلك الاستعمالات فى ضوء السياق الذى ترد فيه.

٨- متى: وهى للسؤال عن الزمان سواء أكان ماضياً أم مستقبلاً؛ فتقول: متى عدت من السفر؟ ومتى تسافر؟

٩- أيّان: ويطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة، وأكثر ماتكون فى مواضع

١- الكهف / ١٩.

٢- المؤمنون / ١١٢.

٣- البقرة / ٢١١.

٤- فدعاء: مؤنث أفدع، والفدعاء المعوجة اليدين من العمل.

٥- البقرة / ٢٢٣.

٦- آل عمران / ٣٧.

التفخيم؛ أى تلك المواضع التى يُقصد فيها تعظيمُ المسئول عنه والتهويلُ بشأنه، كقوله تعالى: (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) <sup>(١)</sup>، و(يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ) <sup>(٢)</sup>.

بقى أن نشير إلى أن ألفاظ الاستفهام تخرج عن أصل وضعها، فيستفهم بها عن الشيء مع العلم به لأغراض تستفاد من سياق الحديث ودلالة الكلام؛ لذلك يقول القزويني: «ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل فى معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام»، ومن هنا فإن علماء البلاغة يرون أن ما تقدم من معانى تلك الألفاظ إنما هى معانٍ نحوية، لاشأن لها بالبلاغة، وإنما ذكرت تمهيداً لما قد تستعمل فيه من المعانى المجازية التى يمكن التوصل إليها من القرائن، وتلك المعانى على النحو الآتى:

١- الاستبطاء: كما فى قولك مخاطب دعوته فأبطأ فى الإجابة: كم دعوته؟ فليس المراد الاستفهام عن عدد الدعوة؛ إذ لا يتعلق به غرض، وإنما الغرض استبطاء الإجابة، وأن تكرر الدعوة قد باعد بين زمن الإجابة وزمن السؤال. وقال تعالى (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) <sup>(٣)</sup>؛ فالاستفهام عن زمان النصر مسبب عن الجهل بذلك الزمان، والجهل به مسبب عن استبعاده عادة، واستبعاده مسبب عن استبطائه. وقال المتنبي:

حَتَّامٌ نَحْنُ نَسَارَى النَجْمِ فِي الظُّلَمِ      وَمَسَارُهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمٍ <sup>(٤)</sup>

وقال البهاء زهير:

أُمُولَايَ إِنِّي فِي هَوَاكَ مَعْدَبٌ      وَحَتَّامٌ أَبْقَى فِي الْعَذَابِ وَأَمَكْتُ

٢- التعجب: كما فى قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: (مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ) <sup>(٥)</sup>، والغرض من الاستفهام التعجب؛ لأن الهدهد ما كان يغيب عن

١- القيامة / ٦.

٢- الذاريات / ١٢.

٣- البقرة / ٢١٤.

٤- نَسَارَى: من السرى، وهو مَثَى الليل. يقول: حتى متى نسرى مع النجم فى الليل، وهو لا يرى على خف كالإبل ولا على قدم كالناس، فلا يتعب مثلاً ومثل مطاياتنا.

٥- النمل / ٢٠.

سليمان إلا بعلمه، فلما لم يبصره تعجب من حال نفسه وكيف أنه لم يره.  
 والمتعجب منه في الحقيقة هو غيبة الهدهد من غير إذن، وقد خرج الاستفهام إلى  
 التعجب؛ لأن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بهذا السبب. وقال  
 تعالى: (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق)<sup>(١)</sup>. وقال المتنبي وقد  
 أصابته الحمى:

أبنت الدهر عندي كل بنت  
 فكيف وصلت أنت من الزحام<sup>(٢)</sup>  
 وقال أبو تمام:

ما للخطوب طغت على كأنها  
 جهلت بأن نذاك بالمرصاد  
 فهو يتمتع من تراكم الشدائد عليه في حين أن ممدوحه لها بالمرصاد، يدفعها  
 عنه بغطاياه ونداء وكرمه، ولذلك قال «كأنها جهلت بأن نذاك بالمرصاد».

وقال المتنبي في سيف الدولة وقد أصابته علة:

وكيف تملك الدنيا بشيء  
 وأنت لعة الدنيا طيب  
 وكيف تنوبك الشكوى بداء  
 وأنت المستغاث لما ينوب

٣- النفي: ويتحقق ذلك عندما تأتي الكلمة الدالة على الاستفهام للنفي،  
 لالطلب العلم بشيء كان مجهولاً، ومن ذلك قول البحتري:

هل الدهر إلا غمرة واجلاؤها  
 وشيكاً وإلا ضيقة وانفراجها<sup>(٣)</sup>

فهو لا يسأل عن شيء مجهول بالنسبة إليه، وإنما يريد أن يقول: ما الدهر إلا  
 شدة سرعان ماتنجلي، وما هو إلا ضيق يعقبه فرج؛ لذلك لم تأت «هل» للاستفهام  
 عما هو مجهول، وإنما أتت بالنفي. وقال أبو فراس يرثي أمه:

١- الفرقان / ٧.

٢- بنت الدهر: يقصد الحمى التي أصابته، وبنت الدهر: شدائده ومصائبه. يقول الحمى: عندي كل  
 نوع من أنواع الشدائد، فكيف لم يمتك ازدحامها من الوصول إلى

٣- الغمرة: الشدة، واجلاؤها: انكشافها، ووشيكاً: سريعاً.



إلى مَنْ أشتكى ولمن أناجى      إذا ضاقت بها فيها الصدورُ  
بأى دُعَاءٍ داعيةٍ أوقى      بأى ضياءٍ وجهه أستيرُ  
بمن يستدفع القدر الموفى      بمن يستفتح الأمر العسيرُ

٤- التمنى: ومن ذلك قوله تعالى: (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) <sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: (لو أن لنا كرةً فتكون من المؤمنين) <sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: (ياهايمان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) <sup>(٣)</sup>، والتمنى به (هل) و (لو) و (لعل) على الترتيب. وقال أبو العتاهية يمدح الأمين:

تذكر أمين الله حقى وحرمتى      وما كنت تولينى لعلك تذكرُ  
فمن لى بالعين التى كنت مرةً      إلى بها فى سالف الدهر تنظرُ

وقال الشاعر:

هل بالطلولٍ لسائلٍ ردُّ      أم هل لها بتكلمٍ عهدُ

وقد سبق العرض لبعض تلك الشواهد حين الحديث عن التمنى ببعض الألفاظ غير الموضوعة له.

٥- التقرير: والمراد به هاهنا حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه، وإلجائه إليه، إثباتاً أو نفيّاً لغرض من الأغراض، ويشترط أن يكون المقرر به واقعاً بعد همزة الاستفهام؛ وذلك كقولك: «ألم تفعل ذلك؟» إذا كنت تعلم أنه فعل، وتريد أن تحمله على الإقرار به. وقال تعالى: (ألم نشرح لك صدرك) <sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: (ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى) <sup>(٥)</sup>. وقال البحترى:

١- الأعراف / ٥٣.

٢- الأعراف / ٥٣.

٣- غافر / ٣٦، ٣٧.

٤- الشرح / ١.

٥- الضحى / ٦ - ٨.

أَلَسْتَ أَعْمَهُمُ جوداً وَأَزْكَا هُمُ عوداً وَأَمْضَاهُمْ حَسَاماً<sup>(١)</sup>  
 فهو يريد حمل ممدوحه على الإقرار بما ادعاه له من الفوق على بقية الخلفاء  
 في الجود وبسطه الجسم والشجاعة، ولا يقصد البحتري أن يسأله؛ لذلك الاستفهام  
 تقريرى. وقال ابن الرومى:

أَلَسْتُ المرءَ يجبى كلُّ حميدٍ إذا مالم يكن للحمد جابٍ<sup>(٢)</sup>  
 فهو يريد حمل ممدوحه على الإقرار بما ادعاه من اجتماع المحامد له.

٦- التنبيه على الضلال: كقوله تعالى: (فأين تذهبون)<sup>(٣)</sup>؛ فليس القصد  
 الاستفهام عن مذهبهم؛ بل المراد التنبيه على ضلالهم، وأنه لا مذهب لهم ينجون  
 منه.

٧- الإنكار: كقولك: أنت شرب الخمر؟ وأتوذى أباك؟ لمن تعلم أنه يشرب  
 الخمر، أو يؤذى أباه؛ فالكلام إذا ليس محمولاً على الاستفهام الحقيقى؛ إذ إن  
 المستفهم عالم بما يستفهم عنه، وإنما هو محمول على إنكار الشرب، أو إنكار  
 الأذى. وقال المتنبي فى المديح:

أُتْلِمْسُ الأعداءُ بعد الذى رأتُ قيامَ دليلٍ أو وضوحَ بيانٍ  
 فهو ينكر على الأعداء الارتياح فى علا كافور والتماسهم البراهين والأدلة  
 على ما كتبه الله من النصر واختصه به من الجدة السعيدة، بعد رؤيتهم تردى فى  
 المهالك كل من أراد به شرّاً، وكيف يصيب الزمان كل من نوى له سوءاً؛ لذلك  
 كان الاستفهام على سبيل الإنكار. وقال البحتري:

أَكْفَرُكَ التَّعْمَاءُ عدى وقد نمتُ على نموِّ الفجرِ والفجرِ ساطعٍ  
 وأنت الذى أعزّزْتَنى بعدِ ذلتى فلا القولُ مخفوض ولا الطرفُ حاشعٍ

١- أزكاهم عوداً: أقواهم جسماً.

٢- يجبى: يجمع

٣- التكويم / ٢٦٦.

فهو يقول لممدوحه إنه لا يليق بى الكفر بنعمائك وقد غمرتني بها غمراً،  
وبدلتنى بالذل عِزّاً، وبالخضوع والخشوع عظمة وعلواً؛ ولذلك الاستفهام إنكارى  
وقد ورد الاستفهام الإنكارى كثيراً فى آى الذكر الحكيم. قال تعالى:  
(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا) <sup>(١)</sup>؛ أى: أَحَصَّكُمْ رَبُّكُمْ بِالذِّكْرِ  
وَحَصَّ نَفْسَهُ بِالْبَنَاتِ؟ أى إنه لم يفعل هذا لتعالیه عن الولد مطلقاً. وقال تعالى: (وَإِذْ  
قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً) <sup>(٢)</sup>؛ فالمنكر هو الفعل نفسه؛ أى اتخاذ  
الأصنام آلهة.

٨- التوسية: كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ  
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) <sup>(٣)</sup>، والهمزة الأولى فى (أُنذِرْتَهُمْ) تسمى همزة التوسية، وقال  
تعالى: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوُ عَظِّتْ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) <sup>(٤)</sup>. وقال المتنبي:

ولست أبالى بعد إدراكى العلا  
أكان تراثاً ما تناولت أم كسباً

٩- التحقير: كقولك لمن تعرفه: مَنْ هذا؟ فالاستفهام ليس محمولاً على  
حقيقته؛ لأنه يستعذى الجهل بالمسئول عنه، وأنت لا تجهله، فهو إذاً محمولاً على  
التحقيق بقرينة الحال. وقال الشاعر:

فدع الوعيدَ فما وعيدُك ضائرى  
أطنين أجنحة الذبابِ بضيرُ

وقال الشاعر:

أتظنُّ أنك للمعالى كاسبٌ  
وجنى أُميرِكِ شِرَّةً وشنارُ <sup>(٥)</sup>

١٠- التهويل: وذلك كقراءة ابن عباس لـ (من) الثانية على أنها اسم

١- الإسراء / ٤٠.

٢- الإنعام / ٧٤.

٣- البقرة / ٦.

٤- الشعراء / ١٣٦.

٥- الشرة: الشر والحرص والحدة، والشنار: أقبح العيب.

استفهام فى قوله تعالى: (ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهيّن من فرعون)<sup>(١)</sup>؛ لأنه لما وصل الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدة وفظاعة شأنه، أراد أن يصور كنهه فقال: (من فرعون)؛ أى أتعرفون من هو فى قرط عتوه وتجبره؟ ماظنكم بعذاب يكون هو المذنب به؟ ثم عرف حاله بقوله: (إنه كان عالياً من المسرفين).

١١- الاستبعاد: قال تعالى: (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون)<sup>(٢)</sup>. فلايجوز حمل (أنى لهم الذكرى) على حقيقة الاستفهام لاستحالة من العلى القدير العالم بخفايا الأمور وظواهرها؛ فالمراد إذا استبعاد تذكرهم بدليل قوله بعد: (وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه) فكأنه قيل: من أين لهم التذكر والرجوع إلى الحق، وقد جاءهم رسول يعلمون أمانته فأعرضوا عنه. وقال أبو تمام:

مَنْ لى بإنسانٍ إذا أغضبتَه وجَهِلتَ كانَ الحِلْمُ ردَّ جوابِه

\* \* \*

٣- الأمر: وهو تقييد النهي، يقال: أمره يأمره أمراً وإماراً قائماً؛ أى قبل أمره. والأمر فى مصطلح أهل البلاغة هو صيغة تستدعى الفعل، أو قول ببنىء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء<sup>(٣)</sup>. والمقصود بالاستعلاء أن الأمر ينظر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يصدر إليه الأمر، سواء أكان هذا الأمر عالياً فى الواقع أم لا.

وللأمر أربع صيغ يمكن التوصل بواسطتها إلى طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وتلك الصيغ هى:

١- فعل الأمر: كقوله تعالى: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول)<sup>(٤)</sup> وقوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها)<sup>(٥)</sup> وقوله تعالى: (واصنع الفلك بأعيننا)<sup>(٦)</sup> وقال الحطّبة:

١- الدخان/٣٠ و٣١.

٢- الدخان/١٣ و١٤.

٣- الطراز/٣/٢٨١.

٤- النور/٥٦.

٥- التوبة / ١٠٣.

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغِيَّتِهَا      واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي  
وقال الشاعر:

ذَرِنِي فَإِنَّ الْبُخْلَ لَا يَخْلُدُ الْفَتَى      وَلَا يَهْلِكُ الْمَعْرُوفُ مَنْ هُوَ فَاعِلُهُ

٢- المضارع المقترن بـلام الأمر كقوله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)<sup>(١)</sup>؛ وقوله تعالى: (لَيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)<sup>(٢)</sup>. وقال أبو تمام:

كَذَا فَلْيَجْلُ الْخُطْبَ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ      فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ

٣- اسم فعل الأمر كقوله تعالى: (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَبْضُرْكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)<sup>(٣)</sup>. وقال الأخطل:

فَعَلَيْكَ بِالْحِجَاجِ لَا تَعْدِلْ بِهِ      أَحَدًا إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْكَ أُمُورُ

وقال الشاعر في صفة السيوف:

تَذُرُ الْجَمَاجِمَ ضَاحِيًا هَامَاتُهَا      بَلْهُ الْأُكُفَ كَأَنَّهَا لَمْ تُخَلِّقْ

وقال الشاعر:

رَوَيْدُ الَّذِي مُحَضَّتُهُ الْوَدَّ صَافِيَا      إِذَا مَا هَفَا حَتَّى يَظَلَّ أَحَدًا لَكََا

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى: (وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا)<sup>(٤)</sup>؛ أَى وَأَحْسِنُوا إِلَى الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا؛ وقوله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ)<sup>(٥)</sup>؛ أَى اضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْبًا. وقال قطري بن الفجاءة:

فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا      فَمَا نِيلَ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ

وهناك بعض المعاني التي يخرج إليها الأمر عن معناه الأصلي بحسب مناسبة

١- البقرة / ٢٨٢.

٢- الطلاق/ ٧

٣- المائدة/ ١٠٥.

٤- البقرة/ ٨٣.

٥- محمد / ٤.

المقام، ومن ذلك ما يأتي:

١- الإباحة: كقولك في مقام الإذن: جالس الحسن أو ابن سيرين. وقال تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)<sup>(١)</sup>. وقال كثير عزة:

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة      لدينا، ولاملقية إن نقلت<sup>(٢)</sup>  
أى: لا أنت ملومة واملقية، ووجه حسن هذا البيت إظهار الرضا بوقوع  
الداخل تحت لفظ الأمر كأنه مطلوب؛ أى مهما اخترت فى حقى من الإساءة  
والإحسان؛ فأنا راضى به غاية الرضا، فعاملينى بهما، وانظرى: هل تتفاوت حالى  
معك فى الحالين؟

٢- التهديد: وذلك حين استعمال صيغة الأمر فى مقام عدم الرضا بالمأمور به  
كما فى قوله تعالى: (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير)<sup>(٣)</sup>؛ فالأمر موجه لمن  
يلحدون فى آيات الله تعالى. وقال الشاعر:

إذا لم تخشَ عاقبة الليالى      ولم تستحى فاصنع ماتشأء

٣- التعجيز: كقولك لمن يدعى أمراً تعتقد أنه ليس فى وسعه: «افعله» وقال  
تعالى: (فأتوا بسورة من مثله)<sup>(٤)</sup>. وقال الطغرائى:

حب السلامة يشنى هم صاحبه      عن المعالى ويغري المرء بالكسل  
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً      فى الأرض أو سلماً فى الجو فاعتزل

وقال الشاعر:

أرونى بخيلاً طال عمراً يبخله      وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

١- البقرة / ١٨٧.

٢- مقلية: بغضه مكروهة، نقلت: تكرهت وبغضت.

٣- فصلت/ ٤٠.

٤- البقرة/ ٢٣.

٤- التسخير: أى جعل الشيء مسخراً منقاداً؛ وذلك إذا استعملت الصيغة حيث يكون المأمور منقاداً لأمر لاحيلة له فيه كما فى قوله تعالى: (كونوا قردة خاسئين)<sup>(١)</sup>، والعلاقة بين الأمر والتسخير السببية؛ لأن إيجاب شيء لاقدرة للمخاطب عليه يتسبب عنه تسخيره بذلك.

٥- الإهانة: وهى إظهار مافيه تصغير المهان وقلة المبالاة به، وذلك إذا استعملت الصيغة فى مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور كما فى قوله تعالى: (كونوا حجارة أو حديداً)<sup>(٢)</sup>. والعلاقة بين الأمر والإهانة اللزوم؛ لأن طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه، مع كونه من الأمور الخسيسة يستلزم إهانته. وقال تعالى: (دقّ إنك أنت العزيز الكريم)<sup>(٣)</sup>. وقال الجبرير فى هجاء الفرزدق:

خذوا كحلاً ومجمةً وعطراً      فلستم يافرزدق بالرجالِ  
وشموا ريح عبيتكم فلستم      بأصحاب العناق ولا النزالِ<sup>(٤)</sup>

٦- التسوية: وذلك إذا استعملت صيغة الأمر فى مقام توهّم المخاطب فيه رجحان أحد الأمرين على الآخر، كقوله تعالى: (اصبروا أو لانصبروا)<sup>(٥)</sup>؛ فقد يتوهم المخاطب أن الصبر نافع، فيدفع ذلك بالتسوية بين الصبر والجزع. وقال تعالى: (أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبلَ منكم)<sup>(٦)</sup> فقد توهّم أن الإنفاق طوعاً مقبول، دون الإنفاق كرهاً، فسوّى بينهما فى عدم القبول.

٧- التّعنى: وذلك إذا استعملت صيغة الأمر فى مقام طلب ما هو محبوب، وفى الوقت نفسه لاقدرة للطالب عليه، ولاطماعية له فى حصوله لتعذره، كقول

---

١- الأعراف/ ١٦٦.

٢- الإسراء/ ٥٠.

٣- الدخان/ ٤٩.

٤- العنبيّة: وعاء من آدم يكون فيه المتاع.

٥- الطور/ ١٦.

٦- التوبة/ ٥٣.

امرىء القيس:

ألا أيها الليل الطويلُ ألا انجلي      بصبح وما الإصباحُ منك بأمثل  
فليس الغرض طلب الإنجلاء من الليل؛ لأن الليل ليس مما يخاطب ويُمرّ،  
فحصول الانجلاء متعذر، وإنما غرض الشاعر تمنى ذلك تخلصاً من تبايح الهوى  
التي يعاني منها. وقال عنترة العبي:   
يادارَ عبلةً بالجواءِ تكلمى      وعمى صباحاً دارَ عبلةً واسلمى<sup>(١)</sup>  
وقال أبو العلاء:

فياموتُ زُرُّ إن الحياةَ ذميمة      ويانفسُ جدى إن دهركِ هازلُ  
٨- الالتماس: إذا استعملت صيغة طلب الفعل على سبيل التلطف،  
كقولك لمن يساويك في الرتبة: «افعلْ» بدون الاستعلاء.

٩- الدعاء: إذا استعملت صيغة الطلب على سبيل التضرع كقوله تعالى:  
(رب اغفرْ لى ولوالدى)<sup>(٢)</sup>.

١٠- النصيح والإرشاد: والطلب معهما لانتكليف فيه ولا إلزام، وإنما يحمل  
في طياته معنى النصيحة والموعظة والإرشاد. قال الشاعر:  
أحسن إلى الناسِ تستعبدَ قلوبهم      فطالما استعبد الإنسانَ إحصانُ  
وقال الشاعر:

شاوَر سواك إذا نابتك نائبةً      يوماً، وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ

\* \* \*

٤- النهي: وهو نقيض الأمر؛ يقال: نهاه نهياً فانتهى وتناهى: كَفَّ. والنهى  
عند علماء البلاغة عبارة عن قول ينبىء عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء  
والإلزام.

١ - عبلة: صاحبة الشاعر، والجواء: اسم وادٍ في ديار بني عيس، وعمى صباحاً: انعمى.



ويتفق الأمر والنهي في أن كل واحد منهما لابد فيه من اعتبار الاستعلاء،  
وأتهما جميعاً يتعلقان بالغير؛ فلا يمكن أن يكون الإنسان أمراً لنفسه أو ناهياً لها،  
وأتهما جميعاً لابد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما، إلى غير ذلك من  
الوجوه الاتفاقية. ويختلفان في الصيغة؛ لأن كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف  
الآخر، ويختلفان في أن الأمر دال على الطلب والنهي دال على المنع، ويختلفان  
أيضاً في أن الأمر لابد فيه من إرادة مأموره، وأن النهي لابد فيه من كراهية منهية<sup>(١)</sup>.

والنهي له صيغة واحدة فقط هي المضارع المسبوق بـ لا، الناهية الجازمة  
كقوله تعالى: (ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً)<sup>(٢)</sup>؛ وقوله تعالى: (ولا تكتنوا  
الشهادة ومن يكتنمها فإنه آثم قلبه)<sup>(٣)</sup>. وقال الشاعر:

لاتخلني أرضى الهوانَ لنفسي      الرضا بالهوانة عجز صريحُ  
وقال الشاعر:

لاتقولوا حطناً الدهرُ فما      هو إلا من خيالِ الشعراءِ  
وقال الشاعر:

لاتخذْ حدَّ عصابةٍ مفتونةٍ      يجدون كلَّ قديمٍ شيءٍ منكراً  
وهناك بعض المعاني التي يخرج إليها النهي عن معناه الأصلي كالإساءة  
والإلتباس والتعني والنصح والارشاد وسواها ويمكن تقديم تلك المعاني كما يأتي:  
١- الدعاء: وذلك حين يكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى شأناً ومنزلة. قال  
تعالى: (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على  
الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به)<sup>(٤)</sup>. وقال النابغة للنعمان بن المنذر:

فلا تتركني بالوعيد كأنني      إلى الناس مطلي به القار أجربُ

١- الطراز: ٢٨٥/٣ وما بعدها.

٢- الحجرات/ ١٢.

٣- البقرة / ٢٨٣.

٤- البقرة / ٢٨٦.

٢- الالتئاس: وذلك عندما يصدر النهى من شخص إلى آخر يتساويان في المنزلة والمكانة نحو: «لا تبرح مكانك حتى أعود». وقال أبو فراس مخاطباً من يساويه:

فلا تصفن الحربَ عندي فإنها طعامي مذ بعث الصبا وشرابي

٣- الإرشاد: نحو: (لانسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوكم)<sup>(١)</sup>. وقال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفِ مروم فلاتقنعَ بما دون النجوم  
وقال الطغرائي:

لا تطمحنْ إلى المراتب قبل أن تنكامل الأدوات والأسباب  
وقال أبو العلاء:

ولا تجلسْ إلى أهل الدنيا فإن خلائق السفهاء تعدى

٤- التوبيخ: وذلك في الأمور التي لا يجب أن تصدر من الإنسان. قال تعالى:  
(لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم)<sup>(٢)</sup>. وقال المتنبي:

لا تخسب المجدَ نمرأ أنت أكله لن تبلغ المجدَ حتى تلعق الصبْرَ

٥- التحقير: وهذفه الإزراء بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته. قال الشاعر:

لا تطلب المجدَ إن سُلِمه صعب وعش مستريحاً ناعمَ البالِ  
وقال ابن الرومي:

فلاتخش من أسهمى قاصداً ولاتأمنن من المائـر  
ولكن وقاك معراتها . تضائلُ قدرك في الخاطر

وسواها من المعاني التي يفيد السياق في التوصل إليها.

\* \* \*

٥- النداء: وهو دعوة المخاطب ليقبل على الداعي بحرف ينوب مناب

الفعل «أدعوه» فإذا قلت: ياخالدُ، كان المعنى: أدعو خالداً، والأحرف المستعملة  
للنداء ثمانية: الهزمة أى، يا، أيأ، هيأ، آ، أى، وا. وتلك الأحرف من حيث  
الاستعمال قسمان:

أ- الهزمة، أى: لنداء القريب.

ب- الأحرف الستة الباقية لنداء البعيد.

وقد يُنزلُ البعيد منزلة القريب فينادى بالهزمة أو «أى» للدلالة على أنه لا يغيب  
عن القلب، ويحضر في الذهن، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

أَعْلَىٰ إِنَّكَ بِالعِرَاقِ نَسِيتَنِي      فَأَنَا بِمِصْرَ عَلَىٰ هَوَاكَ مَقِيمٌ  
وقول الشاعر:

أَيُّ بِلَادِي فِي الْقَلْبِ مِثْوَاكِ مَهْمَا      طَالُ مَنْفَايَ عَنْ ثِرَاكِ الْحَبِيبِ  
وقد يُنزلُ القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهزمة و«أى» للتوصل إلى بعض  
الأغراض الدلالية نحو:

١- الدلالة على أن المنادى رفيع القدر، عالي المرتبة، عظيم الشأن، كقول أبي  
بكر بن النطاح في مدح أبي دلف العجلي (ت ٢٦٢هـ) أحد القواد الشجعان في  
عهد المأمون والمعتصم:

أَبَا دَلْفٍ بُورِكْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      كَمَا بُورِكْتَ فِي شَهْرِهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ  
وقال الشاعر:

يَا رَجَاءَ الْعَيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ      لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنَّ أَرَاكَ رَجَائِي

٢- الدلالة على أن المنادى وضيع منقطع الدرجة، وذلك كقول الفرزدق  
يهجو جريراً:

أُولَئِكَ أَبَائِي فَجِئْتَنِي بِمِثْلِهِمْ      إِذَا جَمَعْتَنَا يَا جَرِيرُ الْمُجَامِعُ

وقول الشاعر:

أَيَا هَذَا أَنْطَمَعَ فِي الْمَعَالِي      وَمَا يَحْظَىٰ بِهَا إِلَّا الرِّجَالُ

٣- الدلالة على أن المنادى غافل شارد الذهن، وذلك كقول أبي العتاهية:

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا طَوِيلًا      وَأَفْنَى الْعَمْرِ فِي قَبْلِ وَقَالِ  
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سَيَفْنَى      وَجَمَعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالِ  
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوًا      أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

ونشير إلى أنَّ النداء يخرج عن معناه الأصلي إلى أغراض أخرى كالتحسر والإغراء والزجر فحين يقول ابن الرومي:

يَا شَبَابِي! وَأَبْنِ مَنْى شَبَابِي      أَذْنَتِي حَبَالَهُ بَانْقِضَابِ  
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَلَهْوِي      تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرُّطَابِ

يريد إظهار التحسر على شبابه الذي ولَّى ومضى. وقال الشاعر في التوجع والحسرة:

أَيَا قَبْرٍ مَعْنَى كَيْفَ وَارَيْتَ جَوْدَهُ      وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتَرَعَا

وحين يقول الشاعر:

يَا قَلْبُ وَيَحْكُ مَا سَمِعْتَ لِنَاصِحٍ      لَمَّا ارْتَمَيْتَ وَلَا اتَّقَيْتَ مَلَامًا

يريد الزجر. وحين نقول لمن أقبل ينظلم: «يا مظلوم تكلم» فهو إغراء... وهكذا.

## التقديم والتأخير

من الظواهر اللغوية التي تطبع التركيب النحوي للجملة العربية تقديم ما حقه التأخير أو العكس، لبعض الأغراض المعنوية، وقد أشار سيبويه في كتابه إلى بعض الشواهد المتصلة بتلك الظاهرة، وتبعه جيل من علماء النحو والبلاغة الذين توسعوا في دراسة التقديم والتأخير من حيث التطبيق في النصوص المختلفة، وأشاروا إلى أنه دليل على تمكن العرب ومقدرتهم على التصرف في فنون القول وامتلاكهم لناصية اللغة، لذلك يقول عنه الزركشي: «هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالةً على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»<sup>(١)</sup>.

وقد ربط سيبويه «التقديم والتأخير» في التركيب بعناية المتكلم واهتمامه، وطبق ذلك على جملة: ضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ زَيْدًا، التي يجوز فيها تقديم المفعول على الفاعل فنقول: ضرب زيدا عبد الله؛ لأنه معقد الفائدة وأساس الاهتمام، وعبر سيبويه عن هذا بقوله: «فإن قدمت المفعول وأخرتَ الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدا عبد الله، لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدماً، وهو عربى جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهمُّ لهم وهم يبيانه أعتى، وإن كانا جميعاً يهملانهم ويعنيانهم»<sup>(٢)</sup>.

واهتم عبد القاهر بالتقديم والتأخير في دلائله، وعقده باباً قائماً بذاته، وقدم لذلك الكثير من الشواهد، محاولاً التعرف على ما فيها من الجمال، وكان هذا غرضه الأساسى، لذلك استهل هذا الباب بقوله: «هو باب كثير الفوائد، جُمِّ الحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان». ثم

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٣٣/٣٠

(٢) الكتاب ٣٤/١٨

يشير عبد القاهر إلى بعض القوانين المتصلة بالتقديم والتأخير في بناء الجملة، لذلك يرى أن تقديم الشيء على وجهين .

الأول : تقديم يقال إنه على نية التأخير ، وذلك في كل شيء أقررتة مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولك: منطلق زيد، وضرب عمرًا زيد، معلوم أن «منطلق» و «عمرًا» لم يخرججا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ أو مرفوعًا بذلك، وكون ذلك مفعولًا ومنصوبًا من أجله، كما يكون إذا أخرت.

الثاني : وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خيراً له، فتقدم ثارة هذا على ذلك، وأخرى ذاك على هذا، ومثاله ما تصنعه يزيد والمنطلق، حيث تقول مرة : زيد المنطلق، وأخرى: المنطلق زيد، فأنت في هذا لم تقدم «المنطلق» على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خيراً إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر «زيداً» على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خيراً<sup>(١)</sup>.

وقد درس علماء البلاغة بعض أبواب النحو دراسة تطبيقية في ضوء التقديم والتأخير، ونحاول التعرف على ذلك، ونبدأ بالحديث عن :

أولاً : تقديم المسند إليه على المسند: الأصل في التركيب النحوي للجملة العربية أن يتقدم المبتدأ (المسند إليه) على الخبر (المسند)، وقد أشار علماء البلاغة إلى أن هذا التقديم الإجباري له بعض الأغراض، من بينها ما يأتي :

١ - أن أصل المبتدأ التقديم، إذ هو المحكوم عليه ولا مقتضى للعدل عنه، نحو : العدلُ أساسُ الملكِ، ورأسُ الحكمةِ مخافةُ الله .

٢- صلاحية اسم المسند إليه للتفاضل الذى يصحبه تعجيل المسرة؛ لذلك إذا استمع الإنسان، فى البداية لما يبعث على السرور شعر بالسعادة والفرح، نحو: سعيد ابن سعيد فى دار فلان، والهدى فى قلوب المخلصين، والنجاح فى الامتحان للمجتهد، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن ذلك يتصل بالجانب الاجتماعى فى استعمال اللغة، ولجوء الإنسان إلى انتقاء الألفاظ المتصلة بالمواقف المختلفة، وكيف يسعد المستمع حين نحسن الاستهلال، وهناك ما هو عكس ذلك، أى «تعميل المساءة» نحو: السجن على جهة التأيد حُكِمَ به عليك اليوم، ومن أمثلة ذلك قول أبى العلاء المعرى :

والذى حارت البرية فيه حيوانٌ مُستَحْدَثٌ من جمادٍ  
يريد أن يقول إن البرية؛ أى الخلاق، تحيرت فى المعاد الجسماني، وقد تقدم المسند إليه «الذى» وتبعه جملة صلة الموصول «حارت البرية فيه» التى ترتبط بالاسم الموصول نحوياً ودلالياً، وتؤدى إلى العجب وتُشعر بالغرابة، وهذا أمر يشوق النفس ويثير فضولها لمعرفة الخبر المتأخر الذى يأتى فيجعل المعنى متمكناً فى النفس.

وهناك الكثير من الآيات الكريمة التى جاءت على هذا النحو من تشويق المستمع إلى الخبر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup>.

٤- يؤدى تقديم المبتدأ (المسند إليه) إلى التخصيص، على أن يكون التركيب النحوى عناصره كما يأتى :

حرف النفى + المبتدأ + الخبر (جملة فعلية)

ومن أمثلته : ما أنت قلت هذا، الذى يفيد الدلالة على النفى لأن تكون القائل له، وهو مقول لغيرى، ومن هنا فدلالة التركيب نفى الفعل عنك وثبوته لغيرك، فلا نقول ذلك إلا فى شئ ثبت أنه مقول، وأنت تريد نفى كونك قائلاً له، ومن ذلك أيضاً قول المتنبي :

وما أنا أسقمتُ جسمى به ولا أنا أضرمْتُ فى القلبِ نارا

المعنى، كما لا يخفى ، على أن السُّم ثابت موجود، وليس القصد بالنفى إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له، ويكون قد جرّه إلى نفسه، ومثله قول المتنبي أيضاً :

وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعرَ كلُّه      ولكن لشعري فيكَ من نفسه شعرُ  
الشعر مقولٌ على القطع والنفي لأن يكون هو وحده القاتل له .

٥- إفادة التعميم والنص على شمول النفي (عموم السلب) وذلك حين تتقدم أداة العموم كـ «كل» و «جميع» ونحوهما على أداة النفي، وهي غير معمولة للفعل المنفي، فيتوجه النفي إذ ذاك إلى أصل الفعل، ويعم كل فرد من أفراد ما أضيف إليه «كل» نحو: كل ظالم لا يفلح، فالمعنى: لا يفلح أحد من ظلمه، وعليه قول أبي النجم :

قد أصبحتُ أمَّ الخِيَارِ تدعى      على ذنباً كلُّه لم أصنع  
برفع «كله» ، لأن هذا الرفع يقتضى نفياً أن يكون قد صنع منه شيئاً، وأنى منه قليلاً أو كثيراً، وأنتك إذا قلت: كلُّهم لا يأتيك، وكلُّ ذلك لا يكون، وكلُّ هذا لا يحسن، كنتَ نفيتَ أن يأتيه واحد منهم، وأبيتَ أن يكون أو يحسن شيء مما أشرتَ إليه .

ومما يشهد لك بذلك من الشعر قول إبراهيم بن كنيف النبهاني أو بكر بن النطاح على خلاف في النسبة :

فكيف ؟ وكلٌّ ليس يعدو حمامه      ولا لامرئٍ عما قضى الله مَرَحْلٌ<sup>(١)</sup>

المعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامه بلا شبهة، ولو قلت : فكيف وليس يعدو كل حمامه، فأخرتَ «كله» لأفسدت المعنى، وصرت كأنك تقول :

إن من الناس من يسلم من الحمام ويبقى خالداً لا يموت. ومثله قول دِعْبِل :

فو الله ما أدري بأى سهامها      رمتني، وكلٌّ عندنا ليس بالمكدي

أبالجيد، أم مجرى الوشاح، وإننى      لأنهم عينيها مع الفاحم الجعد

(١) مَرَحْلٌ : مصدر ميمي من «رَحَلَ» إذا تباعد، يعنى : ليس منه مهرب .



المعنى على نفى أن يكون فى سهامها مُكِّد (أى سهم يخيب ولا يصيب هدفه) على وجه من الوجوه<sup>(١)</sup>.

ونشير إلى أنك إذا أدخلت «كلا» فى حيز النفى، وذلك بأن تقدم النفى عليه لفظاً أو تقديرًا، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى الفعل والوصف نفسه كقول المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه      تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن  
فالمتنبي يقرر أن الإنسان لا يدرك كل أمانيه، وإنما يدرك بعضها ويفوته بعضها الآخر، ومن أمثلته أيضاً قول أبى فراس الحمدانى :

ما كل ما فوق البسيطة كافياً      فإذا قنعتَ فكلُّ شيء كافٍ  
وقول عمارة اليمنى :

ما كل قولى مشروحاً لكم فخذوا      ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

٦- يؤدى تقديم المبتدأ إلى تقوية الحكم وتقديره لدى السماع، وذلك كقولك: هو يعطى الجزيل، وهو يحبُّ الشاء، لا تريد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطى الجزيل غيره، ويحب الشاء غيره، ولأن تعرض بإنسان وتخطئه عنه، وتجعله لا يعطى كما يعطى، ولا يرغب كما يرغب، ولكنك تريد أن تحقق على السماع أن إعطاء الجزيل وحبُّ الشاء دأبه، وأن تمكن ذلك فى نفسه، ومثاله فى الشعر :

هُمْ يُفْرِشُونَ اللَّبَدَ كُلَّ طِمْرَةٍ      وأجردَ سَبَّاحٍ يُدُّ الْمُغَالِبَا<sup>(٢)</sup>  
لم يرد أن يدعى لهم هذه الصفة دعوى من يفردهم بها، وينص عليهم فيها، حتى كأنه لم يعرض بقوم آخرين، فينفى أن يكونوا أصحابها، هذا محال، وإنما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل، وأنهم يقتعدون الجياد منها، وأن

(١) انظر دلائل الإعجاز : ٢٨١ وما بعدها، وعلوم البلاغة للمراعى : ١٠٤ .

(٢) اللَّبَد : الصوف أو الشعر المتلبد، وقد جرت العادة بوضع قطعة منه على ظهر الفرس تحت السراج للينة، والطمرة: أنثى الطمير وهو الفرس الجواد أو المتجمع المتداخل الخلق كأنه متهىء للربط دائماً، والأجرد: الفرس القصير الشعر، والسباح: الذى يشبه عدوه السباحة، ويذ: يفلب

ذلك دأبهم، من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم، إلا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم، ويُعلم بديك قصده إليهم بما في نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك، ومن ذلك قول الآخر (الأخض بن شهاب التغلبي) :

هم يضربون الكباشَ يبرقُ بيضُهُ      على وجهه من الدماء سَيَّابٌ<sup>(١)</sup>  
لم يرد أن يدعى لهم الانفراد، ويجعل هذا الضرب لا يكون إلا منهم، ولكن أراد الذى ذكرت لك، من تنبيه السامع لقصدهم بالحديث من قبل ذكر الحديث، ليحقق الأمر ويؤكدده .

وهناك شواهد قرآنية وردت على أساس تقوية الحكم وتقريره حين تقديم المبتدأ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾<sup>(٢)</sup> الذى يفيد من التأكيد فى نفى الإشراف عنهم، ما لو قيل : والذين لا يشركون بربهم، أو: بربهم لا يشركون، لم يفد ذلك<sup>(٣)</sup>.

وقد أوضح عبد القاهر السبب فى تقوية الحكم وتقريره حين تقديم المبتدأ خلال الربط بالعامل النحوي قائلاً : «فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل لإلحديث قد نوى إسنادُه إليه، وإذا كان كذلك، فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام، أو قلت: خرج، أو قلت: قدّم، فقد علّم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس له، وقبّله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لامحاولة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل فى التحقيق»<sup>(٤)</sup>.

٧- هناك بعض الألفاظ التى رأت العرب أن تقديمها كاللازم، وخصوا بهذا التقديم لفظي «مثل» و «غير»، قال المتنبي يعزى عضد الدولة بعمته :

(١) الكباش: قائد القوم، وسباب: جمع سبية، يعنى على وجه طرائف من الدم .

(٢) المؤمنون / ٥٩ .

(٣) الدلائل : ١٢٩ وما بعدها .

(٤) الدلائل : ١٣٢ .

مِثْلُكَ يَتْنَى الْحَزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرُدُّ الدَّمَاعَ عَنْ عَصْرِهِ  
ولا يقصد المتنبي به «مثل» إلى إنسان سوى الذى أضيف إليه، ولكنه يعنى أن  
كل من كان مثله فى الحال والصفة، كان من مقتضى القياس وموجب العرف  
والعادة أن يفعل ما ذكر، أو أن لا يفعل، ومن أجل أن كان المعنى كذلك قال :  
ولم أقلْ مِثْلُكَ، أعنى به سواك، يا فرداً بلا مُشَبِّه  
وكذلك حكم «غير» إذا سُلِكَ به هذا المسلك ففعل :غيرى يفعلُ ذاك، على  
معنى أنى لا أفعله، لا أن يومئ به «غير» إلى إنسان فيخبر عنه بأن يفعل، كما قال  
المتنبي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ      إِنْ قَاتَلُوا جَبْتُوا، أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا  
وذاك أنه معلوم أنه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك فيستقصه ويصفه بأنه  
مضعوف يُغَرِّى وَيَخْدَعُ، بل لم يرد إلا أن يقول :إنى لست ممن ينخدع ويغتر،  
وكذلك لم يرد أبو تمام بقوله :  
وغَيْرِي بِأَكْلِ الْمَعْرُوفِ سَحْخًا      وَتَشْحَبُ عِنْدَهُ بَيْضُ الْأَيْدَى  
أن يعرض مثلاً بشاعر سواه، فيزعم أن الذى قُرِفَ به عند الممدوح من أنه  
هجاء، كان من ذلك الشاعر لا منه، هذا محال، بل ليس إلا أنه نفى عن نفسه  
أن يكون ممن يكفر النعمة ويُلَوِّمُ .

وقد علّق عبد القاهر على استعمال «مثل» و «غير» فى تلك الأبيات قائلاً  
:«واستعمال «مثل» و «غير» على هذا السبيل شئ مركّز فى الطباع، وهو جارٍ فى  
عادة كل قوم. فأنت الآن إذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين يقدمان  
أبداً على الفعل إذا نَحَى بهما هذا النحو الذى ذكرت لك، وترى هذا المعنى لا  
يستقيم فيها إذا لم يقدماً، أفلا ترى أنك لو قلت :يتنّى الحزنَ عن صوبه مثلك....  
وينخدع غيرى بأكثر هذا الناس، وبأكل غيرى المعروف سحخاً، رأيت كلاماً  
مقلوباً عن جهته، ومغيّراً عن صورته، ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه، ورأيت الطبع  
يأبى أن يرضاه»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: تقديم المسند على المسند إليه : أشار علماء البلاغة إلى أن تقديم المسند (الخبر) له عدة أغراض، يمكن تقديمها على النحو الآتي :

- ١- يُقدم الخبر لتخصيصه بالمبتدأ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، أى بخلاف خمور الدنيا فإنها تغتال العقول، ولهذا لم يقدم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾<sup>(٣)</sup> لئلا يفيد ثبوت الرب في سائر كتب الله تعالى ما عدا القرآن الكريم.
- ٢- يُقدم الخبر للتنبيه ابتداءً دون حاجة إلى تأمل في الكلام على أنه خبر لا نعت، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾<sup>(٤)</sup> فالخبر هو الجار والمجرور (لكم) والمبتدأ (مستقر)، ولولا هذا التقديم لقليل إن الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لـ (مستقر). قال الشاعر :

له هممٌ لا تنتهى لكبارها      وهمته الصغرى أجل من الدهر  
له راحة لو أن معشار جودها      على البر كان البر أئدى من البحر

وقد تقدم الخبر «له» على المبتدأ «هم» و «راحة»، وقال المتنبي :

وفيك إذا جئى الجائى أناة      تظن كرامةً وهى احتقار  
والتمثيل فى قوله: «فيك...أناة»، فلو قال المتنبي «أناة فيك» لتوهم ابتداءً أن «فيك» نعت لـ «أناة» وأن خبر المبتدأ سيذكر فيما بعد .

- ٣- يقدم الخبر (المسند) للشعوب إلى ذكر المسند إليه (المبتدأ)، ومن ذلك قول محمد بن وهيب الحميرى :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها      شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر<sup>(٥)</sup>

(١) الكافرون / ٦ .

(٢) الصفات / ٤٧ .

(٣) البقرة / ٢٧ .

(٤) البقرة / ٣٦ .

(٥) أبو إسحاق : هو الممدوح، الخليفة العباسى محمد المتصم بن هارون الرشيد .

وقال أبو العلاء المعري في باب الوعظ :

وكالنارِ الحياءُ، فمن رمادٍ وأخسرها، وأولها دُخانٌ

ثالثاً : تقديم متعلقات الفعل عليه : هناك ارتباط بين الفعل وبعض العناصر النحوية الأخرى كالمفعول به، وشبه الجملة (الظرف-الجار والمجرور)، والحال وسواها، ومن قواعد ترتيب الكلام في الجملة العربية أن يأتي الفعل أولاً ثم يأتي بعده ما يتعلق به، ولكن علماء البلاغة كشفوا عن بعض الأغراض التي تؤدي إلى تقديم المتعلق على فعله، ومن بينها ما يأتي :

١- تقديم المفعول على الفعل لردّ الخطأ في التعمين كقولك : «محمدٌ عرفتُ» لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً، وأنه غير محمدٍ، وأصاب في الأول دون الثاني، وتقول لتأكيد تقريره : «محمدٌ عرفتُ لا غيره» .

٢- ويؤدي تقديم المفعول على الفاعل إلى التخصيص، ومن شواهد ذلك قوله تعالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾<sup>(١)</sup> معناه : نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة، ولا نستعين غيرك، وقوله تعالى : ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾<sup>(٢)</sup> معناه : إن كنتم تخلصونه بالعبادة، وقوله تعالى : ﴿إلى الله تحشرون﴾<sup>(٣)</sup> معناها : إليه لا إلى غيره .

ويفيد التقديم في جميع ذلك وراء التخصيص اهتماماً بشأن المقدّم، لذلك قدّر المحذوف في «باسم الله» مؤخراً، أي «باسم الله أفعلُ كذا»، فالجار والمجرور متعلق بالفعل الذي قدرناه «أفعل» للدلالة على بيان اهتمام الموحّد بالاسم الكريم والرد على أهل الشرك الذي كانوا يبدعون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات، وباسم العزى، ولكن إذا قيل : ما وجه تقديم الفعل على اسم العلى القدير في «اقرأ باسم ربك الذي خلق»<sup>(٤)</sup>، يعود السبب في ذلك إلى أنها أول سورة نزلت،

(١) الفاتحة / ٥ .

(٢) البقرة / ١٧٢ .

(٣) آل عمران / ١٥٨ .

(٤) الملئ / ١٧

والأمر بالقراءة فى ذلك للموضع أهم، وقيل : إن الجار والمجرور متعلق بهـ اقرأه الثانى فى «اقرأ وربك الأكرم»، والفعل الأول معناه : افعل القراءة وأوجد لها، لذلك لا يحتاج إلى المتعلق كقولنا : فلان يعطى .

٣- يؤدى تقديم بعض متعلقات الفعل أو معمولاته إلى تحقيق تناسب الفواصل فى بعض الآيات الكريمة. قال تعالى : ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ﴾<sup>(٢)</sup> .

ونشير إلى أن الفعل تكون له عدة متعلقات، ويتم تقديم بعضها على بعضها الآخر لأسباب معينة منها :

- يؤدى التأخير إلى الإخلال بالمعنى كقوله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾<sup>(٣)</sup> فإنه لو أخر (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لتوهم أن الجار والمجرور متعلق بهـ (يكتم) فلم يفهم أن الرجل من آل فرعون - يؤدى التأخير إلى الإخلال بتناسب الفواصل، أو رؤوس الآيات نحو : ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾<sup>(٤)</sup> بتقديم الجار والمجرور والمفعول لأجله على الفاعل «موسى» إذ فواصل الآى على الألف .

- يُقدِّم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه (المفعول) لاوقوعه ممن وقع منه (الفاعل)، كما إذا عاث لص فأتك فى البلاد وأصاب أذاه الكثير من الناس، وألقيت الشرطة القبض عليه، حين الإخبار عن هذا كله الأفضل إن نقول : أمسكت اللصَّ الشرط، بتقديم المفعول، لأنه أساس الاهتمام ومعقد الفائدة، ومحط العناية .

\* \* \*

(١) الحاقة / ٣٠-٣٢ .

(٢) الضحى / ٩-١١ .

(٣) غافر / ٢٨ .

(٤) طه / ٦٧ .

## الضمائر

الضمير ما يُكنى به عن متكلم مثل «أنا» أو مخاطب مثل «أنت» أو غائب مثل «هو» أو الضمير اسم جامد مبنى يصلح لأن يحل محل الاسم، ولما كان الضمير مبنياً فإنه لا يثنى ولا يجمع، وإنما يدل بذاته وتكون صيغته على ما نريده، فالضمير «أنت» يفيد الدلالة على أن المخاطب للمفرد المذكر، و«أنتم» يفيد الدلالة على أن المخاطب لجماعة الذكور، و«أنن» لجماعة الإناث .... وهكذا .

وقد أشار النحاة إلى أن الضمير سمي كذلك من قولهم: أضمرتُ الشيء، إذا سترته أو أخفيته، ومنه قولهم: أضمرتُ الشيء في نفسي، أو من الضمور وهو الهزال، لأن الضمير قليل الحروف، ثم تلك الحروف الموضوعة له غالبها مهموسة، وهي التاء والكاف والهاء، والهمس هو الصوت الخفى .

وتتعدد صور استخدام الضمائر في الجملة العربية، ونحاول التعرف على ما يتصل بالجمال في هذا الاستخدام، في ضوء إشارات علماء البلاغة لذلك، دون الخوض في التفصيلات الخاصة بالضمائر عند النحاة، ويمكن تقديم هذا الجمال خلال النقاط الآتية :

أولاً: هناك ضمير يسمى «ضمير الشأن» يستخدم إن أريد ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية ويكون مقدماً قبلها كناية عن تلك الجملة، أما الجملة نفسها فتكون مفسرة له، وخبراً عنه، وهناك أسماء أخرى تُطلق عليه هي ضمير القصة أو ضمير الأمر أو ضمير الحكاية وغيرها، وكلها بمعنى واحد، وتفيد الدلالة على الشأن.

ويلزم ضمير الشأن صورة واحدة في الجملة، فهو بلفظ المفرد دائماً مذكراً كان أو مؤنثاً، ومن شواهد قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾<sup>(١)</sup>، و﴿فإذا هي شاخته أبصار الذين كفروا﴾<sup>(٢)</sup>، و﴿فإنها لا تَعْمَى الأبصار﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الإخلاص / ١ .

(٢) الأنبياء / ٩٧ .

(٣) الحج / ٤٦ .

وقال أبو الفرج السأوى أحد كتاب الصحاح بن عباد :

هى الدنيا تقول بملء فيها: حذار حذار من بطشى وفتكى  
فلا يغرركم منى ابتسام فقولى مضحك والفعل مبكى

وقال الشاعر :

هو: الدهر ميلاد فشغل فماتم فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت

وقال الشاعر :

علمته: الحق لا يخفى على أحد فكُن محققاً تنل ما شئت من ظفر  
هذه هى بعض الشواهد والأمثلة التى توضح استخدام ضمير الشأن فى الجملة  
العربية، ولكن ما الجمال الذى يحققه؟ يقول يحيى العلوى: «إن ضمير الشأن  
والقصة على اختلاف أحواله، إنما يرد على جهة المبالغة فى تعظيم تلك  
القصة وتفخيم شأنها، وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولاً، وتفسيره ثانياً،  
لأن الشئ إذا كان مبهماً فالنفوس متطلعة إلى فهمه ولها تشوق إليه، فلأجل هذا  
حصلت فيه البلاغة، ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرد إلا فى  
المواضع البليغة المختصة بالفخامة»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: تقع بعض الضمائر المرفوعة فصلاً، أى تفصل بين المبتدأ والخبر، أو ما  
أصله المبتدأ والخبر، ويطلق عليه «ضمير الفصل» عند علماء البصرة، و«العمادة»  
عند علماء الكوفة، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، و﴿كُنْتُ  
أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>، و﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، وقد أشار العلوى أيضاً  
إلى الجمال فى استعماله، قائلاً: «فوروده إنما كان من أجل التأكيد المعنوى، وفيه  
دلالة على الاختصاص، فقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٥)</sup>، وقوله تعالى: ﴿

(١) الطراز: ١٤٢/٢ وما بعدها .

(٢) القصص / ٥٨ .

(٣) المائدة / ١١٧ .

(٤) الزخرف / ٧٦ .

(٥) البقرة / ٢٥٤ .



ولكن كانوا هم الظالمين ﴿<sup>(١)</sup>﴾، و ﴿وإن ترّونا أقلّ﴾ <sup>(٢)</sup>﴾ إلى غير ذلك من الضمائر التي وردت على هذه الصفة فإنها مفيدة للتأكيد كما ترى، لأن الكلام مع ذكرها أبلغ، فأنت لو قلت: والكافرون الظالمون، ولكن كانوا الظالمين، وأسقطت هذه الضمائر، فإنك تجد فرقاً بين الحالتين في التأكيد وعدمه، وكما هي مفيدة للتأكيد كما ترى ففيها دلالة على الاختصاص لأنه إذا قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ <sup>(٣)</sup>، فإنما جاء بالضمير ليدل على أنهم لكفروهم اختصوا بمزيد الظلم الفاحش، وقوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ <sup>(٤)</sup>، فيه دلالة على مزيد اختصاصهم بالإيمان واستحقاقهم لصفته من بين سائر الخلق فيؤخذ الاختصاص والتأكيد من هذا الضمير كما أشرنا<sup>(٥)</sup>.

ثالثاً: أشار علماء البلاغة إلى ما يتصل بتوكيد الضمائر، ولكن قبل الحديث عن ذلك، توقفوا أمام التوكيد بصفة عامة، فأوضحوا أن دخول التوكيد في الكلام ليس أمراً حتماً ولا يكون على جهة الوجوب، وإنما يكون وروده على وجهين، أحدهما: أن يكون المعنى معلوماً في النفس لا يقع فيه شك، فما هذا حاله أنت فيه بالخيار بين تأكيده وتركه، وثانيهما: أن يكون غير معلوم، أو يكون مشكوكاً فيه، وما هذا حاله فالأولى تأكيده لإزالة احتماله.

نأتى، بعد ذلك، إلى التأكيد في الضمائر، فنجدته بالإضافة إلى الاتصال والانفصال على أوجه ثلاثة :

(أ) تأكيد الضمير المنفصل بمثله، ومن أمثله قول المتنبي :

قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ      وَجَدُّكَ بَشَرٌ الْمَلِكُ الْهَمَامُ

فقوله «أنت أنت» من تأكيد المنفصل بمثله، وفائدته المبالغة في مدحه بأبلغ ما

(١) الزخرف / ٧٦ .

(٢) الكهف / ٣٩ .

(٣) البقرة / ٢٥٤ .

(٤) الأنفال / ٤ .

(٥) الطراز: ١٤٣/٢ وما بعدها .

يكون، فإنه لو مدحه بما شاء من الأوصاف الدالة على الشاء لَمَّا سَدَّ مسدُّ قوله «أنت أنت»، كأنه قال: أنت المشار إليه بالفضل دون غيره.

(ب) تأكيد الضمير المتصل بمثله في الاتصال، ومثاله قولك: «إنك إنك لفاضلٌ» فالكاف الثانية تأكيد للأولى وتم اتصالها به «إن»، وقال تعالى في سورة الكهف في آية السفينة، بعد المخالفة: «قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً»<sup>(١)</sup> من غير تأكيد ثم قال في آية القتل الثانية: «قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع»<sup>(٢)</sup> بالتأكيد، والفرقة بين الأمرين هو أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى، لأن المخالفة في الثانية أعظم جرماً، وأدخل في التعنيف لأجل الإصرار على المخالفة، فلهذا ورد العتاب مؤكداً بعد الخلاف لما ذكرناه.

(ج) تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل، ومن شواهد قوله تعالى: «فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخفُ إنك أنت الأعلى»<sup>(٣)</sup> فالتوكيد هنا به «أنت» للكاف في «إنك»، وفيه الدلالة على طمأنينة نفس موسى، وعلى الغلبة بالقهر والنصر.

وقد حلل علماء البلاغة الآية الكريمة بالتفصيل في ضوء ربط التوكيد بغيره من العناصر اللغوية، لذلك قالوا إن قوله تعالى: «إنك أنت الأعلى» نهاية البلاغة بدليل أمور ستة هي:

- الإتيان به «إن» في أول الخطاب لتأكيد الأمر وتقرير ثبوته.
- تأكيد الضمير المتصل، وهو الكاف في «إنك»، بالمنفصل، وهو «أنت» مبالغة في تخصيص موسى بالقهر والغلبة.
- الإتيان بلام التعريف في قوله تعالى: «الأعلى»، ولم يقل «أعلى» ولا «عال»، لأنها دالة على الاختصاص، كأنه قال: أنت الأعلى دون غيرك، وفيه تعريض بأمرهم، وتهكم بحالهم، وإبطال لما هم عليه من أمر السحر.

(١) الكهف / ٧٢.

(٢) الكهف / ٧٥.

(٣) طه / ٦٧.

- جاء قوله تعالى ﴿الأعلى﴾ بلفظة «أفعل» الدالة على التفضيل، ولم يقل «العالي» لأن مجيئها على جهة الزيادة في تلك الخصلة للمبالغة .

- تحقيق الغلبة بقوله تعالى ﴿الأعلى﴾، لأن معناه «الأغلب»، وعُدل إلى لفظ «الأعلى» لما فيه من الدلالة على الغلبة بالفوقية لا بالمساواة .

- التعبير بالجملة الاستثنائية «إنك أنت الأعلى» ولم يقل - سبحانه - «قلنا لا تخف لأنك أنت الأعلى»، لأنه لم يجعل عدم الخوف سبباً لكونه غالباً عليهم، وإنما نفى عنه الخوف بقوله «لا تخف» ثم استأنف الكلام بقوله (إنك أنت الأعلى) فلا جرم كان أبلغ في شرح صدر موسى وأقر لعينه في القهر والاستيلاء .

وهذا التحليل للآية الكريمة بالأمور الستة السابقة فيه الدلالة على أن النظر في بلاغة الضمير إنما هو جزء من السياق العام .

رابعاً : اهتم علماء البلاغة بدراسة التعبير بالاسم الظاهر بدلاً من الضمير، وأشاروا إلى أن الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له موقع عظيم وفائدة جزلة، وهى تعظيم حال الأمر المظهر والعناية بحقه، وشاهده قوله تعالى ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾<sup>(١)</sup> فانظر إلى إظهار اسمه جلّ جلاله في قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة﴾، وكان قياس الإعراب «ثم ينشئ النشأة الآخرة»؛ لأنه قد تقدم ما يفسر هذا الضمير وهو قوله تعالى: ﴿كيف يبدئ الله﴾، والفائدة في ذلك هو المبالغة في الأمر المظهر وإظهار الفخامة فيه، وكقوله تعالى: ﴿القارعة﴾ . ما القارعة<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿الحاقة﴾ . ما الحاقة<sup>(٣)</sup>.

وقد يرد الإظهار على جهة الإنكار وشدة الغضب والتهكم بحالهم والتعجب من عنادهم، وجحدهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ص. والقرآن ذى الذكر بل الذين

(١) النكبات / ٢٠ .

(٢) القارعة / ٢١ .

(٣) الحاقة / ٢١ .

كفروا<sup>(١)</sup> ثم قال بعد ذلك: ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾<sup>(٢)</sup> والقرص هو إفراط التكبير عليهم والتعريض بأنهم الكفرة حقاً أهل التمرد الذى لا شك فيه، والمراد الذى لا مدفع له<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

---

(١) ص ١ / ٢.

(٢) ص ٤.

(٣) انظر الطراز ١٤٦/٢ وما بعدها

### ظاهرة التكرار

يعد التكرار واحداً من الظواهر اللغوية التي نجدُها في الألفاظ والتراكيب والمعاني لتحقيق البلاغة في التعبير، والتأكيد للكلام، والجمال في الأداء اللغوي، والدلالة على العناية بالشئ الذي كُرِّر فيه الكلام. وقد ورد التكرار في آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي، لذلك نال اهتمام علماء الدراسات النقدية والبلاغية وسواهم، وهو عندهم على قسمين :

١- تكرار في اللفظ والمعنى كقولك لمن تستدعيه: «أسرعُ أسرع»، ومنه قول المتنبي :

ولم أرَ مثلاً جيرانى ومثلى      لثلى عندَ مثلهم مقامُ

٢- تكرار في المعنى دون اللفظ كقولك: «أطعني ولا تعصني» فإن الأمر نهى عن المعصية.

وكل من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وهو ما يأتي لمعنى، وغير مفيد وهو ما يأتي لغير معنى .

وقبل الدخول في دراسة التكرار وتحليل بعض شواهد أمثلته نتعرف على سبب وروده في بعض آى الذكر الحكيم .

توقف ابن قتيبة أمام تكرار الكلام والزيادة فيه، واهتم بالتعليل لتكرار الأنباء والقصص في القرآن الكريم قائلاً: «وأما تكرار الأنباء والقصص فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدرجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ، تنبيهاً لهم من سنة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ، استبعاداً لهم واختياراً لبصائرهم، يقول الله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾<sup>(١)</sup>»، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بالثبوت هو المؤمنون. ثم يشير ابن قتيبة إلى أن الرسول ﷺ كان يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السأمة عليهم، أى يتعهدهم بها عند الغفلة ودثور القلب، ولو أناهم القرآن تَجَمُّاً واحداً لسبق حدوث الأسباب التي أنزله الله بها، ولشَقَلَتْ جملة

الفراغ على المسلمين وعلى من أراد الدخول في الدين، ولبطل معنى التنبيه، وفسد معنى النسخ، لأن المنسوخ يعمل به مدة ثم يعمل بناسخه بعده. وكيف يجوز أن ينزل القرآن في وقت واحد: افعلوا كذا ولا تفعلوه؟<sup>(١)</sup>.

وقد اهتم بعض العلماء بالتكرار في القرآن الكريم مع ربطه بالأغراض البلاغية واللغوية التي تكشف عن سره، ومن أولئك محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى في كتابه «أسرار التكرار في القرآن» أو «البرهان في متشابه القرآن»<sup>(٢)</sup> الذى عرض فيه للتكرار أو المتشابه بين بعض الآيات الكريمة، وقد بدأ بسورة الفاتحة ملتزماً ترتيب السور في المصحف الشريف حتى يصل إلى سورة الناس، وإذا حاولنا التعرف على مجالات التكرار عند المؤلف، نجدها تدور في إطار النقاط الآتية :

١- الاختلاف في استخدام حرف العطف، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾<sup>(٤)</sup>. لقد قارن الكرمانى بين «وكلا» و«فكلا»، قال: «اسكن» فى الآيتين ليس بأمر بالسكون الذى هو ضد الحركة، وإنما الذى فى البقرة من السكون الذى معناه الإقامة وذلك يستدعى زماناً ممتداً فلم يصلح إلا بالواو، لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، ولو كان الغاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة، لأن الغاء للتعقيب والترتيب والذى فى الأعراف من السكى التى معناها اتخاذ الموضع مسكناً، لأن الله تعالى أخرج إيليس من الجنة بقوله: ﴿إِخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا﴾<sup>(٥)</sup>، وخاطب آدم فقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، أى اتخذها لأنفسكما مسكناً، «فكلا من حيث شئتما» فكانت الغاء أولى، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زمناً ممتداً،

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٢ وما بعدها .

(٢) أشار الكرمانى فى مقدمة كتابه إلى أن اسمه «البرهان فى متشابه القرآن» وقد لجأ المحقق إلى تغيير العنوان، لأن المشتغلين بالنشر أغمضوا عيونهم عنه بالنشر، إذ ظنوه فى «المتشابه» بمعنى المرهم أو الغامض ولم يظنوا إلى أن التشابه بمعنى التماثل، وهو مكررات القرآن كما أوضح مؤلفه فى مقدمته.

(٣) البقرة ٣٥.

(٤) الأعراف ١٩.

(٥) الأعراف ١٨/.

ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبهِ<sup>(١)</sup>، ونلاحظ اعتماد الكرماني على الدلالة للتفريق بين استعمال الواو والفاء، فالفعل «اسكن» في آية البقرة يعنى الإقامة التي تتطلب زماناً ممتداً؛ لذلك جاء الأمر مسبقاً بالواو «وكلاء» التي تعنى الجمع بين الإقامة في الجنة والأكل من ثمارها، والفعل «اسكن» في آية الأعراف من السكنى التي معناها اتخاذ الموضع مسكناً، وهذا لا يتطلب زماناً ممتداً، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل الأكل يقع عقيبهِ، لذلك جاء الأمر مسبقاً بالفاء «فكلوا» الدالة على التعقيب والترتيب.

٢- استخدام حرف الجر مع بعض الآيات الكريمة دون بعضها الآخر، قال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿ثم يقولون افتراه فأتوا بسورة مثله﴾<sup>(٣)</sup>، وردت آية البقرة «من مثله» وآية يونس «مثله»، لأن «من» دالة على التبويض، ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة، حسن دخول «من» فيها ليُعلم أن التحدى واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره، وغيرها من السور لو دخلها «من» لكان التحدى واقعاً على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل.

٣- الاختلاف في التنكير والتعريف، ومن ذلك «حق» و«الحق» كما في الآيات الكريمة الآتية :

﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ البقرة ٦١/

﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ آل عمران ٢١/

﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ النساء ١٥٥/

ويشير تعريف «الحق» في الآية الكريمة الأولى إلى الحق الذي أذن به الله تعالى أن تقتل النفس به وهو قوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾<sup>(٤)</sup> فكان الأولى أن يذكر معرفة، لأنه من العلى القدير، وورد نكرة في الآيتين

(١) أسرار التكرار : ٢٥ وما بعدها .

(٢) البقرة ٢٣/ .

(٣) يونس ٣٨/ .

(٤) الأنعام ١٥١/ .

الثانية والثالثة لأن معناه بغير حق في معتقدهم ودينهم، فكان هذا بالتنكير أولى، ومن ذلك :

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ البقرة / ١٢٦

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ إبراهيم / ٣٥

وقد ورد «بلدًا» نكرة، لأنه إشارة إلى المذكورة في قوله تعالى: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ﴾<sup>(١)</sup> قبل بناء الكعبة، و«هذه» المفعول الأول، و«بلدًا» المفعول الثاني، و«آمنًا» صفة، وورد «البلد» معرفة، لأنه يشير إلى البلد بعد بناء الكعبة، و«هذه» المفعول الأول، و«البلد» بدل، و«آمنًا» المفعول الثاني، ولعلنا نلاحظ أن التنكير والتعريف للفظه أدى إلى التأثير في الإعراب .

٤- ورد الجار والمجرور في بعض الآيات المشابهة من حيث التركيب النحوي دون بعضها الآخر، ومن ذلك «منكم» في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>، ولكن الجار والمجرور لم يرد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾<sup>(٤)</sup> لأنه ذكر من قبل في الآية الكريمة نفسها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

وكرر الجار والمجرور «لكم» في وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزْيَانٌ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾<sup>(٥)</sup>، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾<sup>(٦)</sup> دون الجار والمجرور، لأنه تقدم في السورة الكريمة نفسها، «إِنِّي

(١) إبراهيم / ٣٧.

(٢) البقرة / ١٨٤.

(٣) البقرة / ١٩٦.

(٤) البقرة / ١٨٥.

(٥) الأنعام / ٥٠.

(٦) هود / ٣١.



لكم نذير ﴿١﴾، و ﴿ما نرى لكم﴾ (٢).

٥- الاختلاف في الحروف الدال على النفي بين بعض الآيات الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ (٤)، والنفي في الآية الأولى بالحرف «لن» وهو عامل، لذلك نصب المضارع بحذف النون، والنفي في الآية الثانية بالحرف «لا» وهو ليس عاملاً، ويرتبط النفي بـ«لن» بالمعنى؛ لأن دعوى الكافرين في البقرة بالغة قاطعة وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فبالغ في الرد عليهم بـ«لن»، وهو أبلغ ألفاظ النفي، ودعواهم في الجمعة قاصرة مترددة، وهي زعمهم أنهم أولياء الله، فاقصر على «لا».

٦- وردت بعض الآيات الكريمة بإثبات تاء التأنيث مع الفعل الماضي، وإسقاطها في بعضها الآخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جائعين﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جائعين﴾ (٦)، التذكير والتأنيث مع الفعل «أخذ» حسنان، لكن التذكير في الآية الأولى أخف بحذف حرف منه، وفي الأخرى وافق التأنيث في الآية التالية لها، وهي قوله تعالى: ﴿كما بعدت نمود﴾ (٧).

٧- وردت بعض الآيات الكريمة متشابهة في ألفاظها مع الاختلاف في التقديم والتأخير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل

(١) هود / ٢٥.

(٢) هود / ٢٧.

(٣) البقرة / ٩٥، ٩٤.

(٤) الجمعة / ٧٦.

(٥) هود / ٦٧.

(٦) هود / ٩٤.

(٧) هود / ٩٥.

شيءٌ قدير»<sup>(١)</sup>، فالفعل «يغفر» مقدم في هذه الآية من سورة البقرة وفي غيرها، إلا في سورة المائدة، فإن فيها: «يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير»<sup>(٢)</sup>، ويعود السبب في ذلك إلى أن آية المائدة نزلت بعدها في حق السارق والساوقة وعذابهما يقع في الدنيا<sup>(٣)</sup>، فقدم لفظ العذاب، وفي غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه تعالى، وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة.

ويتصل بالتقديم والتأخير اجتماعُ لفظي «النفع» و«الضرر» معاً في الكتاب العزيز، مع تقديم النفع على الضرر كما في الآيات الآتية:

- «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله» الأعراف/ ١٨٧

- «قل أفتأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا»

الرعد/ ١٦

- «فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا» سبأ/ ٤٢

وورد التقديم، واللفظان بصيغة الفعل كما في الآيات الآتية:

- «قل أئدعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا» الأنعام/ ٧١

- «ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضر» يونس/ ١٠٦

- «قال أئعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم» الأنبياء/ ٦٦

- «ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم» الفرقان/ ٥٥

- «قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون» الشعراء/ ٧٢-٧٣

وقد قارن العلماء قوله تعالى: «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء

(١) البقرة/ ٢٨٤.

(٢) المائدة/ ٤٠.

(٣) قال تعالى: (والسارق والساوقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) المائدة/ ٣٨.

(٤) الأعراف/ ١٨٧.

(٥) يونس/ ٤٩.

الله<sup>(١)</sup> بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> اللذين يتشابهان مع الاختلاف في التقديم والتأخير للفظي «النفع» و«الضرر»، ويرى العلماء أن تقديم الضرر على النفع في الآية الكريمة الثانية جاء لموافقة ما قبلها في السورة نفسها. قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، ثم إن هذا التقديم جاء على الأصل؛ لأن أكثر ما جاء في القرآن الكريم من لفظي الضر والنفع معاً؛ جاء بتقديم لفظ الضر على النفع؛ لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، يقويه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾<sup>(٤)</sup>.

٨ - وردت بعض الآيات الكريمة متشابهة في ألفاظها وتركيبها النحوي، مع الاختلاف في اقتران إحداها باللام المزحلقة الدالة على التوكيد دون الأخرى، كما في:

- ﴿إِنْ رَيْكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأنعام/١٦٥

- ﴿إِنْ رَيْكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف/١٦٧

أما عن الآية الأولى فقد جاءت عقب «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها»<sup>(٥)</sup> و«وهو الذي جعلكم خلائف الأرض»<sup>(٦)</sup>؛ لذلك قيد قوله (غفور رحيم) باللام، ترجيحاً للغفران على العقاب، ولم تأت مع (سريع). والآية الثانية جاءت عقب (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس)<sup>(٧)</sup>، و«كونوا قردةً خاسئين»<sup>(٨)</sup> فقيد رحمة منه للمعاد؛ لئلا يرجح جانب الخوف على الرجاء.

٩ - هناك بعض الآيات التي تتشابه في ألفاظها وتركيبها النحوي، مع الاختلاف في لفظ الفعل المستخدم لارتباطه بالدلالة، كما في:

(١) يونس/١٨.

(٢) السجدة/١٦.

(٣) الأنعام/١٦٠.

(٤) الأنعام/١٦٥.

(٥) الأعراف/١٦٥.

(٦) الأعراف/١٦٦.

- «تلك حدود الله فلا تقربوها» البقرة/١٨٧.

- «تلك حدود الله فلا تعتدوها» البقرة/٢٢٩.

إن الحدود ضربان:

- حد هو منع ارتكاب المخطئ، وهو ينهى عن مقارنته

- حد فاصل بين الحلال والحرام، وهو ينهى عن مجاوزته.

واستخدام (فلا تقربوها) لأن الحد في الآية الكريمة الأولى نهى وهو قوله: «ولاتباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد»، وما كان من الحدود نهياً أمر بترك المقاربة. واستخدام (فلا تعتدوها) لأن الحد في الآية الكريمة الثانية أمر، وهو بيان عدد مرات الطلاق بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد، وما كان أمراً أمر بترك المجاوزة وهو الاعتداء.

١٠ - اهتم المفسرون بالأحرف المقطعة التي تبدأ بها بعض السور وعلاقتها بالمشابه، ومن ذلك قول الكرماني<sup>(١)</sup> عن (آلم) التي في أول البقرة: «هذه الآية تتكرر في أوائل ست سور<sup>(٢)</sup>، فهي من المتشابه لفظاً، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله: «وأخر متشابهات»<sup>(٣)</sup> هي هذه الحروف الواقعة في أوائل السور؛ فهي أيضاً من المتشابه لفظاً ومعنى، والموجب لذكره، أول البقرة من القسم وغيره هو بعينه الموجب لذكره في أوائل سائر السور المبدوءة به، وزاد في الأعراف صاداً لما جاء بعده (فلا يكن في صدرك حرج منه)، ولهذا قال بعض المفسرين: معنى (المص) ألم نشرح لك صدرك، وقيل: معناه المصور، وزاد في الرداء لقلوه بعده: «الله الذي رفع السموات».

١١ - درس العلماء ما يتصل بصفات العلى القدير من المتشابه، وأنشأوا إلى أن أول المتشابهان قوله: «الرحمن الرحيم. مالك» فيمن جعل «بسم الله الرحمن

(١) أسرار التكرار: ٢١ وما بعدها.

(٢) هي: البقرة، آل عمران، النكبات، الروم، لقمان، السجدة.

(٣) آل عمران/٧.

الرحيم» آية من الفاتحة، وهناك عدة أغراض لتكرار «الرحمن الرحيم» منها: التوكيد، أو لأن المعنى: وَجِبَ الحمدُ لله؛ لأنه الرحمن الرحيم؛ أو إنما كرر لأن الرحمة هي الإنعام على المحتاج، وذكر في الآية الأولى المنعم ولم يذكر المنعم عليهم، فأعادها مع ذكرهم وقال: (رب العالمين. الرحمن) لهم جميعاً، بنعم عليهم ويزرقهم (الرحيم) بالمؤمنين خاصة يوم الدين، بنعم عليهم ويغفر لهم.

١٢ - توقف المفسرون أمام ما يتصل بالضمائر من التشابه أو التكرار، ومن ذلك الآيات الثلاث الآتية:

- «إِنَّ اللَّهَ رُبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» آل عمران/٥١.

- «وَإِنَّ اللَّهَ رُبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» مريم/٣٦.

- «وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» الزخرف/٦٤.

قال الكرمانى موضعاً الوجه في الإتيان بالضمير (هو) في الآية الكريمة الثالثة: «إِذَا قُلْتَ: زيد هو قائم، فيحتمل أن يكون تقديره: وعمرو قائم، فإذا قلت: زيد هو القائم، خصصت القيام به، فهو كذلك في الآية، وهذا مثاله؛ لأن (هو) يذكر في مثل هذه المواضع إعلالاً أن المبتدأ مقصور على هذا الخبر، وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره. والذي في آل عمران وقع بعد عشرات آيات من قصتها<sup>(١)</sup>، وليس كذلك ما في الزخرف، فإنه ابتداء كلام، فحسن التوكيد بقوله (هو)؛ ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور في الآية، وهو إثبات الربوبية، ونفى الأبوة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً<sup>(٢)</sup>.

ومما يتصل بالضمائر تكرار (إياك) في «إياك نعبد وإياك نستعين». قال الكرمانى: «كرر (إياك) وقدمه، ولم يقتصر على ذكره مرة كما اقتصر على ذكر

(١) من أول قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ) الآيات ٤٢ - ٥١.

(٢) أسرار التكرار: ٤٩.

أحد المفعولين في آيات كثيرة منها ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾<sup>(١)</sup>؛ أى ما فلاك، وكذلك الآيات التى بعدها معناها فأواك، فهذا، فأعناك؛ لأن فى التقديم فائدة وهى قطع الاشتراك، ولوحذف لم يدلّ على التقديم؛ لأنك لو قلت: إياك نعبد ونستعين، لم يظهر أن التقدير: إياك نعبد وإياك نستعين، أم: إياك نعبد ونستعينك، فكرر<sup>(٢)</sup>.

١٣ - هناك بعض الآيات التى تتشابه فى ألفاظها وتركيبها النحوى، ولكن تختلف فى نوع الاسم الموصول. قال تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم﴾<sup>(٤)</sup>؛ فجعل مكان قول (الذى) (ما)، وزاد فى أوله (من)؛ فما السبب فى ذلك؟ إن العلم فى الآية الأولى عِلْمٌ بالكمال، وليس وراءه علم؛ لأن معناه: بعد الذى جاءك من العلم بالله وصفاته، وبأن الهدى هدى الله، ومعناه: بأن دين الله الإسلام، وأن القرآن كلام الله، فكان لفظ (الذى) أليق به من لفظ (ما)؛ لأنه فى التعريف أبلغ وفى الوصف أقعد؛ لأن (الذى) تعرّفه صلته فلا يتنكر قط، وتتقدمه أسماء الإشارة نحو قوله ﴿أمن هذا الذى هو جند لكم﴾<sup>(٥)</sup>، وأمن هذا الذى يزعكم<sup>(٦)</sup>، فيكتنف (الذى) بياناً: الإشارة قبلها والصلة بعدها. ويلزمه الألف واللام، ويثنى ويجمع، وليس لـ (ما) شئ من ذلك؛ لأنه يتنكر مرة ويتعرف أخرى، ولا يقع وصفاً لأسماء الإشارة، ولا تدخله الألف واللام، ولا يثنى ولا يجمع.

وخص العلم فى الآية الثانية بـ(ما) لأن المعنى: من بعد ما جاءك من العلم بأن قبلة الله هى الكعبة، وذلك قليل من كثير من العلم، وزيدت معه (من) التى

(١) الضحى/٣

(٢) أسرار التكرار: ٢٠.

(٣) البقرة/١٢٠.

(٤) البقرة/١٤٥.

(٥) الملك/٢٠.

(٦) الملك/٢١.

لا تبدأ الغاية، لأن تقديره: من الوقت الذي جاءك فيه العلم بالقبلة؛ نُسخَ بهذه الآية، وليست الأولى مؤقتة بوقت.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالتكرار أو التشابه والمجالات التي دار حولها في الكتاب العزيز، نشير إلى أن هناك بعض الآيات التي لا تندرج تحت التكرار، على الرغم من احتوائها على بعض الألفاظ والتراكيب النحوية المتشابهة، ومن أمثلة ذلك الجار والمجرور (عليهم) في قوله تعالى: «صرط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم» فهو لا يعد تكراراً من منظور نحوي يتصل بتعليق شبه الجملة؛ إذ إن (عليهم) الأولى يتعلق بـ (أنعمت) والآخر بـ (المغضوب)، وهذا التنوع في التعليق لا يجعل الجار والمجرور تكراراً أو من التشابه. وقال تعالى: «فغفروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين»<sup>(١)</sup> و«ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين»<sup>(٢)</sup>؛ فإن إني لكم منه نذير مبين ليس بتكرار لأن كل واحد منهما يتعلق بغير ما تعلق به الآخر، فالأول متعلق بترك الطاعة إلى المعصية، والثاني متعلق بالشرك بالله تعالى.

وقد توسع ابن الأثير في دراسة ما ليس بتكرار متوقفاً أمام ثلاث من الآيات هي:

— «ثم إن ربك للذين عملوا السوءَ بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم»<sup>(٣)</sup>.

— «ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم»<sup>(٤)</sup>.

— «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب»<sup>(٥)</sup>.

(١) الذاريات/٥٠.

(٢) الذاريات/٥١.

(٣) النحل / ١١٩.

(٤) النحل/١١٠.

(٥) آل عمران / ١٨٨.

وقد علّق عليها بقوله: «وهذه الآيات يُظنُّ أنها من باب التكرير، وليست كذلك، وقد أنعمت نظري فيها فرأيتها خارجة عن حكم التكرير، وذلك أنه إذا طال الفصل من الكلام، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به؛ فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارناً لتمام الفصل؛ كي لا يجرى الكلام مثوراً لاسيما في (إن) وأخواتها؛ فإذا وردت (إن) وكان بين اسمها وخبرها فُسحة طويلة من الكلام فإعادة (إن) أحسن في حكم البلاغة والفصاحة كالذي تقدم من هذه الآيات<sup>(١)</sup>. أى إن طول الفصل من الكلام هو السبب في إعادة (إن) مع اسمها؛ لذلك لا تدخل في باب التكرار، ومعها (لا تحسبهم) للسبب نفسه. ومن أمثلة ذلك شعراً قول بعض شعراء الحماسة:

أَسَجْنَا وَقِيداً وَاشْتِيقاً وَغَرِبَةً      وَنَأَى حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لِعَظِيمٍ  
وإن امرأ دامت مواليقُ عهده      على مثل هذا إنه لكريم

فإنه لما طال الكلام بين اسم (إن) وخبرها أعيدت (إن) مرة ثانية؛ لأن تقدير الكلام: وإن امرأ دامت مواليق عهده على مثل هذا لكريم، لكن بين الاسم والخبر مدى طويل، فإذا لم تعد (إن) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق، وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً، على حد تعبير ابن الأثير.

وقد ربط بعض العلماء التكرار في الذكر الحكيم بسنن العرب في كلامها، وعلى رأس أولئك ابن قتيبة الذي توقف أمام تكرار قوله تعالى: «قل يا أيها الكافرون»، وقوله تعالى في سورة الرحمن: «فبأى آلاء ربكما تكذبان» موضحاً أن القرآن نزل بلسان قوم وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار لإرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون وخروجه عن شئ إلى شئ أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد. وقد يقول القائل في كلامه: والله لا أفعله ثم والله لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله، كما يقول القائل: والله أفعله، بإضمار «لا» إذا أراد الاختصار.



وهناك الكثير من الآيات الكريمة التي فيها تكرار للفظ والغرض البلاغي منه تأكيد المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»<sup>(١)</sup> و«فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»<sup>(٢)</sup> و«أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُوقِلَىٰ. ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُوقِلَىٰ»<sup>(٣)</sup> و«وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ»<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان ابن قتيبة قد ربط التكرار بسنن العرب في كلامها فإنه قد ربطه به «أسباب النزول» أيضاً. قال: «ولاموضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ليعبدوا ما يعبد، وأبدؤا في ذلك وأعادوا، فأراد الله - عز وجل - حَسْبُ أَلْطَاعِهِمْ وَلِكَذَابِ ظَنُونِهِمْ، فأبدأ وأعاد في الجواب، وهو معنى قوله: «وَدُّوا لَوْ تَدْرِنَ فَيَهْنُوتُونَ»<sup>(٥)</sup>، أى تلين لهم في دينك فيلنن في أديانهم»<sup>(٦)</sup>.

وقد اهتم علماء الدراسات النقدية والبلاغية بالتعرف على التكرار في الشعر، والكشف عن الجمال الذي يحققه في الأداء اللغوي، وقدموا الكثير من النماذج للتطبيق عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

والأحمة لا متك يا فيض في الندى      قلتُ لها: هل يقدح اللوم في البحر  
أرادت لشيئ الفيض عن عادة الندى      ومن ذا الذي يثنى السحاب عن القطر  
كان وفود الفيض يومَ تحملوا      إلى الفيض لا قوا عنده ليلة القدر  
مواقع جود الفيض في كل بلدة      مواقع ماء المزن في البلد القفر

فتكرير اسم الممدوح ههنا تنويه به وإشادة بذكره وتفخيم له في القلوب والأسماع كما يقول ابن رشيق<sup>(٧)</sup>.

كذلك قول الخنساء:

وإن صخرأ لمولانا وسيدنا      وإن صخرأ إذا نشتولنحارُ  
وإن صخرأ لتأتم الهداة به      كأنه علم في رأسه نارُ

(١) التكرار ٣-٤.

(٢) الانشراح/ ٦٥.

(٣) القيسية/ ٣٤-٣٥.

(٤) الانفطار/ ١٧-١٨.

(٥) القلم/ ٩.

(٦) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٧.

(٧) الممعة: ٦٠/٢.

ومن الأغراض التي يحققها التكرار في الشعر التعميم كما في قوله الشاعر:  
لا أرى الموتُ يسبقُ الموتُ شيءٌ      نغصُ الموتُ ذا الغنى والفقير  
ومن أغراضه التوجع إن كانت المناسبة التي تقال فيها الأبيات الرثاء والتأبين،  
كما في قول متمم بن نويرة:

وقالوا أبكى كلَّ قبرٍ رأيتُه      لقبرِ ثوى بين اللوى فالدكاك  
فقلتُ لهم: إن الأسى يبعثُ الأسى      دعونى فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

وللتكرار دور مهم في باب الغزل والنسيب؛ لأنه يؤدي إلى تأكيد المعنى الذي  
يهدف إليه الشاعر عن طريق إعادة بعض الألفاظ، ومن ذلك قول ابن المعتز:

لسانى لسرى كسومٍ كسوم      ودعوى بحبى نمومٍ نموم  
ولى مالكِ شغفى حبُّه      بديعِ الجمالِ وسيمٍ وسيم  
له مقلتنا شادنٍ أحورٍ      ولفظِ سحورِ رخييمٍ رخييم  
فدعوى عليه سجومٍ سجوم      وجسمى عليه سقيمٍ سقيم

ويدخل في باب الغزل والنسيب تكرار الاسم على جهة التشويق والاستعذاب  
كما في قوله قيس بن ذريح الذي لجأ فيه إلى تكرار اسم «لبنى»:

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلةً      ولم تلقنى لبنى ولم أدرِ ماهيا  
ونختم هذا العرض بالحديث عن التكرار عند ابن الأثير<sup>(١)</sup> الذي قدم له الكثير  
من التقسيمات، وقد تضمن بعض الآراء المفيدة المتصلة بالتكرار على وجه العموم،  
ومن بينها ما يأتي:

١ - هناك تكرار في اللفظ والمعنى، يؤدي إلى الدلالة على معنى واحد،  
ولكن المقصود به غرضان مختلفان، ومن شواهد قوله تعالى: ﴿قل إني أمرتُ أن  
أعبد الله مخلصاً له الدينَ وأمرتُ لأن أكونَ أولَ المسلمينَ. قل إني أخافُ إن

(١) الملل السائر: ١٤٦/٢ وما بعدها.

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فاعبدوا ما شئتم من دونه<sup>(١)</sup>. فكرر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ والمراد به غرضان مختلفان؛ وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة والإخلاص في دينه، والثاني إخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة في الثاني، وأخره في الأول؛ لأن الكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وليجاده، وثانياً فيمن يفعل من أجله، ولذلك رتب عليه: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾

٢ - التكرار في اللفظ والمعنى، وهو يؤدي إلى الدلالة على معني واحد، والمراد به غرض واحد، ومن شواهد قوله تعالى: ﴿فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرْتُ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرْتُ<sup>(٢)</sup>﴾، والتكرير دلالة على التعجب من تقديره وإصابته الغرض، وهذا كما يقال: قتله الله ما أشجعه! أو ما أشعره! وعليه ورد قول الشاعر:

ألا يا أسلمي ثم اسلمي ثُمَّتْ أسلمي ثلاث تحياتٍ وإن لم تكلمي  
وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته.

٣ - هناك نوع من التكرار يكون المعنى فيه مضافاً إل نفسه مع اختلاف اللفظ، وذلك يأتي في الألفاظ المترادفة، وقد ورد في القرآن الكريم، واستعمل في فصيح الكلام؛ فمنه قوله تعالى: (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم)<sup>(٣)</sup>، والرجز هو العذاب، وعليه ورد قول أبي تمام من قصيدة يمدح فيها حبش بن المعافى:

نهوضٌ بشقلِ العِيبِ مضطلعٌ به وإن عظمتُ فيه الخطوبُ وجَلَّتْ  
والثقل هو العيب، والعيب هو الثقل، وكذلك ورد قول البحتري من قصيدة يمدح فيها المتوكل:

ويسومُ تَنَثُّتٌ للسوداعِ وسَلَمَتْ  
توهمتها ألوى بأجفانِها الكرى  
بعينين موصولٍ بلحظهما السحرُ  
كرى النومِ أو مالتْ بأعطافها الخمرُ

(١) الزمر / ١١-١٥.

(٢) المدثر / ١٩ و ٢٠.

(٣) سبأ / ٥.

فإن الكرى هو النوم. وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطي هذه الصناعة وظنوه مما لافائدة فيه، وليس كذلك، بل الفائدة فيه هي التأكيد للمعنى المقصود، والمبالغة فيه. أما الآية فالمراد بقوله تعالى: (عذاب من رجز) أى عذاب مضاعف من عذاب، وأما بيت أبى تمام فإنه تضمن المبالغة فى وصف الممدوح بحمله للأثقال، وأما بيت البحتري فإنه أراد أن يشبه طرفها لفتوره بالنائم، فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف إليه تأكيداً له وزيادة فى بيانه.

٤ - يلجأ بعض الشعراء إلى التكرير فى اللفظ والمعنى، دون أن يؤدى إلى فائدة، ومن ذلك قول مروان الأصغر:

سقى الله نجداً والسلام على نجد  
نظرت إلى نجدٍ وبغدادٍ دونها  
وياحبنا نجدٌ على النأى والبعد  
لعلى أرى نجداً وهيهات من نجدٍ

قال ابن الأثير معلقاً على البيتين: وهذا من العي الضعيف، فإنه كرر ذكر نجد فى البيت الأول ثلاثاً، وفى البيت الثانى ثلاثاً، ومراده فى الأول الشاء على نجد، وفى الثانى أنه تلفت إليها ناظراً من بغداد، وذلك مرمى بعيد، وهذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير؛ أما البيت الأول فيحمل على الجائز من التكرير، لأنه مقام تشويق وتحرق وموجدة بفراق نجد، ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير، على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد فى البيتين معاً من غير أن يأتى بهذا التكرير المتتابع ست مرات. وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى نواس:

أقمنا بها يوماً ويوماً وثلاثاً  
ويوماً له يومُ الترحل خامسٌ  
ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام، وباعجباً له يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العى الفاحش فى ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن، وهى:  
ودارٍ ندامى عطّلوها وأدلجوا  
بها أثرٌ منهم جديد ودارس

٥ - هناك تكرار فى المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

الْمُنْكَرُ<sup>(١)</sup> ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ الدَّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ خَاصٌّ ، وَالْخَيْرَ عَامٌ ، فَكُلُّ أَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جَمَلَتِهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، فَفَائِدَةُ التَّكْرِيرِ هَهُنَا أَنَّهُ ذَكَرَ الْخَاصَّ بَعْدَ الْعَامِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْمُقْتَعِ الْكِنْدِيِّ :

وَأَنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي      وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِيُخْتَلَفَ جِدًّا  
إِذَا أَكَلُوا لِحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومِهِمْ      وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا  
وَإِنْ ضَيَعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ      وَإِنْ هَمُّهُمُ هَوُوا غَيُّ هَوَيْتُ لَهُمْ رَشْدًا

فَهَذَا مِنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ لَحْمٍ يُؤْكَلُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ تَضْيِيعٌ لَغَيْبِهِ ، وَلَيْسَ كُلُّ تَضْيِيعٍ لَغَيْبِهِ أَكْلًا لِلْحِمَى ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَكْلَ اللَّحْمِ هُوَ كِتَابَةٌ عَنِ الْإِغْتِيَابِ ، وَأَمَّا تَضْيِيعُ الْغَيْبِ فَمِنْهُ الْإِغْتِيَابُ ، وَمِنْهُ التَّخْلِي عَنْ النُّصْرَةِ وَالْإِعَانَةِ ، وَمِنْهُ إِهْمَالُ السَّمِيِّ فِي كُلِّ مَا يَعُودُ بِالنَّفْعِ كَاتِنًا مَا كَانَ .

\* \* \*

وَبَعْدَ هَذِهِ الْمَحَاوِلَةِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنْدَرِجُ تَحْتَ الْجَمَالِ فِي التَّرَكِيبِ ، نَنْتَقِلُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ «عِلْمِ الْجَمَالِ الدَّلَالِيِّ» ، وَهُوَ مَوْضُوعُ الْفَصْلِ التَّالِي .

1

2

3

4

5